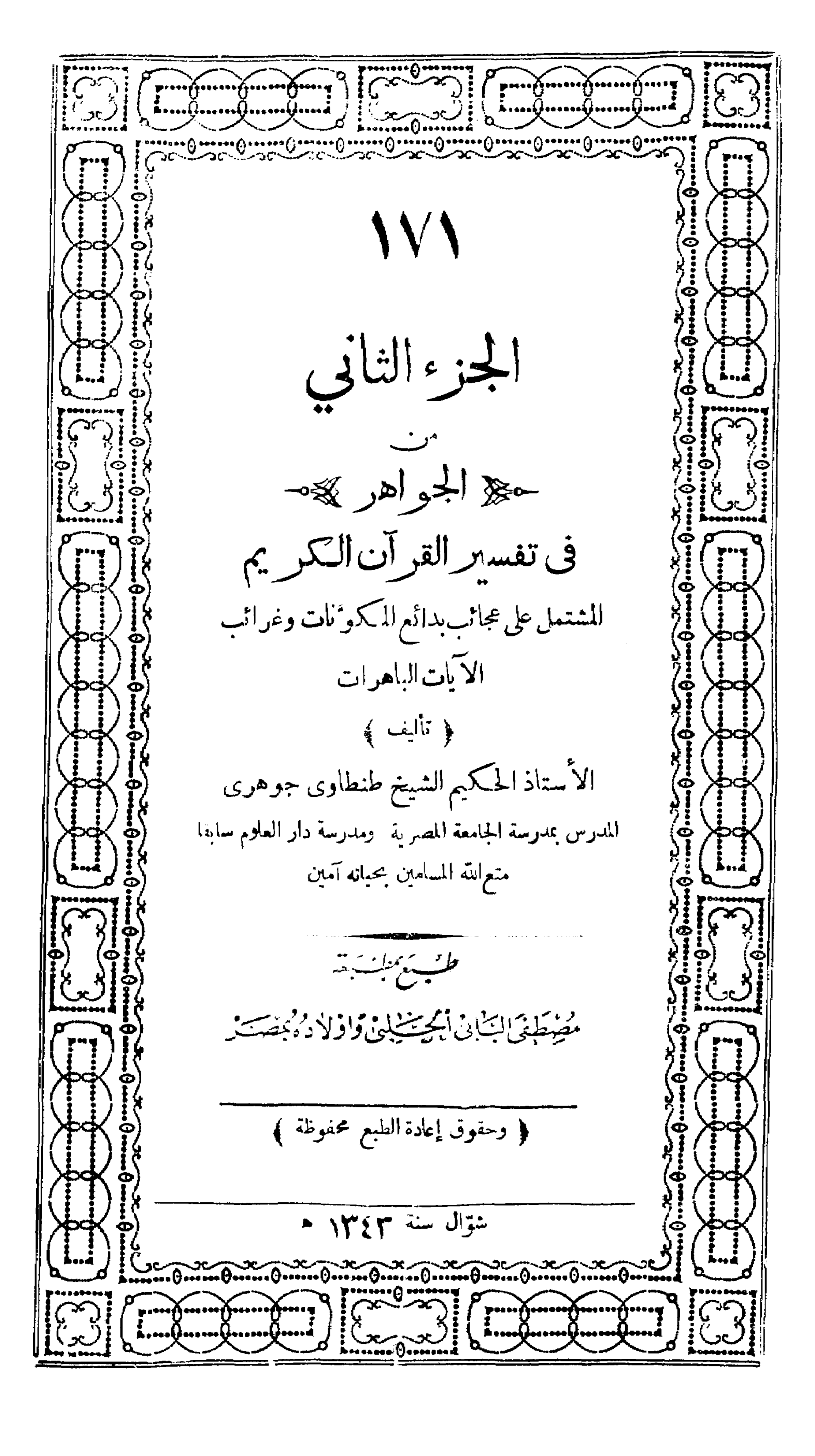


١٧١

الجزء الثاني

من

الجواهر

فى تفسير القرآن الكريم

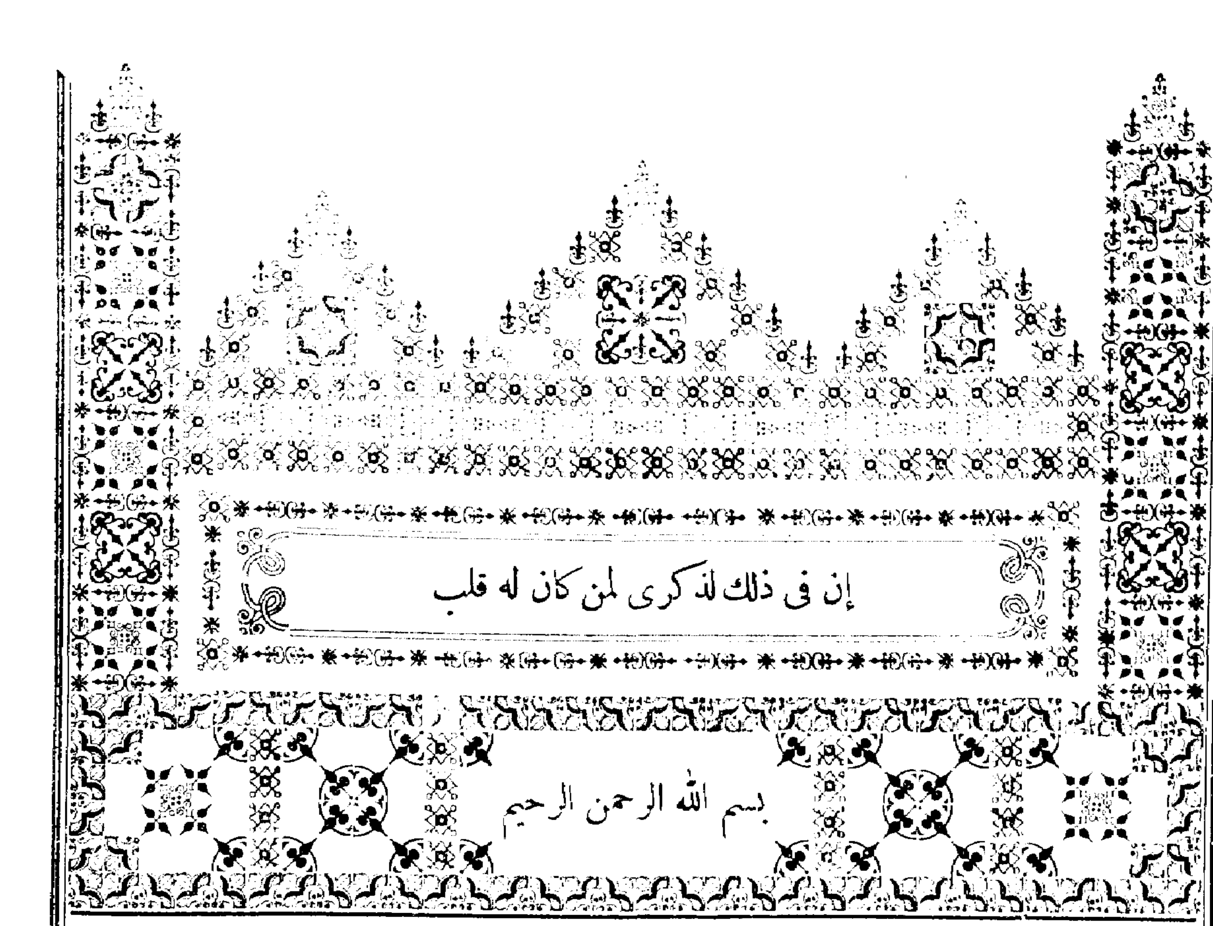
المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب
الآيات الباهرات

﴿ تأليف ﴾

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوى جوهرى
المدرس بمدرسة الجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا
متع الله المسلمين بحياته آمين

طبع بمطبعة
مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

شوال سنة ١٣٤٣ هـ



﴿ تقسيم سورة آل عمران وهي عشرة أقسام ﴾

* القسم الأول معنى ألم * القسم الثاني الايمان إما تقليدي بالكتب السماوية واما يقيني بالعلوم الطبيعية من قوله (الله لا إله إلا هو الحي القيوم الى قوله ان الله لا يخلف الميعاد) * القسم الثالث التخلية من الرذائل كالشهوات والتحلية بالفضائل من الأعمال الصالحة والعلوم وان هذا هو الاسلام الحق في كل العصور وهذا من قوله ان الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم الى قوله سريع الحساب * القسم الرابع كيف يعامل المعاندون والمجادلون وهذا من قوله فان حاجوك الى قوله فان الله لا يحب الكافرين * القسم الخامس قصة مريم وزكريا ويحيى وعيسى والحواريين من قوله (ان الله اصطفى آدم الى قوله والذكر الحكيم) * القسم السادس المحاورة المرتبة على هذه القصة كمحاجة النصارى في عيسى واقامة الحجة على أهل الكتاب وتكرار النداء لهم ست مرات بقوله يا أهل الكتاب من قوله ان مثل عيسى الى قوله وما الله بغافل عما تعملون * القسم السابع توجيه الخطاب للمؤمنين بقوله (يا أيها الذين آمنوا) وتكراره ثلاث مرات ليجتنبوا ما يقترفه أهل الكتاب من الاثم من قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب الى قوله ان الله بما يعملون محيط) * القسم الثامن مخاطبة الله النبي صلى الله عليه وسلم ليعلم المؤمنون نعم الله عليهم في غزوة أحد من قوله (واذ غدوت من أهلك الى قوله وخافون ان كنتم مؤمنين) * القسم التاسع ذكر المنافقين واليهود وكيدهم وان ذلك ابتلاء من الله للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ليصبروا فتقوى النفوس وترفع الى العلا من قوله (ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر الى قوله والله على كل شئ قدير) * القسم العاشر التفكر في خلق السموات والأرض والعروج الى عالم القدس بعد الصبر في القسم قبله كأنه تعالى يقول الصبر أولا والعروج الى عالم الأرواح آخرا من قوله تعالى (ان في خلق السموات والأرض الى آخر السورة)

﴿ ملخص هذه السورة ﴾

كأن الله عز وجل يقول في القسم الأول هذه الحروف الهجائية ا ل م ونحوها قد كررتها

في

فى أوّل السور وجعلتها من الاسرار التى توجب أن تفكروا فيها تدريبا لعقولكم وتوجيها لنفوسكم الى المعانى المختلفة التى تحتملها فان الكتب السماوية لهذا أنزلت أنزلت لترمز تارة وتصرح أخرى وتفتح للعقول مجال الفكر فعلينا الوحى بالاشارة والتصريح وعليكم الفهم والتفكر تارة والعمل والامتثال أخرى (وسيأتى هنا بعض سر هذه الحروف)

ويقول فى القسم الثانى ـ لقد أنزلت الكتب السماوية لكم أيها الناس فنها مانزل على نبيكم ومنها مانزل على من قبله من الانبياء لأفتح لكم باب الفهم فتؤمنوا بى كما نصبت لكم دلائل التوحيد فى السموات والارض ليظهر لكم جمالى وتبهركم حكمتى وتتأمّلوا فى أنفسكم وتعقلوا العجائب فى الأعضاء الجسمية التى صوّرتها فى الأجنة فى بطون أمّهاتها ألا وان هذه الكتب السماوية وهذه العجائب الطبيعية منها ماتفهمونه بسهولة كالآيات المحكمات وكالأعضاء المفصلة الواضحة فى أجسامكم ومنها مايشتبه عليكم علمه مثل ا ل م التى فى أوّل هذه السورة ومثل تكوين الجنين فى بطن أمّه وكيف يمرّ على درجات مختلفة من الرقى الحيوانى فيشتبه هذان على كثير من الناس وليس يعلم ما اشتبه فيهما الا الله وأكابر الحكماء والعلماء فتوجهوا إلىّ أهدكم وقولوا ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا

وكأنه تعالى يقول فى القسم الثالث ـ لايغرنكم هؤلاء الكافرون ولاتعجبكم أموالهم ولا أولادهم فهذه كلها لاتغنى وحسبكم ماترون من خذلان الكافرين يوم بدر كما خذل آل فرعون واعلموا أيها الناس أنكم محبوسون مسجونون فى هذه الدنيا فى سجون سبعة النساء والبنين والذهب والفضة والخيل والأنعام والزرع ولا يخرجكم من هذه السجون المؤصدة عليكم الى النعيم والحرية والسعادة الا الصبر والاستغفار والعبادة والصدق والفكر فى هذه العوالم المحيطة بكم حتى تقفوا على العدل الذى نصبناه والحكمة التى أبرزناها فى الأنفس والآفاق فان ذلك هو دين الاسلام العام الذى أنزلناه على الأنبياء وهو الذى يخرج الناس من سجن الشهوات والجهالات الى نعيم الحكمة والعلم فيعلموا أن ملكنا ذو نظام جميل وأنا عادلون فى عملنا وأن هذا العالم جنة المفكرين كما أنه سجن المغفلين

ويقول فى القسم الرابع ـ أسلم وجهك يامحمد لله ومن معك من المؤمنين ولايضركم من ضلّ من هؤلاء الكافرين من العرب واليهود فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب واعلم يامحمد أنت ومن معك أنى سأملككم أرض الحيرة والفرس واليمن والروم فلاتخافوا ولا يتخذ بعضكم من الكافرين بطانة فانى أعلم سركم ونجواكم واتبعوا نبيى محمدا أحببكم وأغفر لكم ذنوبكم

ويقول فى القسم الخامس ـ لقد مننت على حنة زوجة عمران بما طلبت من ربها فرزقتها بمريم ورزقت زكريا الذى كفلها استجابة لدعائه بيحيى واصطفيت مريم وخلقت منها عيسى وأجريت المعجزات على يديه كخلق الطير على يديه وابراء الأكمه والأبرص واخباره بالغيب وجعلته مصدّقا للتوراة ومصلحا دينيا ليحل بعض ماحرم فى التوراة ويخرج الناس من الظلمات التى أحاطت بهم من علماء السوء المقلدين الغافلين ويفتح لهم طريقا الى العلم لترتقى الامة ولتسعى الى الفلاح والنجاح فكفرت طائفة من بنى اسرائيل كما كفر بعض العرب بمحمد صلى الله عليه وسلم وقال الحواريون نحن أنصار الله (وأما الكافرون بعيسى) فان الله جازاهم ورفع عيسى الى السماء وجعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا به هكذا سيكون أتباعك يامحمد فوق الذين كفروا بك وسيعلو دينك ويمحق الكفر ويحل محله الاسلام فى جزيرة العرب وما شاء الله من البلدان

ويقول فى القسم السادس ـ ياأهل الكتاب قد عرفناكم حقيقة عيسى وهذا هو القصص الحق فكيف تقولون انه مصلوب مقتول دعوا الافتراء على الله فى عيسى وفى ابراهيم ان ابراهيم كان قبل اليهودية وقبل النصرانية فان موسى وعيسى من ذريته وكيف يكون الاب على دين الابن الذى لم يخلق ان ابراهيم هو الذى بنى الكعبة التى يجب على الناس الحج اليها فليكن الاتباع له ولينته أهل الكتاب عن الكفر فالحق أحق أن يتبع

وكأنه يقول فى القسم السابع ـ إياكم أيها المسلمون أن تصغوا لاهل الكتاب فانهم يريدون أن يردوكم عن

دينكم وكيف يكون ذلك وفيكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتصموا بحبل الله وكونوا يدا واحدة وليكن منكم هداة يكونون بمنزلة العقل من الجسم وأنتم كجسم واحد ونفس واحدة واحذروا أن تكونوا كأهل الكتاب الذين تفرقوا بعد أنبيائهم فاحذروهم فأنتم سليمو القلوب وهم يكرهونكم ويفرحون لحزنكم ويحزنون لفرحكم

وكأنه يقول فى القسم الثامن ــ والتاسع ــ انك يا محمد قد غدوت الى أحد لمحاربة الكافرين وهمت بنو سلمة وبنو حارثة أن تفشلا وكانا جناحى العسكر ولكن الله عصمهما من هذا الفشل فثبتهما ولما انهزم عدوكم اختلف الرماة منكم فترك أغلبهم موافقهم التى أمروا بالبقاء فيها وعمدوا الى نهب الغنائم فأصابتكم الهزيمة ابتلاء من الله وامتحانا ولقد نصرتكم فى بدر على قلتكم فلئن خذلتم فى أحد لقد نصرتم فى بدر وتلك الايام نداولها بين الناس وهذا الخذلان فيه تعليم الصبر على الشدائد ولقد علمتم لما سمعتم أن محمدا قتل وكيف يكون ذلك وهو رسول والرسل ان ماتوا أو قتلوا يقوم أتباعهم بما دعوا اليه ثم اعلموا ان النصر من عند الله فلا القلة تمنعه ولا الكثرة توجبه والمصائب مقدرة فى الأزل فلا تحزنوا ومن قتلوا فى سبيل الله أحياء فلا تخافوا من الموت ولا تثبطنكم الأراجيف عن مواصلة القتال والمؤمنون يصابون بالشدائد ليظهر الخبيث من الطيب وأصول الايمان كلها راجعة الى الصبر

وكأنه يقول فى القسم العاشر ــ أيها الناس ان هذه الغزوات والعداوات ومحاجة الكفار ليست مقصودة لذاتها وانما المقصود الأهم أن تنظروا فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وتذكروا ربكم على كل حال ولا يغرنكم ظهور الجاهلين والكافرين فى هذه الحياة الدنيا فان الانسان يمتاز عن الحيوان بالعقل والعلم وهؤلاء انما امتازوا بالتقلب فى الأعراض الدنيوية وهو متاع قليل فالانسان خلق ليعلم الأشياء على ما هى عليه فاصبروا على الشدائد وصابروا واتقوا الله لعلكم تفلحون اهـ ملخص السورة الاجمالى

تفسير السورة

﴿ مقدمة فى مناسبة هذه السورة لما قبلها ﴾

(١) اعلم أن هذه السورة كالمتممة لسورة البقرة ألا ترى ان لفظ البقرة يدل على بقرة بنى اسرائيل التى ذبحت لاظهار القتيل وان القصة التى تخللت السورة هى قصة بنى اسرائيل وقد قدمت لك فى البقرة انها مرتبة ترتيبا تاريخيا على حسب العصور فترى ان أول البقرة اشتمل على قصة بنى اسرائيل لما كانوا فى مصر ثم الخروج منها ثم ذكر أزمان حكم الشيوخ السبعين ثم جاء فى أواخر السورة ذكر ملكهم بعد أن كانت حكومتهم شورية فملك الله عليهم طالوت ثم داود وسليمان واستفحل ملكهم كما أوضحته هناك ﴿ وليس بعد هذا التاريخ الا خروج عيسى ابن مريم فجاءت سورة آل عمران التى تلى قصة بنى اسرائيل السابقة فانظر كيف كان لفظ البقرة دالا على تاريخ بنى اسرائيل كما ان آل عمران رمز الى قصة مريم وزكريا وحنة ويحيى وعيسى ثم تبع ذلك محاجة أهل الكتاب ونصيحة المسلمين أن لا يطيعوهم وأن تلك القصص تذكر للاستنتاج والعظة والاعتبار كما ستراه مفصلا فى الآيات

(٢) ان أول البقرة وآخرها مشابهان لأول آل عمران وآخرها ﴿ فابتداء البقرة بالايمان بالغيب وذكر الكتب السماوية وهكذا افتتاح آل عمران وختم البقرة بأن النبى ومن معه قد آمنوا بالله وجميع الكتب السماوية وختم آل عمران بمدح التفكر فى خلق السموات والأرض وان هؤلاء المتفكرين يقولون اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان فآمنا فهنا قالوا آمنا وفى البقرة قالوا آمنا انتهت المقدمة

فلنبتدئ فى تفصيل التفسير فى هذه السورة فنقول

(القسم الاول)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ الۤمۤ

ان

ان هذه الحروف التي ذكرت في أوائل السور قد أطال علماء الكلام عليها فمن قائل لا علم للبشر بها ومن قائل كلا بل لابد أن يكون لها معنى يعرفه الناس وهذا هو الحق

فاعلم أن القرآن كتاب سماوي والكتب السماوية تصرح تارة وترمز أخرى والرمز والاشارة من المقاصد السامية والمعاني العالية والمغازي الشريفة وقديما كان ذلك في أهل الديانات ألم تر الى اليهود الذين هم كانوا منتشرين في المدينة وفي بلاد الشرق أيام النبوة كيف كانوا يصطلحون فيما بينهم على أعداد الجمل المعروفة اليوم في الحروف العربية فيجعلون الألف بواحد والباء باثنين والجيم بثلاثة والدال بأربعة هكذا مارين على الحروف الأبجدية الى الياء بعشرة والكاف بعشرين وهكذا الى القاف بمائة والراء بمائتين وهكذا الى الغين بألف كما ستراه في هذا المقام كذلك ترى أن النصارى في اسكندرية ومصر وبلاد الروم وفي سوريا قد اتخذوا الحروف رموزا دينية معروفة فيما بينهم أيام نزول القرآن وكانت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية في مصر وكانوا يرمزون بلفظ (اكسيس) لهذه الجملة يسوع المسيح ابن الله المخلص فالألف من اكسيس هي الحرف الاول من لفظ (ايسوس) يسوع والكاف منها هي الحرف الأول من (كرستوس) المسيح والسين منها هي حرف الثاء التي تبدل منها في النطق في لفظ (ثيو) الله والياء منها تدل على (ايوث) ابن والسين الثانية منها تشير الى (ثوتير) المخلص ومجموع هذه الكلمات يسوع المسيح ابن الله المخلص ولفظ (اكسيس) اتفق انه يدل على معنى سمكة فأصبحت السمكة عند هؤلاء رمز الالههم فانظر كيف انتقلوا من الأسماء الى الرمز بالحروف ومن الرمز بالحروف الى الرمز بحيوان دلت عليه الحروف قال الحبر الانكليزي صموئيل مونتج انه كان يوجد كثيرا في قبور رومة صور اسماك صغيرة مصنوعة من الخشب والعظم وكان كل مسيحي يحمل سمكة اشارة للتعارف فيما بينهم اهـ فاذا كان ذلك من طبائع الأمم التي أحاطت بالبلاد العربية وتغلغلت فيها ونزل القرآن لجميع الناس من عرب وعجم كان لابد أن يكون على منهج هذه الأمم ويكون فيه ما يألفون وستجد أنه لا نسبة بين الرموز التي في أوائل السور وبين الجمل عند اليهود ورموز النصارى إلا كالنسبة بين علم الرجل العاقل والصبي أو بين علم العلماء وعلم العامة * فبهذا تبين لك أن اليهود والنصارى كان لهم رموز وكانت رموز اليهود هي حروف الجمل

﴿ لطيفة ﴾

قال ابن عباس رضي الله عنهما مر أبو ياسر بن أخطب برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتلو سورة البقرة الم ذلك الكتاب لاريب فيه ثم أتى أخوه حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف فسألوه عن الم وقالوا ننشدك الله الذي لا إله إلا هو أحق انها أتتك من السماء فقال النبي صلى الله عليه وسلم نعم كذلك نزلت فقال حيي ان كنت صادقا اني لأعلم أجل هذه الأمة من السنين ثم قال كيف ندخل في دين رجل دلت هذه الحروف بحساب الجمل على ان منتهى أجل أمته احدى وسبعون سنة فضحك النبي صلى الله عليه وسلم فقال حيي فهل غير هذا فقال نعم المص فقال حيي هذا أكثر من الاول هذا مائة واحدى وستون سنة فهل غير هذا قال نعم الر فقال حيي هذا أكثر من الاولى والثانية فنحن نشهد ان كنت صادقا ما ملكت أمتك الا مائتين واحدى وثلاثين سنة فهل غير هذا فقال نعم المر قال حيي فنحن نشهد انا من الذين لا يؤمنون ولا ندري بأي أقوالك نأخذ فقال أبو ياسر أما أنا فأشهد على أن أنبياءنا قد أخبرونا عن ملك هذه الأمة ولم يبينوا انها كم تكون فان كان محمد صادقا فيما يقول اني لأراه سيجتمع له هذا كله فقام اليهود وقالوا اشتبه علينا أمرك كله فلا ندري أبالقليل نأخذ أم بالكثير * فبهذا تعرف أيها الذكي أن الجمل كان متعارفا عند اليهود وهو نوع من الرموز الحرفية فكانت هذه الحروف لابد من نزولها في القرآن ليأخذ الناس في فهمها كل مذهب وتتصرف الفكر فيها

ولأقتصر لك مما قرأته على ثلاث طرائق فيما رمز اليه هذه الحروف

﴿ الطريقة الأولى ﴾ أن تكون هذه الحروف مقتطعات من أسماء الله كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال الألف آلاء الله واللام لطفه والميم ملكه وعنه أن (الر) و (حم) و (ن) مجموعها الرحمن وعنه

أن (الم) معناه أنا الله أعلم ونحو ذلك فى سائر الفواتح وعنه أن الألف من الله واللام من جبريل والميم من محمد أى القرآن منزل من الله بلسان جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام * أقول ان ابن عباس رضى الله عنهما انما أراد بذلك أن تكون الحروف مذكرة بالله عز وجل فى أكثر الأحوال وذكر الله أجل شئ ويرجع الأمر الى أنها أسماء مرموز لها بالحروف كما تقدم عن الأمم السالفة من النصارى فى اسكندرية ورومة ولكن لابد أن يكون هناك ماهو اعلى واعلى

﴿ الطريقة الثانية ﴾ ان هذه الحروف من أعجب المعجزات والدلالات على صدق النبى صلى الله عليه وسلم وهذا مما ترضاه النفوس ألا ترى أن حروف الهجاء لا ينطق بها إلا من تعلم القراءة وهذا النبى الأمى قد نطق بها والذى فى أوّل السور ١٤ حرفا منها وهى ٢٨ حرفا ان لم تعد الألف حرفا برأسه و ١٤ نصفها وقد جاءت فى ٢٩ سورة وهى عدد الحروف الهجائية اذا عدت فيها الألف وقد جاء من الحروف المهموسة العشرة وهى (فحثه شخص سكت) بنصفها وهى الحاء والهاء والصاد والسين والكاف

ومعلوم ان الحروف اما مهموسة وهى ما يضعف الاعتماد عليها وهى ما تقدم واما مجهورة والمجهورة ١٨ نصفها ٩ وهذه التسعة ذكرت فى فواتح السور ويجمعها (ان يقطع أمر) والحروف الشديدة ثمانية وهى (أجدت طبقك) وأربعة منها فى الفواتح وهى (أقطك) والحروف الرخوة عشرون وهى الباقية نصفها عشرة وهى فى هذه الفواتح يجمعها (حمس على نصره) والحروف المطبقة أربعة (الصاد والضاد والطاء والظاء) وفى الفواتح نصفها (ص ط) وبقية الحروف وهى ٢٤ حرفا تسمى منفتحة ونصفها وهو ١٢ فى الفواتح

فانظر كيف أتى فى هذه الفواتح نصف الحروف الهجائية ان لم تعد الألف وجعلها فى ٢٩ سورة عدد الحروف وفيها الألف وكيف أتى بنصف المهموسة ونصف المجهورة ونصف الشديدة ونصف الرخوة ونصف المطبقة ونصف المنفتحة ولقد ذكرت لك قلامن كل مما ذكره العلماء فى هذا المقام ولا أطيل عليك خيفة السآمة والملل وكفاك ما أمليته عليك فى هذه الطريقة الثانية لتعرف كيف أتى بهذه الأنصاف وكيف وضعت الحروف على هذا النظام وانى موقن ان المتعلم لو طلب منه أن يأتى بهذه الحروف منصفة على هذا الوجه ما استطاع لذلك سبيلا فانه ان راعى نصف الحروف المطبقة فكيف يراعى الحروف الشديدة وكيف يراعى نصف المجهورة فى نفس العدد ان ذلك دلائل على صدق صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم ففائدة هذا الوجه أهم من الوجه الأوّل فالأوّل فائدته تذكير الانسان بأسماء الله تعالى وأما الوجه الثانى ففيه اعجاز للعقول وحيرة فيقال كيف تنصف الحروف الهجائية وتنصف أنواعها من مهموسة وشديدة الخ وهذه الأنواع لم يكن ليدرسها أحد فى العالم أيام النبوّة ولما ظهرت وافقت تلك الحروف بأنصافها ان ذلك ليعطى العقول مثلا من الغرابة الدالة على ان هذا لا يقدر عليه المتعلمون فاذن هو من الوحى وهذا الوجه على قوّته يفضله ما بعده

﴿ الطريقة الثالثة ﴾ ان الله تعالى خلق العالم منظما محكما متناسقا متناسبا والكتاب السماوى اذا جاء مطابقا لنظامه موافقا لابداعه سائرا على نهجه دل ذلك على أنه من عنده واذا جاء الكتاب السماوى مخالفا لنهجه منافرا لفعله منحرفا عن سننه كان ذلك الكتاب مصطنعا مفتعلا متقوّلا مكذوبا (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)

والعالم المشاهد فيه عدد (٢٨) فى (١) مفاصل اليدين فى كل يد ١٤ (٢) وفى خرزات عمود ظهر الانسان منها ١٤ فى أسفل الصلب و ١٤ فى أعلاه و (٣) خرزات العمود التى فى أصلاب الحيوانات التامة الخلقة كالبقر والجمل والجرو السباع وسائر الحيوانات التى تلد وترضع أولادها منها ١٤ فى مؤخر الصلب و ١٤ فى مقدم البدن (٤) وهكذا عدد الريشات التى فى أجنحة الطير المعتمدة عليها فى الطيران فانها ١٤ ظاهرة فى كل جناح (٥) وعدد الخرزات التى فى أذناب الحيوانات الطويلة الأذناب كالبقر والسباع (٦) وعمود صلب الحيوانات الطويلة الخلقة

كالسمك والحيات وبعض الحشرات (٧) وعدد الحروف التي في لغة العرب التي هي أتم اللغات (٢٨) حرفا منها ١٤ يدغم فيها لام التعريف وهي ت ث د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ل ن و ١٤ لاتدغم فيها وهي ا ب ج ح خ ع غ ف ق ك م ه و ى (٨) والحروف التي تخط بالقلم قسمان منها (١٤) معلم بالنقط ب ت ث ج خ ذ ز ش ض ظ غ ف ق ن و ١٤ غير معلمة وهي ا ح د ر س ص ط ع ك م و ه ل لا وهذا الحرف هو الألف التي هي من حروف العلة أما الأولى فهي الهمزة فهذه ١٤ حرفا بقيت الياء وهي تنقط في وسط الكلمة ولا تنقط في آخرها فأصبحت الحروف المعلمة ١٤ وغير المعلمة ١٤ والحرف التاسع والعشرون معلم وغير معلم لتكون القسمة عادلة والفضل في هذا العدل للحكيم الذي وضع حروف الهجاء العربية فانه كان حكيما والحكيم هو الذي يتشبه بالله بقدر الطاقة البشرية وهذا جعل ٢٨ حرفا مقسمة قسمين كل منها ١٤ كما في مفاصل اليدين وفقرات بعض الحيوانات (٩) ومنازل القمر ٢٨ منزلة في البروج الشمالية ١٤ وفي البروج الجنوبية ١٤ فهذا يفيد ان الموجودات التي عددها ٢٨ تكون قسمين كل منهما ١٤ فهكذا هنا في القرآن جاءت الحروف العربية مقسمة قسمين قسم منها ١٤ منطوقا به في أوائل السور وقسم منها غير منطوق به في أوائلها وكأنه تعالى يقول أي عبادي ان منازل القمر ٢٨ وهي قسمان ومفاصل الكفين ٢٨ وهي قسمان وهكذا والحروف التي تدغم في حرف التعريف وهكذا التي هي معلمة كل منها ١٤ وضدها ١٤ فلتعلموا أن هذا القرآن هو تنزيل مني لأني نظمت حروفه على النمط الذي اخترته في صنع المنازل والاجسام الانسانية والاجسام الحيوانية ونظام الحروف الهجائية فمن أين لبشر كمحمد أو غيره أن ينظم هذا النظام ويجعل هذه الاعداد موافقة للنظام الذي وضعته والسنن الذي رسمته والنهج الذي سلكته ان القرآن تنزيل مني وقد وضعت هذه الحروف في أوائل السور لتستخرجوا منها ذلك فتعلموا اني ماخلقت السموات والارض ومابينهما باطلا بل جعلت النظام في العالم وفي الوحي متناسبا وهذا الكتاب سيبقى الى آخر الزمان ولغته ستبقى حية معه الى آخر الاجيال ان اللغات متغيرة وليس في العالم لغة تبقى غير متغيرة الا التي حافظ عليها دين وهل غير اللغة العربية حافظ عليها دين

﴿ حكاية ﴾ حدثني عالم فاضل انه قرأ رواية باللغة الالمانية ملخصها أن المؤلف الالماني تخيل رجلا من هذه الاجيال نام فاستيقظ سنة ٨٥٣٢ ميلادية مثلا فطاف في أنحاء المعمورة وصار يخاطب الناس ويسمع لهجات لم يألفها ولغات لم يسمعها ويرى وجوها لم ينظرها وأشكالا لم يعرفها ومناظر لم يعهدها وبحث عن انكلترا وفرانسا والمانيا ودول أوروبا فلم يجد أرضها وانما وجدها كلها بحرا ملحا أجاجا فيه السمك العظيم فحار في أمره وأخذ يفكر ويقول ياعجبا كل العجب ألم يكن لهؤلاء من آثار ألم يكن لهم عمل ألم يتركوا مايدل عليهم وبينما هو سائر في سهل من السهول وقد ألم من الحر وقت الظهيرة فلجأ الى كهف ليستريح فيه بجبل مشرف على هذا السهل فجلس وهو يفكر في أمر نفسه وأمر الامم الدارسة واللغات الذاهبة والعلوم الميتة والمدنية الخالية اذ لمح على صخرة بجانبه حروفا فقال في نفسه ياليت شعري أي لغة هذه ومن أي اللغات هي ان جميع اللغات متغيرة لا يستقر لها قرار فأخذ يقابل هذه الحروف التي على الصخرة بالحروف التي استصحبها معه وتذكرها مما كان يدرسه وهو مستيقظ أولا اذا هي تشبه اللغة العربية

هنالك أخذ يفكر ويقول عجب أتفنى اللغات وتبقى العربية وأي شيء العربية ولماذا بقيت ثم قال نعم نعم ان اللغة العربية قبل نزول القرآن كانت تتغير على طول الزمان وتمسخ فلا يعرف الاواخر ماقاله الاوائل الا بشق الانفس هكذا سائر لغات أوروبا فلما نزل القرآن وكان لابد من حفظ العربية التي نزل بها حفظ المسلمون أصولها فلم تغير فأما الامم الاخرى فان لغاتها تغيرت ولم يبق الا اللغة العربية حافظة شكلها حتى انقرضت الامم وأصبحت أرضها بحارا وصارت البحار يابسة وجاءت أمم فلم أعرف كيف أخاطبها وقرأت كثيرا من الآثار فلم أعرف حرفا واحدا من لغات الامم الذاهبة الدارسة التي بقيت آثارها مطموسة في الارض ثم أتى بالنتيجة والمقصود من هذه الرواية

فقال من أراد من علماء أوروبا أن يخلد عامه واختراعه ونتيجة عمله فليؤلفه باللسان العربي لانه هو الباقى أما لغات أوروبا فلابقاء لها ولادوام اه فانظر كيف اتفق رأى علمائنا السابقين مع آراء بعض علماء الالمان وكيف يقول علماؤنا ان ٢٨ فى العالم السماوى والارضى منقسمة ١٤ و ١٤ والقرآن فصلها كذلك ليدل على انه هو الباقى الظاهر فوق كل دين الى يوم القيامة وان المنظم الذات كله واحد وكيف يرى هذا الرأى عالم ألمانى ويقول ان لغة العرب باقية بعد سائر اللغات فانظر كيف اتفق الرأيان الاول علمى والثانى عملى وكلاهما يرى لبقاء القرآن ولغة العرب الى آخر الزمان

﴿ تحقيق هذا المقام ﴾

اعلم أيها الذكى ان الطريقة الثالثة لخصتها من كتب أسلافنا لاسيما كتاب اخوان الصفاء ولما كانت تلك الاعداد يعوزها التحقيق وتفتقر الى التدقيق والالم يرافقها الصدق ولم يؤيدها الحق أردت أن أبحث عنها بنفسى فأما مفاصل اليدين فهى كما ذكروه وأما خرزات العمود الفقرى فى الانسان فهى كما سيأتى

الرقبة ٧ الظهر ١٢ القطن ٥ الملتحمة ٥ العصعص ٣ أو ٤ فتكون فقرات الظهر فى الانسان ٣٣ لا ٢٨ فكيف يقولون انها ٢٨ فنقول ان الخمسة التى هى الملتحمة تكون متصلة قبل ولادة الجنين فاذا ولد اتصلت فصارت واحدة ظاهرا واذا اعتبرنا ان العصعص ٣ لا أربعة لان الثلاثة هى الثابتة أما الرابعة فلا ثبات لها تكون فقرات الظهر ٢٨ كما قاله القدماء فهذا تحقيق ما فى (١) وفى (٢) وأما السابع والثامن والتاسع فهى محققة كما تقدم وأما ٣ و ٤ و ٥ و ٦ فهى التى تحتاج الى التحقيق

وانه نقلت لك الجدول الآتى من الكتب الانجليزية فى الحيوانات الآتية من علم الزيولوجى

	الحيوان	الرقبة	الظهر	القطن	الملتحمه	العصعص
١	الحصان	٧	١٣	٥ او ٦	٥	١٥-١٨
٢	الثور	٧	١٣	٦	٥	١٦-٢٠
٣	النعجه	٧	١٣	٦ - ٧	٤	١٦-٢٤
٤	المعزه	٧	١٣	٦	٤	١١-١٢
٥	الجمل	٧	١٢	٧	٤	١٥-١٨
٦	الخنزير	٧	١٤	٦ - ٧	٤	٢١-٢٣
٧	الكلب	٧	١٣	٧	٣	١٦-٢١
٨	القط	٧	١٣	٧	٣	٢١
٩	الارنب	٧	١٢	٧	٤	١٦-١٨

وجاء ما يوافقه فى كلام العلامة جيرار الفرنسى اذ قال

ان سلسلة الحيوان الذى حافره مشقوق ليس فيها الاستة وعشرون فقرة منها ٧ للعنق وثلاثة عشرة للظهر وستة للقطن وقال ان سلسلة الكلب والهر مركبة من ٢٧ فقرة منها ٧ للرقبة و ١٣ للظهر و ٧ للقطن وقد يكون القطن مركبا من ٨ فقرات وقال ان الخنزير سلسلة مركبة من ٢٨ فقرة ٧ عنقيه و ١٤ ظهريه و٧ قطنيه فتبين من هذا ان العالم الفرنسى موافق علماء انكلترا لان المعلوم مشاهد محسوس

وتكون النتيجة اننا اذا حسبنا الملتحمة فقرة واحدة فى هذه الحيوانات كما اعتبرناها فى الانسان كانت الاعداد هكذا للانسان ٢٨ وللثور ولكل ذى حافر مشقوق ٢٧ وللكلب والهر ٢٨ أو ٢٩ وللخنزير ٢٩ وللجمل

٢٧ وللارنب ٢٧ فيكون كلام القدماء في هذا المقام كلاما تقريبيا

وعددت ريش الطائر فوجدت في كل جناح ٢١ ريشة وهكذا قال علماء البيطرة ولكن قدماءنا رحمهم الله قالوا ان مايعتمد عليه الطائر ١٤ لا ٢١ وأما ذيل الحيوانات فانك قد رأيته في الجدول السابق وهو مختلف من ١٨ الى ٢٤ فهذه المسائل الاربعة الخاصة بالحيوانات الفقرية بعضها يوافق كلام القدماء وبعضها يقاربه

﴿ ايقاظ ﴾ اعلم أن هذا التحقيق لا يخالف أصل الموضوع ولا ينافي حقيقة المسألة فحروف أوائل السور من العجائب فقد وافقت المنازل السماوية ومفاصل اليدين وخرزات ظهر الانسان وظهر الكلب والهر والحيوانات الكاسرة والحروف الهجائية المعلمة وغير المعلمة والمدغمة في لام التعريف والتي لم تدغم وهكذا

فتعجب من العلم والحكمة وغرائب الابداع وعجائب العلوم ﴿موازنة رموز المسيحيين برموز المسلمين﴾

تأمل كيف كانت رموز المسيحيين قد دعت في آخر أمرها الى تقديس الرمز نفسه والاعجاب به واتخاذه مقدسا فالسمكة التي وافقت حروفها الخمسة في اللغة اليونانية أوائل حروف الجملة التي فيها ذكر المسيح أصبحت مقدسة أما الرموز في القرآن فان المسلمين الصادقين والحكماء المحققين أخذوا يبحثون بسببها في علم الطبيعة وفي علم الفلك وفي علم التشريح وقالوا ان كتابنا يرمز بهذه الحروف الى نظام السموات والأرض وانه موافق للطبيعة وأنه باق ببقاءها وأنه خير الأديان

فانظر كيف كان قدماؤنا يدرسون وكيف أصبح المتأخرون يجهلون وبعضهم صم بكم عمي فهم لا يعقلون

كان قدماؤنا يجعلون الطبيعة والفلك من أوضح ما ينطبق على الرموز القرآنية فأما المتأخرون فانهم في التيه غافلون وفي الحضيض نائمون وبالجهل قانعون وللموت يحتضرون وبالشقاوة ينعمون وفي الضلال يعمهون وفي القيود يرسفون وفي الذلة يعيشون وفي السلاسل يسحبون وفي جهنم الاستعباد يحرقون وقد آن أوان السعادة وأقبلت أيام السيادة وسيبدل الأمن بالخوف والعلم بالجهل والله يقدر الليل والنهار مالك الملك - قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب -

﴿ كيف نام المسلمون في القرون الأخيرة ﴾

انظر كيف كان قدماؤنا يجعلون هذه العلوم دراسة للقرآن ومعاني له ولكن يا حسرتا ان أولئك العلماء كانوا قليلا فأما العامة والملوك وصغار العلماء فانهم كانوا معرضين عن هذه العلوم ويظنونها كفرا ولو كانت حكوماتهم جمهورية نظامية لانتشرت هذه الآراء ولظهرت أجيال منهم لم يعرفها الانسان ولكن قد آن أوانه وجاء إبانه وسيظهر العلم عما قريب وسيدرس المسلمون هذا التفسير وأمثاله من مؤلفات العلماء في أقطار الاسلام وسيكون في هذه الأمة جيل ونظام لم يألفه الانسان ولم يعرفه أبناء الزمان - كل يوم هو في شان - وتلك الأيام نداولها بين الناس - ولتعلمن نبأه بعد حين - ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون -

﴿ جمال هذه الحروف وعجائبها ﴾

فانظر كيف حمل الرمز بهذه الحروف في أوائل السور العلماء على التفكير فمن رمز الى أسماء الله الحسنى الى أنها فيها نصف المجهورة والمهموسة والشديدة والمطبقة والمنفتحة الخ ثم كيف اعتلوا فوق ذلك الى سماء الخيال وسافروا في باحات الجمال فنظروا فقرات الحيوان ومنازل السماء وحروف الهجاء وبحثوا ودققوا وفكروا وحققوا ثم انظر كيف كان عدد ٢٨ الذي نصفه القرآن في أوائل السور في علم الارتماطيقي من الأعداد العجيبة القليلة النظير النادرة المثال المبهجة للناظرين المعجبة للقوم المفكرين

وكيف يرون ان هذا العدد ليس له نظير في العشرات كما ان عدد ٦ ليس له نظير في الآحاد و (٤٩٦) ليس له نظير في المئات و (٨١٢٨) ليس له نظير في الألوف فان كل عدد اذا جمعت أجزاؤه كانت أكثر منه أو أقل أما هذه

الأعداد الأربعة فان أجزاءها اذا جمعت كانت مساوية لها وبيانه

ان ٢٨ مثلا نصفها ١٤ وربعها ٧ ومخرج النصف ٢ ومخرج الربع ٤ ثم الجزء من ٢٨ فيكون الجميع ٢٨ وهذا معنى كونه تاما وأما بقية الأعداد فاما إما ناقصة واما زائدة فأما التامة فهي نادرة كما يندر المعدن المسمى (راديوم) الذي يظهر خفايا الأجسام — ان في ذلك لذكرى لقوم يعقلون — وما يعقلها إلا العالمون — فانظر لولم تكن تلك الرموز لم نبحث تلك المباحث ولم نوازن ما بين كلام قدمائنا وكلام العالم الألماني وكيف ينصح العلماء أن لا يؤلفوا أعز آرائهم إلا بلغتنا لأنها باقية ما بقي الجديدان — فبأى آلاء ربكما تكذبان —

﴿ ملخص هذا المقال ﴾

أنظر أيها اللبيب وتفكر في العلم وجماله وفي هذه الحروف التي ينظر اليها الناس نظرهم الى أجسامهم يعيشون ويموتون وهم لا يفكرون وكل حزب بطعامه وشرابه وشهواته مفتونون وهذه الحروف في أوائل السور سكت عنها صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم ليطلق الحرية للعقول في فهمها ويذر الناس يبحثون عليها فأخذوا يتلمسون معانيها ويصيدون بشباك العلم شواردها لا بطريق البرهان ولا مقدمات اليقين بل بمجرد المناسبات والمشاكلات والمناظرات فماذا فعلوا ولماذا وصلوا وصلوا الى علم عزيز ومقام رفيع شريف فرأوا هذه الحروف التي جاءت في أوّل السور واحدة واحدة أومثنى أوثلاث أورباع أوخماس مثل ق وحم والم والمر وحمعسق وانها ترجع بعد حذف المكرر منها الى أمر عجيب

(١) هي نصف الحروف العربية (٢) وفيها نصف المطبقة (٣) وفيها نصف المنفتحة (٤) وفيها نصف الحروف الشديدة (٥) وفيها نصف الرخوة (٦) وفيها نصف المهموسة وفيها نصف المجهورة (٧) وانها وضعت في أوّل ٢٩ سورة عدد ٢٩ حرفا في اللغة العربية بعد الألف اللينة من الحروف (٨) وكيف كانت تقسم الثمانية والعشرون كقسمة منازل القمر (٩) ومفاصل اليدين (١٠) وفقرات الظهر من الانسان (١١) وفقرات الظهر في بعض الحيوان على ما قدمناه (١٢) ثم كيف كانت الحروف الهجائية منها المدغم في لام التعريف ومنها غير المدغم وهذان موافقان لهذا العدد من حيث القسمة (١٣) والمنقوط كذلك وغير المنقوط (١٤) وكيف كان عدد ٢٨ الذى قسم الى قسمين صحيحين في القرآن من الأعداد النادرة الوجود الشريفة التي تساويها أجزاؤها كما تقدم وان جميع الأعداد إما زائدة واما ناقصة

ولما كان هذا العلم مفقودا في الأمم الاسلامية اليوم إلا مسائل ضئيلة في علم الحساب أردت ذكر مسألتين للعدد الزائد والعدد الناقص لتكون على بصيرة في الأمر

العدد الزائد مثل ١٢ نصفها ٦ ثلثها ٤ ربعها ٣ سدسها ٢ ونصف سدسها واحد فجملة الأجزاء ١٦ وهي أكثر من ١٢

أما العدد الناقص فهو مثل ٨ نصفها ٤ ربعها ٢ ثمنها ١ وجملتها ٧ فهي أقل من ٨

فالأعداد جميعها إما زائدة واما ناقصة وليس فيها تام الا هذه الاربعة في الآحاد والعشرات والمئات والالوف

فتعجب من القرآن لماذا لم يذكر في أوّل السور ١٢ حرفا أو ١٥ بل ذكرها ١٤ وكان من نتائجها أن نظر العلماء في الفلك وخواص الاعداد وعدد الفقرات والحروف الهجائية وأقسامها وان هذا القرآن ثابت ما بقي الفرقدان وما دام الملوان

﴿ الاسرار الكيميائية في الحروف الهجائية للامم الاسلامية في أوائل السور القرآنية ﴾

ها أنت ذا أيها الذكي قد اطلعت على ما سطره القدماء وآباؤنا الحكماء من الانوار الالهية في الحروف الهجائية وفهمت أنهم في فهمهم درجات ليؤتوا كل عاقل ما يوافق طبعه ويناسب عقله ويشابه درجته العلمية وتعاليمه العقلية فهل لك أن أبرز لك الجوهر المكنون والسر المصون وأفتح لك بتوفيق الله بعض خزائن العلم لتستخرج منها

المعارف

المعارف الحكمية والأنوار القدسية والمنح السنية والدرر البهية والسعادة الدنيوية والنعم الأبدية للأمة الاسلامية

أقول ستري ان شاء الله في سورة العنكبوت وفي سورة يس ومابينهما من أسرار هذه الحروف مايشرح الصدر ويوضح الامر ولكني الآن لا أدع هذه الفرصة تمر بدون أن أذكر لك لمحة يزدان بها تفسير هذه السورة فأقول

أنزل الله هذا القرآن ذكرى للناس وقال ـ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ـ وقال ـ ان هو الا ذكر للعالمين ـ وقال ـ أفلم يدبروا القول ـ وقال ـ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ـ فهذه الآيات وغيرها أعلمتنا أن القرآن إنما هو للذكر والتفكر ولا يحرم من الفكر إلا القلوب المقفلة

تفكرنا في هذه الحروف التي في أوائل السور وتفكرنا فيما سطره قدماؤنا وعلمنا انها جعلت مثارا للنظر وقدحا للفكر فالاولون والآخرون يفكرون ولا نكير عليهم ولا رادّ لقولهم فكما صنف علماؤنا في الفقه آلاف الكتب ولا نكير ولا منازع هكذا هذه الحروف ونحوها تنوّعت فيها الآراء ولا منكر

نقول أيضا ان القرآن اذا كان مثار الفكر والعلم فهذه الحروف الهجائية المذكورة في أوّل السور لم يجيء بها ومعلوم أن الحروف على قسمين حروف لها معنى وحروف لا معنى لها فهذه من القسم الثاني والانبياء جاؤا مشرعين ولم يرسلوا لتعليم مبادئ القراءة والكتابة وإنما ذلك لطائفة تقوم به في مبادئ التعليم فاذن هذه الحروف للذكر والتفكر فلننظر نظرة عامة تشمل جميع الاقوال السابقة وتضم الآراء المختلفة والمذاهب المتشعبة وهي الكبريت الاحمر والمسك الاذفر هي رقي الاسلام ومناط السلام وسعادة الامم وبهجة المسلمين

أنظر رعاك الله تأمّل يقول الله ا ل م ـ ا ل ر ـ طس ـ حم وهكذا يقول لنا أيها الناس ان الحروف الهجائية اليها تحلل الكلمات اللغوية فما من لغة في الارض إلا وأرجعها أهلها الى حروفها الاصلية سواء أكانت اللغة العربية أم اللغات الاعجمية شرقية وغربية فلا صرف ولا إملاء ولا اشتقاق إلا بتحليل الكلمات الى حروفها ولا سبيل لتعليم لغة وفهمها الا بتحليلها وهذا هو القانون المسنون في سائر العلوم والفنون ولا جرم أن العلوم قسمان لغوية وغير لغوية فالعلوم اللغوية مقدّمة في التعليم لانها وسيلة الى معرفة الحقائق العلمية من رياضية وطبيعية والهية فاذا كانت العلوم التي هي آلة لغيرها لا تعرف حقائقها إلا بتحليلها الى أصولها فكيف اذن تكون العلوم المقصودة لنتائجها المادية والمعنوية فهي أولى بالتحليل وأجدر بارجاعها الى أصولها الاوّلية لا يعرف الحساب إلا بمعرفة بسائط الاعداد ولا الهندسة الا بعد علم البسائط والمقدّمات ولا علوم الكيمياء الا بمعرفة العناصر وتحليل المركبات اليها فرجع الامر الى تحقيق العلوم

بهذا وحده ارتقت أوروبا وبهذا وحده يرتقي الاسلام أنظر وتفكر فيما ألقيه عليك الآن تأمّل فيما ستسمعه مما يقرؤه أكثر الناس في مصر وغير مصر وأكثرهم ساهون لاهون لأذكر لك مسائل من علم الكيمياء

﴿ المخاليط المعدنية ﴾

ماهي المخاليط المعدنية لاضرب لك منها أمثالا

(أوّلا) هناك معدن يقال له (كدميوم) وهناك القصدير والرصاص وهما معروفان ورابع يسمى (بزموت) هذه المعادن اذا خلطت بنسب معلومة أمكن صهرها على درجة بين ٦٦ و ٧١ درجة مع ان كلا منها وحده يصهر على درجة أكثر من هذه الدرجة فأعلاها على درجة (٣٦٠) وهو (كدميوم) وأدناها وهو القصدير على درجة (٢٢٩) فاجتماعها وتركبها بنسب خاصة بأن يكون بعضها (٨) أجزاء وبعضها (٢) وبعضها (٤) هكذا ٢ : ٤ : ٨ وهي النسبة الهندسية العجيبة هو الذي أكسبها هذه الخاصية وهي انها تصهر على درجة غير درجات كل واحد من العناصر الداخلة فيها

(ثانيا) النحاس الاحمر مثلا لين يصنع بسهولة ولكن ليس فيه صلابة كافية فاذا صهر جزآن منه مع جزء من الخارصين تكوّن مخلوط معدني صلب هو النحاس الاصفر سهل الصنع لونه أصفر واذا تغير مقدار الخارصين أمكن

اكسابه لون الذهب

ثم ان النحاس الاصفر لا يمكن برده لانه يلتصق بالمبرد كالجسم الدسم وإذا أضيف الى مائة جزء منه جزء أو ثلاثة أجزاء من القصدير أو الرصاص زال منه هذا العيب

(ثالثا) الرصاص يصهر بسهولة ويمكن عمل أحرف الطبع منه بصبه فى القوالب المعروفة بالامهات لكن هذه الاحرف لا تتحمل ضغط الطبع فتهبط وتتغير شكلها بسبب رخاوة الرصاص واذا عملت أحرف الطبع من الانتيمون وحده فان هذه الاحرف تتفتت بضغط الطبع لهشاشة الانتيمون فاذا مزجت أربعة أجزاء من الرصاص بجزء من الانتيمون تحصل مخلوط صالح لأن تصنع منه أحرف الطبع بصبه فى الامهات وهذه الاحرف تتحمل ضغط الطبع فلا تهبط ولا تتفتت

(رابعا) صنع المدافع يحتاج الى معدن صلب غير هش يمكن اصهاره وخرطه والنحاس وحده فيه معظم هذه الاوصاف غير أنه رخو فاذا خلطت (٩٠) جزأ منه بعشرة أجزاء من القصدير تحصل مخلوط معدنى أكثر صلابة من النحاس وفيه المقاومة الكافية لأن تصنع منه المدافع وهذا المخلوط يسمى (برونز) وكلما ازداد مقدار القصدير فى هذا المخلوط زاد صلابة ولكن يكون أكثر قابلية للكسر

(خامسا) اذا أضيف (٧٨) جزأ من النحاس و (٢٢) جزأ من القصدير كان المخلوط صلبا له رنة تعمل منه الاجراس والنواقيس

هذه الامثلة الخمسة ذكرتها لك لتنظر فى أمرها كيف كان المركب فى المثال الاول اذا كان على هيئة مخصوصة بمقادير محدودة كان صهر المركب فيه أسهل من صهر كل واحد من العناصر وحده

أنظر كيف كان النحاس الاحمر فى المثال الثانى لا يكسب الصلابة الكافية ولا لون الذهب الا اذا خلط بمقدار من الخارصين معين فيكون نحاسا أصفر ثم كيف كان النحاس الاصفر غير قابل لبرده بالمبرد الا باضافة القصدير أو الرصاص اليه لكل مائة جزء جزء أو ثلاثة فبالخارصين صار نحاسا أصفر وبالقصدير أو الرصاص صار قابلا لعمل المبرد

وانظر الى حروف الطبع فى المثال الثالث كيف كان الرصاص وحده رخوا لا يتحمل الطبع والانتيمون وحده يتفتت وكيف كان أربعة أجزاء من الاول وجزء من الثانى اذا خلطا تم الطبع فهذا التفسير لا يمكن طبعه الا بهذه النسبة التى لو زادت أو نقصت أو انفرد أحد المعدنين لم يمكن طبع هذا التفسير

وانظر الى صنع المدافع كيف كان النحاس الاحمر وحده لا يجدى فيه فاذا أضيف اليه الخارصين لكل تسعة أجزاء جزء واحد بحيث لا يزيد ولا ينقص أمكن صنع المدافع

هاأنت ذا قد كشف لك أمر صنع المدافع وأحرف الطبع والأجراس والنحاس الأصفر . هذه الأمثلة منظار معظم أو مرآة تنظر بها صور العلوم كلها وهذه العلوم ترجع مركباتها الى أصولها فكما رجعت الكلمات والجمل فى النثر والنظم الى الحروف الهجائية هكذا رجعت جميع المركبات فى العلوم الطبيعية والرياضية الى أصولها الأولية جل الله وما أبدع العلم وأجل الحكمة . علم الله أن الأمم الاسلامية سيأتى لها زمان تصبح فيه نائمة لا ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا بل ستمائة سنين وازدادوا ثمان عشرة بل أكثر من ذلك

فأنزل الله هذه الحروف وأمر باقرائها ولم يرد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقيدنا بمعنى مخصوص فيها بل ان اليهود لما حسبوها بالجمل تبسم ضاحكا ولم يتكلم تلك حكمة وأية حكمة آية وأية آية كأن الله يقول أيها المسلمون هذه الحروف اذا تركت بلا تركيب تكون بلا معنى ا ل م فاذا ركبت على نسب مخصوصة كانت لها معانى على مقتضى التركيب فزيادة حرف أو نقصه من الكلمة تغير المعنى ومن لم يعرف الحروف التى هى أصول الكلمات لم يتبين حقائق اللغة مع أن من الناس من يتكلم ولا يعرف الحروف الهجائية هكذا العلوم والصنائع ترجع الى أصولها فاذا لم يعرف الناس خصائص الرصاص والانتيمون فكيف يصنعون حروف الطبع واذا جهلوا خواص النحاس والقصدير

فمن أين يتأتى لهم عمل البرونز الذى يصنعون منه المدافع واذا جهلوا خواص الخارصين اذا اجتمعت مع خواص النحاس الأحمر فمن أين يتأتى لهم النحاس الأصفر أوجهلوا خواص الرصاص مع ماتقدم فمن أين يصلحون العيب الطارئ عليه

هـذه أمثلة تبين لك أيها الذكى ان الله تعالى جعل عالم الماديات كعالم اللغات وان خصائص المركبات تفارق خصائص المفردات فكما لا يكون ألف ولالام ولاميم مفيدة للمعانى متفرقة هكذا لا يصلح النحاس وحده لصنع المدافع ولا الرصاص وحده لصنع حروف الطبع وكما ان تركيب حرف الألف مع اللام المشددة بعدها هاء ممدة مع الهاء على هذا الترتيب تفيد معنى الذات الواجب الوجود واذا غير التركيب أو العدد أو شكل الحروف تغير المعنى هكذا اذا زاد النحاس على تسعين جزأ فى صب المدافع أو نقص وهكذا القصدير اذا زاد عن عشرة أجزاء أو نقص لا يصلح المخلوط لصنع المدافع

ولقد علمت ان هذه العلوم والصناعات جميعها نبغ فيها الفرنجة والمسلمون لم يوقظهم أحد الى درسها مع ان علماء المذاهب جميعا أجمعوا انها فرض كفاية وان آيات القرآن طافحة بذكر عجائب الصنعة الالهية فأنزل هـذه الحروف سبحانه حتى تكون رمزا يظهر به سر العجيب وابداعه الغريب واتقانه العالى

عجبا لك الحمد يا الله ركبت النبات ونظمته وجعلته من عناصر بموازين محدودة وهكذا الحيوان وألهمت عبادك أن ينهجوا نهجك ويصنعوا بأجزاء محدودة وأنمت المسلمين آمادا وآمادا ثم كررت لهم فى كتابك كنزا أظهرت سره لهم الآن وقلت أى عبادى ادرسوا نظامى وتخلقوا بأخلاقى وحللوا العناصر وادرسوها واقرؤا العلوم وافهموها فقد وعظتكم بالمدافع القاتلة والطيارات الفاتكة والأمم الظالمة كل هؤلاء أرسلتهم رحمة لكم لا عذابا ـ ان مايفتح باب العلم ليس تعذيبا انه تهذيب نعم يكون تعذيبا اذا لم تتعظوا ولم تتذكروا فيكون الهلاك حتما عليكم لانكم لا تصلحون للحياة ولا تصلحون للوجود وكيف يصلح للوجود من ينظر ولا يعقل أليس هـذا التفسير يطبع بحروف مركبة تركيبا منظما من معدنين فكيف تطبعونه وغيره اذا لم تدرسوا هذه العلوم والصناعات أفلا تبصرون أفلا تسمعون

مدافع أرسلتها وطيارات بعثتها وغازات خانقة أطلقتها وآيات بينات فصلتها وحروف هجائية أنزلتها أفلا تتذكرون نظرتم بأنفسكم المدافع وحروف الطبع ولكن أكثركم عن التفكر فيها معرضون فاذا لم تعقلوا المبصرات فها أناذا أسمعتكم الحروف الهجائية فى أول السور لأذكركم بذلك أفلا تتذكرون

﴿ منطق حروف الطبع بلسان حالها ﴾

لو نطقت حروف الطبع لقالت بلسان فصيح قد ركبت صورتى من عناصر بحساب كما ركبت الحاصلات الزراعية والأعضاء الحيوانية والعقاقير الطبية وسائر المصنوعات الانسانية فها أناذا اليوم أمثل ذلك التركيب والتحليل بنظام فى الاحرف الهجائية اقرؤا ان شئتم ـ ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ـ كل ذلك اشارات قدسية فى الحروف العربيه بأوائل السور القرآنية

﴿ حكمة ﴾ لا تظن أيها الذكى ان هذه المعانى التى ذكرناها تجول بخواطر علماء الكيمياء أو علماء النبات أو علماء الصناعات والذين يصبون المدافع صبا أو الذين يقرؤن علم التشريح ان هؤلاء يقرؤن علومهم ولا يخطر ببالهم ماذكرناه لأنها علوم جزئية والعلم الكلى هو الذى يسميه القدماء علم ماوراء الطبيعة أو العلم الاعلى وهو الباحث عن النظام العام فأهل هذا العلم وهم الحكماء أشبه بمنشئ القصيدة والخطيب وأهل تلك العلوم أشبه بعالم النحو أو الصرف أو الخط فكل منهم لا يهمه إلا العلم الجزئى من اللغة الذى هو بصدده وهذا هو السبب فى ان أكثر من قرؤا العلوم الطبيعية يجهلون العلوم الالهية كما ان المختص بعلم النحو أو الصرف من المدرسين وقضى حياته فيه منكبا عليه لا يتعداه لا يحسن قرض الشعر ولا الخطب ولا النثر كما هو معروف مشهور

وكما أن الشاعر والخطيب والناثر يكفيهم من النحو والصرف وأمثالهما ما به يصلح لفظهم هكذا الحكماء يجزئهم من العلوم الطبيعية والرياضية ما به يدرسون نظام الوجود فحسب ولا يعنيهم التبحر فى العلوم الجزئية والفريقان خلقوا فى كل أمة ودين رحمة للناس وكما ان الشاعر وأخويه يحثون الجمهور على الأدب والأخلاق وانتظام المدنى هكذا الحكماء الذين هم صفوة الله فى الأرض بعد الأنبياء يلقون فى القلوب الحكمة ويوحدون عقائد الخواص فى الأمم والأديان كما يوحد الوعاظ الحقائق عند العوام

ان الناظر نظرة عامة فى العلوم الطبيعية والفلكية ومقدماتها هو الذى يفهم قوله تعالى فى هذه السورة ـ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط ـ وهو الذى يعرف قوله تعالى ـ وان من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ـ وقوله ـ ان الله سريع الحساب ـ وقوله ـ وكل شئ عنده بمقدار ـ وقوله ـ ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان ـ ها أنت أيها الذكى بما يذكر فى هذا المقام وفى غيره من هذا الكتاب رأيت الميزان والحساب واطلعت على رتبة أولى العلم الذين عطفوا على الملائكة حتى يلحقوا بهم

على نفسه فليبك من ضاع عمره ... وليس له منها نصيب ولا سهم

ما الناس سوى قوم عرفوا ... وسـواهم همج الهمج

انتهى الكلام على القسم الأول من سورة آل عمران وهو (الم)

(الكلام على القسم الثانى من سورة آل عمران)

الم * أَللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ * وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ * إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ * هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ * لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ * وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ * فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ * وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ * وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا * وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ * رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً * إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ * رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ * إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ *

قوله الم تفتح الميم فى المشهور بنقل حركة الهمزة فى اسم الجلالة اليها وقرئ بكسرها على توهم التقاء الساكنين وقرئ بسكونها والابتداء بما بعدها وهو الأصل (الحى القيوم) تقدم فى آية الكرسى (نزل عليك الكتاب) القرآن على مقتضى الوقائع (بالحق) بالعدل والصدق فى أخباره والحجج المحققة انه من عند الله (مصدقا لما بين يديه) من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء (وأنزل التوراة والانجيل) على موسى وعيسى (من قبل) أى من قبل تنزيل القرآن (هدى للناس) عامة ونحن منهم اذا قلنا إنا متعبدون بشرائع من قبلنا أو قومهما فقط ان لم نقل ذلك

فهما

فهمارأيان (وأنزل الفرقان) جنس الكتب الالهية من هذه الثلاثة وغيرها (ان الذين كفروا بآيات الله) من كتبه المنزلة وغيرها (لهم عذاب شديد) بما كفروا (والله عزيز ذو انتقام) أى غالب ذو انتقام عظيم لا نظير له (ان الله لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء) فليس يغيب عن علمه كلى ولا جزئى ولا ذرة ولا أصغر منها ولا أكبر (هو الذى يصوّركم فى الأرحام كيف يشاء) من الصور المختلفة فهو الذى يتقن خلق الجنين ويتم تصويره بحكمة وابداع (لا إله إلا هو العزيز الحكيم) كامل القدرة تام الحكمة (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات) لم تكن مجملة العبارات ولا محتملة المعانى (هنّ أم الكتاب) أصله الذى يرد اليه ماعداه (وأخر متشابهات) محتملات غير متضحات مجملة العبارات أو مخالفة للظواهر ولا يدرك المراد منها إلا باستنباط العلماء والموازنة بينها وبين المحكمات وقوله فى آية أخرى - أحكمت آياته - حفظت من فساد المعنى وركاكة اللفظ وقوله فى أخرى - كتابا متشابها - أى يشبه بعضه بعضا فى صحة المعنى وجزالة اللفظ (فأما الذين فى قلوبهم زيغ) عدول عن الحق من أهل البدع (فيتبعون ماتشابه منه) ناظرين الى ظواهره أو مؤوّلين تأويلا باطلا (ابتغاء الفتنة) طلب أن يفتنوا الناس فى الدين ويوقعوا الشك فى قلوبهم بالتلبيس ومناقضة المحكم للمتشابه أو طلب الغرام به والافتتان بحيث لا يصغون لنصح الناصحين (وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله) الذى يجب أن يحمل عليه (إلا الله والراسخون فى العلم) أى الذين ثبتوا وتمكنوا فيه (يقولون آمنا به) أى حال كونهم يقولون آمنا به (كل من عند ربنا) ويصح ان تكون الجملة مستأنفة لتوضيح حال الراسخين وهذا على أن الراسخون معطوف على لفظ الجلالة ويصح الوقف على لفظ الجلالة ويكون الراسخون مبتدأ خبره يقولون آمنا به ويكون المتشابه بمعنى ما استأثر الله بعلمه كمدة بقاء الدنيا ووقت قيام الساعة وخواص الأعداد الواردة كعدد الزبانية (وما يذكر إلا أولوا الألباب) وهم الراسخون فى العلم الذين جادت أذهانهم وحسن نظرهم فهم مستعدون للاهتداء الى تأويله (ربنا لا تزغ قلوبنا) أى يقول الراسخون فى العلم ربنا لا تمل قلوبنا عن الحق والهدى الى اتباع المتشابه بتأويل لا نرضاه قال عليه الصلاة والسلام قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن ان شاء أقامه على الحق وان شاء أزاغه عنه أو لا تبلنا ببلايا تزيغ قلوبنا فيها (بعد إذ هديتنا) أى وفقتنا لدينك والايمان بالمحكم والمتشابه من كتابك (وهب لنا من لدنك رحمة) تزلفنا اليك ونفوز بها عندك باعطائنا توفيقا وتثبيتا للذى نحن عليه من الايمان والهدى وبغفران ذنوبنا (انك أنت الوهاب) والوهاب من يعطى بلا عوض ولا غرض والله يعطى كل أحد على قدر استحقاقه (ربنا انك جامع الناس ليوم) لحساب يوم أو لجزائه (لا ريب فيه ان الله لا يخلف الميعاد) وهذا من بقية دعاء الراسخين فى العلم طلبوا من الله ألا يزيغ قلوبهم وأن يهديهم ويرحمهم وذلك من مصالح الدين والدنيا معا ثم ذكروا نتيجة ذلك فى الآخرة وقالوا انك جامع الناس للجزاء ووعدك حق فمن أزغت قلبه فهو هالك ومن مننت عليه بالرحمة فهو سعيد * انتهى التفسير الاجمالى للقسم الثانى من السورة

﴿ تفصيل الكلام على هذه الآيات فى القسم الثانى ﴾

اعلم ان هذه الآيات اشتملت على نمطين * النمط الأوّل فى هداية العامّة من سائر الأمم والأجيال وتلك الهداية تكون بالحجج التى اشتملت عليها تلك الكتب ثم الانذار والتخويف بالوعيد والزجر والعقاب الشديد فذكر الكتب السماوية من القرآن والتوراة والانجيل وسائر الكتب ثم أنذر بالعذاب الشديد وختم ذلك بأنه عزيز ذو انتقام * النمط الثانى هداية الخواص من تلك الأمم التى أنزلت عليها الكتب وذلك راجع الى علمهم بأمرين سعة علم الله تعالى وسعة حكمته وقدرته فأشار الى الأوّل بقوله - ان الله لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء - وهذا هو سعة علمه جل جلاله والى الثانى بقوله - هو الذى يصوّركم فى الأرحام كيف يشاء - وبقوله تعالى - هو الذى أنزل عليك الكتاب الخ - فهو يقول ان الخواص من الناس وأرباب العقول يعرفون ربهم بسعة علمه واحكام قدرته وانتظام أعماله انتظاما تاما كما يرى فى تصوير الأجنة فى الأرحام وابداع العقول العظيمة فى تلك النفوس لتفقه الكتاب وتبين المتشابه وترجعه الى المحكم فنظام الاجسام وجمال العقول من عجائب قدرته عزوجل واحكامه خلقه

ولنفصل الكلام على الامرين (الاوّل) قوله تعالى ان الله لايخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء (الثانى) قوله تعالى (هو الذى يصوّركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم)

﴿ الكلام على الامر الاوّل ﴾ لقد عرفت فيما مضى ان العامّة غير مهتمين بالنظر فالكتب السماوية كافلة بإعلامهم أمّا الخاصة فهم المجدون بحثاوتنقيبا فى الارض وفى السماء فيعرفون سعة علم الله تعالى من علم الطبيعة وعلم الفلك وعجائب هذه الدنيا التى خلقنا فيها وهؤلاء هم أكابر الحكماء وعظماء الامم القائمون بانشائها واسعادها واعزازها وفى القرآن آيات كثيرة دالة على سعة علم الله داعية ومشوّقة لذوى العقول الكبيرة أن يبحثوا او يجدوا بقرائحهم فى هذا العالم كقوله تعالى فى سورة لقمان ــ يابنىّ انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الارض يأت بها الله ان الله لطيف خبير ــ وكقوله ــ وماتكون فى شأن وماتتلومنه من قرآن ولاتعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه ومايعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ــ وكقوله تعالى ــ يعلم خائنة الاعين وماتخفى الصدور ــ وكقوله تعالى ــ وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو ويعلم مافى البرّ والبحر وماتسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الارض ولا رطب ولايابس إلا فى كتاب مبين ــ

فيرى العقلاء انه ذكر انه يعلم مافى السموات وما فى الارض كالرطب واليابس والاجسام التى لايحصى عدّها من الورق النابت فى الشجر الساقط من اليبس بل ماهو أقل من ذلك كالحبة من الخردل بل ماهو أصغر منها وتجاوز ذلك الى ماهو أبعد من المادة غورا ألا وهو مافى النفوس من الآراء والاعتقادات والمقاصد فهذه الآيات يقرؤها العقلاء فيرون أنها تصف الله بعلم الاجرام الكبيرة والصغيرة وما تناهى منها فى الدقة وهكذا ماوراءها من المعانى والافكار فينظرون فيرون ذلك انما يعرف بعلم الطبيعة فى العصر الحاضر وبه وبعلم الفلك يعجبون من هذا النظام البديع المملوء من الغرائب والبدائع

واعلم أن الله لما انزل القرآن بالوحى على نبيه أنزل أيضا نوراعلى العقول فأبرزت مكنون العلم فى هذه العوالم المشاهدة حتى يوازن ذووالعقول الكبيرة مابين الوحى النبوى فى الكتاب السماوى وبين العلم العقلى المضىء بالعقول السليمة المستخرجة لكنوزه من جواهر الطبيعة وهنا التقى البحران واتحد المنهجان منهج العقول السليمة والنفوس الشريفة ومنهج الوحى الالهى وهنا يحسن الكلام فى مبحثين * المبحث الأوّل فيما هو أصغر من الذرة * المبحث الثانى فيما هو أكبر من الذرة

﴿ المبحث الأوّل وفيه لطائف ﴾

(اللطيفة الأولى) اعلم أن المادة لها صفات عامّة وصفات خاصة ــ اذا سحبنا مسمارا حتى صار شريطا فصفات الحديد الخاصة لاتتغير وأما اذا وضعناه فى الماء فان صفاته تتغير ويصير أحرلينا قصفا خشنا بالصدإ فالأوّل يسمى تغيرا طبيعيا والثانى يسمى تغيرا كيماويا وعلى ذلك يكون هناك علمان الطبيعة والكيمياء

فالطبيعة علم يبحث فيه عن تغير المادة تغيرا طبيعيا والكيمياء علم يبحث فيه عن تغير المادة تغيرا كيماويا وللاجسام صفات عامّة كالامتداد وعدم التدخل والتجزئة وان فيها مسام

(اللطيفة الثانية) ان العلماء قد بحثوا فى تجزئة المادة حتى وصلوا الى مايدهش العقل ويحير الفكر فقد رأوا بعض العناكب تنسج خيوطا دقيقة عجيبة جدا محيرة للناظرين مدهشة للمفكرين فانها تنسج بيتها من خيوط كل خيط منها مؤلف من أربعة خيوط أدق منه وكل واحد من هذه الأربعة مؤلف من ألف خيط وكل واحد من الألف يخرج من قناة مخصوصة فى جسم العنكبوت فانظر كيف كان الخيط الواحد مؤلفا من ٤ فى ١٠٠٠ تساوى ٤٠٠٠

ومن عجب أن بعض علماء الالمان قال انه اذا ضم ٤٠٠٠٠٠٠٠٠٠ أربعة بلايين خيط الى بعضها لم تكن أغلظ من شعرة واحدة من شعرات لحيته ولقد علمت ان كل خيط من تلك الخيوط مؤلف من أربعة آلاف خيط

فكل

فكل خيط اذن من هذه الخيوط الدقيقة يساوى غلظه $\frac{١}{١٦ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠}$ واحد من ستة عشر تريليونا ثم تعجب كيف كان كل واحد من الألف يخرج من قناة مخصوصة فى جسم العنكبوت وكيف يسع جسم العنكبوت ألف ثقب فيها ألف خيط أليس ذلك من العجب أوليس من أعجب الحكم أن العنكبوت فى هذا تمثل نظام العالم الجميل يخرج الخيط الدقيق من ثقبه فيخيل للرائى انه خرج بلا حكمة فاذا انضمت الى بعضها وكونت خيطا والخيوط الأربعة أنتجت خيطا أكبر وباجتماع الخيوط أنشأت بيتا فكان مسكنا ومحل صيد للعنكبوت ومع ذلك تسمع القرآن يقول ـ وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لوكانوا يعلمون ـ وصف بيت العنكبوت بأنه أوهن البيوت ثم أردفه بقوله لوكانوا يعلمون ألا تعجب كيف ذكر العلم المقرون بلو بعد مسألة العنكبوت أفليس هذا الوهن قد ظهر فى التحليل والتجزئة فقد جاوزت خيوط العنكبوت الحد فى الدقة وتناهت فى التجزئة فالوهن هنا اشارة الى قبول التجزئة قبولا مطردا بحيث لا يمتنع عنها ذلك هو السر فى قوله ـ لوكانوا يعلمون ـ فليس يدرك الناس تلك التجزئة التى أشار لها الوهن بمجرد اشارة الا بعلم الطبيعة الذى يأتى بالعجب العجاب

(اللطيفة الثالثة) ان قمحة من (الستركنين ـ وهو ضرب من السم مستعمل فى الطب كثيرا) اذا وضعناها فى ١٧٥٠٠٠٠ قمحة من الماء شعرنا بطعمها فى كل قمحة وعلى ذلك يكون فى كل قمحة من الماء $\frac{١}{١ر٧٥٠ر٠٠٠}$ من قمحة من (الستركنين) ومع ذلك يشعر به من يذوقه

(اللطيفة الرابعة) اذا أذبنا قطعة من الفضة بقدر $\frac{١}{١ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠}$ من القيراط المكعب فى الحامض النتريك ثم صببناه فى مائة قيراط مكعب من الماء وأذبنا فيه قليلا من ملح الطعام فان المذوب يتعكر ويصير أبيض لبنيا ويبقى هذا اللون ظاهرا للعين ولو فيما يساوى $\frac{١}{١٠٠}$ من القيراط المكعب وفى ذلك من الفضة $\frac{١}{١٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠}$ من القيراط المكعب

(اللطيفة الخامسة) اننا نرى الهباء الذى يسطع فى البيوت من ضوء الشمس الداخل من النوافذ ونحن عادة لا نفكر فيه مع ان فيه كثيرا من بزور النباتات فاذا وقع هذا البزر على أرض رطبة كانت منه عفونة وهذه العفونة اذا نظرناها بالمكرسكوب وجدنا غابات كثيرات الأشجار مشتبكة الأغصان وأعيننا لا تميز شيئا من ذلك

(اللطيفة السادسة) ان آلاف الآلاف من الحيوانات تعيش فى نقطة ماء صغيرة تعلق برأس الابرة مثلا وتنمو هناك وتتكاثر وتموت كما تعيش حيوانات البر فى القفار وحيوانات الماء فى البحار ويسطو بعضها على بعض ويقاتل ويفترس بعضها بعضا كالكواسر والجوارح وهى كثيرة الوجود وقلما يخلو منها مستنقع أيام الصيف وهى تصعد فى البخار الذى يتصاعد عن الماء بحرارة الشمس وتطير فى الجو مع الهباء ثم تعيش وتتكاثر حيثما تركت ووافقتها الرطوبة والحرارة

(اللطيفة السابعة) ان الحيوانات السابقة مع تناهى صغرها قد تحجرت منها طوائف لا تحصى حتى كانت منها طبقات كبيرة من الصخور الطباشيرية فى الأرض ولا يساوى هيكل الحيوان الواحد منها أكثر من $\frac{١}{١٨٧ر٠٠٠ر٠٠٠}$ من القمحة ومع هذا الصغر المتناهى لهذه الحيوانات كان لكل حيوان منها معدة أو أكثر لهضم طعامه وأعضاء باطنة وأخرى ظاهرة فاذا تناهى الحيوان فى الصغر فماذا تكون تلك الأعضاء وهذا داخل فى قوله تعالى ـ ومايعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ـ وكيف يعزب عنه ذلك

وقد ظهر ان تلك الحيوانات الطباشيرية مثلا عند خلقها وموتها لم تكن لها فائدة واضحة فلما أن كثرت وكان منها الطباشير وانتفع به الناس عرفنا ان خلق ذلك الحيوان كان مقصودا للحكمة . كما كان خيط العنكبوت الذى هو واحد من ألف خيط خارج من جسمه لا يشعر بمنفعته إلا بعد ما انضم الى الخيوط الأخرى ثم كان النسيج فظهرت المنفعة حينئذ . فاذا رأى الناس عالم الحيوان وعالم النبات وعميت عليهم طرق الصواب فى فهمها وقالوا لم خلق نبات كذا وما فائدة هذه الحيوانات الكثيرة قلنا لهم ما طوائف الحيوانات والنباتات التى لم تظهر حكمتها لنا إلا كطوائف الخيوط الدقيقة العنكبوتية قبل التئامها . فاذا فهمنا العنكبوت وخيوطه والطباشير ومنفعته فهمنا فهما إقناعيا أن هذه العوالم حالا عالية تظهر فيها فائدتها . وهذا داخل فى قوله — ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين — وانما كان فى كتاب مبين لأنه سائر لغاية والغايات لا تكون إلا تابعات للعلم والعلم لابد له من عالم

(اللطيفة الثامنة) ان المادة مع صغرها ليست متصلة ذراتها اتصالا تاما بل هناك فضاء متسع بين أجزاء الماء والهواء والحجر والحديد والذهب وقالوا لو ان حيوانا عاش على سطح ذرة من ذرات أى جسم من حديد أو حجر أو ذهب وأراد أن يرفع رأسه الى الذرة الأخرى لرآها بعيدة بعد ما بيننا و بين الشمس أو النجوم . وأنت ترى أن هذا القول الذى قالوه لا تصدقه العقول ولا تدركه الأبصار ولكن العلم أثبته ويقرّبه لك ما أذكره فأقول

(١) اذا وضعنا فى إناء ماء ثم وضعنا فى الماء ملحا ثم بعد ذوبانه وضعنا فيه سكرا فان الماء لا يزيد حجمه لأن دقائق الماء وسعت الملح ودقائق الملح وسعت السكر لأنه أدق من الملح فدل هذا على مسام الماء ومسام الملح

(٢) أتى بعض العلماء بكرة من الذهب مجوفة فملأها ماء ثم ضغطها فسطحت قليلا وخرج الماء من مسامها حتى يرتشح و يصير زبدا على سطوحها ثم يتجمع و يقطر عنها

(٣) والأعمدة الحجرية تقصر اذا كانت تحت بناء عظيم لزيادة ثقله

(اللطيفة التاسعة) اعلم أن الذهب والفضة والبلاتين أقبل المعادن للسحب وان ٣٦ درهما من الذهب يمكن أن يعمل منها خيط طوله مائة ميل والبلاتين وهو أثقل من الحديد نحو ثلاث مرات يمكن أن يستل منه شريط طوله مائة ميل من قمحة واحدة منه والنحاس ينسج من شريطه نسيج كالشبك بحيث يكون فيه سبعة وستون ألف خرب فى مساحة قيراط مربع

(اللطيفة العاشرة) ان أشد المعادن قبولا لطرقه وترقيقه الذهب حتى انهم صنعوا من اثنى عشر درهما منه ٣٦٠٫٠٠٠ قطعة بحيث كان سمكها كلها معا قيراطا واحدا

﴿ تذكرة ﴾ فتعجب من المادة وكيف تناهت فى صغرها الى درجة بعيدة الغور فمن خيط العنكبوت المتمادى فى الدقة بحيث تكون خيوطه التى تكون منها أربعة آلاف خيط خارجات من جسمه على هيئة عجب الى أن واحدا من مليون وسبعمائة وخمسين ألفا من قمحة من الستركنين تتجزأ فى قمحة من الماء بحيث يظهر فيها طعمها . الى ذلك الهباء الذى يظهر فى البيوت الحامل بزور التخرج بعد سقوطها بساتين ذات أثمار وأزهار وأوراق وسوق والناس لا يرونها بأعينهم إلا عفونة يأنفون من منظرها . الى حيوانات تعدّ بالملايين تعيش فى قطرة ماء على رأس ابرة ولقد شاهدت أنا بنفسى بعض ذلك (بالمجهر) وهو الآلة المعظمة . وهذه الحيوانات من بعضها يكون الطباشير مثلا فانظر وتعجب وافهم قوله تعالى — ومايعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين — وهذه المذكورات من الذى هو أصغر من الذرة . ولا يدرى إلا الله الى أى حد تنتهى المادة فى الصغر . وأنت ترى أن ما يساوى واحدا من مائة من قيراط مكعب من الماء يتلوّن بمقدار واحد من عشرة ترليون من القيراط المكعب من الفضة وأنت خبير أن هذا المقدار لا يتصوره الوهم حتى ان العلماء قالوا لو أن آدم وحواء أخذا يعدّان هذا العدد واحدا واحدا كل ثانية من يوم أن خلقهما الله ولم يناما ليلا ولا نهارا على الحال المذكورة ماذاقا النوم إلا بعد مضى عشرة آلاف سنة وهذا فى عدد

١٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ اذا عرفت فبالك بهذا العدد الذى معنا وهو ١ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ هذا فان المادة لا يعرف منتهى صغرها . ولقد فرض العلماء لها نهاية سموها بالجوهر الفرد والجوهر الفرد شئ تصوروه بعقولهم ولم يقسموه بآلاتهم . وقالوا انه منه تتألف الذرة التى رأيتها فى الفضة مثلا فيما تقدم فهذه الذرات فى العدد المتقدم كل منها مركبة من جواهر فردة * والجوهر الفرد مركب على رأى الأستاذ (جون ملز) فى مؤلفه الحديث المسمى (و يدن ذى أتم) من نوعين من الكهرباء الايجابى والسلبى والكهرباء مادة ذات تركيب حبيبى وحبيباتها دقيقة الى درجة لا يتصورها العقل وتسمى حبيبات الكهرباء الايجابية (البروتنات) وحبيبات الكهرباء السالبة (الألكترونات) وأكثر الجواهر الفردة مكونة من عدد من البروتنات يكون معها أحيانا ألكترون واحد أو أكثر وحول هذه عدد آخر من (الألكترونات) تدور فى مناطق ثابتة منظمة لتحفظ التوازن بين البروتنات التى تتكون منها نواة الجوهر و بمقتضى هذه النظرية اذا وجد مجهر قوى الى درجة فوق العادة بحيث يستطيع تكبير الجواهر الفردة الى حجم كبير جدا فان أى مادة تمتحن تظهر كأنها فارغة وفيها مقادير هائلة من أشياء سابحة كالكواكب السابحة فى الفضاء وعلى نظامها . ألا ترى أن نواة الجوهر أشبه بالشمس والألكترونات أشبه بالكواكب تدور حول النواة فى مدار واحد . ثم قال ان الجوهر الفرد فى عنصر الصوداء مؤلف من نواة فيها ٢٣ بروتونا و ١٢ الكترونا و يدور حولها فى مدار واحد عدد من الكترونات وفى مدار ثان ٨ الكترونات ثم فى مدار ثالث ألكترون واحد و يقال أيضا ان الكهرباء الايجابية فى النواة قد تكون ١١ و يعادلها أحد عشر ألكترونا وهى الكهرباء السالبة دائرة حولها وقد ثبت ان الكهرباء السالبة فى الجواهر الفرده تدور بسرعة مدهشة حول النواة والمسافات بين الألكترونات والنواة كالمسافات بين الشمس والسيارات

و يقال ان الجوهر الفرد لو تمكن العلماء من تحليله لخرجت منه قوة هائلة جدا لا يتصورها الناس بل ربما كان فى إطلاق قوته إطلاق قوات جواهر أخرى فتتحول الأرض حالا الى كوكب جديد و يقول الدكتور (استون) انه لو حدث ذلك وكان فى كوكب المريخ سكان لشاهدوا منظرا غريبا للارض أثناء تحولها الى الشكل الجديد ـ كل من عليها فان ـ

فانظر كيف سعى الانسان الى أن عرف أن ما هو أصغر من الذرة الواردة فى الآية صار حبيبات من الكهرباء السالبة والموجبة وأصبح الحديد والنحاس والبلاتين والذهب مثلا فى نظر العلماء عبارة عن كهرباء سريعة الحركة جدا ولسرعة الحركة ظن الناس أنها جامدة وما هى بجامدة . ووالله ان هذا بعينه قوله تعالى ـ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شئ ـ فالجبال والمعادن مركبات من الجواهر الفردة والجواهر من حبيبات من الكهرباء وكلما كانت أسرع جريا كانت أصلب ملمسا فذرات الحديد و بعبارة أخرى الكهرباء التى نراها أمامنا حديدا ماهى إلا أنها أسرعت إسراعا شديدا فصارت صلبة فقلنا هذا حديد فأما ذرات الماء فهى غير مسرعات كذرات الحديد فقيل هو سائل والهواء أقل اسراعا فقيل هو (غاز) وهذا الكشف الحديث منطبق تمام الانطباق على القرآن فالجبال من جهة جاريات مع الأرض حول الشمس ومن جهة أخرى جاريات جواهرها مسرعات حول النواة ومن تلك الجواهر الجارية تكون الذرات ومن الذرات تكون الصخور ومن الصخور تكون الجبال . وما تكون من جار فهو جار . فالأرض جارية والشمس جارية والجبال جارية والحصى جارية ـ كل من عليها فان و يبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ـ وهذا سر قوله تعالى ـ ان الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده انه كان حليما غفورا ـ

وهذا وان كان من أسرار القرآن ومنطبق عليه لم يزل من الأبحاث التى تحتاج الى مباحث أدق فلذلك جاء فى القرآن ـ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ـ فهو من جهة يقول انه واسع العلم حيث قال ـ وما يعزب عن ربك الى قوله ولا أصغر من ذلك ـ فعبر بلفظ أصغر وهذا الذى ذكرناه هو الأصغر ولكنه

لما انتهى الى ماوصلنا اليه قال انكم أيها الناس لاطاقة لكم بما فوق عقولكم — ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولاخلق أنفسهم — وهذا بعينه كلام العلماء فى أوروبا فانا قدمنا لك ان هذا الجوهر الفرد لم يروه وانما استنتجوه ولم يشاهدوه * انتهى الكلام على المبحث الأول أى ماهو أصغر من الذرة فى قوله تعالى — ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين —

﴿ المبحث الثانى فيما هو أكبر من الذرة فى الآية وفيه لطائف ﴾

(اللطيفة الأولى) اعلم أن الذرة منها تتركب هذه الأجسام وقد قلنا انها هى مركبة من الجواهر الفردة ومن الأجسام تكون هذه الأجرام العظيمة من السموات والأرض أما الشموس والأقمار والأرضون فقد استوفيناها فى قوله تعالى فى سورة البقرة — ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شئ عليم — انما الذى يهمنا الآن أن نبحث فيما هو فوق ذلك مما كشف حديثا ولأذكر لك خلاصة ماقيل عن العوالم السديمية فى آخر تقرير رفع الى أكاديمية العلوم بفرانسا فى هذا العام فأقول

إذا أرسلت نظرك الى السماء فى ليلة صافية الأديم أبصرت غيوما بيضاء كأنها لبن وهى عبارة عن سدم أى سحب سابحة فى الفضاء الذى لايتناهى كما كانت أرضنا وشمسنا فى الأحقاب والدهور قبل ملايين الملايين من السنين ثم ان المسافات التى تفصل هذه العوالم عنا لاتقع تحت حصر فالكيلومتر لايصلح فيها مقياسا ولاقطر الأرض ولا قطر دائرتها حول الشمس وقد اصطلحوا على مسافة لهذا القياس تبلغ ثلاث سنين وسدس سنة نورية وسموها ﴿ برسك ﴾ والسنة النورية أمر يفوق الوصف فان النور يسير فى الثانية بسرعة ٣٠٠ ألف كيلومتر فما بالك اذا جرى سنة ثم ثلاث سنين وسدس سنة الذى جعلناه مقياسا

فانظر الآن ماجاء فى ذلك التقرير الذى رفع فى شهر مارس سنة ١٩٢٣ أثناء تفسير القرآن فقد جاء فيه ان سديم ﴿ماجلون﴾ يبعد عن الأرض ٣٥ ألف برسك أى نحو ١١٠ ألف سنة نورية وان السدم التى تمكن العلم من قياسها هى كما يأتى :

(١) ستة سدم تبعد عنا ٦٥ برسكا أى نحو ٢٠٧ سنة اذا نحن سرنا اليها بسرعة النور
(٢) ثلاث نجوم سديمية معروفة باسم ﴿نوفا﴾ تبعد عنا ١٧٥ برسكا أى نحو ٤٣٥ سنة نورية
(٣) خمسون سديما مظلما ونيرا تبعد عنا ٣٢٠ برسكا أى نحو ١٠١٤ سنة نورية
(٤) سبعون سديما تبعد عنا ٩٠٠ برسكا
(٥) تسعة وستون سديما تبعد عنا ٢٣ ألف برسك أى نحو ٧٢٨٤٧ سنة نورية
(٦) سديمان حلزونيان على بعد ٢٠٠ برسك أى نحو ٦٣٥ سنة نورية
(٧) ستة عوالم سديمية تبعد عنا ١٥٠ الف برسك أى نحو ٤٧٥ الف سنة نورية

ويبعد السديم ﴿اندروميد﴾ عنا ٤٥٠ ألف برسك أى نحو مليون وأربعمائة وخمسة وثمانين ألف سنة نورية ويسير هذا السديم بسرعة ١٢٠٠ كيلومتر فى الثانية وكذلك السديم المعروف باسم ماجلون فانه يبعد عن النظام الشمسى بسرعة ٥٦٨ كيلومترا فى الثانية وتسير المجرة التى بعد النظام الشمسى والسيارات وفى جملتها الأرض من توابعها بسرعة ٥٦٠ كيلومترا فى الثانية جاذبة وراءها الشمس والسيارات مع الأرض وكل نجوم السماء

هذه هى الخلاصة التى رفعت الى أكاديمية العلوم فانظر كيف اطلعنا على أصغر الكائنات وعلى أعظم الكائنات واتصل أصغرها بأكبرها فى النظام وسرعة الجرى وأصبح فى نظر العالم أنه لافرق بين السيارات فى مداراتها وحبيبات الكهرباء الجاريات حول النواة فى الجوهر الفرد فاتصل أولها بآخرها أوليس هذا بعينه هو قوله تعالى — ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت — أى تناقض — فارجع البصر هل ترى من فطور — شقوق — ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير —

ألم تركيف أشبه أعظم العوالم أصاغرها وصار العالم كله جاريا على قاعدة واحدة وهذه هي الوحدة العامة التي ظهر الكون بمظهرها . أوليس هذا هو البرهان على وحدة صانعها فان النظام لم يتغير فالأول هو الآخر - هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شئ عليم -

(اللطيفة الثانية) قوانين كپلير ونيوتن * قد تبين لك فيما سبق في اللطيفة الأولى وماقبلها أن الأجرام العليا السماوية والأجرام الصغيرة الذرية ذات حركات سريعة منتظمة بهية المنهج ذات قوانين سارية جيلة . والآن نبين بعض تلك القوانين التي تربط العوالم بعضها ببعض فالشمس جاذبة والأرض مجذوبة والقمر تابع الأرض والشمس وماحولها تجرى حول كوكب آخر والعالم كله جار بقانون عام يسمونه الجذب ومن أهم تلك القوانين هذه الثلاثة التي تنسب للعلامة كپلير

﴿ القانون الأول ﴾ شكل مدارات السيارات - جميع السيارات ترسم حول الشمس في جهة واحدة منحنيات مقفلة مستديرة تقريبا مستويا تها امائل بعضها على بعض قليلا

وهذا القانون الأول يتعلق بشكل المدارات ونصه ان مدار كل سيار قطع ناقص تشغل الشمس احدى بؤرتيه ومعلوم ان ذلك هو مدار الأرض المعلوم بتغير بعدها عن الشمس أو بالتغيرات التي تحصل للقطر الظاهري للشمس . وتوضيحه أن الأرض لا يكون قربها من الشمس واحدا في جميع السنة بل هي كل يوم بل كل ثانية مختلفة البعد فهي في الصيف بعيدة وفي الشتاء قريبة وفي الخريف والربيع متوسطة وهذا هو بعينه القطع الناقص وينتج من هذا القانون كما أوضحته لك ان بعد سيار عن الشمس يتغير دائما في مدة دورة وان هذا البعد يأخذ جميع المقادير المحصورة بين مقدارين نهائيين مطابقين لوضعين يشغلهما السيار حينما يوجد في طرفي المحور الأكبر للمدار ويسمى الوضعان المذكوران الرأس والذنب . وبعبارة أخرى أن الأرض مثلا حينما تكون بعيدة من الشمس يقال انها في الرأس وحينما تكون قريبة يقال انها في الذنب والبعد المتوسط هو المساوى نصف المحور الأكبر للقطع الناقص

﴿ القانون الثاني ﴾ قانون المساحات - وهو المساحات المرسومة بأنصاف الأقطار البورية لسيار حول البورة الشمسية مناسبة للازمنة المستعملة لقطعها وبيان ذلك أن أقول



إن هذا القطع الناقص بشكل ١ فترى ش هي الشمس ودار سيار كالأرض حولها وقد قلنا ان هذا السيار في كل لحظة يتغير بعده عن الشمس كما هو ظاهر لأن البعد يكون ثابتا في الدائرة أما هنا فهو متغير فوجد كپلير

والعلماء قاطبة ان القوس ق٥ ق٤ والقوس ق ق١ والقوس ق٢ ق٣ التى قطعها السيار فى أزمنة مختلفة بأوقات متساوية فكان ق٥ ق٤ حينما كان السيار فى الرأس وق٢ ق٣ حينما كان السيار فى الذنب الذى هو قريب من الشمس وهكذا تكون غير متساوية فأما المثلثات المرسومة وهى ق٥ ش ق٤ و ق ش ق١ وق٢ ش ق٣ التى قواعدها مرسومة فى أزمان متساوية فانها تكون متكافئة فاذا صارت المدد الضعف أو ثلاثة الأمثال فان مساح المثلثات المتكونة بأنصاف الأقطار تكون متساوية فتأمل فى هذا تجد أن السيار لما بعد عن الشمس كانت المساحة التى قطعها بنصف القطر كالمساحة التى قطعها وهو قريب منها وان كان بطيئا فى الأولى مسرعا فى الثانية فلحسن النظام والدقة فى السير صار المثلثان متساويين مساحة لتساوى الزمنين

فعلى هذا تكون الأقواس المرسومة فى أزمنة متساوية صغيرة كلما كان السيار بعيدا عن الشمس وكبيرة كلما كان السيار قريبا منها وبعبارة أخرى ان سرعة السيار تزداد بنقص بعده عن البؤرة وتكون فى نهايتها الصغرى فى الذنب وفى نهايتها العظمى فى الرأس

﴿ القانون الثالث ﴾ مربعات مدد دورات السيارات حول الشمس مناسبة لمكعبات أبعادها المتوسطة عنها أو لمكعبات المحاور الكبرى لمداراتها

﴿ البعد المتوسط هو المساوى نصف المحور الأكبر للقطع الناقص ﴾ وبواسطة هذا القانون العجيب يكفى معرفة مدد دورات السيارات لنستخرج منها أبعادها المتوسطة عن الشمس أو مقادير محاورها الكبرى منسوبة الى أحدها المأخوذ وحده

وقد ظهر نيوتن بعد كبلير وبين أن القوانين الثلاثة المتقدمة ناتجة بالطبع من قاعدة الجذب * فالجذب العام هو قوة تنقاد لها جميع الأجسام السماوية وتتاثر بها والتثاقل فى سطح الأرض ليس إلا نوعا منها

وقد استنتج نيوتن من قاعدة القصور الذاتى للمادة التى تستلزم كون حركة الجسم المطلق بالضرورة مستقيمة منتظمة ان السيارات التى ليست حركتها منتظمة ولا مستقيمة يجب أن تكون متأثرة بقوة خارجية

وأثبت بالقانون الثانى ان القوة الحافظة للسيارات فى أفلاكها لابد أن تتجه نحو الشمس واستنتج من القانون الأول أيضا ان القوة المذكورة تختلف شدتها فى نقط المدار الذى يجرى فيه السيار وانها مناسبة لعكس مربعات أبعاد السيار عن بؤرة الجذب فكلما كان مربع البعد أكبر كانت القوة المذكورة أضعف وكلما كان المربع أقل كانت القوة أكبر وهذا ظاهر للمتعلمين صعب على من لم يمارس هذا الفن

واستنتج نيوتن أيضا من القانون الثالث أن هذه القوى مناسبة لجسمات الأجسام التى هى واقعة عليها • وقد لخص هذه القاعدة مما تقدم فقال

جميع أجزاء المادة ينجذب بعضها الى بعض بقوة مناسبة طردا لجسماتها وعكسا لمربعات أبعاد بعضها عن بعض وهكذا حركات التوابع حول السيارات وحركات ذوات الأذناب حول الشمس تجرى فيها هذه القوانين الثلاثة لكبلير وكذلك قانون الجذب العام

﴿ ايضاح ماتقدم ﴾

يظهر لى أيها الذكى ان هذه القاعدة لم تظهر لك واضحة وأنا الآن أبينها لك فى الأمور المشاهدة فأقول خذ فلينة واقطعها قطعتين إحداهما صغيرة والأخرى كبيرة وضعهما على الماء فانك تراهما تقتربان من بعضهما والكبيرة تجذب الصغيرة والصغيرة تجذب الكبيرة وكل منهما يجذب على مقدار جسمه لا غير هذا معنى قولنا ان الجذب مناسب للجسمات • واذا بعدت إحداهما عن الأخرى بمقدار ذراعين فان الجاذبية تكون أقل مما لو كان بينهما ذراع واحد بعكس المربع فمربع الواحد واحد ومربع الاثنين أربعة فتكون السرعة فى الجذب اذا كان بينهما ذراع بمقدارها اذا كان بينهما ذراعان أربع مرات، ففى الاثنين تكون ربعها اذا كانت بواحد وقس عليه

٢ و٣ يكون فى أولهما أكثر مما فى ثانيهما بنسبة ٩ الى ٤ فالاسراع فى الأول ٩ وفى الثانى ٤ فكل منهما يعطى فى السرعة مربع الآخر فالاثنان لهما مربع الثلاثة والثلاثة لها مربع الاثنين فهذا معنى قولهم انها تنجذب عكس المربعات أبعاد بعضها عن بعض . فاذا عرفت هذا فقس عليه نظام الكواكب وجذب بعضها لبعض على هذا النمط ولقد بينت لك هذا المقام بايضاح فتعجب من هذه الجاذبية العامة أيها الفطن واعلم أن جميع الأجرام السماوية مرتبط بعضها ببعض بالجاذبية العامة

(اللطيفة الثالثة) هناك جاذبية تسمى جاذبية الثقل وهى بعينها كالجاذبية العامة فاذا كان الجسم فى مركز الأرض فانه لاثقل له لأنه مجذوب من سائر الجهات بالتساوى واذا كان مرتفعا عن سطح الارض نقص ثقله بابتعاده عن السطح المذكور بزيادة مربع بعده عن مركزها

و بعد سطح الارض عن المركز نحو ٤٠٠٠ ميل فاذا كان جسم يزن مائة رطل وهو على سطح الارض ثم رفعناه فى طيارة عن وجه الارض ألف ميل فاننا نقول نسبة ٢٥٠٠٠٠٠ الى ١٦٠٠٠٠٠ كنسبة ١٠٠ رطل الى ٦٤ وهو الجواب الآتى من قسمة ١٠٠ فى ١٦٠٠٠٠٠ على ٢٥٠٠٠٠٠ وهو المطلوب فقد نقص الجسم بارتفاعه عن سطح الارض ألف ميل وصار ٦٤ بعد ان كان مائة

أنظر أيها الفطن وتعجب لهذا النظام والاتفاق تعجب من الجاذبية الماسكة السائرة بنظام تام فيكون الجسم عند خط الاستواء أخف وعند القطبين أثقل لان خط الاستواء بعيد عن المركز أكثر من القطبين لان حركة الارض هناك سريعة و بالعكس يكون القطبان فان الارض منبعجة عندهما فالجسم يكون أقرب الى المركز والحركة هناك الطاردة ضعيفة عنها فى خط الاستواء وعليه تكون الاجسام فى مصر أثقل منها فى خط الاستواء وأخف منها فى القطبين لان أرض مصر أبعد من القطبين عن المركز والحركة فيها أشدّ وعلى هذا فقس

(اللطيفة الرابعة) ان سرعة الأجسام الساقطة الى الارض تكون بحساب ١٦ قدما مضروبة فى (١) للثانية الاولى وفى (٣) للثانية الثانية وفى (٥) للثالثة وفى (٧) للثالثة الرابعة و بعبارة أخرى ضرب ١٦ فى الاعداد الوترية ١ - ٣ - ٥ - ٧ - ٩ - ١١ - ١٣ - ١٥ وهكذا لكل ثانية على التوالى

واذا ضربنا عدد الثوانى مربعا فى ١٦ قدما كان ذلك هو البعد الذى سقطه الجسم فالثانيتان يكون البعد فيهما ٤ فى ١٦ والثلاثة ٩ فى ١٦ والاربعة ١٦ فى ١٦ و بعبارة أخرى ١ و٣ و٥ و٧ و٩ و١١ و١٣ و١٥ اذا ضرب كل منها فى ١٦ كان الحاصل هو الذى سقطه الحجر فى تلك الثانية ففى الاولى ١٦ فى ١ وفى الثانية ١٦ فى ٣ وفى الثالثة ١٦ فى ٥ وهكذا

واذا جمعنا الثلاثة كان هكذا ٩ فى ١٦ وهو مساو (٥ + ١ + ٣) × ١٦ وهذا من أعجب العجب فى علم الطبيعة كيف يتصافح علم الارتماطيقى وعلم الطبيعة كيف يجتمع العلمان وكيف تكون الاعداد الفردية المتلاحقة اذا جمعت كانت هى بعينها المربعات الزمنية وكيف يكون هذا قانونا عاما كيف يكون فى الثانية الرابعة سقوط الحجر يساوى ٧ × ١٦ واذا ضم الى ما قبله كان هكذا (٧ + ٥ + ٣ + ١) × ١٦ يساوى ٤ × ٤ × ١٦ فمربع ٤ هو عينه مساو لجمع المفردات الاربعة من ١ الى سبعة . ان عجائب الحساب من الفرد والزوج ظهرت هنا فى سقوط الاحجار . عجائب الحساب وخواصه ظهرت فى قوانين نيوتن وكبلير وفى الاحجار الساقطة والجاذبية العامة *

أليس هذا بعينه هو قوله تعالى - وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين - فما المناسبة بين الاتيان بمثقال حبة من خردل و بين كفاية الحساب فادخل الحساب هنا . أفليس هذا هو السر فى مثقال حبة من خردل وأكبر منها وأصغر كل ذلك لا يأتى إلا بحساب هذا هو الحساب وهذا هو السر الذى حجب عن الجهال وكشفه الله للناس فى هذا الزمان . ثم انظر كيف يقول الله - والشفع والوتر - أليس هذا هو سر الشفع والوتر هذا الشفع وهذا الوتر ظهر سرهما فى هذا العالم العجيب هنا ظهر سر الشفع والوتر فللوتر سلطان فى عدد الاقدام فى سقوط الثانية الواحدة

والشفع سلطان عند تربيع جميع الثوانى . ان الطبيعة ممتزجة بالحساب امتزاجا تاما هذا هو من سر قوله تعالى ـ وكفى بنا حاسبين ـ وهذا هو سر قوله تعالى ـ ان الله سريع الحساب ـ وقوله ـ ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده انه كان حليما غفورا ـ أليس هذا هو سر القرآن كيف يقول الله تعالى ـ ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا ـ وكيف يكون هذا العلم الذى ظهر بالعقول البشرية موافقا له فان المادة كلها ليست إلا كهرباء والكهرباء تكاد تكون أمرا معنويا وكأنها حركات وتلك الحركات منها كانت الذرات بجواهرها والاجسام وبسرعتها ونظامها دامت موجودة فالله هو الممسك لها

ههنا تبين لك أيها الذكى كيف كان هذا العالم نظاما واحدا أوله يشبه آخره وكبيره يشبه صغيره والحيرة فى الحقير كالحيرة فى العظيم . فانظر كيف كانت القمحة من الفضة فيما تقدم وأن جزأ صغيرا منها يقسم على ماء غزير فيلوّنه وأن هذا العدد من أجزائه يتعذر عدّه كما يتعذر عد نجوم السماء . فقد بهرنا العظيم وبهرنا الحقير . كما أدهشنا نظام الكواكب فى قوانين نيوتن وكبلير . أدهشنا سقوط الحجر بحساب بديع فهناك يقال ان المثلثات التى يرسمها الكوكب فى الاوقات المتساوية فى أزمان مختلفة تكون متكافئة المساحة وهنا يقال ان الحجر فى سقوطه يحسب تارة بالافراد وتارة بمربع الازواج

الى هنا انتهى الأمر الاوّل وهو تفسير قوله تعالى ـ ان الله لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء ـ وقد أتممنا الكلام على المبحثين مبحث ما هو أصغر من الذرة ومبحث ما هو أكبر من الذرة وفصلنا فى الأوّل عجائب الذرات وصغرها وخيوط العنكبوت ودقتها وفى الثانى عجائب الكواكب والسدم والاحجار الساقطة وقوانين السيارات فلنشرع فى الامر الثانى

﴿ الامر الثانى ﴾

وهو تفسير قوله تعالى ﴿هو الذى يصوّركم فى الارحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ قد قلنا ان الخاصة ينظرون فى علم الله بما يطالعون من عجائب الفلك والطبيعة والذرات البديعة وفى قدرته وهو ما أردنا فى هذه الآية فالله هو الذى يصوّر الناس فى الارحام ويحكم الخلق وذلك انه غالب قاهر لهذه العوالم وقهره لها بحكمة لا بمجرد اللعب ـ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكنّ أكثرهم لا يعلمون ـ وكيف يعرف الناس أن السموات والأرض وما بينهما مخلوقة بالحق والعدل والنظام الا بهذه العلوم وكيف يعقل الناس أن هذه العوالم سائرة بقصد إلا بالعلم فانظر كيف يقول ـ ولكنّ أكثرهم لا يعلمون ـ

ومما يؤسف له ويحزننى أن يكون أكثر المسلمين هم الذين ينطبق عليهم قوله تعالى ـ ولكنّ أكثرهم لا يعلمون ـ فياليت شعرى من أين يعرف الناس قوله تعالى فى هذه السورة ـ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ـ كيف يعرفون أنه قائم بالقسط وأنه عزيز يغلب هذه الكائنات ويقهرها بعزه وجبروته حكيم بدقة واحكام ونظام كيف يعرفون ذلك إلا بمثل ما بسطناه فى هذا المقام . كيف ينام المسلمون عن هذه العلوم . ياقوم الى هذا دعا القرآن وبهذا أمر الله فيا أسفا على أمّة هلكت وربوع خلت ومدن أقفرت فليرجع المسلمون الى مجدهم فالله قد غضب على مجموعنا بسبب جهلنا والافرنج هم المفكرون ولكنى أبشركم بأنه قد آن أوان ظهور ذلك المجد الباذخ والله هو الولى الحميد

﴿ سلطان القدرة والمحبة العامّة ﴾

هذه الآية قد أظهرت سلطان القدرة فى خلقة الجنين فى الرحم ومن هذا القبيل قوله تعالى ـ ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ـ هنا يقول الله انه قال للسموات وقال للارض لتأتيا طوعا أو كرها فأتتا طائعتين ويقول فى آية أخرى ـ يابنيّ انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله ـ وقال فى آية أخرى ـ بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون ـ وفى

أخرى - ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون - وقال في أخرى - ان الله يمسك السموات والأرض أن تزولا - فهذه الآيات كلها داعية للنظر في هذا العالم فقد عبر مرة بالطاعة ومرة بالامساك ومرة بالقنوت ومرة بالسجود ومرة بانه يأتي بحبة خردل من أي مكان

فانظر أيها العالم وانظر أيها الحكيم وانظر أيها المسلم من أين نفهم أن حبة الخردل يأتي بها الله ومن أين نعرف أن من في السموات والأرض يأتون لله طائعين لا مكرهين وما السر في هذا ولم عبر بالطاعة ولم يجعل امتثالها لله اكراها * أقول لا يفهم هذا النظام إلا بما سأوضحه لك في هذه اللطائف لطيفة الجاذبية ولطيفة الماء ولطيفة الثلج ولطيفة علم التشريح ولطيفة السمع ولطيفة البصر ولطائف الرحمة في قلوب الوالدين ولطائف الحب في أفئدة المعلمين والحكماء والعلماء والأنبياء ولطائف الشهوات الغريزية ومنها ما في آية - زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين الخ - ولطائف خلق الآساد ونحوها ولطائف الغرام بزرع الاشجار التي يكتسي بثمرها الانسان وبذلك يخدم عوالم من الحيوان كما خدم النحل الانسان - وكل له قانتون - ثم لطائف الحب العام المرتب على ما تقدم وكيف السبيل الى نشر العلوم والفضيلة بين الناس وان ذلك لا يكون إلا بالمحبة وعمومها في أفئدة الناشئين تبعا للنظام العام

(اللطيفة الأولى - لطيفة الجاذبية العامة)

لقد تبين لك فيما أسلفته لك الجاذبية العامة وكيف كانت لم تذر الكواكب في أفلاكها ولا الأحجار في مساقطها إلا سلطت عليها تلك الجاذبية فأنت ترى أن الكوكب السيار وهو يجري حول الشمس منقادا لها متأثرا بها جار على نظام فان بعد عنها فهو اليها ناظر يجري على نهج معلوم وان اقترب منها كان مسرعا أشد اسراع لطاعته لها فهذا هو قوله تعالى - قالتا أتينا طائعين - فالكواكب طائعات الشمس والشمس وما حولها طائعات لكوكب آخر والحجر الساقط من أعلى الى أسفل تراه يجري طائعا فالجاذبية عبر عنها القرآن بالطاعة

هذا هو معنى القرآن وقوله - ان تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله - ظاهر فيما مضى أن الذرات الصغيرة المسماة الكترونات تجري بادب وطاعة حول النواة التي تقدم ذكرها كما تجري السيارات حول الشمس فهذه المخلوقات الصغيرة التي كانت في الكهرباء التي هي أصل المادة يأتي بها الله والاتيان فيه معنى الحركة فتراها متحركة حول أصولها فالسموات طائعات والذرات طائعة يأتي بها الله على سبيل الطاعة ولولا أنها مطيعة ما كانت منتظمة لان المطيع مؤدب والعاصي غير منتظم والأدب ظاهر في قوانين كبلير ونيوتن في جري السيارات كما أوضحته لك وظاهر أيضا في سقوط الأحجار والا فما هذا النظام

١	٣	٥	٧	٩	١١	١٣	١٥
٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨

فالحجر الساقط كما أوضحته لك فيما مضى يجري على هذين القانونين فالقانون الأول لجريه في الثواني فالثانية الأولى ١٦ قدما في ١ والثانية ١٦ في ٣ والثانية الثالثة ١٦ في ٥ وهكذا الرابعة في ٧ الخ

وجميع ما قطعه الحجر يتضح في الصف الثاني فيكون في الثانية الأولى ١ في ١٦ وفي الثانية الثانية $٢^٢$ في ١٦ وفي الثانية الثالثة $٣^٢$ في ١٦ وفي الرابعة $٤^٢$ في ١٦ وهكذا

أنا وان كنت ذكرته لك سابقا أعدته هنا ليجري الجدولان معا وليتضح معنى الطاعة في قوله - أتينا طائعين - أما الاتيان فبالحركة وأما الطاعة فبالنظام الذي تراه في هذين الجدولين * بمثل هذا فليفهم القرآن وبمثل هذا فليرتق المسلمون

هذه الطاعة أيضا ظاهرة في الجسمين اللذين يلتقيان على سطح الماء من نوع واحد كالفلين ففيه عكس التربيع المتقدم ذكره ويظهر أيضا في رقاصي الساعة اللذين قصر أحدهما وطال الآخر فان بينهما نسبة كما هنا وكذلك ميزان القبان فالنظام تام في هذه الكائنات من حيث طاعتها فهذه هي الطاعة فالجاذبية هي الطاعة - والله يقول الحق وهو يهدي السبيل -

﴿ اللطيفة الثانية لطيفة الماء ﴾

(١) ان الماء يعدل هواء البلاد فيها تعاقب الحر والبرد عليها تعاقبا جافيا لأنه يمتص حرارة كثيرة فى الصيف فيلطف حره ويلطف برد الشتاء. وفى الربيع يذوب الثلج والجليد فيمتص ماؤهما حر الشمس فلا تخرج الأشجار براعمها سريعا ولا تتعرض لتقلبات البرد والحر

ان الثلج والجليد لا يذوبان إلا بحرارة شديدة وعلى ذلك لا يذوبان إلا ببطء فى الربيع ولولا ذلك الناموس لكانت مياههما تطغى على الأرض فتجرف تربتها وتهلك المخلوقات الحية التى عليها ـ ان الماء وضع بهيئة عجيبة حافظ لحالة الجو بنظام عجيب

(٢) ان الماء فيه هواء ولذلك يعيش فيه السمك ولو خلا الماء من الهواء لكان يفرقع كثيرا كلما تجاوزت حرارته ٢١٢° ف أعنى درجة الغليان فكان الناس لا يتجرؤن أن يغلوه فى وعاء الاوهم مراقبون درجة حرارته بالترمومتر كما يراقبون الآن الآلات البخارية مخافة أن ينحصر بخاره فيشق القدر ويتلف ماحولها وانما لوجود الهواء فيه كلما زادت حرارته عن ٢١٢° فارقه الزائد وتركه على درجة ٢١٢° ف

ومن العجب أن الماء قد شذ عن بقية السوائل. ان السائل اذا برد جمد وهكذا الماء اذا وصل الى درجة ٣٩° ف تقاص بالبرد ثم يأخذ فى التمدد بزيادة البرد حتى يصل الى درجة ٣٢° ف فيجمد فجميع السوائل ومنها الماء تمدد بالحرارة وتتقلص بالبرودة والماء وحده قد شذ عنها فى أنه اذا تقاص مثلها بالبرودة ثم ازدادت برودته تمدد ثانيا الى حد محدود. وانظر أيها الذكى لهذا الشذوذ العجيب شذوذ به حياة كل حى شذوذ عليه تتوقف حياتنا وحياة الحيوان والنبات أفليس ذلك داعيا للتفكر. لم اختص الماء بأن الثلج الناجم من تقلصه يصير كبيرا مخالفا فى ذلك بقية السوائل. ذلك أن الماء لو كان يجرى مجرى بقية الأجسام اذا برد لكان اذا برد سطحه تنزل دقائقه الباردة الى قعره وتصعد دقائقه الأخرى من قعره الى سطحه حتى تبرد كلها الى درجة الجليد فتتجمد معا ويصير الماء كله قطعة واحدة من الجليد فيقتل ما فيه من الحيوان والنبات . ثم اذا جاء فصل الصيف وتعاظم حر الشمس يذوب وجه ذلك الجليد فقط فيصير ماء لكن ما تحته يبقى جليدا لان الماء غير موصل للحرارة فيصد الشمس عما تحته ولا يمكنها من تذويبه. وعلى ذلك يبقى الجليد فى البحار والبحيرات والأنهار وفى الأماكن الباردة طول الأيام

فلهذا الشذوذ يمتد بالبرد فيخف ويجمد ويعوم على الوجه ويقى ما تحته من الجمود لأنه جليد وهو موصل ردىء للحرارة فتبقى حرارة الماء العميق تحته على درجة واحدة ولو اشتد البرد فلم يمت ما فيه فلولا خفته وعومه لم تكن هذه المنافع

(٣) ان الندى اذا تكون على النبات منعه من الاشعاع فلا تبرد أوراقه بردا شديدا ولا تصقع فالندى نافع لانه يمنع الاشعاع. ثم الماء يرتقى من البر والبحر بخارا فيبرد الهواء ويرطبه صيفا ويعدل برده شتاء كأنه ميزان يزن الله به الحرارة. والغيم المتكاثف منه يظلل الأرض من شعاع الشمس نهارا ويحجبها من شر الاشعاع الزائد ليلا وينقى مطره الهواء ويحيى النبات أو ينزل ثلجا فيحتضن الأعشاب وبراعم الأشجار لتنجو من الموت وينبع عيونا تروى الغليل وينقى الأبدان ويحيى به الأرض بعد موتها فتبارك الله أحسن الخالقين

وبهذه الخاصية المخالفة لبقية السوائل اذا برد فصار ثلجا فى جرة كسرها وبهذه الطريقة يكسر الأحجار فى الجبال فتنبع العيون فانظر لهذه الخاصية كيف منعت ماء البحر من أن يكون ثلجا وشقت بها العيون فنبعت فتبارك الله أحسن الخالقين وهذا داخل فى قوله تعالى ـ قالتا أتينا طائعين ـ فالماء بخضوعه لتلك النواميس لطف الحرارة وشق العيون وجرى فى الأنهار وأحيا النبات والانسان كل ذلك طاعة وتسخير ولله الأمر وهو على كل شئ قدير

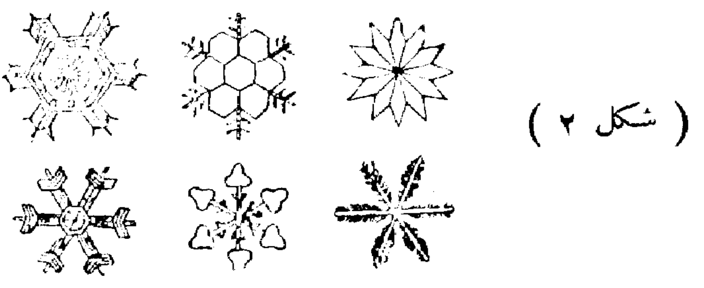
﴿ اللطيفة الثالثة الثلج وأشكاله ﴾

لقد رأيت فى كتب الطبيعة أشكال الثلج فخار لبى فيها وفكرت فى أمرها وعجبت من نظمها وأدهشنى جمالها

ونظامها

ونظامها . لو أن خلقا كثيرا اجتمعوا فى قاعة صغيرة فى البلاد التى اشتد بردها وكان البرد شديدا وفتحت نافذة من نوافذ القاعة لجمد البخار فى هوائها ووقع ثلجا بأشكال تدهش الناظرين . ولقد رأيت رسمها على ستة أشكال وكلها أشكال مسدسة فمهما اختلفت الأشكال فالتسديس ثابت فتارة تكون بهيئة أشجار منظمة بديعة وتارة بهيئة أزهار فى غاية الجمال فتبارك الله أحسن الخالقين . ولما رأيتها قلت فى نفسى لم كان هذا النظام لا يختلف فى الثلج وهل كان الأكسوجين والأدروجين عند اتحادهما قد تحالفا أن يكونا وقت الجمود على هيئة منظمة ولعل الماء لما كان فيه حياة كل شئ كان مستعدا للنظام التام كما نرى فى الحيوان والنبات أنهما مشتركات فى أمور مختلفات فى أخرى حافظات للأصول كالتغذية والتوالد مختلفات فى غيرها كالحواس والعقل وهكذا فكذلك هنا نرى الأشكال فى الثلج تحفظ الشكل السداسى مهما اختلفت أوضاعها وكأن هذا يرمز له قوله تعالى ــ وجعلنا من الماء كل شئ حى ــ والحياة لا تكون إلا مع النظام وهذا داخل فى قوله تعالى ــ يا بنى انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله ان الله لطيف خبير ــ فبهذا اللطف والخبرة نظم الثلج وأحكمه . ولقد أتى الله بذرات الماء وحكم عليها فخضعت للنظام وأطاعت واجتمعت بشكل يسر الناظرين كما خضع الحجر الساقط للقوانين السابقة فى التربيع فى الأعداد الفردية وكما خضعت السيارات لقوانين كبلير ونيوتن وأى فرق بين خضوع ذرات الماء فى ذلك الشكل المنظم وبين خضوع «الألكترونات» المتقدم شرحها حول نواتها فى الجوهر الفرد والسيارات فى مداراتها والأحجار فى مساقطها كل يطيع على مقتضى القوانين السماوية وقوانين السقوط وقوانين الثلج وتجمده ــ ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ــ وان من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ــ

أنظر صور الثلج فى الشكل الثانى وهو هذا



(شكل ٢)

﴿ اللطيفة الرابعة لطيفة علم التشريح ﴾

التى وردت بهاهذه الآية التى نحن بصدد الكلام عليها يقول الله تعالى ﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾

ان الله جعل جسم الانسان كمدينة فابتدع لها أربع طبائع منفردات ثم ألف بين كل اثنين منها فكانت أربع أركان مزدوجات ثم كان منها أربعة أخلاط سببت تسعة جواهر و بتركيبها بعضها فوق بعض كانت عشر طبقات أقيمت على مائتين وثمانية وأربعين عمودا ثم مدّها بسبعمائة وخمسين حبلا وجعل فيها احدى عشرة خزانة مملوءة من الجواهر وجعل لها ثلثمائة وستين مسلكا لسكانها وجعل أنهارها ثلثمائة وتسعين جدولا وفتح على سورها اثنى عشر روزنا مزدوجات مسالك لجريانها وجعل لها خمسة حراس وجعلها على عمودين فهذه ثلاثة عشر نوعا

الطبائع . الأركان . الأخلاط . الجواهر . الطبقات . الأعمدة . الحبال . الخزائن . المسالك . الأنهار . الأبواب . الحراس . العمودان .

(١) الطبائع أربع ــ الحرارة . البرودة . الرطوبة . اليبوسة

(٢) الأركان على رأى القدماء أربعة ــ النار . الهواء . الماء . الأرض * والعلم الآن جعل هذه الأربعة مركبات من عناصر تبلغ نحو ٧٥ ولكن نتيجة العلم واحدة لأن المتقدمين والمتأخرين يرجعون الجميع الى أصل

واحد وهو الهيولى وبعبارة أخرى شئ لاوزن له ولالون بل يكاد يكون فرضيا

(٣) الأخلاط الأربعة المتعادية وهى - الصفراء والدم والبلغم والسوداء * والمتأخرون زادوا غير ذلك ولكن نحن الآن فى مقام الاجمال لا التفصيل انما ذلك يهم الأطباء ونحن فى مقام الالمام بالأمور العامة

(٤) الجواهر تسعة - عظم مخ عصب عرق دم لحم جلد ظفر شعر

(٥) الطبقات عشر - رأس رقبة صدر بطن جوف حقو وركان فخذان ساقان قدمان

(٦) الأعمدة ٢٤٨ هى العظام

(٧) الحبال ٧٥٠ حبلا هى الرباطات الممتدة المشدودة على العظام وهى الأعصاب

(٨) الخزائن الاحدى عشرة هى - الدماغ والنخاع والرئة والقلب والكبد والطحال والمرارة والمعدة والامعاء والكليتان والأنثيان

(٩) والمسالك والشوارع والطرقات هى العروق الضوارب ٣٦٠

(١٠) وأنهارها هى الأوردة ٣٩٠

(١١) والأبواب الاثناعشر - العينان الأذنان المنخران السبيلان الثديان الفم السرة

(١٢) الحراس هى الحواس الخمس - السمع والبصر والشم والذوق واللمس

(١٣) العمودان هما الرجلان

وليس فى تعداد هذه إلا إجمال القول فى الجسم أما التفصيل فبعيد الغور فلنقتصر على حاسة السمع وحاسة البصر للاستدلال بهما على الباقى

﴿ اللطيفة الخامسة لطيفة السمع وهى الأذن ﴾

كما انك فيما مضى حار فكرك فى العنكبوت مع دقة جسمه وضموره وحار فى الكواكب السابحة فى الفضاء بحيث لا يرى فرق فى الحيرة بين العظيم والصغير هكذا اخترنا أيت الجسم الانسانى مركبا من أعضاء وحواس وعروق الخ وترى حاسة السمع وحدها لا تقل عن جسم الانسان بل عن العالم كله فى عجائب تركيبها وكثرة تفاصيلها وبدائع دقتها وأنظمتها الدقيقة البديعة فتأمل تجد أنك الآن أمام مدينتين وبحر المدينة الأولى خالية من السكان مقوسة البنيان دائرية السور ليس فيها إلا الهواء يغدو ويروح ثم ترد عليها الرسل أفواجا كل آن بأشكال مختلفة يريدون أن يتوصلوا الى الملك المعظم الذى هو جالس خلف ذلك النهر على عرشه العظيم وتلى هذه المدينة المدينة الثانية وفيها ثلاث أماكن للبريد كل منها يوصل للآخر ما يرد له من الرسائل ويلى هذه المدينة النهر وهو أهم من السابقتين فلو رأيته لأدهشك ما فيه من العجب فانك تراه نهرا عظيما متلاطم الأمواج وهذا النهر ليس كالأنهار يجرى على شبه استقامة بل هو ملتو ثلاث ليات كما تلتوى الحيات من ناحية ومن الناحية الأخرى ملتف كما تلتف القوقعة و بالجملة ان هذا النهر كثير الانعطاف ليس فيه استقامة وتجد فى مائه كرات كثيرة من الحجارة وآلات برقية (تلغرافية) تبلغ ثلاثة آلاف منبثة فى الجهة التى تشبه القوقعة وعلى شواطئ البحر تجد أسلاكا أخرى برقية (تلغرافية) ووراء هذا البحر الملك وعنده صحاب البريد ينبثون جهة الأسلاك البرقية التى على الشاطئ وجهة الأسلاك التى فى البحر وترى اولئك الرسل الذين يأتون المدينة الأولى يرسلون الأخبار الخارجية الى المحطة الأولى فى المدينة الثانية ومنها الى الثانية ومن الثانية الى الثالثة ثم تنقل الأخبار الى البحر خلفهما فتنتقل فى تلك الأسلاك التى هى ثلاثة آلاف بعد مرورها على تلك الكرات الحجرية النافعة لحفظها ويتلقفها رسل الملك المنبثون فى تلك الجهات وبذلك يعرف أخبار الممالك الأخرى هذه هى أوصاف الأذن

أما المدينة الاولى فهى التى يسمونها الاذن الظاهرة المؤلفة من الصوان الذى يجمع أمواج الصوت ومن الصماخ السمعى الظاهر وهو خرق الاذن الذى يؤدى تلك الامواج الى الاذن المتوسطة وطوله نحو قيراط وأما الافواج التى ترد

عليها فهي الحروف الهجائية ومركباتها وأصوات الغناء والالحان وكل مايسمع وهذه لاحصر لعددها

وأما المدينة الثانية فهي الاذن المتوسطة أو الطبلة وهي تجويف بين الاذن الظاهرة والباطنة وتنفصل عن الظاهرة بالغشاء الطبلي وأما الاماكن الثلاثة التي للبريد فهي ثلاث عظمات دقيقة يتصل بعضها ببعض تسمى احداها المطرقة والثانية بالسندال والثالثة بالركاب للمشابهات بينها وبين هذه الثلاثة

وأما البحر العظيم وراءها فهو المسمى بالأذن الداخلة أو التيه وهي عضو السمع الخاص وانما سميت بالتيه لكثرة مافيها من التجاويف والعجائب وفيها سائل فيه خيوط دقيقة مرنة شعرية وكتل متبلورة وفيه ثلاثة آلاف جسم صغير تسمى عصى (كورتي) فهذه العصى هي آلات البرق المذكورة فيما تقدم فاذا قرع الاذن الظاهرة صوت اتجهت أمواجه الى الاذن المتوسطة بسبب حفظ الصيوان للصوت فيقع على الغشاء الطبلي فتهتز العظمات الثلاث في الاذن المتوسطة وينتقل الى السائل ويصادف تلك الكرات الدقيقة التي سميناها حجارة فيما مضى واذذاك يتلقف كل سلك من الاسلاك المسماة عصى (كورتي) التي تبلغ ثلاثة آلاف خبرا من الاخبار وصوتا من الاصوات بحيث يكون مناسبا له فان المسموعات كثيرة جدا من حيوان وشجر وحجر توزع على تلك الثلاثة الآلاف بحيث يمر كل صوت في السلك المناسب له وكأن هذه الثلاثة الآلاف مختلفات القوى كاختلاف الاصوات وكل صوت يتجه للسلك المناسب له ثم هذه تتصل بالشعرات التي في تلك القنوات التي عبرنا عنها بأسلاك برقية أيضا وهناك يمتد العصب السمعي واصلا من المخ فيلتقط تلك الاخبار ويوصلها للمخ الذي عبرنا عنه بالملك في عرشه

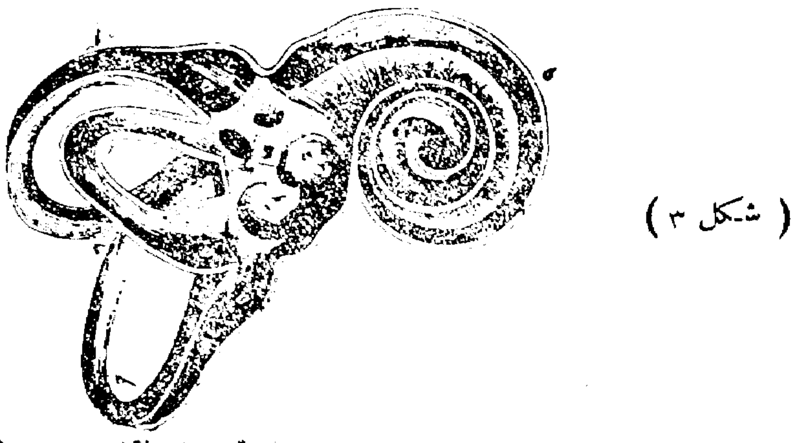
هذه هي حال السمع قد أوضحتها لك بما في الامكان وهذا يكفيك اذا لم تجد متسعا للدراسة العلمية — فتبارك الله أحسن الخالقين —

فانظر كيف جعل لاجل وصول الصوت بالكلام وبالنغمات وغيرها عجائب تبلغ ١٤ عجبا من صيوان وصماخ وطبلة وثلاث عظمات ودهليز وقنوات هلالية وأخرى قوقعية وسائل ورملات حافظات للصوت وعصى كورتي وشعرات في القوقعة وغيرها وأعصاب سمعية فهذه أربعة عشر كأنها ليالي الهلال ليصير فيها بدرا كاملا

ينتقل الصوت فيها حتى يصل الى المخ فتعجب من الجسم الذي نسكنه كيف كان الهواء يحتاج الى آلات ماظهر لنا منها (١٤) مختلفات الصور والاشكال بحيل دقيقة ليصل الخبر الى نفوسنا إذ لاسمع الا حيث يصل الصوت الى المخ وانظر كيف نستعمل مانجهل ولا أبالغ اذا قلت ان أكبر عالم بالطبيعة غافل عن هذه العجائب إلا من علت مداركه وارتقت نفسه وفكر واعتبر وقرأ هذه الآية مثلا وعرفها — هو الذي يصوركم في الارحام كيف يشاء — فالتصوير قد عرفته في الأذن وأما قوله — لا إله إلا هو العزيز الحكيم — فالعزة والقهر قد ظهرا في التصوير فانه نوع أعضاء الاذن (١٤) نوعا فقهرها وذللها لذلك وقوله حكيم راجع للمشيئة فالعزة للتصوير والحكمة للمشيئة فكأنه يقول سبحانه ان تصويري لكم في الرحم لم يكن عن هوى ولكنه عن حكمة وعناية أوجبت دقائق الصنع

والحق أن هذا الابداع غفل عنه أكثر المسلمين وهم نائمون وترى أبناءهم الذين قرؤا هذا يحفظونه لأجل نيل الشهادة أما قراءته لاجل الحكمة وارتقاء العقل فلا — بل منهم من كفر إذ يظن المسكين أنه أعلم من الانبياء عليهم الصلاة والسلام قد اطلع على ماجهلوه وأدرك مالم يبلغوه والحق ماقاله الامام الغزالي اننا أعلم بالطبيعة من أولئك الذين يدعون أنهم طبيعيون بل أقول أنا ان أهل زماننا كثير منهم أهل مكابرة وادعاء وقد آن أن يرجع المسلمون لايام مجدهم — والله هو الولي الحميد — وهاك ايضاح الاذن

أما الاذن الظاهرة فهي مشاهدة وأما الاذن المتوسطة أو الطبلة فقد وضحت فيما قدمناه بالتمثيل فأما الاذن الداخلة وتسمى التيه فتحتاج الى المشاهدة وهاك رسمها



(شكل ٣)

ا ب ج القنوات الهلالية الثلاث ء الدهليز هـ القوقعة ملفوفة لفتين ونصف لفة و الكوّة المستديرة ز الكوّة البيضية

﴿ الطبقة السادسة العين ﴾

تصوّر ثلاثة أطباق مستديرات أمامك على مائدة وهذه الاطباق كل منها أشبه بنصف كرة أقل أو أكثر ثم تصوّر أن كلا من هذه الثلاثة قد وضعت عليها أغطية مستديرة أيضا مجوّفة وهذه الاطباق الثلاثة موضوعة فى داخل بعضها فماذا ترى ألست ترى أن عندك كرة فى داخلها فراغ وفوق الفراغ ثلاثة أغشية وتحته كذلك فاذا وضعت فوق هذه الاغطية الثلاثة منديلا أبيض مثلا صارت الطبقات سبعة فاذا وضعت فى جوف هذه الاطباق مادة رقيقة شفافة لا لون لها فكان أسفلها كالزجاج الذائب ووسطها جامد كالجليد وأعلاها كبياض البيض السائل اذا فعلت ذلك فى هذه الاطباق فقد صوّرت طبقات العين وعرفتها

وليست عين الانسان شيئا غير هذه الطبقات السبع والرطوبات الثلاث فمتى تصوّرت ما تلوته عليك من هذا المثل تصوّرت العين وانما ضربت لك هذا المثل لتفهم ما سيرد عليك بسهولة . لقد تقدّم ان الدماغ منشأ الاعصاب التى للحس والتى للحركة ومنها ما يكون من النخاع وهناك فى الدماغ للقوة الباصرة عصبتان متقابلتا الشكل هكذا



شكل ٤

فاحداهما تتجه جهة اليمين والاخرى تتجه جهة اليسار وتصل كل منهما الى العين التى فى جهتها وهذه العصبة مجوفة وعليها غشاآن غشاء أعلى غليظ وغشاء أسفل رقيق كما يكون للبيضة والجوزة ولسلك الكهرباء وهذه قاعدة مطردة أن كل ما كان لطيفا يجعل له أغشية قليلة أو كثيرة فالغشاء الغليظ متى وصلت العصبة الى العين فارقها وكسا عظم العين بلباس ويسمى إذ ذاك الطبقة الصلبة ولكنه لا يكون تام التكوير كما قدّمنا وهكذا يفارق العصبة الغشاء الرقيق ويصير لباسا وغشاء دون الطبقة الصلبة وتسمى الطبقة المشيمية لانها تشبه المشيمة وأما العصبة نفسها فانها تصير غشاء فوق الغشاءين المذكورين ويسمى الغشاء الشبكى . أفلا ترى أن هذه الثلاثة أى الصلبة والمشيمة والشبكية هى التى ضربت لها فيما تقدّم مثل الاطباق الثلاثة التى هى مدوّرة

فاذا فكرت فى الاغطية الثلاثة فوق هذه الثلاثة فلتسم غطاء الصلبة وهى الاولى (القرنية) وهى جسم كثيف صاف شبيه بصفيحة رقيقة من قرن أبيض . ولتسم الجسم الذى تحت القرنية (بالعنبية) لانه مثل قشر العنبة أسود أو أزرق أو نحو ذلك وانما كانت ملونة لتحصن الاجسام المشفة من ورائها فلا ينتشر ما حصل فيها من الضوء والصور المنطبعة لان سواد اللون يمنع انتشار الضوء . ان الضوء يدخل من ثقب فى العنبية فيتضايق و يتسع بحسب

كثرة الضوء وقلته فكلما قل الضوء اتسع الثقب وكلما كثر الضوء ضاق الثقب . فهذه العنبية غطاء للشبكية . ولنسم الغطاء الذى على الشبكية الذى هو تحت الغطاءين الآخرين بالعنكبوتى لانه كخيوط نسج العنكبوت ولم يكن للادراك بل لضبط السوائل التى تحته فهاهنا ست طبقات ــ القرنية . العنبية . العنكبوتية . الشبكية . المشيمية . الصلبة ــ فرجعت الطبقات الست الى الاطباق الثلاثة وأغطيتها . والطبقة السابعة جسم أبيض اللون صلب يسمى الملتحمة وهو بياض العين وهو امتداد من الجلد الذى هو خارج القحف فهو امتداد الى العين من جميع الجهات التى من خارج الى قرب الوسط ثم انه لما لم يكن شفافا لم يمتد على بقية العين ولو امتد لمنع الابصار فاستعمل منه مقدار ما يكفى فى احكام رباط العين وترك موضع الابصار مكشوفا ليصل الضوء الى آلات الابصار من الطبقات والرطوبات * أما الرطوبات فهى ثلاثة

(١) أولا جسم كالزجاج الذائب الذى هو وسط الشبكية ويسمونها ﴿الجسم الزجاجى﴾

(٢) ويسمون الجسم الشفاف الذى لا لون له الصلب القوام المستدير الشكل المائل للتفرطح كأنه قطعة من الجمد ﴿ بالرطوبة الجليدية﴾ وتسمى أيضا ﴿العدسية﴾ وانما سميت جليدية لانها شبيهة بالجليد فى صفائه ثم ان الزجاجية تحيط بالجليدية بمقدار النصف ويعلو النصف الآخر العنكبوتية المتقدمة (٣) ويسمون الجسم الثالث وهو السائل الابيض الذى يشبه بياض البيض وهو أرق من الاول الذى يشبه الزجاج الذائب ﴿ بالرطوبة البيضية ﴾ وهى التى يعلوها العنبية المتقدمة أى الغطاء الثانى فى مثال الاطباق فكان جوف الطبق الداخلى فيه لبن يعوم فيه زبد قد غرق الى نصفه وفوقه بياض البيض

فانظر كيف كان العصب الممتد الى العين قد صار كأسلاك البرق ﴿التلغراف﴾ لينقل الاخبار الواردة الى الجليدية فوقه فترسم فيها الصور وهو ينقلها مارة فيه الى الدماغ وكيف كان ما تحت الشبكية من الصلبة والمشيمية يأتيان بالغذاء للعين من الاوعية الشعرية الوريدية والشريانية فلذلك عبرنا بالاطباق التى يتعاطى منها الطعام

فالعين إذن تستمد من العروق الوريدية والشريانية تلك المادة الصافية الزجاجية الشفافة المناسبة للابصار وضوء الشمس وقد وضعت تلك المادة على ثلاث درجات مقدرة فى البعد والقرب بمقادير لو اختلت لاختل الابصار وكانت القرنية محدبة والرطوبة البيضية فيها تماسك ما والجليدية مفرطحة فيها صلابة والزجاجية وراءها مائلة لما كان لتوافق ارتسام الصور الواردة مع الضوء فالتحدب يجمع الصور والجسم الثخين يزيد الصور ثبوتا وبقاء وكما تستمد العين الغذاء من العروق تستمد الاحساس من الدماغ فلها من الغذاء المواد الزجاجية الخالصة من الدم الوارد من الطعام المهضوم ولها من الدماغ الاحساس الروحى الشريف . فانظر ما أعجب العلم والحكمة . وما أجلهما كيف عرفنا فى العين من العلم ما لم يحلم به الغافلون وكيف نرى أن طعامنا الذى نتعاطاه قد كانت فيه المادة التى تشبه الزجاج الذى هو مركب من الرمل مع المغنيسيا والقلى فهذان الاخيران متى أضيفا الى الرمل صار شفافا فكيف (١) جعلت القوى التى فى أجسامنا لها آلات لا نعرفها خلصت من الطعام المهضوم أى من الدم تلك المادة المشبهة للزجاج (٢) ثم اختير موضع العين فى الحجاج (٣) ثم كيف كانت العين التى دبرت هذا التدبير موضوعة أمام البدن لتكون حارسة للاعضاء الشريفة التى غطاؤها ضعيف كالبطن وغيره (٤) وأيضا عمل الاعضاء الخارجة كاليدين والرجلين من الامام فتكون العين مشاهدة لاعمالها . ولعمرى ان من لم تطر بهذه الكلمات ولم يشرح صدره تلك العبارات ليلتحق بالعجماوات . ومن لم يحركه العود وأوتاره والربيع وأزهاره فهو فاسد المزاج يحتاج الى العلاج (٥) ثم كيف جعلت الجليدية لتزيد النور انحصارا (٦) وليكون الجمود أعون على حفظ الصور فتصل الى الشبكية المتصلة بالدماغ (٧) وكيف كان الجسم البيضى أمامها والزجاجى وراءها ليكونا لها غذاء لانها لا يتهيأ لها قبول الغذاء من الدم (٨) وكيف يكونان سببا لاستضاءتها (٩) ولتكون هى بهما دائمة الرطوبة (١٠) وليكونا ردءا لها فلا تتصل بحجر العين ولا غيره من كل صلب (١١) وجعلت شعبة الدماغ المتقدمة شبكية لتضبط الزجاجية حتى لا تكون سائلة (١٢) ولتتمكن المشيمية

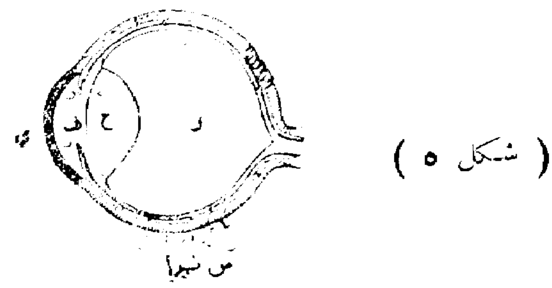
من تغذيتها أمامها (١٣) وجعلت البيضية أرق قواما لتكون أعون على تأدية المبصرات (١٤) والعنكبوتية جعلت لحفظ الرطوبة البيضية (١٥) وألوان العنبية لتحفظ الصور المرسومة فلا تذهب وتضيع (١٦) والثقب يضيق ويتسع بالاختيار كما تقدم (١٧) وجعلت القرنية جسما صلبا لتحفظ العين كلها وهي تتلون بلون العنبية (١٨) وجعلت مشفة لئلا تستر الثقب المؤدي للصور من الاضواء الخارجة (١٩) والملتحمة رباط يمسك العين أن تزول إذ لا ممسك لها سواها (٢٠) وهي غير شفافة فلذلك امتدت حولها من جميع جهاتها إلا الثقب لانها تمنع الصور عنه بخلاف القرنية (٢١) والجفن مقدم من الجلد وله عضلتان من جهة الموقين لينزلاه الى أسفل (٢٢) وعضلة من جهة وسطه لرفعها (٢٣) وجعل الاسفل اه غر لئلا يستر شيئا من الحدقة وهو ساكن دائما (٢٤) ولئلا يجتمع الدمع وغيره من الفضلات داخله اذا كان كبيرا (٢٥) والجفن يمنع الاذى عن العين والغبار والدخان والضوء عند الاقفال (٢٦) والاهداب تمنع الغبار وتدخل الضوء عند الحاجة اليه كما في أوقات هبوب الرياح فهذه ٢٦ حكمة من حكم العين وهي بعض ما ظهر للناس من العلم فيها — والله يعلم ولكن أكثر الناس لا يعلمون — أنظر رسم العين وطبقاتها في شكل ٥ الآتي

{ موازنة العين بالخزانة المظلمة التي يستعملها المصور بالصور الشمسية (الفوتوغرافية) }

اعلم أن النور يأتي من الشمس والكواكب فيقع على الاجسام التي تنعكس على العين ولقد ترى أن الراسمين في أيديهم الخزانة المظلمة وفي بابها ثقب وراءه عدسية وهناك لوح قابل للصورة على كيفية مخصوصة والعين هي كنفس تلك الخزانة وبؤبؤها أي ثقبها بمنزلة الثقب وبلوريتها بمنزلة العدسية وشبكيتها بمنزلة ذلك اللوح الذي تلقى الصور عليه باستعداده لذلك بمواد كيمائية ثم ان النور اذا مر من وسط ألطف الى وسط أكثف فانه يكون أقرب الى اجتماع أشعته واذا مر من وسط أكثف الى وسط ألطف يكون أقرب الى الافتراق والتباعد واذا مر من عدسية محدبة الوجهين كالمحارة أو محدبة بوجه واحد كالانف الاقنى أو هلالية أي صورتها كصورة الهلال فان النور ينضم بدخوله فيها وان دخل من مزدوجة التقعير التي ترى كالنواظم الاهيف أو من مفردة التقعير بأن كانت مستوية من ناحية مقعرة من اخرى أو من مقعرة محدبة فان النور في هذه الثلاثة يكون مفرقا متفرجا فهذه اربعة نواميس ناموسان للاجتماع وناموسان للافتراق فلننظر ماذا حصل في العين فانا نرى أن القرنية أشبه بالهلال وهو مما يجمع النور والرطوبة المائية أكثف من الهواء والبلورية محدبة الوجهين جامعة للنور والزجاجية جامعة أيضا فانظر كيف اختير في خلق العين ما يهيئها للابصار فالقرنية والرطوبة المائية والبلورية والرطوبة الزجاجية انطبق عليها ناموس اجتماع النور اثنان من حيث الزجاجات وهي الهلالية والعدسية محدبة الوجهين واثنان من حيث انهما جسم أكثف

فاذا دخل النور انكسر أولا في القرنية ثم في الرطوبة المائية ثم في البلورية كثيرا ثم في الزجاجية ويقع على الطبقة الشبكية فترسم الصورة عليها مقلوبة ولم يعرف الى الآن لماذا نرى الأشياء معتدلة

وهناك ناموس آخر وهو أن السواد جامع للضوء يمتصه فلونت المشيمية به فهي تمتص النور لئلا يشوش الصورة بانعكاسه من جهة الى جهة داخل العين



(شكل ٥)

فما عبرنا عنه بالأطباق الثلاثة المستديرة في المثال المتقدم هو الصلبة ا والمشيمة ب والشبكية س وما عبرنا

عنه بالأغطية الثلاثة هو القرنية ى والقزحية د د ولونها إما أسود وإما أزرق وإما أشهل فأما العنكبوتية فلم توجد فى هذا الرسم واضحة فهى ملتصقة بالقزحية والفتحة د د هى البؤبؤ

وأما الملتحمة فهى التى تكون فوق القرنية وليس لها فى الرسم وجود هنا وأما الرطوبة المائية وهى السائل الصافى فهو موضوع فى غرفة ف وأما البلورية أو العدسية وهى الجسم اللون الأملس الشفاف المزدوج التحديب المؤلف من طبقات كالبصلة وهى أكثف فى الوسط منها فى الجوانب فهى ح وأما السائل الزجاجى فهو جسم شفاف لزج كبياض البيض النيء وهو يشغل ما بقى من الخلاء وراء البلورية داخل العين د

﴿ من عجائب العين إحكامها ﴾

اعلم أن العدسية المزدوجة التى تشبه البلورية فى العين كلما قرب الشبح منها بعدت بؤرتها أى محل تجمع النور المنعكس وراءها فبعدت الصورة وكلما بعد عنها قربت صورته منها

وعلى هذه القاعدة لا يمكن أن يرسم الصور الأجسام فى خزانته المظلمة إلا على بعد مخصوص لو تركه لاختل ولكن فى العين رأينا عجبا رأينا أن الانسان متى رأى الشبح وهو بعيد عنه كما يراه وهو قريب منه لماذا هذا لأن الانسان أعطى كما أعطى الحيوان قدرة على تشكيل البلورية فيزيد تحدب العين فى النظر الى البعيد ويقلله فى النظر الى القريب بحيث تقع الصورة على الشبكية تماما

ألا ترى أنك اذا أدمت النظر الى شبح قريب ثم حولته بغتة الى شبح بعيد رأيته أولا غير جلى ثم ينجلى بعد قليل فى مدة يمكن الرائى فيها أن يحكم عينه ويجعل بؤرتها مطابقة لذلك البعد وهذا لمن يكون فى الخزانة المظلمة التى زجاجتها جامدة لا تحويل لها عن صورتها * فتعجب من الحكمة والنظام

نواميس النور والسواد والقدرة على تنويع البلورية والبعد المخصوص الذى وصفت فيه الشبكية بحيث تقع الصورة عليها ولو اختل شرط من هذه لكان الناس والحيوان عميا ـ ان ربى لطيف لما يشاء انه هو العليم الحكيم ـ

﴿ لطيفة فى عجائب العين ﴾

مما يجمل ذكره فى هذا المقام ما جاء فى كتاب مسرات الحياة للورد افبرى الانجليزى الذى نقلنا عنه سابقا قال فى فصل كتبه فى الصحة

ان فى الجسم الانسانى أكثر من مائتى عظم ولكل منها شكل مخصوص بها ولولا حسن صنعها لعاقت حركاتنا التى نأتيها كل يوم (يقول مؤلف هذا التفسير وسيرد عليك قريبا هندسة الأعضاء وقياسها العجيب منقولا عن آبائنا حكماء الاسلام) ثم قال وفيه (٥٠٠) عضلة كل منها تتغذى بمئات الأوردة والعروق تديرها أعصاب كثيرة والقلب وهو بين هذه العضلات ينبض فى السنة ثلاثين مليون مرة فاذا توقف عن الخفقان قضى الأمر وانقطعت الحياة ولو تأملنا فى أدوات الحس كالعين مثلا بما فيها من قرنية وعدسية وطبقات مائية وزجاجية تنتهى فى الشبكية لتولانا العجب فان هذه الشبكية التى لا تزيد عن ثخن الورقة تتألف من تسع طبقات مختلفة أبعدها يتألف من نحو ثلاث ملايين مخروط ونحو ثلاثين مليون اسطوانة وأعجب من هذا كله الدماغ فقد حسب أحد الفيولوجيين أن المادة السنجابية التى فى تلافيق الدماغ نحو ستمائة مليون خلية تتألف كل منها من ألوف من الدقائق الظاهرة وكل دقيقة تتكون من ملايين الجواهر وقد قال قبل ذلك لقد نحيا السنين الطوال ولا نكاد نشعر أن لنا جسما اه

﴿ مسارح الفكر ﴾

فانظر أيها الذكى الفطن وتأمل كيف يقول الله تعالى فى هذا المقام ـ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ـ انظر كيف وضع البطورية والرطوبة المائية والزجاجية والقرنية والشبكية والمشيمية والقزحية وكيف جعلها ملائمة لنواميس النور الذى لم يشاهده الجنين ولا يزال فى الظلمات . تأمل أيها الذكى وغض النظر عن كتب الديانات وعن آراء الفلاسفة وتأمل باستقلال فى نفسك ولا تقلدنى ولا تقلد أحدا بل حكم عقلك فهل المادة

التي هي مكونة من ذرات جارية أجزاؤها بعضها على بعض بسرعة مختلفة القدر هي التي كانت تدبر هذه الحكمة وهل هي التي كانت قارئة نواميس النور وأحواله فوضعت في الجنين تلك الحدقة ملائمة للنور الذي لم يصل له الطفل بعد فتكون قد لاحظت ذلك كله وخافت أن لا تقع الصورة على الشبكية فوضعتها قريبة منها وحافظت على الصورة بالسواد وأخذت تنتقي الأشكال الملائمة للإبصار . انظر بعقلك فالفكر هو المسيطر الأكبر في هذا العالم

على نفسه فليبك من ضاع عمره * وليس له منها نصيب ولا سهم

هذه هي الحياة وهذه هي السعادة وكأننا ونحن نقرأ هذا ننظر في أصول الحكم العالية والنواميس الشريفة الراقية

فياليت شعري أمواج النور تجري من الكواكب سارية الى الأرض كيف كانت هي أهم ما ينتفع الناس به لولا أنوار الشمس وحرارتها ما عاش حيوان ولا نبات فالحرارة الشمسية تذيب الجليد وبها تجري الأنهار وبها الحياة ثم ضوؤها جعلت العيون مناسبة له مناسبة تامة فأبصر بها الحشرات وسائر الحيوان والانسان ـ إن ربي لطيف لما يشاء انه هو العليم الحكيم ـ

واعلم أن النور ينفذ في كل شفاف ولو اختلفت مصادره وأما أشعة الحرارة فلا تنفذ في كل جسم شفاف اذا اختلفت مصادرها . ان حرارة الشمس تنفذ في كل الاجسام الشفافة كالنور وأما الحرارة المنعكسة عن جسم في الارض فانها لا تنفذ في بعض الاجسام الشفافة

وترى أن حرارة الشمس تنفذ في الهواء والبخار المائي الذي فيه وزجاج النوافذ ثم تمصها الارض وما عليها وتشعها أمواجا مظلمة طويلة بطيئة . وعلى ذلك لا تستطيع أن تخترق بخار الماء في الهواء بل تحبس فيه لتدفأ بها المخلوقات الأرضية

فكيف نفذت الحرارة من البخار ثم وقعت على الأرض وبقيت مخزونة بين البخار والارض وأصبح البخار كالباب يفتح لحرارة الشمس ثم يقفل عليها لنفع المخلوقات . و ياليت شعري لقد وجدنا فيما كتبناه هنا حكما عالية وتدبيرا متقنا ضوء ينفذ وحرارة تخزن وماء في الهواء صار بخارا وضوء يجري فتبصر به العين التي جمعت حكما لا تحصى فهل ذلك كله كان بتدبير تلك الذرات التي لا تعلم الاحركات فهل تلك الحركات كانت تدرس كل هذه النظم . على العاقل أن يفكر ويتبصر ـ إن الله عليم حكيم ـ

﴿ اللطيفة السابعة الرحمة في قلوب الوالدين ﴾

قد ذكرنا فيما مضى أن ناموس الجاذبية عام في الكواكب وفي الأحجار وفي الذرات ويتبع ذلك النواميس العامة في العين والاذن والماء والثلج والحرارة كل هذه جارية على نواميس طائعة منقادة خاضعة ومن هذا القبيل الرحمة التي نراها سارية في قلوب كل والد من حيوان وانسان فاذا انجذب الحجر الى مسقطه والكوكب في مداره والنور جرى في العين بالصور المرئية والهواء في الاذن بالاصوات هكذا نرى كل انثى مغرمة بولدها تفديه بنفسها لم كان هذا الناموس عاما . نعم إنه من قوله تعالى قالتا أتينا طائعين فهذا انقياد وخضوع على سبيل المحبة والغرام لا الاكراه والله تعالى يقول ـ لا اكراه في الدين ـ ويقول ـ قالتا أتينا طائعين ـ فالعلوم تعرف بالميل اليها والحب لها والولد يربى بالحب له والعطف عليه

﴿ حكاية خادمة ﴾

كنت أكتب في هذا المقام إذ قصت علي الخادمة قصصا وقت الافطار في هذا الشهر (شهر رمضان) قالت لقد رأيت عجبا رأيت الأرنب ومعها أولادها فقدمت لها خبزا فأخذت تدفعه برأسها وتمنع أولادها من تعاطيه فأخذتها خارج الحجرة وأقفلت الباب على أولادها وأخذت أضربها لمنعها أولادها من الأكل ومع شدة الضرب كانت تجري نحو الباب فقلت في نفسي لا بد أن يكون هناك أمر ففتشت الخبز فرأيت فيه دودا فعلمت خطئي وبكيت وقبلتها ورميت الخبز

وأبعدته عن أولادها وأخذت هي تلحسهن عطفا ومودة انتهى كلام الخادمة فالعجب كيف عرفت الضار وجهله الانسان وكيف كان العطف يعم كل حيوان

﴿ اللطيفة الثامنة الشهوات الغريزية في الحيوان ﴾

إن الحيوان ومنه الانسان ليس يأكل ولا يشرب ولا يقرب انثاه إلا طوعا بارادته وشهوته التي زينت له فيخلق فيه الجوع والعطش والشبق فيأكل ويشرب ويتزوج كل ذلك طاعة لاجبر فيها وحب لا كراهة فيه . ولو أن الناس كلفوا أن يأكلوا ليعيشوا وليس لهم داعية شهوة بقيما عاش انسان ولا حيوان وهذا من قوله تعالى ــ قالتا أتينا طائعين ــ أطاع الانسان غريزته فأكل والأم وجدانها فربت الولد والحجر مسقطه والكوكب قانونه كل ذلك حب واحد وغرام منتظم ــ وما كنا عن الخلق غافلين ــ

الله خلق الشهوات وزينها في القلوب ليكون هذا النظام الانساني والحيواني ولذلك تراه يقول في هذه السورة انه سبحانه زين للناس شهواتهم وعدد مناسبة وهي النساء والبنون والذهب والفضة والخيل والانعام والزرع

الله زين ذلك في القلوب فعشق الرجال في النساء وحبب اليهم البنين والنقدين الخ وذلك في قوله تعالى ــ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ــ ثم أخذ يزهد فيه فقال ــ ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ــ

نعم حبب الله ذلك للناس ولولا هذه الشهوات ماعاش حيوان ولا انسان ولا كان دين ولا دنيا ولم يكن علماء ولا أنبياء وهذه الشهوات من الطاعة المذكورة في قوله تعالى ــ قالتا أتينا طائعين ــ

هذه منافع الشهوات التي سلطها الله على الاحياء ولكن لما كانت مقصودة لغيرها لا لذاتها والمقصود من العالم الانساني التعارف والتواد والغرض من المال بقاء الأجسام والغرض من شهوة الجنسين انما هو وجود الأولاد لا غير . لذلك سلط على الناس الروادع والزواجر القاهرة حتى لا يتمادوا في تلك الأشياء فأنزل في العادات غالبا استقباح الزنا وكشف العورة والتلفظ بالقبيح وأودع في النفوس احتقار الشره والفسق والجشع وحبب الى الناس كل عفيف قانع ثم أنزل الديانات فأمر الناس بالانفاق وحرم عليهم الزنا وأمثاله كل ذلك ليريهم أن تلك الشهوات مقدمات والمقدمات لا يجوز التغالي فيها كعلم النحو والصرف وأمثالها وهي مقدمات للقرآن والعلوم . فلتكن الاطالة في النتائج لا في المقدمات

هكذا الحيوانات التي تأكل الحشيش لما كانت في قديم الزمان قد كثرت وملأت السهل والجبل وقد وجدت آثارها في علم طبقات الأرض وأن تلك الحيوانات كانت تتراكم في غار واحد من كثرتها وتموت جوعا لأن حشائش الأرض ما كانت لتكفيها وبعد ذلك حدث خلق الآساد والنمور والضباع وما أشبه ذلك لتأكل لحمانها فلا يتعفن الجو فلا يكون الوباء

هكذا هنا سلط على الناس الشهوات رحمة منه ثم أنزل الديانات وألهم العلماء الحكمة ليحفظوا الناس من غوائل التمادي فيها ــ إن الله حكيم عليم ــ

﴿ اللطيفة التاسعة القطن وزراعته اجابة لداعية حاسة اللمس والبصر ﴾

انما خصصت الكلام على القطن وزرعه لما فيه من العجب العجاب وأن الانسان وهو يزرعه مدفوع بحب الزينة والمناظر البهجة وتوقي الحر والبرد وهو مع ذلك أشبه بالنحل يجمع العسل من الزهر وللانسان منه حظ عظيم هكذا هنا أصبح العالم الانساني مغرما بالقطن لدخوله في الثياب وهي زينة محبوبة فدعا ذلك الناس لزرعه كسبا للمال عند الزارعين والحالجين والناسجين والصابغين والخائطين والبائعين وأصحاب العربات والقطرات والسفن للنقل وكان ذلك زينة لكل لابسة ولابس من الناس أجمعين . لذلك زرعه أهل بلادنا المصريون وأهل أميركا وامم أخرى اجابة لداعية الاتقاء من الحر والبرد ولداعية حب الجمال والزينة ذلك كله جاء طوعا لا كرها . ثم انك تجد أن هذا القطن

والناس يزرعونه قد جعل مرعى ومهدا وخصبا وبساتين وقصورا وأرائك وحريرا لعوالم لا تكاد تحصى ولا تستقصى يقول الانسان ان القطن قد خلق لى وأنا زرعته لنعيمى وسعادتى وهو فى الحقيقة مسخر وهو لا يشعر كما سخر النحل لجنى العسل والناس يأكلون أكثره هكذا القطن يظن الناس أنهم هم المتمتعون به وفاتهم أنهم يعملون لمنفعة الدودة وحشرة أبى دقيق تلك الامم التى دخلت فى جنات ونعيم فى قصور الأشجار وحجرات الأوراق ومقاصير الأزهار ومخادع اللوز

فترى رعاك الله الدودة قد تبوأت تلك الأرائك الحريرية الداخلة فى تلك اللوزة وهى فرحة متمتعة وحشرة أبى دقيق تضع بيضا على الورق منظما ثم يفقس بعد أيام ويصير دودا وذلك الدود يسمن وهو يرعى من الورق كما يرعى دود اللوز فى أحشاء شعر القطن وهو نائم فيه مستدفئ وتلك الأمم سعيدة فى قصورها نوائم فى خدورها والهواء عليل والجو جميل كل هذا والانسان المسكين يسعى لسقى القطن ويحاول جنيه فلا ينال منه إلا القليل فدودة الورق ودودة اللوز فى تبوئهما أكلهما الورق واللوز أشبه بالانسان إذ يأكل العسل . والانسان وهو يسعى لسقيه أشبه بالنحل وهو يجمع العسل من الزهر أفلست ترى أن الحيوان والانسان كل مسخر على سبيل الطاعة والحب والغرام فالمرأة لحب ولدها ربته والنحلة لحب عسلها جمعته والانسان لحب القطن زرعه طاعة لا قهرا ولو كان ذلك قهرا لم يجمع النحل العسل ولم يزرع الانسان القطن حبا فى سواد عيون الفراشة والدودة ولكن حبا فى شهوته هو وبهجة نفسه وفى الوقت نفسه انتفع الحيوان — إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا —

ولقد ذكرت المجلة السورية التى تصدر فى نيويورك فصلا ضافيا فى دودة القطن فبينت أن هناك حشرة لا يتجاوز حجمها الذبابة ظهرت فى بلدة مونكلوفا ببلاد المكسيك نحو سنة ١٨٩٢ وانتشرت كجيش من الجراد حتى حرم أهل تلك الجهة زراعة القطن وهى ولاية (تكسس)

وقد فتكت بالقطن فتكا ذريعا وانتشرت فى الولايات المتحدة انتشارا مريعا فتثقب الانثى لجتها لوزة القطن فتعيق نموها ثم تدخل وتعشش فيها وتبيض فيلطخ بياض خيوط القطن ثم يخرج صغار الحشرة وقد فتكن باللوزة ولقد عملوا لها تجارب كثيرة لقتلها ورشوا القطن بسائل فقتلها ولكن الله غالب على أمره والحشرة لا تزال تخرب المزارع — ولله عاقبة الامور — . الانسان هنا قد زرع لتلك الحشرة ولما كثرت أخذ يقتلها ظانا أنه يصون القطن وهو فى الحقيقة يفعل ما فعله الله عز وجل إذ خلق الحيوانات الكاسرة لتفتك بالحيوانات المجترة رحمة بها وبالعالم ليكفيها العشب الذى ينبت فى الأرض هذه بعض الحكم . ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير —

الانسان مسخر لعيش هذا الحيوان على القطن وجميع مزارع الانسان نافعة للحيوان وهو يزرع حبا لمنفعة نفسه ولكن الله سخره لغيره ومن نظائر هذا تلك الحيوانات العائشة فى أجسامنا الماصات دماءنا فنحن نأكل حبا فى الغذاء ودفعا للجوع وطلبا للشهوات ولكن تلك الحيوانات تشاركنا فى داخل أجسامنا لجميع الأمراض انما تكون بحيوانات تعيش فى أجسامنا وأخص بالذكر الدود الذى يورث مرض البلهارسيا فانه يعيش فى العروق الداخلة فى الكبد وفى فروعه المعدية فى المجارى البولية والامعاء الغلاظ وترى الحيوان مسلحا بشوكة مدببة فى جدر الأمعاء والمجارى البولية فتمزق الأوعية الدموية فيحصل النزف . ومتى قضى المريض حاجته سقطت بويضات البلهارسيا مع البول أو البراز وخرج الجنين بعد الفقس فيدخل القواقع وبعد أيام تسبح تلك المخلوقات فى الماء فاذا صادفها انسان خرقت جلده وباضت فى جدر الامعاء والمجارى البولية . وذلك دأبها الى يوم الدين فتقتل الآلاف وآلاف الآلاف فى البلاد المصرية وغيرها من قديم الزمان

الناس زرعوا القطن لمنفعتهم وأكلوا الخبز وهضموا الطعام لشهواتهم ولكن الحكمة المدبرة قد قضت أن يكون القطن مرتع الحشرات واجسامنا مرابع للديدان الفاتكات — إن فى ذلك لآيات للعالمين —

﴿ اللطيفة العاشرة حب العلماء والحكماء والأنبياء للتلاميذ والأمم ﴾

ومن الطاعة المذكورة حب المعلمين للتلاميذ والعلماء والمؤلفين للامم والحكماء والأنبياء للناس من سائر الأجناس ليعلموهم وليتنقلوهم من حال النقص الى حال الكمال كما فعلت الأم بولدها والزارع بقطنه والحجر فى سقوطه والسيار فى جريه والالكترونات فى الجوهر الفرد كل ذلك طاعة ولو نطق الحجر والكوكب لقال ما تقول الأم ويقول العالم وزارع القطن انهم جميعا يعملون لشوق فى أنفسهم وغرام حل بقلوبهم والأنبياء خاصة بشوق علوى ووحى سماوى علوى لا كوحى النحل الذى هو من قبيل الغرائز أما هؤلاء فمن قوة قدسية علوية . هذه اللطائف العشر تريك تلك الطاعة العامة فى المخلوقات

﴿ اللطيفة الحادية عشرة ﴾

لقد رأيت أن هذا العالم كجسم واحد وحيوان واحد واليه الاشارة بقوله تعالى ـ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ـ ها أنا ذا قد اصطفيت لك من العلوم أجلها ومن الحكمة أبهاها ومن الطبيعة أغلاها ومن الدر أثمنه ومن الياقوت أبهره . قد عرض الله عليك جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمفكرين . أسمعتك الخلاصة فاقرأها وفكر فيها فهى من الجمال الأبهى والحسن الأجلى والنظام الأسنى . كل ذلك لاشراق نفسك واسعاد حياتك وصفاء ذاتك فالجاهلون كالفحم يحترقون والعلماء كالماس يشرقون ولا فرق بين الألماس والفحم فى أصل المادة ولكن الفرق فى ترتيب الذرات عند تركيبها هكذا الجاهل والعالم تشابها ذاتا واختلفا فى اشراق نفس بالعلم وإظلام أخرى بالجهل ـ هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ـ

الى هنا انتهى الكلام على الأمر الثانى وهو قوله تعالى ـ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ـ وبه ختم الكلام فى تفسير قوله تعالى ـ ان الله لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ـ

﴿ خاتمة هذا المثال ﴾

اعلم أن هذه المباحث هى التى يطلبها الاسلام بل هى صبغة الله كما قال تعالى ـ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ـ ألا ترى أن هذه النظم والعجائب والحساب والهندسة والابداع هى المعبر عنها بقوله تعالى فى هذه السورة ـ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ـ ثم انظر كيف يقول بعدها ـ ان الدين عند الله الاسلام ـ وأنت تعلم أن علماءنا قالوا ان الاسلام هو كل دين نزل على نبى قبل النسخ وانظر كيف ذكر الاسلام الذى هو الدين العام عقب ذكر هذه النظم العجيبة فكأن الاسلام العام يدعو حثيثا الى معرفة هذه العوالم واتقانها وانظر كيف يقول فى آية أخرى ـ انما يخشى الله من عباده العلماء ـ بعد قوله ـ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها الآية ـ كل ذلك تذكير للمسلمين ليعلموا أن أجل العلم هو علم الطبيعة والفلك والحيوان والنبات وأن العلماء بذلك هم أقرب الى الله وهم الذين صبغوا صبغة الله التى هى أحسن صبغة وقد قال العلماء الحكمة هى التشبه بالله بقدر الطاقة البشرية والتشبه بالله يكون بالعلم مثل ما بينته لك فى هذا التفسير وبالعمل ونشر الفضيلة والاعتدال . هؤلاء هم الاولياء وهم هم الصالحون وانظر كيف ابتدأ الله هذه السورة بوصف الله بأنه لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء وبأنه حكيم فى صنعه ثم ختمها أيضا بقوله ـ ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الآيات ـ وانظر كيف كان نبينا صلى الله عليه وسلم يقوم آخر الليل ويمسح وجهه وهو ينظر للنجوم ويقرأ هذه الآيات أفليس ذلك يعرفك تقصير هذه الأمة البائسة النائمة وأن المسلمين الحاليين لو عرفوا أنه صلى الله عليه وسلم كان نظره فى الكواكب من آخر الليل يتقدم على صلاة التهجد كما فى البخارى لكانوا أغزر الأمم علما بالعلوم الكونية ولم تدسهم الفرنجة ولم يذلهم الطامعون

تبين لك أن الحب به قامت السموات والأرض وبه انفلق الحب والنوى وجرى النجم وهوى وسقطت الأحجار وانجذبت الأجسام وأرضعت الأمهات أولادها وألف العلماء وعلم الأنبياء وبرهن الحكماء فالحب هو أصل الكائنات وابداع الموجودات . فليكن التعليم بطريق مشوق جميل سار للتلاميذ مفرح لذيذ أما التعليم الذى لا تقبله النفس فلا ثمرة فيه وعلى ذلك يخصص كل امرئ فيما يميل اليه ويهواه ويهيم به ويراه كما قدمناه فى سورة البقرة فى قوله تعالى - لا يكلف الله نفسا إلا وسعها -

ولعمرى لا سعادة لنوع الانسان فى هذه الأرض إلا اذا كان العلم معشوقا محبوبا مرغوبا فيه وأجل ما رغب فيه أن يكون بوازع دينى فاذا اتفق فى هذه الأرض أن دينا يطلب العلوم ويعشق فيها وقرنت هذه الغاية ارتقى الانسان أربعة أضعاف ارتقائه الحالى لأن الناس يقرءون إذ ذاك العلوم كأنهم مجبولون عليها . واذا كانت أمتنا الاسلامية لما اغرمت بالفقه نبغت فيه فما بالك بها اذا ظهر أن العلوم التى هى أرقى من الفقه وألذ منه وأقرب الى رقى النوع الانسانى وأملك لهواه وأحق بعنايته من النجوم الباهرة والرياض الناضرة والبحار والسفن الماخرة والدر والمرجان ومافيه من كل فاكهة زوجان اذا عرف المسلمون ذلك تظهر فيهم أمة تلم بنجيها التاريخ وتقود الأمم وتعلو الثريا واذ ذاك يظهر سر قوله تعالى - ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون -

﴿ الكلام على أن كل ركعة فى الصلاة تضمن دراسة علم الفلك وعلم التشريح وعجائب النفس ثم الغرائز والقوى فى العوالم العلوية والسفلية والكلام فى أن العقول موازين نصبها الله فى الأرض ﴾

تبين لك فيما سبق أن حركات الذرات فى الجواهر الفردة وسقوط الأحجار وجرى الكواكب وانتظامها والنسب التى بينها راجعة الى الجاذبية الطبيعية وبعد ذلك تكون الغرائز الثابتة كرحمة الوالدين لأولادهما من حيوان وانسان وحب مابه الحياة من طعام وشراب وتزاوج ولباس ومسكن ودفع أعداء لما يطلب ذلك من غرائز الجوع والعطش والشبق والتأذى من الجو ومن العدو وما أشبه ذلك ويتلو ذلك العقول الانسانية المنظمة للقوى السابقة الحافظة لكيان هذه العوالم وبعدها تأتى النبوة القدسية والوحى الذى يختص به أناس لهداية الناس . وتأمل كيف كان العقل وسطا فلا هو منحط لدرجة الغرائز كالنحل والنمل والوالدات من سائر الحيوان ولا هو سام جدا لدرجة النبوة والقوة القدسية وهو المسلط على ماتحته من غرائز فبحث فى النبات والحيوان والمعادن واتخذ المساكن والملابس والدواء واجتنب الداء . فانظر كيف قام هذا العقل مقام الراعى وكانت الغرائز الفطرية مقام الرعية وكذلك نظر بفطنته فى القوة القدسية التى اختص بها الأنبياء وقال العقل انما بعض هذه اشارات فلا فكر فيما نزل من الوحى ولا ستخرج جواهره فأتحلى بها - مثلا شريعتنا الاسلامية جاءت على لسان رسولنا صلى الله عليه وسلم وسيكثر فيها كما قلنا أهل العقول فيقولون نحن نصلى وندعو الله ونخاطبه فنقول عند الاعتدال من الركوع ﴿ ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الارض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شئ بعد ﴾ لماذا يشير هذا الحمد . يشير الى أن الحمد على مقدار النعمة الواصلة للعبد وقد تبين فى هذا التفسير أن الشمس والقمر والكواكب الثابتة والسيارة متضامنة فى نفع العوالم وحركاتها مرتبطات ببعضها وكأن لأرض ومن عليها مرتبطون بالشمس ومامعها بدليل الأنوار المقتبسة منها - وفى السماء رزقكم وما توعدون - فليس الرزق من الأرض وحدها بل الشمس والنجوم تغدق علينا النعم بالتسخير وذلك باضوائها باذن الله والنجوم الثوابت نرى احتياجنا لها بالاهتداء بها فى ظلمات البر والبحر فكانت النتيجة لهذا أن السموات والأرض وما بينهما ومافوق ذلك كل ذلك متجاذب متحد فى نفع الانسان فليكن الحمد ملء هذه العوالم والحمد على المجهول رياء كاذب وعبث فكأن هذا الدعاء وضع فى الشريعة ليتنبه اليه ذوو العقول من المسلمين ويقولون كيف يكون ملء السموات والأرض ونحن بذلك جاهلون ✽ لابد من العلم بها حتى نكون حامدين ✽ ثم ان العلم بها قد فتح لك بابه فى هذا التفسير ويستكمله المتعلمون فى الأجيال المقبلة . هذا ماسيعرفه أبناؤنا بعدنا . ويقولون أيضا اننا

عند

عند الركوع تقول ﴿ خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي وما استقلت به قدمي لله رب العالمين ﴾ وتقول في السجود ﴿ سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين ﴾ فيرونه في الركوع يذكر المصلي أنه خشع سمعه وبصره ومخه وعظمه وعصبه وجميع جسمه أليس معنى هذا أنه يقرأ علم التشريح حتى يعرف تفصيل هذه الأعضاء . أوليس قوله في السجود * سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره هو عين ما قدمناه من معرفة علم التشريح وخلق العين والسمع كما فصلناه

و يا ليت شعري هل يدرك المسلمون هذه الحكم هل يعلمون لماذا كان ذكر السمع والبصر وما استقلت به القدم . و بعبارة أخرى لماذا كان علم التشريح في حالتي الركوع والسجود ثم لماذا كان ذكر السموات والأرض وما بينهما من العالم العلوي في حال الرفع والاعتدال . لو علموا ذلك لكانوا أمة عظيمة ولكنهم يصلون وأكثرهم نائمون و يعبدون وهم غافلون صم بكم عمي فهم لا يعقلون ـ إلا قليلا منهم ـ وقليل من عبادي الشكور ـ

﴿ الجواب وايضاح المقام و بعض أسرار الصلاة ﴾

لما كان المصلي رافعا رأسه في حال الاعتدال واقفا ناسب أن يذكر السموات العلى ولما كان في حال السجود والركوع ناسب أن يذكر ما يخص جسمه من العجائب والتشريح وكأن الصلاة درس للمسلم تذكره أنه تارة يبحث في العلويات وتارة يبحث في السفليات فان رفع رفع رأسه ففي السموات يكون فكره وان ركع أوسجد فالى النظر في أمر جسمه وكأن الركعة الواحدة للمسلم هي الحكمة كلها والفلسفة أجمعها اذ لا علم فيها بعد العلويات والسفليات وما يتصل بهما من العلوم . ان المسلمين في مستقبل الزمان غير من رأيتهم اليوم من النائمين . وقد سلكت سبيلا سيسلكونها وقصدت قصدا سيؤمونه والله هو الولي الحميد . فيجب على المسلمين بعدنا أن ينشروا علم الطبيعة وعلم الفلك والتشريح الخ وليعط كل امرئ من العلم على مقدار طاقته حتى العامة يكون لهم إلمام على مقدار حالهم فهذا هو مقصود هذا المقال . وهو ان العقول تفكر فيما هو أسفل منها من الغرائز فتحفظ الحرث والنسل والمدن والقرى وتفكر فيما هو أعلى منها وهو الوحي فتنظر في رموزه وتسير في طرائقه ولا تقف عند لفظه ـ ولله عاقبة الامور ـ

فكما نبغ آباؤنا في الاحكام الفقهية من آيات قليلة فلينبغ في المستقبل المسلمون في آيات أكثر منها ولتستنر عقول المسلمين ـ والله لا يضيع أجر المحسنين ـ

فرجع الامر في الركعة الواحدة في الصلاة الى نظرتين نظرة في الانفس ونظرة في الآفاق أما نظرة الانفس ففي الركوع والسجود وأما نظرة الآفاق ففي الرفع والاعتدال فاذا رفع المصلي رأسه فذلك لدرس العالم من سموات وأرضين واذا ركع أوسجد نظر في نفسه والسجود أهم وفي الآية ـ فاسجد واقترب ـ ولا معنى للقرب إلا العلم وفي الحديث أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فالقرب كما قال الغزالي بالعلم والعلم هنا علم النفس المرتبط بعلم التشريح المذكورين في قول المصلي وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين . وفي الحديث من عرف نفسه عرف ربه فالمصلي عند رفع رأسه ينظر نظرة نبينا صلى الله عليه وسلم كما قدمناه عن البخاري اذ كان يقف آخر الليل و يقرأ ـ ان في خلق السموات والارض الآيات ـ في آخر هذه السورة واذا ركع أوسجد فكأنما يفسر الآيات أول هذه السورة ـ هو الذي يصوركم في الارحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ـ اه

﴿ الكلام في تفسير قوله تعالى ـ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات الآيات ـ ﴾

ان الله عز وجل ذكر في هذا المقام العلوم الكونية والكتب السماوية و بدأ بالثانية فذكر منها التوراة والانجيل والقرآن وثنى بالعوالم العجيبة من الارض والسماء وتصوير الاجنة في الارحام . وأنت خبير أن العلوم اما من الوحي الصادق واما من الحكمة العقلية والمشاهدات الطبيعية فالاولى للعموم والثانية للخصوص ثم ان القسمين قد يكون العلم فيهما مشوبا بالابهام مورثا الشكوك محوجا العقول الى الكشف فأبان سبحانه أن في الوحي ما هو محكم وما هو متشابه يرجع فيه الى المحكم المفهوم فللعقول فيه جولان وللنفوس فيه موازين بها يزنون الحق و يعرفون

مواضع الخطأ من القول ولم يذكر سبحانه محكما ومتشابها في العالم الطبيعي فانظر كيف ذكر علم العموم وعلم الخصوص وأبان المحكم والمتشابه من الاول ولم يبينه في الثاني

وأنا الآن أبين لك ما قصه الله من المحكم والمتشابه في القرآن ثم أقفي على آثاره بالمحكم والمتشابه من العلوم الطبيعية ان الله بين أن في كلامه محكما ومتشابها وترك المحكم والمتشابه في أفعاله في السماء والارض للعقول والافهام فها أنا ذا أبين لك الامرين لتقف على الجمال والبهاء والحسن والكمال والابداع والغرائب والبدائع والعجائب وستطلع أيها الذكي في هذا المقام على جمال الطبيعة وكيف انتظمت الكائنات الحيوانية والنباتية والمعدنية وكانت سلسلة واحدة منظمة متناسقة لا خلل فيها ولا عوج وكيف كان الجنين يمر في أدواره على هذا النمط وهو نمط النسق المنتظم في أشكال الحيوانات متنقلا من أدناها الى أعلاها ثم أريك الجمال في تناسق الأعضاء في الأنواع المختلفة كيدى الانسان والقرد وجناح الطائر وما أشبه ذلك من النسق البهيج الجميل وكيف كانت تلك الخلقة كأنها محكمة متناسقة كالآيات المحكمات ثم كيف جاء العلماء وتوقفوا في بعض المسائل فأورثت عندهم شبهات في كيفية الخلق كأمثال العلامة هيكل الالماني وكيف خطأ العلماء فيما زعم من الصور التي زادها فكان ذلك أشبه بالمتشابه في القرآن ثم تعرف بعد ذلك أن النفس الانسانية مثلا التي صورت جسمها في الرحم بهذا النسق الجميل وكانت أشبه بالسلسلة الحيوانية كيف يكون ذلك الجمال والبهاء والحسن في أشكالها وتقاطيعها ضئيلا بالنسبة لما في نفوسها من الغرائب وانها واسعة لا نهاية لحدها ولا منتهى لأمدها فهي تسع العالم المحسوس والعالم المعقول واليها انتهت العوالم وكأنها مركز الوجود ومهبط الأسرار . كل ذلك سأشرحه لك ان شاء الله شرحا وجيزا كافيا وتطلع على آراء الأمم الحاضرة موجزة ملخصة مفهومة واضحة فتسكن نفسك للحقائق وتعلو على مصاف أولئك الذين يدعون العلم العصري وهم عن جماله مغمضون وعن محاسنه ساهون لاهون ويقولون نحن علماء لم تعرفه الديانات ولم يصل اليه الأنبياء وأنت سترى أن ما سأقصه لك قد دخل في مضمون المحكم والمتشابه المماثل للمحكم والمتشابه في القرآن وأن النسق الجميل والحسن في هذا النظام الحيواني هو الذي يقول به القرآن — ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت — ويقول — الذي أحسن كل شيء خلقه — والآن أبتدئ بالكلام على المحكم والمتشابه في الوحي وأقفي على آثاره بهما في الطبيعة فأقول

﴿ المحكم والمتشابه في الوحي ﴾

اعلم أن اللفظ الموضوع لمعنى اما أن يكون محتملا لغير ذلك المعنى واما أن لا يكون فاذا كان اللفظ موضوعا لمعنى ولا يكون محتملا لغيره فهو النص وان كان محتملا لغيره فان كان احتماله لأحدهما راجحا وللآخر مرجوحا فان ذلك اللفظ بالنسبة الى الراجح يسمى ظاهرا وبالنسبة الى المرجوح يسمى مؤولا واذا كان احتماله لهما على السواء كان اللفظ بالنسبة لهما مشتركا وبالنسبة لكل واحد منهما على التعيين مجملا فاذن يكون اللفظ اما نصا واما ظاهرا واما مؤولا واما مشتركا واما مجملا فالنص والظاهر هما من قبيل المحكم والمؤول والمجمل يدخلان في المتشابه ومعنى المتشابه الذي لا يعلم لان الذي يحصل فيه التشابه يصير غير معلوم فأطلق لفظ المتشابه على الذي لا يعلم واذا شابه أحد الشيئين الآخر عجز الذهن عن التمييز بينهما وأما المحكم فهو من قولك بناء محكم أي وثيق يمنع من تعرض له وسميت الحكمة حكمة لأنها تمنع عما لا ينبغي والحاكم يمنع الظالم عن الظلم

﴿ مثال المتشابه ﴾

(١) واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا — فظاهر الآية أنهم يؤمرون بأنهم يفسقون والمحكم قوله تعالى — ان الله لا يأمر بالفحشاء — ردا على الكفار اذ حكى عنهم — واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها —

(٢) وكذلك آية — نسوا الله فنسيهم فظاهر النسيان معلوم ومؤوله الترك والآية المحكمة فيه قوله تعالى — وما كان ربك نسيا — وقوله تعالى — لا يضل ربي ولا ينسى فتؤول الآية على معنى الترك الذي هو خلاف الظاهر للآية

المحكمة المذكورة

(٣) قوله تعالى — وماتشاؤن إلاأن يشاء الله — يقول أهل السنة فى هذه الآية انها محكمة وآية — فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر — يقولون انهامتشابهة وبالاجمال نقول ان حمل اللفظ على المعنى المرجوح متشابه وحمله على المعنى الراجح محكم وصرفه عن الراجح الى المرجوح لابد فيه من دليل كما تقدم

(٤) آيات الأنعام — قل تعالوا اتل ماحرم ربكم عليكم ألاتشركوابه شيئا وبالوالدين إحسانا ولاتقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم واياهم ولاتقربوا الفواحش ماظهر منهاومابطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون • ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لانكلف نفسا إلاوسعها • واذاقلتم فاعدلوا ولوكان ذاقربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون • وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون • فهذه الآيات الثلاث عند ابن عباس محكمات وهكذا كل أمر بطاعة واحتراز من ظلم وجهل وكذب وقتل نفس بغير حق فهو محكم عند ابن عباس لأنه لايختلف باختلاف الشرائع • وأما مايختلف باختلاف الشرائع كأعداد الصلوات ومقادير الزكاة وشرائط البيع والنكاح وغير ذلك فهو المسمى بالمتشابه عنده وهو من نوع المجمل فيما تقدم أى مايكون دلالة اللفظ بالنسبة اليه والى غيره على السوية * ومن المتشابه عند ابن عباس أيضا أسماء حروف الهجاء المذكورة فى أوائل السور وذلك ان اليهود ظنوا أنها جاءت لاعداد الجمل فطلبوا أن يستخرجوا منها مدة بقاء هذه الأمة فاختلط الأمر عليهم واشتبه فكانوا اذاسمعوا الم يقولون ان أمة محمد ستبقى ٧١ سنة بعدد جمل هذه الحروف ا ل م وكلماسمعوا حروفا غيرها الر مثلا زادوا العدد حتى قالوا أخيرا أشكل علينا الأمر فهذه متشابهات تشابهت على اليهود هذا من كلام ابن عباس موضحا وقوله تعالى — ما كان لله أن يتخذ من ولد — محكم وقوله فى عيسى — روح الله وكلمته ألقاها الى مريم — متشابه فيرد الى المحكم

(٥) الآيات الناسخات تسمى محكمات والآيات المنسوخات تسمى متشابهات وهذا لابن عباس أيضا

(٦) العلم بوقت قيام الساعة والعلم بمقادير الثواب والعقاب فى حق المكلفين كل ذلك متشابه فانه لاسبيل الى معرفته وأما مايمكن تحصيل معرفته بدليل جلى أوخفى فهو محكم • هذا ملخص الامثلة فى المحكم والمتشابه والاقوال المختلفة • ثم ان الخامس والسادس طريقان من طرق المحكم والمتشابه يخالفان ماقبلهما فتأمل وتدبر فقد قربت لك المقام باسهل أسلوب — والله هو الولى الحميد —

اعلم أن فى وجود المتشابهات فى القرآن فوائد منها الجد فى الطلب لترقى العقول وازدياد الثواب ومنها أنه لوكان محكما كله لكان لايصلح إلا لمذهب واحد ومنها أن المتشابه يدعو الى الدليل العقلى المخرج من التقليد ومنها ان ذلك يدعو الى علوم كثيرة لاجل تحقيق التأويل ومنها أن القرآن يدعو العامة والخاصة والعامة لابد لهم من كلام يوافق ظاهر عقولهم فلابد من ألفاظ توهم الظواهر وألفاظ تبين الحقائق فيكون الاول متشابها والثانى محكما وقوله تعالى — فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله — فالفتنة فى اللغة التعلق بالشئ والغلو فيه وفلان مفتون بطلب الدنيا أى متجاوز الحد فى طلبها

فالمتمسك بذلك المتشابه فى الدين يصيرمقتو نابه عاكفا على باطله وضلاله وقديفضى الى التقاتل وذلك فتنة أيضا وقوله وابتغاء تأويله أى تفسيره ومرجعه ومصيره مثل طلبهم ان الساعة متى تقوم فهم يحملون المتشابه على غير الحق وبلادليل وقدقدمنا الكلام فى الوقوف على إلاالله أوعلى قوله والراسخون فى العلم وماقلنافى هذا المقام فى القرآن ينطبق على ماسأذكره فى المتشابه والمحكم فى الطبيعة • وسترى ان من الفلاسفة من يطلبون المتشابه فيها لاجل ابتغاء الفتنة وذلك فى القسم الثانى وهو

﴿ المحكم والمتشابه فى المظاهر الطبيعية ونظام الحيوان ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم وهو الذى ربى الكواكب والارض والمعدن والنبات والحيوان تربية مبدوءة بالرحمة مختومة بالنظام السائد فى الملك كله فهو الذى أدار الشمس وخلق منها السيارات دائرات حولها ومنهن الارض وهى ملتهبة (١) ثم صارت تبرد شيئاً فشيئاً حتى أحاطت بها قشرة صلبة من المواد المعدنية والحجرية وهى فى أول أمرها خفيفة ضعيفة لا تقاوم حرارة النار الارضية الملتهبة فى باطنها فلذلك تتمزق حينا وتتشقق وتبرد فى وقت آخر فتجمد ويكون هناك أمران اذابة للمعادن وتكليس للصخور فترتفع المعادن الذائبة فى الجو وتنزل على هيئة مطر فتقع فى الشقوق الصخرية وتبقى دهوراً متطاولة ولا يزال الاصهار والاذابة من جهة والتكليس واليبس من جهة أخرى دائبين حتى يحصل بعد الدهور الطويلة أن الارض قد أحيطت من جميع جهاتها بأحجار صوّانية أحكمت السدّ على النار فلم تعد تندلع من جهة من جهاتها وزال الاضطراب إلا فى أوقات قلائل وهذا هو الذى ذكره الله فقال ـ وجعلنا فى الارض رواسي أن تميد بكم ـ فهذه الحجارة الصلبة منعت اندلاع النار حتى لا تميل القشرة بما عليها فيتبع العالم المتكوّن فى النار الملتهبة الأرضية وهذا هو دور تكوين الارض

ألا ترى الى أن القطبين منبعجان وأن خط الاستواء منتفخ

﴿ العصر الثانى ـ العصر النباتى ﴾

هناك سكنت الثائرة وقرّ القرار وثبت كل شئ فى مكانه واستقر الماء فى مواضع من الأرض فظهر عليها الطحلب وأخذ الماء يموج موجاً ذاهباً الى الشواطئ من كل ناحية . ثم ظهر فوق اليابسة الاحراش والغابات الناجمة من طوفان الماء عليها حيناً فحيناً ثم أخذت الزروع تبدو على وجه الأرض فكانت أشبه بشجر الجميز فى عظم قدرها وارتفاعها أما الأشجار من الموز والنخل فكانت تناطح السحاب وتتعلق بأسباب السماء فتلك المزارع التى نعجب بها الآن كانت كأشجار عظيمة والاشجار كالجبال وهنا ابتدأ

﴿ العصر الحيوانى وهو العصر الثالث ﴾

قد علمت أن النار قد سدّت من جميع جهاتها بأحجار صلبة متينة ولكن لما امتدّ الزمان ثارت النار وفارت فمزقت تلك الأحجار من بعض الجهات فظهرت سلاسل الجبال وامتدّت النار فأتت على سائر المخلوقات فوق الأرض وهذا هو الطوفان (الجيولوجى العام) وهناك من بعدها أنواع من الطوفان ليست عامة فهذا الطوفان نارى من باطن الارض والدليل على أن هناك أنواعاً من الطوفان بعد هذا انهم رأوا عظاماً متحجرة فى أعلى قلل الجبال وفى أعماق البحار وذلك فى الدور الحيوانى الذى سأشرحه . وبعد ما سكن هذا الطوفان العام واستقرّ كل شئ فى مكانه وأخذ الماء يموج فى كل جانب واستقرت البحار فى أماكنها الخاصة بها ظهرت الحيوانات ذوات الأصداف وهناك على مرّ الدهور والعصور صارت ركاماً فكان منها المرمر وبعض الصخور الكلسيه ثم كانت الحيوانات مرتبة هكذا

الحيوانات السافلة كالاسفنج والحيوانات الشعاعية الكثيرة الأرجل فالحيوانات الشائكة الجلد كقنافذ البحر فالحيوانات الهلاميه فالحيوانات المفصليه فالحيوانات الفقريه هذا اذا رتبناها من أسفل الى أعلى ولنذكرها من أعلى الى أسفل بإيضاح فنقول

(١) الحيوانات اللابنه وهى الانسان وذوات الأربع ـ الطيور ـ الزحافات ـ الضفادع ـ السمك هذه الانواع الخمسة هى التى لها فقار كفقار الانسان ودم

(٢) ويليها الحيوانات المفصليه مثل الحشرات ـ الشبث ـ العناكب ـ ذوات القشور ودود الارض فهذه تسمى المفصليه وجسمها مركب من حلقات وتسمى أيضاً حلقيه

(٣) ويليها الحيوانات الهلاميه وهى كقواقع العجين منها ذوات الرؤوس ومنها ما لا رؤوس لها

(٤) ويليها الشعاعيه كقنافذ البحر شائكة الجلد وكنجوم البحر

(٥) ويليها الكثيرة الأرجل مثل الاخطبوط وهي من الشعاعيه

(٦) ويليها السافله مثل الاسفنجيات والنقاعيات

وهذا آخر ماوصل اليه النوع الانساني من العلم ومحصله يرجع الى أن الحيوانات قسمان قسم له دم كالحيوانات اللابنه والدبابات والبائضه كالسلاحف والضباب والطيور والحيات والسمك

وقسم لا دم له كالهلاميات وذوات القشور والحشرات

وهذا هو التقسيم القديم الذى ذكره أرسطو وماقبله وآخر ماوصل اليه نوع الانسان اليوم مثل هيكل الانسانى وكوفيه وغيرهما فتعجب وتأمل

﴿ جمال نظام السلسلة الحيوانية ﴾

انظر أيها الذكى الى هذه السلسلة وتأمل فى أمر الحياة فانك تجدها لم تتوقف على حال من الحالات فان قلنا لابد لها من فقار كالبقر والطير والضفادع والسمك ينقضها انا وجدنا الحياة بلا فقار فيما هو أسفل منها كالعنكبوت والحشرات والشبت وأمثالها . وان قلنا أن الحياة لابد فيها من قشور فى ظاهر الحيوان رأينا الحيوانات الهلاميه وان قلنا أنه لابد من رؤوس كذبتنا الحيوانات التى لارؤوس لها

وان قلنا انه لابد أن يكون الحيوان صلب الجسم وجدنا النقاعيات والاسفنجيات فالناس جميعا يعرفون الاسفنج انه عظام حيوان داخلها مادة لطيفة هى جسم الحيوان فاذا فرغت من الهيكل استعمله الناس بعد موت الحيوان . ألست ترى من هذا ان العالم الحيوانى عجيب ترى الأنعام ترضع أولادها بعد حملها فى بطنها والطيور تحضن بيضها وأخرى من الحشرات تذر بيضها فى العراء يتربى فى حضن الطبيعة بالرحمة الشاملة العامة ــ فتبارك الله أحسن الخالقين ــ فالعوالم مرتبة ترتيبا لطيفا بحيث ان كل درجة من درجات الرقى حلت فيها الحياة فالحياة عامة شاملة لا تتوقف على حال من الأحوال فلا البر ولا البحر ولا الهواء يصد عن الحياة ولا رخاوة الجسم ولا عدم الرأس ولا فقد الفقرات ولا قلة الحواس وهذا هو الجمال الالهى الوارد فى قوله تعالى ــ الذى أحسن كل شئ خلقه ــ وفى قوله أيضا ــ ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير ــ أى ارجع البصر هل من شقوق فى السماء وهل من تفاوت أى هل هناك مايخل بالنظام فالنظر فى هذه السلسلة دل على تناسقها وجمالها وبهجتها

﴿ تشابه الأطراف فى الحيوان ﴾

ومن أجل ماأبدع فى الدهر وأبهج ماظهر فى كل عصر

ان يد الانسان وأعلى أنواع القردة من الكورلا والاورانغ تانغ والكلب وأطراف الفقم والدلفين وجناح الخفاش ويد الخلد التى تشبه المعول وأجنحة الطيور والأطراف الأماميه للحشرات والحيوانات التى هى نصف مائية كل هذه الأنواع العشرة وماشاكلها تجد انها مركبة من خمسة أقسام كيد الانسان فيد الانسان ويد القرد وجناح الخفاش والطير وماأشبه ذلك كل هذه مكونة من خمسة أعضاء كأصابع اليدين

أليس هذا هو قوله تعالى ــ ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت ــ ألست ترى أن هذا التناسق بديع وأى عجب أعجب من تنوع اليد فتصير فى الانسان كاتبة حاملة السيف جالبة الطعام دافعة الخصم عاملة أعمالا لاتتناهى وهى فى الطائر تحمله فى الهواء تنوع بديع عجيب كتنوع العناصر فى النبات والحيوان أليس هذا دليلا على حسن النسق وأن القدرة التى ابتكرتها مبدعة منظمة بحكمة ثابتة لاتناقض فيها ولا اختلال

﴿ جمال الخمسة من علم خواص الأعداد ﴾

واختيار الخمسة من أبدع ماعلمه علماء الخواص العدديه

ألا ترى رعاك الله أن عدد الخمسة يسمى عددا دائرا فانك اذا ضربته فى نفسه بالغا مابلغ فان حاصل الضرب يحفظ

الآحاد والعشرات دائما وهذه الخاصة لايشاركه فيها سواه مثل ٢٥ – ١٢٥ – ٦٢٥ وهكذا فعدد ٢٥ محفوظ دائما وعدد الخمسة هو الذي عليه نظام الحساب في العالم الانساني لأن العشرة التي هي عدد أصابع اليدين مثلا تضاعف الى المئات والالوف . وهذه من نوع الجمال في علم الموسيقى لان نسبة المساواة والنصف والثمن عندهم هي النسبة الشريفة وهذه نسبة المساواة فمساواة الأطراف في العدد من نوع الجمال ونسبتها هندسيه لأنك اذا أردت النسبة بين أطراف حيوان مثل الطائر أو القرد أو الانسان مثلا قلت نسبه ٥ الى ١٠ كنسبة عشرة الى عشرين وحاصل ضرب الطرفين يساوي حاصل ضرب الوسطين ٥ في ٢٠ = ٢١٠ وهذه هي النسبة الموسيقية وهذه النسبة تمشي مع اطراف الحيوانات المتقدمة بنسبة بعضها الى بعض فتكون أشبه بالأبيات الشعريه أو ضروب الموسيقى وهذا هو الجمال وهو الحساب والنسبة الهندسيه قال الله تعالى – إن الله سريع الحساب . وكفى بنا حاسبين –

﴿ نظام الأجنة في الأرحام ﴾

إن الماء المهين في الرحم يمر في درجات مختلفات من النظام الحيواني فيكون أولا (١) كالجراثيم النقاعيه وهي الطبقات الدنيا من الحيوان فيما تقدم (٢) ثم يكون علقة ملتفة شبه ثلاثة أرباع الدائرة (٣) ثم يصير مثل الضفدع (٤) ثم يظهر العمود الفقري وله منقار طائر وجسم الحشرة وهو الممر ما بين عالم الطير ومرتبة الحيوانات الثديه (٥) ثم يصير كذوات الاربع فيشبه القرد (٦) وتنمو الرأس ويرسم الذراعان وله ذنب وتتهيأ مواضع الأعضاء للنمو وترسم العينان والمنخران والفم ثم يقصر ذنبه ويظهر التأنيث فيه وهذا في الشهر الرابع ويظهر تصوير الجنين فيه وفي الشهر الخامس يفرق بين الذكر والانثى وفي السادس يكون طوله من ١١ عقدة الى ١٤ عقدة وفي السابع من ١٣ عقدة الى ١٦ عقدة وفي الثامن تفتح العينان ويكسى جلد الرأس بالشعر ويكون طوله من ١٦ عقدة الى ١٨ عقدة وفي الشهر التاسع من ١٨ الى ٢٠ عقدة

فترى ان الجنين في أول أمره لا يعرف من أي طبقة هو ولقد رسموا جنين الدجاج والانسان والسلحفاة والكلب فلم يجدوا بينها فرقا فهذا تشابه الطائر وذوات الثدي والانسان والسلاحف في أول نشأتها ثم يأخذ كل منها في التميز شيئا فشيئا . هذه هي الآراء المعروفة اليوم في علم الأجنه

﴿ نظام الجسم الانساني ﴾

وياليت شعري أي هندسة وأي نظام وأي مقياس كان في الرحم حتى صنع هذه المقاييس بمر الجنين في أطوار الحيوانات النقاعيه والهلاميه والفقريه من الطير وذوات الثدي وآخرها القرد ثم ترسم أعضاؤه وحواسه مرتبة منظمه (١) بحيث تكون قامته ثمانية أشبار بشبره هو ويكون من رأس ركبتيه الى أسفل قدميه شبران ومن ركبته الى حقويه شبران ومن رأس فؤاده الى مفرق رأسه شبران ومن حقويه الى رأس فؤاده شبران بنسب متساوية كما تساوت نسب الأصابع في اليدين وفي الرجلين في الانسان وفي الحيوانات الاخرى كما تقدم (٢) واذا فتح يديه ومدهما يمنة ويسرة كما يفتح الطائر جناحيه وجد ما بين أصابع يده اليمنى الى رأس أصابع يده اليسرى ثمانية أشبار النصف من ذلك عند ترقوته والربع عند مرفقيه (٣) واذا مد يديه الى فوق رأسه ووضع رأس البركار على سرته وفتح الى أصابع يديه ثم أدير الى رأس أصابع رجليه كان البعد بينهما مساويا عشرة أشبار وذلك طول قامته وربعها (٤) وطول وجهه من رأس ذقنه الى منبت الشعر فوق جبينه شبر وثمن شبر (٥) والبعد ما بين أذنيه شبر وربع (٦) وطول شق عينيه كل واحدة ثمن شبره (٧) وطول أنفه ربع شبره (٨) وطول ابهامه وطول خنصره متساويان . هذا قل من كثر من المقاييس العجيبة التي في جسم الانسان وذلك كله اذا كان معتدلا وقد يزيد وينقص اذا قل اعتداله لعوارض يقل بها جماله وكماله وهذا الذي ذكرناه في المعتدل الخلقة الجميل الطلعه

﴿ النسبة الفاضلة ﴾

وهذه المقاييس ترجع الى ما جاء في علم الموسيقى أن النسبة تكون فاضلة اذا كانت مثلا أو مثلا ونصفا أو مثلا وثلثا

أومثلا وربعا أومثلا وثمنا وعلى هذا تجد طول وجه الانسان اذا كان معتدلا شبرا وثمنا وطول قدميه كل واحد شبر وربع وهو مساو للبعد مابين أذنيه فهنا مساواة من جهة ومثل وربع من جهة أخرى وطول شق فمه وشفتيه كل واحد مساو لطول أنفه متى كان معتدلا

ففى هذه الأمثلة ظهر المثل والمثل والثمن والمثل والربع المذكورة التى قال علماء الموسيقى انها هى الجمال ويقول علماء الموسيقى من علمائنا نقلا عن اليونانيين أن نسبة الثمن فى نغم الأوتار هى المستعملة دون الخمس والسدس والسبع وذلك أنها مشتقة من الثمانية التى هى أول عدد مكعب . والعدد المكعب فيه التساوى فطوله وعرضه وعمقه كلها متساوية وفيه اثنا عشر ضلعا متوازية متساوية وله ثلاث زوايا مجسمة وله أربع وعشرون زاوية قائمة متساوية وهى من ضرب ثلاثة فى ثمانية وكل مصنوع كان التساوى فيه أكثر كان أفضل

وعلى ذلك قالوا ان الانسان كثر فيه التساوى وكثر فيه المثل والنصف والثمن الخ وليس للسدس ولا للخمس ولا للسبع من وجود فيه لأن هذه ليست من الأشكال المحبوبة التى فيها التساوى . أنظر الى ماذكرناه فى شكله تجد ثمانية أشبار فى طوله . فهنا التساوى ما بين أربعة أقسام من جسمه . وهكذا التساوى بين شق فمه وشفتيه وأنفه وطول قدميه كالمسافة ما بين أذنيه وهكذا فتأمل وتعجب من العلم

﴿ تفصيل بعض ماتقدم للايضاح ﴾

فالذى يساوى شبرا عند الاعتدال هو (١) طول كفيه من رأس الكوسوع الى رأس الأصبع الوسطى (٢) والبعد ما بين ثدييه (٣) وما بين سرته وعانته (٤) ومن رأس فؤاده الى رأس ترقوته

والذى يساوى شبرين أربعة الأقسام المتقدمة (١) من القدم (٢) ومن الرأس (٣) ومن الحقوين (٤) ومن الفؤاد (٥) ثم ما بين المنكبين

والذى هو ثمن شبر (١) زيادة رأس البنصر على الخنصر (٢) وزيادة الوسطى على البنصر (٣) وزيادة الوسطى على السبابة (٤) وطول شق عينيه

والذى يساوى ربع الشبر (١) طول أنفه (٢) وشق فمه (٣) وطول شفتيه

والذى يساوى شبرا وربعا (١) طول قدمه (٢) والبعد ما بين أذنيه

واعلم أنى جمعت لك فى هذا المقام خلاصة علم القدماء والمحدثين فى جمال الانسان ونظامه . فياليت شعرى أين المقياس الذى كان فى الرحم حتى فصل ذلك التفصيل وقاس تلك المسافات وفصل تلك الأعضاء وهندس وزوق وحسن الأشكال وتجنب النحس فى الأشكال كالخمس والسدس والسبع واصطفى أجمل الأشكال وأحسن الأوضاع كالمثل والمثل والثمن والمثل والنصف وراعى جمال النظام وابتدع واخترع وزين وزوق وفضل الأجمل والأكمل وجعل الأجزاء مشتقة من الشكل المكعب الذى له ثمن ونصف وربع وفيه الأمثال الكثيرة الجميلة حتى استحق أن يقال فيه — الذى أحسن كل شئ خلقه — وقال — وخلق كل شئ فقدره تقديرا — وقال — لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم — وقال — خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ماشاء ركبك — فهذا هو الحسن الذى ذكره الله لأنه أولا انتقى أجمل الأشكال الجسمية فرّ على أدنى المخلوقات من الاسفنجيات وانتهى به فى الشكل الى ماذكرناه وثانيا اصطفى أحسن الأوضاع وناسب ما بين أصابع الأطراف فى أكثر الحيوانات على النسبة الأفضل وهى المثل لان ذلك من الجمال الموسيقى الذى يعقله الحكماء عند النظر فى أشكال هذه المخلوقات فيقولون — ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار — بالجهل والبعد عن العلم والكسل والغرور وبهذا نفهم قوله تعالى — ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت — وذلك لأن التفاوت يكون من الصانع الغافل أو من المصادفات أما التناسق وكثرة التماثل فهى من الصانع المحكم لعمله الذى يجعل فعله موسيقيا أشبه بما فى المكعب من التساوى وكثرته والمثمنات السارة للناظرين المبهجة للسامعين وهذا من سر قوله تعالى — ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا — فالعالم الذى أبرزه الله

كثر فيه الاتفاق الموسيقي كعدد الأصابع في أطراف الحيوان كما تقدم وتناسق السلسلة الحيوانية ونظام الأعضاء
ـ والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ـ

﴿ الجنين في الرحم كتاب يبين الله به آياته للناس كما بينها بالقرآن ﴾

لقد استبان لك أن خلقة الجنين في الرحم تصور أنواعا من صور الحيوان مرتقية من أدناها الى أعلاها . وتبين لك أيضا أن أعضاءه المفصلة لها مقاييس تحار فيها العقول بالشبر وبالشبر وبالثمن وبالشبر والربع وأيضا تنوع الأعضاء والأشكال والصناعات العجيبة . فكان الجنين نسخة مختصرة وكتاب مبين لا يفهمه إلا العالمون . ولعلك تقول في نفسك هذه عبارات شائعة على ألسنة الناس وما هو الجنين حتى يقال انه يبين للناس تقول اعلم أن الله قال في القرآن ـ ثم ان علينا بيانه ـ وقال ـ تبيانا لكل شئ ـ وقال ـ لتبين للناس ما نزل اليهم ـ وقال ـ كذلك يبين الله لكم الآيات ـ فانظر ماذا قال في الجنين قال ـ يا أيها الناس إنا خلقناكم من تراب ـ لأن أباكم آدم مخلوق منه وكذلك الأغذية التي يتكون منها الجنين ـ ثم من نطفة ـ منيّ ـ ثم من علقة ـ قطعة من الدم جامدة ـ ثم من مضغة ـ قطعة من اللحم وهي في الأصل قدر ما يمضغ ـ مخلقة وغير مخلقة ـ مسوّاة لا نقص فيها وغير مسوّاة أو مصوّرة وغير مصوّرة ـ لنبين لكم ـ بهذا التدريج قدرتنا وصنعتنا واحكامنا في الصنع ـ ونقر في الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى ـ وهو وقت الوضع ـ ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ـ الآية . فانظر أيها الذكي الى قوله تعالى مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم كأنه يقول جعلنا المضغة أولا غير مسوّاة بل ناقصة الخلقة تشبه الحيوانات الأخرى كالكلب والسلحفاة والطيور ونحوها وثانيا تامة الخلقة بالصورة الانسانية لماذا هذا ؟ لنبين لكم * ماذا يبين لنا الله * يبين أنا خلقنا في أحسن تقويم لأن صورتنا مرت على صور الحيوانات الأخرى ثم أكملها . يبين لنا أنه محكم الصنع عجيب الوضع . يبين لنا أنه وضع الأعضاء على هيئة موسيقية كما قدمناه . ليبين لنا أن الانسان فيه قابلية لأخلاق سائر الحيوان من شبق الخنزير وضراوة الأسد وجبن الأرنب وزهو الطاووس وما أشبه ذلك مما قدمناه عند ذكر آدم في أول البقرة ثم انه لا نجاة لنا إلا بالارتقاء عن هذه الخصال الحيوانية الى الصفات الملكية . يبين لنا أنكم أرقى من الحيوان فكيف عبدتموه . يبين لنا أن نتعلم علم (الأجنة) وهو المسمى باللسان الافرنجي (علم البيولوجي) يبين لنا أن الانسان لا ينال أعلى الدرجات إلا بعد أن يتخطى أدناها بنظام سواء أكان في الأمور الدينية أم في الأمور الدنيوية وأن خلاف ذلك خلل في النظام والطفرة محال . يبين لنا أن سنة الكون الترقي من أسفل الى أعلى . يبين لنا أن ندرس علم الحيوان ثم نعرف الانسان يبين لنا أن بيننا وبين الحيوان مناسبة وصلة فلنكن له راحمين وعليه عاطفين ولطبائعه دارسين وبقواه منتفعين وعليه مسيطرين

فياليت شعري كيف ساغ للمسلمين أن يجهلوا هذا العلم ولا يقوم به إلا الفرنجة كيف يكونون أجهل الامم بعلم الأجنة وعلم الطبيعة . أيها المسلمون قد بينت لكم ـ ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم واليه ترجعون ـ الله يقول لكم اني أبين لكم خلقة الجنين ويقول في القرآن الكريم ـ انه تبيان لكل شئ ـ فلا القرآن عرفنا ولا الجنين درسنا وكلاهما للبيان ويقول الله تعالى ـ ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ـ

ثم تأمل في آية الحج فانه ذكر من أطوار الانسان عشرة التراب النطفة العلقة المضغة التامة الخلقة المضغة الناقصة الخلقة . الطفل . بلوغ الأشد . الشيخوخة . الوفاة . الرد الى أرذل العمر ولم يذكر أنه يبين لنا إلا بعد قوله مخلقة وغير مخلقة أي غير مسوّاة كما شرحنا لأن هذه هي التي قامت طاقيامة العلماء في أوروبا أي بين هيكل وخصومه من الألمان كما سيأتي بعد هذا من النضال المشحذ للاذهان المقوّي للعقول ـ والله يهدي من يشاء

الى

الى صراط مستقيم

{ المحكم والمتشابه في الطبيعة }

لقد نظرت الانسان وحسن نسقه وجمال شكله . ولكن هذه السلسلة التي انتظمت فيها الحيوانات منتظمة متلاصقة والتي ظهر فيها الجنين بأدوار مختلفة أحدثت عند بعض العقلاء حيرة فقال قائلون منهم لعل هذه العوالم قد ظهرت بعضها من بعض بالاشتقاق والدليل على ذلك مشابهة الانسان لأدنى الحيوانات في أول تكوّنه في الرحم ثم يتمادى في الرقي حتى يصير كالقرد ثم يصير انسانا وهذه السلسلة بعينها هي التي تراها في الحيوانات المشاهدة فلعل كل طائفة مشتقة مما تحتها مباشرة حتى ان هيكل الالماني الذي نشأ في المانيا وقضى نحو نصف قرن أستاذ العلوم الطبيعية في كلية (أيينا) قال ان الانسان نشأ بالتدريج من الحيوانات السفلى فالتدرج في الرحم من الأدنى الى الأعلى كالتدرج في السلسلة من الأدنى الى الأعلى من الحيوانات النقاعية الى الهلامية الى الحلقية الى الفقارية

ولما بحث الدكتور (براس) مذهبه ونظر في تلك الصور التي استند اليها وجدانها لم تكن كلها صادقة بل بعضها مزوّر فان الصور ٢٣ تبتدئ بالبسيط . والصورة الرابعة عشرة التي سماها (السوزور) والصورة الواحدة والعشرين التي سماها (الانسان القرد) لم يكن لها وجود البتة

فكتب العلماء على صفحات الجرائد أنه مزوّر لهاتين الصورتين فهدّدهم برفع الدعوى ثم رأى أنه لامناص من الاقرار فكتب مقالة مؤرخة (٢٤ ديسمبر سنة ١٩٠٨) قال (تزوير صور الأجنة) انى أعترف رسميا حسما للجدال في هذه المسألة أن عددا قليلا من صور الأجنة نحو ستة في المائة أو ثمانية موضوع أو مزوّر اذا عدّ الدكتور (براس) ذلك تزويرا وذلك فيما اذا كانت المواد التي يراد فحصها أو رسمها غير كاملة حتى يضطر فاحصها أو راسمها وهو يضع حلقاتها بعضها بازاء بعض في سلسلة ارتقائها أن يملأ بينها بحلقات فرضية الى أن قال فبعد هذا الاعتراف يجب أن أحسب نفسي مقضيا على وهالكا ولكنه يعزيني أن أرى بجانبي في كرسي الاتهام مئات من شركائي في الجريمة وبينهم عدد كبير من الفلاسفة المعوّل عليهم في التجارب العلمية وغيرهم من علماء الأحياء (البيولوجيا) فان كثيرا من الصور التي توضح علم أبنية الأحياء وعلم التشريح وعلم الأنسجة وعلم الأجنة المنتشرة المعوّل عليها مزوّر مثل تزويري تماما لا يختلف عنه في شئ انتهى

ثم انه قدّم استقالته مكرها من الكلية بعد أن قضى ثلاثين سنة أستاذا فيها وهذه القصة نقلتها من الجزء الأوّل من كتاب نقد فلسفة داروين . أفلا ترى أن هذا الرأي الذي اتبعه قوم راجع الى المتشابه في المادة كالمتشابه في القرآن . فاذا قال الله تعالى ــ نسوا الله فنسيهم ــ وقال العلماء ان هذا متشابه والمحكم قوله تعالى ــ وما كان ربك نسيا ــ هكذا في الطبيعة ههنا هذه السلسلة عند قوم متشابهة لأنها في نظرهم الذي لايتجه إلا الى وجهة واحدة تدل على أنه لا صانع لها لأنها مشتقة بعضها من بعض بتوالي الأزمان فأين محكمها إذن

{ المحكم في الطبيعة الذي يشبه الآيات المحكمة في الوحي وهو القرآن ــ حشرة أبي دقيق مثلا }

قال الدكتور جوستاف جوليه يكفي أن نتأمّل حشرة أبي دقيق فانها تنادي على رؤس الأشهاد بابطال نظريات داروين في وجود الأنواع وترقيها ان الحشرة ظهرت من أقدم العصور وأنواعها ثابتة فهي تناقض تلك المذاهب القائلة بالتحوّل المستمر فأين التحوّل المستمر هنا أولا وأنها تنتقل داخل الفيلجة (الشرنقة) من كونها دودة الى أنها طائر ثم قال ويا ليت شعري أين العلامة بين الدودة والحشرة ولقد نقض مذهب لامارك ومذهب داروين ومن العجب أن هذين المذهبين يعجزان عجزا تاما عن تفسير تلك الغرائز العجيبة المدهشة التي تظهر في الحيوانات وأنا أقول

أفلست ترى أن كلام العلامة جوستاف جوليه يدلنا أن ههنا شيئين نرجع اليهما وهما حشرة أبي دقيق والغرائز البديعة العجيبة التي لاتتناهى في أنواع الحيوان انها لعمرك تعدّ بآلاف الآلاف بل لاعدّ لها فما الذي وضعها في تلك الحيوانات فهذا نعدّه من المحكم . أما تلك السلسلة ونظامها فهو من المتشابه والمتشابه يرجع الى المحكم فهذا أشبه

بماجاء فى الآيات التى نحن بصدد الكلام فيها منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب

ووافقه على هذا الرأى العلامة ٢ (فون باير)الألمانى مؤسس علم الأجنة (الأمبر بولوجيا) ومن علماء الغز بولوجيا والعلماء الحفريين (٣) والأستاذ (ايلى دوسيون) فى كتابه المطبوع سنة ١٩١٢ المعنون (الله والعلم) والعلامة (٤) (فيركو) الألمانى من علماء (الأنتروبولوجيا) التاريخ الطبيعى للانسان (٥) والعلامة الأنتروبولوجى الفرنسى دوكاترفاج وكذلك الفيلسوف (٦) سبنسر الانجليزى (٧) والعلامة (ويسمان) (٨) والاستاذ (جورج بوهن) مدير معمل البيولوجيا والبسيكولوجيا الحيوانية (٩) والعلامة (أدمون بريبه) فى مجلة العالم الحى سنة ١٩١٢ قال ان البط وسائر الطيور المائية لها أرجل ذات أصابع متصلة بغشاء فيظنون أن نوع المعيشة قد أوجد هذه الأغشية ولكن الأمر على العكس فى مذهب المسيو جينو يقول ان البط يعوم لأنه وجد لنفسه أرجلا مغشاة تصلح للعوم وان هذه الحيوانات أعدّت قبل العوم . ومثله العلامة (١٠) (بلوجر) الألمانى والعلامة الفزيولوجى (١١) (دوبوار يمند) (١٢) ودائرة المعارف الكبرى الفرنسية ورأى الدكتور (١٣) ادوارد هارتمان (١٤) و(لويز بوردو) (١٥) و(كاميل فلامريون) (١٦) و(لوجيل الفرنسى) والأستاذ (١٧) (ميلن ادورد) (١٨) ودائرة معارف القرن العشرين (١٩) وجوستاف لوبون والأستاذ (٢٠) هنرى بوانكاريه العضو بالمجمع العلمى الفرنسى

﴿ أكثر الناس مقلدون ﴾

ولأختم القول فى هذا المقام وأقول لك أيها الذكى أنظر فى هذه الدنيا واعجب من العقول الانسانية وانظر كيف ترى أن الناس فى بلادنا فى مصر فى الشام فى العراق فى الهند فى الصين فى سائر الأمم والأجناس اذا قرؤا مذاهب الفرنجة وسمعوا أن الانسان والحيوانات مشتقات بعضها من بعض هلعت نفوسهم وانخلعت قلوبهم وتركوا مواهبهم وظنوا أن هذا جاء من علم فوق طاقتهم وعقل فوق عقولهم واذا رأوا عجائب الحيوان وغرائزه المدهشة والنظامات الفلكية وأضواء الكواكب وجمال النجوم وبدائع الحياة قالوا نحن لسنا أعلم من أولئك العلماء انهم بحثوا فلم يجدوا إلها . فانظر كيف جاء علماء العصر الحاضر منهم وهو القرن العشرون فقالوا بما نعرفه فى نظرنا ونظروا جمال الصور ونظام الأعضاء والحكم المدهشة التى لا تكاد تعدّ فى أى حيوان وأى حشرة وقالوا ان ذلك القول هراء وزور وأن الحكمة ظاهرة باهرة فى سائر العوالم . فيا أيها الذكى فاما العلم التام واما التقليد الوحى . أما العلم الناقص فقد هدم ركن الشرق ــ والله من ورائهم محيط بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ ــ

فيا أيها الذكى ها أناذا قد أودعت لك فى هذا المقام ما لا تجده فى كتاب آخر ومزجت لك العلم بالدين ولم أترك لك بابا للشك وأريتك أقوال علماء أوروبا قديمهم وحديثهم وجعلت لعقلك سبيلا للنظر بنفسه والغرام والهيام بهذا النظام والحسن والجمال ــ ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ــ

﴿ تفسير الآية منطبق على الطبيعة زيادة ايضاحها ﴾

وهى قوله تعالى ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾

ذكرت لك تفسير هذه الآية وفاقا لسادتنا العلماء السابقين وأبنت لك أن الوحى فيه آيات محكمات وأخر متشابهات وقلت لك ان الطبيعة فيها ما فى الوحى لأن الوحى كلام الله والطبيعة فعل الله والكلام والفعل مصدرهما واحد فلابد من تماثلهما احكاما وتشابها فنقول

كما ان فى القرآن آيات محكمات واضحات لا تشابه فيها كقوله تعالى - وما كان ربك نسيا - فيما تقدم هكذا فى الطبيعة عجائب وضحات لا تتناهى كنظام الانسان وانتظامها وجمالها وانها جرت على النظام الأكمل نظام الموسيقى ذات القواعد التابعة أجمل الأشكال وأجمل الأشكال ما كثر فيه التساوى والذى كثر فيه التساوى الكرة لتساوى أقطارها وأنصاف أقطارها والمكعب الذى فيه متوازيات متساويات كثيرة وفيه الثمن وفيه الثلث الناتجان من ضرب ثمان زوايا مجسمة فى ثلاث زوايا مسطحة فقد ظهر فى أعضاء الانسان مثلا الأمثال الكثيرة والأثمان ومضاعفات الأثمان وهى الأرباع والأنصاف وكل هذه معتبرة فى الموسيقى بحيث يستلذ السمع بها وتطرب النفس لها كما يحسن الشكل فى العين بمنظرها فمنظر الانسان مقبول ومنظر المكعب مقبول وسماع النغمات الموزونات بذلك التقدير مقبول . فهذا هو المحكم فى الطبيعة الدال على مبدع مدبر حكيم ودود كثير الود لعباده لاتحافهم بالجميل وادخال السرور عليهم

وأما المتشابهات أى اللاتى لا تعلم فى الطبيعة لبعض الناس لوقوف أذهانهم عندها وعكوفهم عليها فهى ما تقدم شرحها من تلك السلسلة الحيوانية وسير الجنين فى الرحم على مقتضاها مما يوقع فى النفوس أنها مشتقة بعضها من بعض ولا خالق لها ولا رازق فذلك كالمتشابه فى القرآن كقوله تعالى - نسوا الله فنسيهم - فظاهر النسيان كما تقدم من المتشابهات . فأما الذين فى قلوبهم زيغ - عن الحق فى القرآن فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة به والمفتون بالشئ المغرم به العاكف عليه لا ينظر الى سواه هائم فيه . وفى الحديث حبك الشئ يعمى ويصم فأهل المذاهب المنحرفة وأهل الفرق الضالة فى الاسلام أغرموا وفتنوا بمسائل عدوها مذاهب وكفروا أو فسقوا غيرهم أو حكموا بكفرهم مع موافقتهم لبقية الفرق فى الدين كله ولكنهم عكفوا على مسألة واحدة وظنوها كل شئ . هكذا هؤلاء العلماء الذين نظروا فى سلسلة الحيوان ونظام الجنين على مقتضاه فتنوا به وأغفلوا ما عداه من جمال الأشكال وحسن النظام وتبادل المنافع بين طوائف الحيوان والانسان والنبات وتوافق المزايا والتشارك المستمر بين أصناف المخلوقات وفتنوا بمسألة واحدة من آلاف الآلاف فقالوا ان الطبيعة لا صانع لها فجاء المحققون منهم فى أوروبا فى القرن العشرين وأظهروا الحقائق ورجعوا الى المحكم وردوا المتشابه اليه كما رددنا نحن آية - نسوا الله فنسيهم - الى الآية المحكمة - وما كان ربك نسيا -

فيقال اذن هؤلاء المفتونون بمسألة واحدة العاكفون على وجه واحد صرفت أذهانهم عن غيره وباتوا لا يرون إلا ما فتنوا به كما لا يرى المغفلون فى هذه الحياة إلا ما أحبوا من جاه أو مال أو ولد أو صيت مع ان الحياة أكبر من أن تقتصر على وجه واحد بل هى عجائب وحكم وعلوم ونظام ودار انتقال هكذا المفتونون بمسألة واحدة فى الدين كالامامة والخلافة وكالمفتونين من علماء أوروبا بسلسلة الحيوان وغفلوا عن جميع الجمال والحكم

نقول هؤلاء كلهم يقال لهم ان فى قلوبهم زيغا وميلا فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة به والغرام واغفال ما عداه وابتغاء تأويله ومعرفة حقيقته ومعلوم أن المفتون لا يعرف إلا ما تشابه - وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم - الذين ليسوا مفتونين بوجه واحد بل نظرهم عام فى الدين وفى الطبيعة حال كونهم - يقولون آمنا به كل من عند ربنا - لأنهم نظروا نظرة عامة وقلبوا المسائل على جميع وجوهها المختلفة فظهرت الحقائق بالبرهان لا بالهوى والغرام بالشئ والافتتان به - وما يذكر إلا أولوا الألباب - وما يعرف الحقائق إلا أولوا العقول الراجحة وهم الراسخون فى العلم لا المفتونون الذين يعمون عن الحقائق ولا يصغون للبرهان . وهذا التفسير يجعل الراسخين فى العلم معطوفا على لفظ الجلالة

ولا تظن أن تفسير الآية بعلم الطبيعة لا يجعله نظيرا وشبيها بما جاء فى القرآن من باب المقايسة والمشاكلة والا فالآية مساقها لآيات القرآن وحدها

ولقد جاء لها فى القرآن معنى آخر قد سبق وهو الوقوف على قوله إلا الله والابتداء بقوله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به الخ وأنهم يسلمون بأنهم لا يعلمون وقد حمل العلماء هذا المعنى على المسائل التى لا يمكن معرفتها فى الدين

كموعد قيام الساعة وكمقادير الثواب والعقاب وهكذا

ونظير دهشنا معرفة عدم التناهي والاحاطة بالنفس الانسانية فان الانسان يدهش أمامها صاغرا . فلأشرحن لك علم النفس أي ظواهره التي يصل لها الناس لترى أن هذا الانسان الذي أدهشك شكله ونظامه وهندسته وتزويقه واحكامه وعجائب جسمه له نفس أرقى وفيها من الحكم والغرائب مالا يستقصى وتستصغر ما علمته الآن من نظام جسمه وعجائب خلقه في جانب عجائب نفسه ومالا يتناهى من غرائبها فأقول

﴿ النفس الانسانية وعجائبها ﴾

اعلم أن أمر الانسان في باطنه أعجب مما مر عليك في ظاهره . ذلك أن حياته تدعوه الى مالا حصر له من العلم والعمل . وبيانه أن نقول — ان الحياة تتوقف على غذاء وملبس ومسكن ودفاع عما ملكه وهذه تحتاج الى قوى داخلة في نفسه وهي الشهوة والغضب والعقل

أما الشهوة فبها يطلب الغذاء والملابس والمسكن وأما الغضب فبه يحافظ عليها وأما العقل فانه يدبر الأمور لنظامها وادارتها

فالشهوة للطعام أعانتها الحواس الخمس على جلبه واصطفائه فالذوق يعرف الحلو والحامض والمر والمالح وما أشبه ذلك والشم يدرك الروائح والسمع والبصر يدركان العدو والصديق والقريب والبعيد وأنواع الطعام والشراب والملابس والأدوات التي تبنى بها المساكن

هذه قوى عظيمة فانظر كيف كانت حياة الانسان تسخر لها هذه العوالم وكيف منح الانسان كالحيوان قوة الشهوة والرغبة في طلب الطعام مثلا فأعانته قوة الذوق في اللسان فعرف الحلو والحامض والمر فتجاوز التراب والحجر واصطفى المواد النباتية والحيوانية وميز بين الخبز والجير والطين والحديد ولم يدخل من الطعام إلا مايصلح لتركيب جسمه ونظامه

عجب يعيش الانسان ويموت وهو غافل عما أعطى من المواهب والمنح يجوع فيأكل ويعطش فيشرب وهو لايدري تلك المنح والعطايا تلك المواهب الثمينة تلك الآيات البينات تلك الدرر الغوالي تلك السعادات والعجائب ياليت شعري كيف يعيش ابن آدم ويموت وهو لم يدرس إلا ما حوله من نبات وحيوان وماء وطعام وقد غفل عن تلك العوالم التي هي في داخل جسمه من شهوة جاذبة لتلك الأطعمة وديدبان واقف على باب جوفه في لسانه ينتقي مايوافق جسمه ويطلب مايصلح لأن يقوم مقام مافني من أعضاء جسمه وما تحلل منها . يعيش المرء ويموت وهو لايعرف تلك النعمة الجزيلة والآية الكبرى والحكمة العالية . كيف يجد في فمه ذلك الحارس الدافع لما لاينفع الجسم من التراب والحجر والطين والأطعمة المرة والحادة والحارة الشديدة الحرارة ولا يدخل إلا بعض ما نبت في الأرض أو كان من الحيوانات أو الماء على طريقة خاصة

ثم هو يجد هناك قريبا من ذلك الديدبان الجالس على اللسان ضابطا واقفا قريبا منه جالسا في المنخرين وهو الشم يشم الروائح فينبه الذوق الجالس على اللسان ويقول له لقد فتشت هذا الحامض فرأيته لايصلح للغذاء فلتحترس أيها الديدبان فلا تدخله فترى الانسان ينبذه نبذ النواة والبصر واقف من بعيد أشبه بأمير من أمراء الجند يتأمل الصور فيبعد عن الفم مالا ينبغي أكله فترى الطعام يمر أولا على البصر ثم الشم ثم الذوق فاذا ما انتهى اليه وقبله دخل في الجسم بلا توان . بهذه الطريقة يدرس الانسان كل ماحوله يدرسه ببصره وشمه وذوقه

فالصور والروائح والطعوم وهي الصفات الملازمة لما حولنا من طعام وشراب تطبع في حواسنا من البصر والشم والذوق فتعطينا علما بما يوافق ومالا يوافق هذه الدراسة تشاركه فيها الحيوان والانسان . اشتركا فيها ولكن الانسان يزيد علما عن الحيوان لاتساع دائرة عقله وازدياد حاجاته في المساكن والملابس وكثرة أمراضه التي أوجبت طلب الدواء مما حوله وذلك ليزداد تأملا وتعقلا

يا عجبا هل حكم على الانسان أن لا يرتقى حتى يعرف ما حوله هل زادت حاجاته فى الملابس والمساكن والأدوية حتى يفكر ويعقل ما حوله والا ظل فى العوالم السفلية والا فلماذا كل هذه التكاليف يكلف بما فوق طاقة الحيوان . يكلف الملابس من حرير وقطن وكتان وصوف . والأدوية ليستخرجها من النبات والحيوان . والزينة ليستخرج اللؤلؤ والمرجان من البحر . لم كل هذا . أليس ذلك ليتعرف ما حوله ليدرس هذا الوجود والا فقيمة الطعام والشراب حتى يحتاج لهذه الدروس والمدارس ثم ابتلاه بالعداوات فصنع البارود والمدافع والطيارات والحصون . كل ذلك رقى لعقله وزيادة فى شأنه وذلك فى الظاهر محافظة على صورته الجسمية وحياته الانسانية وهيكله المنصوب ووجوده المحبوب

﴿ كيف يفعل الغذاء فى الجسم من العجائب ﴾

اذا دخل الطعام فى الفم ونزل الى المعدة صار كيموسا . وهذا الكيموس أشبه بقوام اللبن فانظر كيف أعطى الانسان قوة التحليل وقوة التركيب أما قوة التحليل فانه لما مزق الطعام فى الفم بالأنياب والأسنان ومضغه وابتلعه وامتزجت به العصارات التى فى الفم والتى فى المعدة انقلب الى مادة واحدة فى الظاهر أشبه بما هو ظاهر فى الطبيعة من أن الكواكب ترجع فى آخر أمرها الى مادة سحابية (سديمية) ثم تتحول الى كوكب جديد . فاذا صارت تلك الأطعمة فى المعدة كيموسا جذب الكبد ذلك الكيموس فأحاله دما وامتد الى القلب والى سائر العروق كل ذلك بطريق القوة الجاذبة فالجاذبة تطلب الطعام الى المعدة ثم الكبد ثم القلب ثم العروق الغلاظ ثم الدقاق وهكذا الى أطراف الجسم فاذا وصل الى هذه الأعضاء أمسكته ريثما يتم نضجه فترى المعدة تمسكه حتى يهضم وهكذا البقية وهذه تسمى القوة الماسكة . ونرى أن فى الجسم قوة تدفع ما لا يلائم وهذه تسمى الدافعة فتدفع ما لا ينبغى الى الخارج من السبيلين وهذه تسمى الدافعة ونرى أن الدم كلما وصل الى عضو تمثل بذلك العضو وهذه القوة تسمى الغاذية ومتى تغذى العضو نما بطريقة منظمة وهذه تسمى النامية . ثم ان الجنين فى الرحم يصور طبق الأم والأب عادة وهذه تسمى المصورة فتكون القوى التى تتناول الغذاء سبعا

وهى الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والنامية والمصورة وهن متعاونات متفقات متجاورات أشبه بما نرى فى المدن والممالك من معاونة الحدادين للنجارين ومن معاونة النجارين للبنائين ومن معاونة الندافين للغزالين ومن معاونة الغزالين للنساجين ومن معاونة النساجين للخياطين هكذا هناك نجد القوة الجاذبة مسوقة لجلب الطعام وهى خادمة للقوة الهاضمة والهاضمة خادمة للغاذية التى تعطى كل عضو ما يناسبه والنامية مخدومة بما تقدم كله

﴿ تفصيل أفعال القوى الانسانية فى الجسم وأنها أشبه بما فى المدن من الصناع ﴾

فتأمل أيها الفطن فى المدن والقرى تجد أولا الخبازين والطباخين وثانيا العصارين الذين يستخرجون الشيرج من ثمر الأشجار والأدهان من حبوب النبات والزبد والسمن من لبن الحيوان وثالثا الخلالين والدباسين والذين يعملون السكنجبين ورابعا الذين يعملون الماورد ويصعدون الخل ويقطرون الرطوبات اللطيفة وخامسا الذين يعملون الأدهان اللطيفة كدهن البنفسج والنيلوفر والزيتون وسادسا الكناسين والزبالين والسمادين وسابعا الذين يحفرون الأنهار والقنى والآبار ليجروا المياه فى خلال المنازل وثامنا الحجانين وصانعى الحلاوة وتاسعا الذين يطبخون الآجر والخزف والزجاج وعاشرا النجارين الذين ينجرون الأساطين وقوائم الأسرة حادى عشر صانعى المفاتيح والصناديق ثانى عشر صانعى السفن ثالث عشر الذين يعملون القماقم والأباريق رابع عشر النحاتين خامس عشر الغزالين والحبالين والفتالين سادس عشر الحاكة والنساجين سابع عشر الرفائين والخرازين والخياطين ثامن عشر الزراعين والغارسين (١٩) الذين يعملون الطنافس والمسوح والغليظ من الثياب (٢٠) صنع الذين ينسجون ثياب القطن والكتان (٢١) صنع الذين ينسجون الحرير والرقيق من الثياب (٢٢) أفعال الصباغين والمزوقين والدهانين (٢٣) صنع المصورين والنقاشين وأصحاب اللعب

هذه الثلاثة والعشرون من الصناعات لها نظائر فى جسم الانسان والناس نائمون لايعلمون أن فى تلك الصناعات فى الطعام الذى أدخلوه فى معداتهم وهى تدفع الطعام الى الأمعاء ثم يكون مالافائدة فيه مدفوعا الى الأمعاء الغلاظ ثم يكون مستعدا للخروج

فلنذكر كل صناعة فى المدينة ونظيرها فى الجسم على هيئة جدول لتكون أسهل تناولا فهاكه

الصناعة فى المدينة	نظيرها فى جسم الانسان
(١) صناعة الخبازين والطباخين	(١) إمساك المعدة الطعام وهضمه وانضاجه بالحرارة الغريزية
(٢) صناعة العصارين الذين يستخرجون الزيت والأدهان والزبد	(٢) تصفية المعدة للكيموس وأخذ لطيفه ودفعه الى الكبد ودفع عكره الى الامعاء
(٣) صنع الخلالين والدباسين وعمل السكنجبين	(٣) طبخ الكيموس فى الكبد مرة ثانية ونضجه فيصير دما ودفع عكره الى الطحال واللطيف الى المرارة والرقيق الى المثانة والمعتدل الى القلب
(٤) صنع الماورد وتصعيد الخل وتقطير الرطوبات اللطيفة	(٤) تصفية الدم مرة ثالثة فى الرئتين وجريه فى القلب والعروق
(٥) صنع الأدهان اللطيفة كدهن البنفسج ودهن النيلوفر والزيتون	(٥) تلطيف الدم فى الدماغ حتى يصير رطوبة لطيفة روحانية فى الأذنين والمنخرين والعينين واللسان ومابه انفعالات الحواس
(٦) صنع الكناسين والزبالين والسمادين	(٦) دفع ثقل الكيموس من المعدة الى الأمعاء والمصارين واخراجها من الجسد
(٧) صنع الذين يحفرون الآبار والقنى والأنهار	(٧) اجراء الدم فى الأوردة الى سائر الأطراف
(٨) صنع الذين يعملون الحلواء والعجائين	(٨) تجفيف المادة الدموية حتى تصير لحما وشحما
(٩) صنع الذين يطبخون الآجر والخزف والزجاج	(٩) تصليب المادة حتى تصير عظاما
(١٠) صنع النجارين الذين ينجرون الأساطين وقوائم الأسرة	(١٠) تسوية عظام الفخذين والذراعين
(١١) صنع أسنان المفاتيح وهندسة الصناديق	(١١) تركيب مفاصيل الركبتين والفخذين والذراعين والأصابع
(١٢) صنع السفن	(١٢) تركيب خرزات الظهر والرقبة والأضلاع
(١٣) صنع القماقم والأباريق	(١٣) تركيب عظام القحف وهندامها
(١٤) صنع النحاتين الذين يصنعون الأرحية والطواحين	(١٤) خلقة الأسنان وتركيبها وترصيعها
(١٥) صنع الغزالين والحبالين والفتالين	(١٥) خلقة الأعصاب وتمديدها وفتلها ونصبها على الأعضاء
(١٦) صنع النساجين والحاكة	(١٦) خلق الجلود والغشاوات
(١٧) صنع الرفائين والخرازين والخياطين	(١٧) إلحام الجراحات والقروح
(١٨) صنع الزراعين والغراسين	(١٨) ظهور الشعر على الجلد

الصناعة فى المدينة	نظيرها فى جسم الانسان
(١٩) الذين يعملون الطنافس والمسوح والغليظ من الثياب	(١٩) خلقة الكروش
(٢٠) صنع الذين ينسجون ثياب القطن والكتان	(٢٠) خلقة الأمعاء
(٢١) صنع الذين ينسجون الحرير والرقيق من الثياب	(٢١) خلقة الأغشية الرقيقة فى العين
(٢٢) أفعال الصباغين والمزوّقين والدهانين	(٢٢) تبييض العظام وتحمير اللحم وتصفير الشحم وتسويد الشعر ثم تبييضه للكبير
(٢٣) صنع المصورين والنقاشين وأصحاب اللعب	(٢٣) تصوير الجنين وخلقة الفراخ فى البيض

هذه شذرة من الصناعات التى فى أجسامنا تصرفت فى الطعام والشراب الذى أكلناه واستخلصناه من أنواع الحيوان والنبات والمعادن فكانت الصناعات التى ذكرناها ٢٣ صناعة نراها فى المدن ولها نظائر فى أجسامنا من الذين يصنعون ما لطف ورق ومن الذين ينقون المدن من الأدران ومن الحفارين والحجانين وضرابى اللبن وما أشبه ذلك

بهذا فلتفهم قوله تعالى فيما نحن بصدده من الآيات — هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء — فها أنا ذا ذكرت لك كيفية التصوير فى الأرحام وأمطت لك اللثام عن عجائب كانت مخبوءة فى كتب آبائنا وكتب الفرنجة فأصبحت أمامك جميلة المحيا باهرة الطلعة حسنة القوام تبهج الناظرين وتسر المفكرين الذين يقرأون — وفى أنفسكم أفلا تبصرون • إنّ فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون — فبهذا فليكن الايقان وبهذا فليكن الايمان وبمثل هذا فليعلم دين الاسلام — ولمثل هذا فليعمل العاملون — وعلى هذا النمط وبهذه الطرق فليرتق المسلمون وعلى العلماء بعدنا أن ينيروا الاذهان ويعلموا الشبان ويوقظوا الوسنان ويحيوا أمة أماتها الجهل وأضناها المحل وأحاط بها الأعداء وأمرضها الداء •

أيها العلماء حاربوا الجهالة وأحيوا العلم وأبرزوا جمال العالم المشاهد وجمال الأنفس وبينوا للشبان الجمال والحسن والبهاء والزينة والتزويق والنظام والكمال فى جسم الانسان ظاهره وباطنه وخافوا يوما يقال فيه — وقفوهم انهم مسؤولون مالكم لا تناصرون بل هم اليوم مستسلمون

ولست أقصد بالعلماء إلا الذين قال الله تعالى فيهم — إنما يخشى الله من عباده العلماء — وهم الذين اطلعوا على هذا الجمال وأدركوه ودرسوا هذا العالم وفهموه وقرأوا صنع الله فى الجسم والنفس فعقلوه — اولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون — وهم هم الذين خاطبهم الله فقال — ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا الوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك — هؤلاء هم العلماء الذين يخشون الله خشية ناجمة من ادراك جماله والصور البهجة التى زوّقها والصناعات البديعة التى أبدعها أولئك هم المسؤولون

فمن قرأ هذا التفسير وأدرك الحقائق فليعلم وليشوّق الناس فلا حياة للمسلمين إلا بهذه النظرات ولا سعادة لهم إلا بهذه الآيات ولا بقاء لهم إلا بما قدّمناه ولا رقى إلا بما رسمناه ذلك هو الصراط المستقيم — وفوق كل ذى علم عليم —

﴿ مناظر الأنفس أشبه بمناظر الآفاق ﴾

قد استبان لك بما قررناه أن الحياة الانسانية احتاجت الى شهوة عاونتها الحواس من الذوق والشم والبصر والى غضب به يحافظ الحى على ما ملك من نبات وحيوان وطعام ومتاع وعقل به يدبر هذه كلها وقد تبين لك أن الذى نتصرف فيه وننتفع به من النبات مئات الالوف وكذا الحيوان والمعادن والماء فى الأنهار والأرض وما عليها

والكواكب بأنوارها والهداية بها فى ظلمات البر والبحر وأنت تعلم أن هذه عجائب لا تتناهى فانظر الآن فى نفسك وتأمل هل ترى فيها مناظر وعجائب مثل ما تراه بعينك فى هذا العالم • أما أكثر الناس فانهم يقولون كلا ليس فى أنفسنا شئ مع أنك تراهم فى أكثر أوقاتهم يحسون فى أنفسهم بقبض وبسط وحقد وحسد وغيرة وفرح وترح وبخل وكرم وقناعة وحرص وفكر وتذكر وما أشبه ذلك وكل هذه المناظر المختلفة تشغلهم فى سائر أوقاتهم وتلهيهم عن التمتع بما حولهم وقد ترى المرء مطرقا مفكرا طول يومه لا ينظر الصور الجميلة حوله من شجر ونبات وانسان ؟ لماذا لان عدوه يتربص ليقتله أو انه يفكر فى حبيب غائب أو فى دين عليه أو دين له كل ذلك لمناظر وأنواع من الوجدان قد أحاطت بالنفس فألهتها عن كل شئ وتلك الانواع النفسية لها وجود ولولا انها موجودة ما شغلتنا بها ولا أضاعت أوقاتنا ولا أورثتنا مرضا تارة وصحة تارة أخرى

اذا فهمت ذلك فلتعلم أن المناظر التى تراها تنقسم الى قسمين • قسم نكرهه وقسم نحبه فالذى نكرهه مثل الذباب والحيات والعقارب والآساد والنمور والشوك والحنظل والأعداء

والذى نحبه مثل النجوم والأزهار والأشجار والأنهار والمزارع الجميلة والطيور المغردة والحيوانات الانسية • هكذا ما فى النفس من الوجدان فانه منقسم الى قسمين محبوب كالكرم والعلم والحلم والاحسان ومكروه مثل البخل والحرص والجهل والحمق والخور والجبن وما أشبه ذلك فالذى سميناه محبوبا هى الفضائل والذى سميناه مكروها هى الرذائل فالرذائل فى الانسان كالحيات والعقارب مكروهات والفضائل فى الانسان كالطيور المغردة والصور الجميلة فلأبين لك القسمين فى هذا المقام لتنظر كيف كانت القوة الشهوية والقوة الغضبية والقوة العاقلة قد أنتجت أنواعا وأصباغا من الوجدان كأنها حدائق من الجنات ومزارع نضرات وتارة كأنها نار متأججة أو حيات وعقارب فكأن تلك القوى النفسية لما كانت أهم الاسباب فى رؤية المخلوقات المشاهدة فدرست علوم الآفاق كانت هى أنفسها فى النفس ذات مناظر مختلفات من جنات وأعناب ونار وجحيم وعقارب وحيات جهنمية — وفى أنفسكم أفلا تبصرون —

﴿ أنواع المحبوبات من الوجدان الداخلى التى تفرعت من القوة الشهوية والغضبية والعقلية
وهى تبلغ نحو ٦٠ نوعا نذكر بعضها ﴾

(١) الرأى — الفكر — الظن — التصور — التخيل — الاحساس — الموافقة — النزاع فالاول
(٢) غاية الفكر ونهايته والثانى البحث عن المعارف والثالث قياس الأشياء من ظواهرها والرابع افراد صورة عن صاحبتها والخامس بيان صور المحسوسات بعد مفارقتها والسادس قبول صور المحسوسات والسابع مصادفة الحى مطلوبه والثامن انبعاث النفس نحو الشئ الملائم

الصدق — النطق — التمييز — الفهم — الحكمة — الذكاء — الحفظ — الذكر — العقل

الاول الاخبار بالشئ على ما هو عليه والثانى شرف الانسان وبه فضل على الحيوان والثالث حصول الفرق بين الحق والباطل والخير والشر والرابع حصول المعانى الواردة على النفس الخامس ادراك أفضل المعلومات السادس سرعة انقداح النتائج وسهولتها على النفس والسابع ثبات صور المعانى فى النفس والثامن حصول ما سبق وجوده فى الذهن والتاسع الحكم على حقيقة المطلوب بما هى كذلك هذه ١٧ نوعا فضائل القوة الناطقة

(٣) احتمال الكد — الشهامة — النجدة — كبر النفس — التواضع — التثبت — عظم الهمة — العفو — حسن الخلق — البشر — الرحمه — الحلم — الشجاعه

فالاول استعمال البدن فى الأعمال الحسنة كطلب الرزق والعبادة والثانى الحرص على الاعمال العظام توقعا للاحدوثة الجميلة والثالث ثقة النفس عند المخاوف والرابع الاستهانة باليسار والاقتدار على حمل الكرامة والخامس اظهار الخمول واجتناب المباهاة وترك العجب والسادس القوة على احتمال الآلام والسابع استصغار ما دون النهاية من

معالى الامور بالانفة بترفع النفس عن الامور الدنيئة وبالحمية وهى الغضب عند الاحساس بنقص وبالغيرة وهى إظهار الغضب فيما يخشى عاره والثامن أنفس الاخلاق وهو الفضل الحقيقى والتاسع خلق شريف للانبياء والأولياء والعاشر اظهار السرور بمن تلقاه والاقبال على محادثته والحادى عشر هو عبارة عن حزن مصحوب بودّ لمن أصابه الألم والثانى عشر هو ترك الاساءة لمن أساء اليه مع القدرة على المجازاة والثالث عشر هو الاقدام على الاخطار حيث يجب استصغار المصائب فى سبيل الشرف — فهذه فضائل القوة الغضبيه

(٤) الوقار — الصيانة — الانتظام — حسن السمت — الحرية — الدماثة — الدعة — الصبر — الورع — الحياء — السخاء — النزاهة — كتمان السر — القناعة — العفة

الاوّل حفظ النفس عن الحركات الزائدة والرزانة عند الأحوال الواردة الثانى تجنب مايقبح من القول والفعل المبتذلين كالسخرية والمزاح والأفعال الساقطه الثالث أن تكون للنفس حال بها تعرف كيف تقدّر الامور على أحسن وجه الرابع أن تستكمل النفس بالزينة الحسية والمظهر المقبول كالسمت والوقار الخامس أن يكون الكسب من جهة يشرف بها صاحبها كالكتابة والهندسة والطب السادس الدماثة أى سلامة النفس وطاعتها وسهولتها فى الأمور الشريفة العالية السابع أن تثبت النفس عند مغالبة الشهوات وتسكن اذا اهتاجت أعاصير اللذات الثامن أن تغلب النفس هواها اذا بدت بوادره التاسع أن يقصد الفعل الجميل اذا غالبته الشهوات للقبيح فكأن الصبر تتلوه الدعة يتبعها الورع فالأوّل للمغالبة والثانى للثبات والثالث لمحو القبيح والتزين بالجميل العاشر انكسار النفس خيفة اتيان القبيح وترك التقصير فى حق ذى الحق الحادى عشر أن يبذل المال من غير افراط ولا تفريط بحيث يكون سجية للنفس الثانى عشر أن يتباعد الانسان عن المواقف الشائنة

أما كتمان السر والقناعة والعفة وهى (١٣ و ١٤ و ١٥) فهى ظاهرة ولننبه على أن القناعة الرضى بما سهل أما العفة فهى عن قبيح الشهوات

فهذه ٤٦ نوعا من الفضائل للقوة العقلية والشهوية والغضبية التى غرست فينا لنحيا بها وهذه القوى مغروسة فى الحيوان ولكن القوة العاقلة هى التى نمت فى الانسان والقوة الغضبية تبدّت فى الآساد والنمور والقوة الشهوية ظهرت فى الخنزير وسائر الأنعام وما أشبهها

وهذه كلها معا غرست فى الانسان لحياته . الانسان اذا اتسم بالوقار والصيانة والانتظام وحسن السمت والتخيل والذكاء والحكمة والعقل والاحساس والفكر والشهامة والنجدة والشجاعة وأمثالها فانه يرى فى نفسه جنة عرضها الأخلاق الجميلة المذكورة وأمثالها وطولها راحة الضمير وسرور النفس ولا معنى للسعادة إلا ما أحس به الانسان ولا فضل للمناظر التى لاتقتنصها النفس فترتسم فيها صورتها وتبتهج بجمالها

الجنات والأعناب والحور والولدان لالذة فيها ولا ثمرة اذا كانت النفوس عنها منقبضة والحواس غائبة فالناس لايفرحون ولا يسرون إلا بما أحسته نفوسهم وشعرت به قواهم وخزن فى أفئدتهم واطلعت عليه نفوسهم فهذا هو الذى به يفرحون فالمحبوب هو الذى شعرت به النفس مما يلائمها والمكروه ماشعرت به مما لايلائمها . والذى لايلائمها هى الرذائل التى أشبهت الذباب والحشرات الضارات والحيات والعقارب والآساد والنمور وسائر المؤذيات وهى المطلعات على الأفئدة الحائمات حول القلوب المؤلمات للنفوس المزريات بالشرف

﴿ الأخلاق المذمومة ﴾

السفه — الرياء — النميمة — التبذل — الغدر — الخرق — الحمق — الكذب — الجهل — المكر — الخبث — البلادة . فهذه (١٢) خلقا مذموما من أخلاق القوة العاقلة . والفرق بين الخرق والحمق أن الأوّل الحركة عن غير حاجة وعدم التدبر فى مزاولة الأعمال والثانى معرفة الصواب وترك العمل به (١) والذعر ويكون من ورود غير مألوفة (٢) والحذر ويكون من شعور أمر مترقب واشتباهه (٣) والفرق الهيبة من شئ عظيم

يضعف عن احتماله (٤) والحياء (٥) والخجل والأول جزع من صورة شيء قبيح قد فعله والثاني جزع من أن يعرف بشيء قبيح لم يفعله (٦) الكسل (٧) الغدر (٨) العناد (٩) الملاحاة (١٠) التعيير (١١) الهزؤ (١٢) الهزل (١٣) المزاح (١٤) الفخر (١٥) العجب (١٦) الزهو • فهذه (١٦) خلقا ناجمة عن القوة الغضبية من الصفات المذمومة والأفعال المرذولة والحرص والشماتة

وبطلان الشهوة والمجون وافشاء السر والخيانة والبخل والشره والفجور • فهذه تسع صفات مرذولة من آثار القوة الشهوية فهذه ٣٧ خصلة مذمومة

فالبليد والسفيه والمرائي والنمام والغادر والأحمق والمعجب بنفسه والخجل وأمثالهم كل هؤلاء يحسون بنقص في أنفسهم وكراهة من الناس فتكون هذه أشبه بما نشاهد في العوالم من النقائص المؤذية انما هذه أنكى وأسوأ وقعا وأشد فتكا بالانسان من الأعداء الخارجين فان هذه حيات وعقارب وآساد ونار تلدغ صاحبها في يقظته وفي نومه وتؤذيه صباح مساء

فأكثر الناس يعذبون في الدنيا وهم لا يعلمون أنهم معذبون ويهانون وهم لا يعلمون أنهم مهانون وتلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ولا يعلمون أنهم معذبون

قد استبان لك في هذا المقام أن في النفوس مناظر سارة وأخرى مؤلمة كما أن في الآفاق مناظر مفرحة وأخرى مؤذية

﴿ ذكر آيات قرآنية مطابقة لما تقدم مع تلخيص ما مضى بحيث يجمع ما ذكرناه
وبه يستغني اللبيب في علم الأخلاق ﴾

فتأمل أيها الذكي فيما أوضحته في هذا المقام من هيكل الانسان وعجائب صورته وحسن نقشه وكيف كان مركبا من أعضاء وحواس وأظفار وشعر وعظام ولحم ودم وشحم ومخ وعصب وشرايين وأوردة وطحال وقلب وكبد ومرارة وحالبين ومعدة وأمعاء وله أبواب تبلغ ١٢ ورجلان ويدان وكيف كان هذا التركيب نهاية ما بلغه الكمال وكيف كان آخر سلسلة وصل اليها الارتقاء من أدنى الحيوان الى أعلاه وكيف مر على هذه النظم الحيوانية وهو في الرحم فمر على النقاعيات والهلاميات والحيوانات القشرية والحيوانات الفقرية وانتهى الى آخرها وكيف كان مفصل الأعضاء تفصيلا عجيبا واتسقت صورها اتساقا بهيجا فكانت مقيسة بشبره حتى كانت العينان معا طول الأنف وهكذا شق الفم والشفتان وكان ما بين الأذنين طول القدم وهكذا من الجمال الموسيقي وكيف كانت المماثلة بين أطرافه وأطراف الحيوان من أنواع المماثلة التي هي من أنواع الجمال الظاهرة في تماثل أوراق الشجرة فيما نراه وكيف تشابه ذلك على العلماء وكان هذا التشابه كالذي جاء في الوحي من الآيات المتشابهات وكيف كان هيكل الألماني وأحزابه يتبعون ما تشابه منه وكيف جاء علماء القرن العشرين فأزالوا الشبهة وحلوا العقدة وقد ذكرنا منهم عشرين عالما وأبنا أن الجمال الباهر في هذه الطوائف يدعو الى الاعجاب • ثم كيف كانت الحياة الانسانية مملوءة بالعجائب فنحن هو انا قد أعطيت آلات نستعين بها من الحواس وغيرها فميزنا الخبيث من الطيب في النبات والحيوان وسائر المخلوقات ثم نظرنا في أنفسنا فرأينا صناعات مختلفة في أعضائنا وخواصها وقد ذكرنا منها ٢٣ نوعا نضارع الصناعات المشاهدات في المدن ثم قفينا بذكر آثار القوى الثلاثة من الفضائل والرذائل كما كان في المشاهدات الخارجية

﴿ القبيح والجميل ﴾

بهذه الصور نفهم قوله تعالى ـ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ـ فالفجور والتقوى قد بانا في هذا المقام • وبهذا نفهم ـ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ـ وقوله تعالى ـ لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين ـ فلقد بان لك حسن تقويمه وبان لك كيف رد الى أسفل سافلين بالأخلاق الرديئة وقوله تعالى ـ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي ـ وقوله تعالى ـ ولا أقسم بالنفس اللوامة أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه بلى

قادرين

قادرين على أن نسوّي بنانه بل يريد الانسان ليفجر أمامه — وقوله تعالى — فلينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب — وقوله تعالى — بل الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره — وقوله تعالى — إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج (أخلاط) نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا — وقوله تعالى — ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد —

﴿ نداء المفسر للمسلمين وبيان أن علم التوحيد هو نفس هذه العلوم من التشريح ووظائف الأعضاء ﴾

أيها المسلمون كيف جاز لكم ان تثاقلوا الى الأرض وترضوا بالحياة الحيوانية وتبتعدوا عن نظام ربكم وعن جمال خالقكم وعن معرفة صنعته كيف يقول لكم ما معناه خلقنا الانسان من نطفة فعلقة فمضغة فعظام فلحم فانسان سميع بصير . كيف يقول هذا لكم وأنتم عن آياته معرضون

أفليس هذا هو علم التوحيد حرام والله حرام أن تغفلوا عن هذه العلوم . هذه العلوم واجبة على كل قادر يقول الله — لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم — ويقول — الذي أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون

فأين الشكر أيها المسلمون أين الشكر ولا شكر هنا إلا بالعلم فأين العلم . العلماء هم الفرنجة . أما نحن فنصيبنا من الدنيا الجهل أبهذا جاء نبينا أبهذا نزل القرآن أينزل القرآن على أمة ويقول الرسول يوم القيامة — يارب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا — أوليس هذا هو الهجر

يا أمة الاسلام يا علماء الاسلام يا ملوك الاسلام يا قواد الاسلام أمعنوا النظر فيما ذكرت وتفكروا فيما قررت فوالله لئن لم تقوموا بعلوم هذا الدين ليستخلفن الله في الأرض قوما خيرا منا — وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم —

والا فلماذا أنزل هذا الدين أأنزله ليقرأه الجاهلون ويتعلمه الغافلون هذا ولقد آن أن يرجع مجد المسلمين وينصر الله به أمما كانت غافلة ورجالا كانت في ملابس الجهالة رافلة — ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز — فاقرأوا علوم التشريح ووظائف الأعضاء وعلوم الطبيعة وخافوا من الله أن تجهلوا هذه العلوم كما كان بعض من قبلنا يخافون أن يعلموها . فهذا أوان الانقلاب وظهور الحقائق . لقد ظهرت الحقائق واستبان السبيل وبانت حجة الله على المسلمين فليقرؤا سائر العلوم لاسيما التشريح ووظائف الأعضاء

هذا هو معنى قوله تعالى في هذه السورة ﴿ هو الذي يصوّركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ هذا تمام تفسير هذه الآيات

ولما كان في هذه الآيات اشارة الى أن الشبهات قد تزيغ بها الأفئدة ناسب أن يدعو العبد ربه أن لا يوقعه في الزيغ بعدها فقال تعالى — ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ان الله لا يخلف الميعاد —

(القسم الثالث من سورة آل عمران)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ * كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ * قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ *

قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ * زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ * شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ *

﴿ مجمل التفسير في هذه الآيات ﴾

(ان الذين كفروا) من اليهود والنصارى ومشركي العرب (لن تغني) لن تنفع أو لن تدفع (عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا) أي من عذاب الله شيئا أو يقال ان من بمعنى عند أي عند الله شيئا (وأولئك هم وقود النار) حطبها . ألا وان عادة هؤلاء الكفار من المعاصرين لك يا محمد وفعلهم وحيفهم في تكذيبك وجحود الحق (كدأب آل فرعون) أي عادتهم وفعلهم وصنيعهم فانهم كذبوا موسى وصدقوا فرعون (و) دأب (الذين من قبلهم) وهم كفار الأمم الماضية مثل عاد وثمود وحال كونهم (كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب) زيادة تخويف للكفرة وتهويل وزجر . وقال ابن عباس وغيره لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا يوم بدر ورجع الى المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع وقال يا معشر اليهود احذروا من الله مثل ما أنزل بقريش يوم بدر وأسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم فقد عرفتم أني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم فقالوا يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قوما أغمارا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة وانا والله لو قاتلناك لعرفت انا نحن الناس فأنزل الله عز وجل (قل) يا محمد (للذين كفروا) أي اليهود (ستغلبون) أي ستهزمون (وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد) أي الفراش أي بئس ما مهدوه لأنفسهم أو بئس ما مهد لهم وقد حقق الله ذلك فقتل المسلمون بني قريظة وأجلى عمر بن الخطاب بني النضير الى الشام كما فتح النبي صلى الله عليه وسلم خيبر وضرب الجزية على طائفة من اليهود وهذه الآية من دلائل النبوة لأنه خبر قد تحقق فيما بعد (قد كان لكم آية) أيها اليهود (في فئتين التقتا) يوم بدر (فئة تقاتل في سبيل الله) أي طاعته وهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وكانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا سبعة وسبعين رجلا من المهاجرين وستة وثلاثين ومائتي رجل من الأنصار وكان صاحب راية المهاجرين علي بن أبي طالب وصاحب راية الأنصار سعد بن عبادة وكان فيهم سبعون بعيرا وفرسان وكان معهم من السلاح ستة أدرع وثمانية سيوف هذه فرقة مسلمة (وأخرى كافرة) أي وفرقة أخرى كافرة وهم مشركو مكة وكانوا تسعمائة وخمسين رجلا من المقاتلة وكان رأسهم عتبة بن ربيعة بن

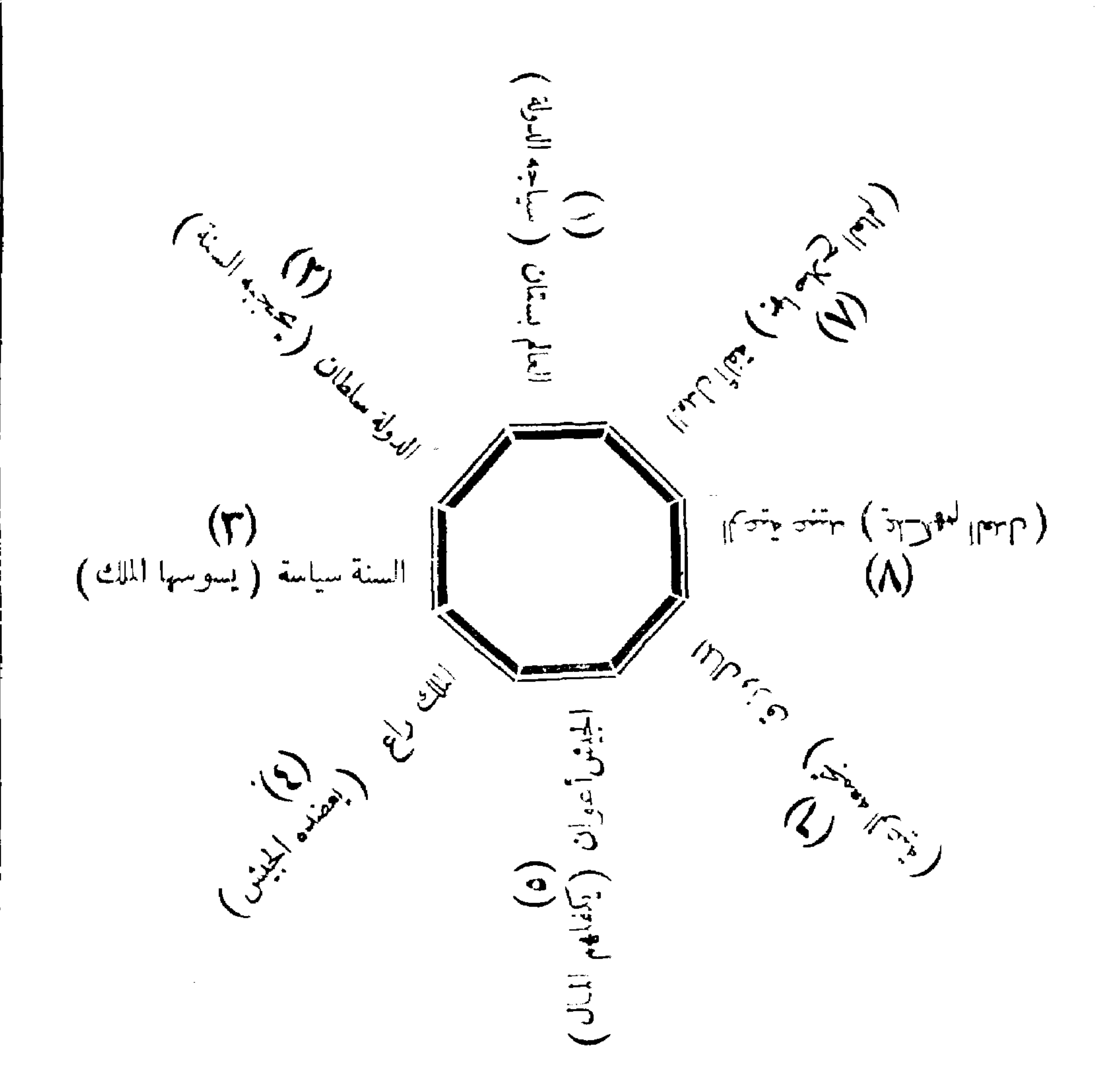
عبد شمس وكان فيهم مائة فرس وكانت وقعة بدر أوّل مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة (يرونهم مثليهم) أى يرى المشركون المؤمنين مثلى عدد المشركين فكأنهم كانوا يرونهم قريبا من ألفين وقد قلل الله عز وجل المسلمين فى أعين المشركين فلما التقى الجمعان خيل لهم أن المسلمين ضعف عدد المشركين (رأى العين) رؤية ظاهرة معاينة (والله يؤيد بنصره من يشاء) نصره كما أيد أهل بدر (ان فى ذلك) التقليل أوّلا والتكثير ثانيا وغلبة القليل عديم العدّة على الكثير شاكى السلاح (لعبرة لأولى الأبصار) أى لعظة لذوى البصائر وأصل العبرة من العبور كأنه طريق يعبرونه فيوصلهم الى مرادهم وهؤلاء يعبرون من منزلة الجهل الى منزلة العلم (زين للناس حب الشهوات) أى زين الله للناس حب المشتهيات والشهوة توقان النفس الى الشئ المشتهى وانما زينها الله لانها من أسباب التعيش وبقاء النوع (من النساء والبنين) بدأ بالنساء لأن الحب لهن شديد أودعه الله فى قلوب الرجال وفى قلوبهن للحكمة البالغة وهى بقاء النوع ولولا تلك المحبة البالغة بينهما ما كان ذلك وخص البنين بالذكر لأن حب الولد الذكر أكثر من حب الأنثى لأن الأب يتكثر به وهو يعضده ويقوم مقامه (والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة) القنطار المال الكثير هذا هو أصل المعنى فاذا قيل انه مائة ألف دينار أو ملء جلد ثور أو ألف ومائتا أوقية أو ألف ومائتا مثقال فذلك يرجع الى اصطلاحات الناس نقلت عن السلف وكل قال بما سمعه مما وقع عليه اختيار قوم ويقال قنطرته اذا أحكمته ومنه القنطرة أى المحكمة الطاق والمقنطرة المجموعة ويصح أن تكون للتأكيد كقولهم بدرة مبدّرة (والخيل المسوّمة) من السمة وهى العلامة فهى معلمة بالغرة والتحجيل أو بالكى ويقال أيضا سوّمت الدابة وأسمتها اذا أرسلتها المرعى والمقصود أنها اذا رعت زاد حسنها (والأنعام) جمع نعم وهى الابل والبقر والغنم (والحرث) الزرع (ذلك) المذكور من هذه الأصناف (متاع الحياة الدنيا) أى الذى يستمتع به فيها وهى زائلة (والله عنده حسن المآب) المرجع وهذا تحريض على استبدال ما عند الله من اللذات الحقيقية الأبدية بالشهوات الفانية (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم) أى أؤخبركم بخير مما ذكر من متاع الدنيا (للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها) هذا مستأنف لبيان ما هو خير (وأزواج مطهرة) مما يستقذر من النساء (ورضوان من الله) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله عز وجل يقول لأهل الجنة هل رضيتم فيقولون وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون وأى شئ أفضل من ذلك فيقول أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا ثم ان العبد اذا علم أن الله رضى عنه كان ذلك سرورا له لا يعادله سرور (والله بصير بالعباد) أى بأعمالهم فيثيب المحسن ويعاقب المسىء وسترى قريبا مراتب هذه النعم وان أدناها لذات الدنيا وأوسطها الجنة وأعلاها رضوان الله بالتنزه عن العالم المادى فى مقعد صدق عند مليك مقتدر وكما قدّمناه فى سورة البقرة عند قوله تعالى — وأتوا به متشابها — فراجعه هناك * ثم وصف المتقين فقال (الذين يقولون ربنا اننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار) والغفران ستر الذنوب والتجاوز عنها (الصابرين) على أداء الواجبات وعن المحرمات والمنهيات وفى البأساء والضراء وحين البأس كما تقدم فى البقرة وعلى ما أصابهم فى دنياهم من البلاء (والصادقين) فى إيمانهم صدقت نياتهم واستقامت ألسنتهم وقلوبهم فى السرّ والعلانية فلا يكذبون فى أقوالهم ولا ينصرفون عن أعمالهم حتى يتموها ولا عن نياتهم وعزمهم على الفعل حتى يبلغوه (والقانتين) المطيعين لله المواظبين على فعل الطاعات (والمنفقين) أموالهم على أنفسهم وأهلهم وأقاربهم وأرحامهم وفى الزكاة وجميع القربات (والمستغفرين بالأسحار) الاستغفار طلب المغفرة والسحر هو ما قبيل الفجر من الليل وخص بالذكر لأن الدعاء فيه أقرب الى الاجابة والعبادة أشق والنفس أصفى والروع أجمع والاجتهاد أنجع • روى مسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل ربنا تبارك وتعالى فى كل ليلة الى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول أنا الملك أنا الملك من ذا الذى يدعونى فأستجيب له من يسألنى فأعطيه من يستغفرنى فأغفر له ومعنى هذا العطف والرأفة والقرب من الله فلا نزول ولا طلوع • وروى أن لقمان قال لابنه يا بنىّ لا تكن أعجز من الديك فانه يصوّت بالأسحار وأنت نائم على

فراشك وقال نافع كان ابن عمر يقول يا نافع أسحرنا فأقول لا فيعاود الصلاة فاذا قلت نعم قعد يستغفر ويدعو حتى يصلى الصبح (شهد الله أنه لا إله إلا هو) بين وحدانيته بما نصب من الدلائل التى أبدعها فى السموات والأرض وقد شرحناها عند قوله تعالى - ان فى خلق السموات والأرض - فى سورة البقرة (والملائكة) لأنهم أقرب الى علم هذه العجائب الكونية (وأولوا العلم) الناظرون فى ملكوت السموات والأرض من بنى آدم الذين فى هذه الأرض من الأنبياء والحكماء والعلماء وهؤلاء أقرب الى الملائكة فيعلمون أن الله لا إله إلا هو حال كونه (قائما بالقسط) أى بالعدل والنظام الذى تقدم فى أول هذه السورة وفى سورة البقرة عند آية ان فى خلق السموات والأرض وغيرها فراجعها هناك تجد عجبا عجابا (لا إله إلا هو) كرره للتأكيد (العزيز) الغالب الذى لا يقهر (الحكيم) فى أفعاله ثم أبدل من أنه لا إله إلا هو (أن الدين عند الله الاسلام) بفتح الهمزة على قراءة الكسائى فكأنه تعالى يقول شهد الله والملائكة وأولوا العلم أنه لا إله إلا هو حال كونه قائما بالقسط وشهدوا أيضا أن الدين عند الله الاسلام والدين هو فى الأصل الانقياد ثم جعل اسما لجميع ما تعبد الله به عباده وأمرهم بالاقامة عليه والاسلام هو الاستسلام والانقياد والدخول فى الطاعة أو هو الشرع المبعوث به الرسل المبنى على التوحيد الذى أتى به آدم والأنبياء بعده الى محمد صلى الله عليه وسلم قال تعالى شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين فأصل الدين واحد والاختلاف فى الفروع وقرئ بكسر ان على الاستئناف جملة مؤكدة للاولى (وما اختلف الذين أوتوا الكتاب) من اليهود والنصارى فى أمر موسى وعيسى وأمر محمد صلى الله عليه وسلم فقالت اليهود عزير ابن الله وثلث النصارى وكذب قوم من الفريقين محمدا صلى الله عليه وسلم بعد ما نزل القرآن ما فعلوا ذلك (إلا من بعد ما جاءهم العلم) أى بعد ما علموا حقيقة الأمر (بغيا بينهم) حسدا بينهم وطلبا للرياسة (ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب) وعيد وتهديد لمن أصر على الكفر من اليهود والنصارى اهـ التفسير العام للقسم الثالث من سورة آل عمران

تفصيل الكلام على ما تقدم فى هذا القسم ببيان المراتب الثلاثة للانسان وهى الشهوات والأعمال الفاضلة والعلوم وأنها درجات بعضها فوق بعض وتبيان القيام بالقسط وان هذا هو دين الاسلام وانه صبغة الله

﴿ الحكمة فى خلق الشهوات وأنها وسيلة لغيرها ﴾

اعلم أن الله عز وجل أودع الشهوات فى الحيوان والانسان رحمة منه وفضلا وعدلا ونظاما للبرية وابداعا وحكمة فمن شهوة الغذاء الى الملبس الى التناسل الى المساكن الى عمارة المدن ونظام الأمم وقيام العمران. فلا أمم ولا دول ولا ممالك ولا حرث ولا نسل ولا أنبياء ولا حكماء اذا لم تكن شهوات. فالشهوات من أكبر نعم الله وأعمها وأعظمها بل هى أول نعم الله على عباده. وهل كانت حكومات الأرض مقسمة الى أقسام من زراعة وادارة وهندسة وطب ومحاكم الا لما تطلبه الشهوات والبقاء فى هذه الحياة. يقال ان أرسطاطاليس أوصى أن يدفن ويبنى عليه بيت مثمن يكتب فى جهاته ثمان كلمات جامعات لجميع الأمور التى بها مصلحة الناس وتلك الكلمات الثمان هى على هذا المثال



فهذه الشهوات وما يجيء اليها من المال وسائل للكمال الجسمي والعقلي فمن وقف عندها أذلته فأصبح عقله موقوفا وقلبه محبوسا ونفسه جازعة وحياته ضائعة

لقد رأيت ما جاء في القرآن وان الشهوات من النساء والبنين والذهب والفضة والزرع والخيل والأنعام قد زينها الله للناس ورأيت الشكل المثمن الذي رسمه أرسطاطاليس فاعلم أن ذلك متاع الحياة الدنيا وانه مقدمة والمقدمة غير مقصودة لذاتها فهذه وان زينها الله وطلبها الملك ما كانت حاجتنا اليها الا كحاجة الصياد للشبكة والحارث للمحراث والتلميذ للوح . ولو أن الصائد جعل الشبكة مقصودة لذاتها في الحياة والصبي جعل اللوح غاية المنى لكان الصيد ضلالا والعيش وبالا ذلك مركوز في الفطر معلوم في السير درج عليه البشر . اشترك فيه العالم والجاهل والملك والصعلوك فلا ترى عزيزا الا وهو يقول أف من الحياة ولا ذليلا الا وهو يقول أين الجاه ولا موسرا الا وهو مفتون في مناه بائس فيما ابتغاه فالناس كلهم أجمعوا على التبرم والتضجر والاشمئزاز في كثير من الساعات على ذلك درجوا . ولذلك خلقوا ـ وتمت كلمة ربك ـ على الانسان والحيوان فهم في العذاب الهون وان كانوا لا يشعرون أنهم معذبون . أليس من العجب أن تكون النعمة بالشهوات نقمة والاعطاء سلبا فاين المخرج اذن قال أبو الطيب المتنبي

كل من في الكون يشكو دهره ليت شعري هذه الدنيا لمن

الشهوات شبكات نصبها الله للناس ليحيوا بها ولكنهم اذا وقعوا فيها تبرموا من المصائب . ظهر ذلك في كتبهم ونظمه شعراؤهم وأوحاه الله الى أنبيائهم . ولقد أطنب في احتقار الحياة ونعيمها ومنفعتها النبي سليمان عليه السلام في التوراة في

مثال هناك تحت عنوان ﴿ الجامعة ﴾ فقال ـ هكذا باطل الأباطيل ـ وأخذ يشرح الحياة ويذمها ويقول لاخير فى المال ولا الولد ولا اللذات ولا العلم ـ ويقول ـ ما تحت الشمس من جديد ـ ومن هذا الحكم ـ ما الفائدة للانسان من كل تعبه الذى يتعبه تحت الشمس دور يمضى ودور يجيء والأرض قائمة الى الأبد والشمس تشرق والشمس تغرب وتسرع الى موضعها حيث تشرق ـ وقال ـ ما كان فهو يكون والذى صنع فهو الذى يصنع فليس تحت الشمس من جديد ان وجد شيء يقال عنه أنظر هذا جديد فهو منذ زمان كان فى الدهور التى كانت قبلنا ليس ذكر للأولين ـ والآخرون أيضا الذين سيكونون لا يكون لهم ذكر عند الذين يكونون بعدهم ـ ومنه رأيت كل الأعمال التى عملت تحت الشمس فاذا الكل باطل ـ وقبض الريح وقال ـ ان فى كثرة الحكمة كثرة الغم والذى يزيد علما يزيد حزنا ـ ﴿ يقول مؤلف هذا الكتاب ﴾ لقد قلت فى هذا المعنى فى واقعة حال شعرا

يقولون ان العلم للهم دافع … فكيف رأيت العلم أجمع للهم

ألم تر أنى ضاع منى مؤلف … لطيف فلم أصبر على ذلك الغرم

لانى قد رصعت بين سطوره … درارى حتى لايشذ عن الفهم

قضاء قضاه الله فى عالم الدنا … فرارا من الآساد تغرق فى اليم

﴿ عمر الخيام بعد النبى سليمان عليه السلام ﴾

وقفى على آثاره عمر الخيام فى منظومته المسماة بالرباعيات التى لم تكن معلومة عند المسلمين وكانت بالفارسية ولم تظهر فى العالم ولم تترجم الا فى هذه الايام فقد ترجمت الى الانجليزية ومنها الى العربية وسار ذكر الرباعيات فى الاقطار فى أوروبا وفى أمريكا حتى ان هناك اثنى عشر مرسحا لتمثيل رباعيات الخيام وكلها أو جلها لاحتقار الحياة والتماس المخرج منها بالخمر أو ما شاكله

ثم قفى على آثاره أبو العلاء المعرّى الذى حقر المال والولد والحياة وكل شيء فى الوجود حتى زعم ان أباه جنى عليه وهو لايجنى على أحد

هذه هى الصورة الانسانية شهوات محبوبة حياة مملولة وكل يطلب منها مخرجا وله فى المخرج رأى على قدر علمه

﴿ مخرج الجهلاء وبعض النابغين من سجن الحياة ﴾

فأما أهل الدعارة والجهالة والفسوق وبعض الممتازين فى العلم فانهم يقولون نحن نشرب بنت الحان ونسمع الألحان ونغازل الحسان وهكذا الى آخر الزمان • ويقولون انما الحياة لعب ولهو فاذا أحسسنا بسجنها شربنا الرحيق المختوم فزالت عنا الهموم • ومنهم من تعاطى الحشيش والأفيون • ومنهم من يحقن الجلد بالمادة المسماة (كاوروفرم) وهى خلاصة الخمر • ومنهم من يشم مادة تسمى الكوكايين ذلك مخرج الجاهلين يخرجون من سجن الحياة الى سجن الممات ويفرون من جهنم الى الجحيم ومن العذاب الى العذاب أولئك هم الضالون الجاهلون • ولذلك عرفت الأمة الأمريكية نكبات تلك المخدرات والمسكرات فمنعتها كما جاء فى القرآن وأيقنت ان ظلها الا هو ظليل ولا يغنى من اللهب

﴿ مخرج العقلاء والعباد والعلماء ﴾

أما العقلاء فانهم يقضون أوقاتهم إما فى عمل نافع واما فى عبادة واما فى علم فلا يحسون بألم الحياة فالعاملون تقر أعينهم بأعمالهم والعابدون والعلماء المجدون كل تتبدد هموم الحياة عنه لأنه شغل نفسه بما يدفع الآلام ويزيل الظلام ويحيى النفوس وينفى البؤس فالنفس فى التمثيل كالاناء ان لم تملأ ماء ملأ هواء

﴿ المخرج الذى قصه الله فى القرآن ﴾

أما القرآن فكأن الله يقول فيه أنا الذى زينت لكم الشهوات فلا تتركوها ولا تأخذوها إلا بقدر لا كما يقول أبو العلاء المعرّى وعمر الخيام ولا كما جاء فى التوراة عن سليمان عليه السلام فأنا لا أزين عبثا ولا أعطى سبهللا فعطائى

بحكمة ومنعى بعلم فابنوا دنياكم وأقيموا أمر الحياة واجعلوها سلما لما هو أرقى — ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب —

وأنا وان زينتها لكم فتزيينى لها الى حين وعندى ماهو أرقى مقاما وأرفع شأنا من حياة أعددتها وجنات هيأتها ألا ترون أنى أصيبكم فى الدنيا بمصائب وأمطر عليكم من همومها سحائب وأوقعكم فى المتاعب فلا المال ينفعكم ولا الولد يرفعكم ولا الأزواج باقية ولا الثروة مغنية فان نجا أحدكم من المرض والفقر أ بلغته سن الشيخوخة فيحرم من المال وهو يملكه ويتمتع بنوه وهو لا يدركه ويتمنى موته أقرب الناس اليه ويفرح لمصابه كل عزيز عليه فعينه فى جنة وقلبه فى نار فأين الفرار أين الفرار

﴿ لامفر إلا بالعبادات والعلوم ﴾

ذكر الله الجنة فقال — قل أؤنبئكم بخير من ذلكم الآيات — فذكر الجنات والأنهار ثم أتبعها بالرضوان وهاتان مرتبتان ذكرتهما فى سورة البقرة عند قوله تعالى — كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل — فارجع اليه هناك تجد مرتبة العباد ومرتبة العلماء والحكماء والأنبياء وان رضوان الله هنا وقوله فى آية أخرى — وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة — وأمثال ذلك لأعلى المراتب وقد تبين هناك أنك تعرف فى هذه الدنيا نفسك أمن الطبقة العليا أنت أم من الأدنين كل ذلك هناك فلا نعيده كما شرطنا فى أول الكتاب وهذه الجنة ودرجاتها بعد الموت ولكن الصبر المذكور هنا والصدق والقنوت والانفاق والاستغفار بالسحر كل ذلك فى هذه الحياة فيه بعض المخرج من سجن الحياة وهو خير لا ما يجنيه الغافلون على أنفسهم من الخمر وشربه والحشيش وتدخينه والكوكايين وشمه انما ذلك كله انتحار والانتحار من أفظع العار وأخزى الشنار

﴿ أما العلوم ﴾

فقد ذكرها بعد ذلك فى قوله تعالى — شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط — فالجنة ذكر فيها الأزواج والأنهار

وأما ما هو أرقى من الجنة فرضوان الله وذلك مقام يشهده الملائكة وهو مقام القرب من الله مقام الكشف والمشاهدة والاحاطة بالوجود والعلم بالكائنات فذلك مقام الأنبياء والملائكة والحكماء والعلماء فالله قد عطف على نفسه الملائكة وقفى على آثارهم بالعلماء ذلك مقام الصدق ومشهد الحق ورضوان من الله أكبر فالعباد فى مقام المتقين والعلماء والحكماء الناظرون فى هذا العالم فى مقام الواصلين المقربين

﴿ لطيفتان — الأولى صلاتى عند النهر ﴾

كنت منذ عشرات السنين مدرسا للغة العربية بالجيزة فاعترانى يوما قبض وأنا خارج البلدة على نهر فتوضأت وأقمت الصلاة على شاطئه واستحضرت أركان الصلاة فانشرح صدرى انشراحا عظيما فهذا أول ما علمت أن فى الانسان قوى خفية لا تستخرج الا بالعمل كالكهرباء لا يثيرها الا معالجة تظهرها وحك يبرزها

﴿ اللطيفة الثانية — ثغاء النعجة ﴾

كنت منذ ليال وأنا بصدد تأليف هذا التفسير فى المنيل على شاطئ النيل غربى القاهرة والنسيم عليل والهواء طلق جميل ومحيا السماء باسم الثغور ناضر بالنجوم وبينما أنا ناظر اليها معول فى التفكر عليها اذ سمعت نعجة فى سفينة (ذهبية) لها ثغاء وأصحاب السفينة يغنون فخطر بنفسى انها مسجونة وهم مطلقون باكية وهم فرحون ولكن سرعان ما ذهب هذا الهاجس وحل محله ماهو أوسع نطاقا وأوضح اشراقا ذلك أن كل حيوان وانسان فى سجن الحياة والشهوات أليس أهل الأرض محبوسين فيها فلا يستطيعون عنها حولا الى المريخ ولا مخرجا الى الثريا وما من امرئ إلا وحانت منه التفاتة يوما الى السماء فقال يا ليت شعرى أى نعيم هناك وأى سعادة اذ ذاك

ذلك محبسهم العمومى ومقامهم الكلى ولكل من أهل الأرض مقام فى سجنه فمنهم من سجن فى وطنه فلا

يتعدّاه ولا يرى سواه ومنهم من سجن فى زوجه أو ولده أو دينه أو شهوة ملازمة أو عداوة دائمة أو عقيدة راسخة فنعته العلم والحكمة ومنهم من أعجب بملابسه أو فرح بدابته أو افتخر بعلم من العلوم أو أعجب بعبادة خاصة أو لازم مكانا لجماله وحسن بنيانه والجنون فنون فكل يعمل على شاكلته وكل موثق بسارية فهم فى السجن مشتركون وفى الوثاق معلقون وكل حزب بما لديهم فرحون كل شاة برجلها معلقة وكل فتاة بأبيها معجبة ـ ان الانسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ قتل الانسان ما أكفره ـ انه كان ظلوما جهولا ـ

فاذا حبس القوم النعجة وهى صارخة فانهم فى عاداتهم وأخلاقهم وأحوالهم محبوسون فاذا زين الله الشهوات للناس من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل والأنعام والحرث فكأنه يقول

أى عبادى لقد حبستكم جميعا فى الأرض فلستم عنها تبرحون ووضعت كلا فى سجن يخصه فلا يجد عنه حولا . لقد حبستكم فى أوطانكم وخالفت بينكم فى الأخلاق والأحوال والعادات والديانات والمذاهب والآراء والألوان والعشائر والأوطان والبيئات وفصلت بينكم بالبحار والجبال وألقيت بينكم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة كل ذلك لحياتكم ورقيكم ولإكمال أحوالكم فتحنو الوالدة على ولدها والوالد يربيه وينفق عليه بما زينت فى أفئدتهما من حبه ووضعته فى غريزتهما من رحمته ويطعم الرجل خيله وابله وبقره وغنمه ويحرص الحرص كله على زرعه وذلك كله لما ركزت فى قلوبكم من حب التزين بها والحرص عليها رحمة بكم وبها ونعمة عليكم وعليها ـ أى عبادى ألقيت بينكم العداوة لتستثمروها فى حياتكم فهى مهماز يدفعكم الى الارتقاء واحكام السلاح ورقى الصناعة واقامة العدل فى ممالككم فبالعدل فيما بينكم تقوون على عدوكم وهو يقوى وبهذه تزدان الحياة بكما ومن قصرت خطاه وضل مسعاه دخل تحت نير عدوه كما أبحت للحيوان أن يأكل النبات وللانسان أن يأكل الحيوان وأوجبت على الآساد والنمور والصقور والشواهين أن لا تغتذى إلا باللحمان ولا تزدرد ما تحتاجه الا من الحيوان هذا هو مبدأ الوجود وغايته وأوّله وآخره

ولما كان الانسان أعلى الحيوان مقاما وأرقاه نظاما ألهمته أن يفكر بعقله وينظر فى مستقبله بما ألهمت أنبياءه وعلمت حكماءه من السير الشريفة والآراء اللطيفة والعقول البهية والنفوس المضيئة العلية فأنزلت عليهم قوانين وعلمتهم منها أفانين فأبرزت بها مكنون الانسان وعلمته التوراة والانجيل والقرآن وقلت فكروا فيما حولكم وانظروا فيما خوّلتكم وتنحوا عن المادة وقوموا من الليل قليلا واستغفروا طويلا وأثيروا ما فى نفوسكم من الحكمة بالصبر والحلم وجمال الخلال فأنفقوا المال وقوموا بالأسحار وانظروا يا عبادى ألست عادلا فيما صنعت مقسطا فيما فطرت . أى عبادى . أنظروا هذا النظام وفكروا فيه إنى باللين والشدّة أربيكم بما تكرهون وما تحبون لتستيقظ النفوس وترقى العقول

أما أنا فانى أعلم حسن النظام والقيام بالقسط كذلك الملائكة لأنهم عن المادة مجردون ثم العلماء والحكماء منكم الذين هم مذكورون فى آية ـ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود (شديدة السواد) ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء ـ هؤلاء هم العلماء الذين ينظرون فى جمال هذا العالم واحكامه وهؤلاء هم الذين صبغوا صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة تلك الصبغة العدل والقيام بالقسط التى شهد بها الله والملائكة وتلك الصبغة هى دين الاسلام المذكور بدلا من أنه لا إله إلا هو قائما بالقسط فجعلت دين الاسلام هو المستخلص من وحدة النظام والقيام بالقسط ذلك هو دين الاسلام دين الاسلام هو الدين المسلم ولا يظن المسلم أن النطق بالشهادتين والأعمال الظاهرة كافية انما يراد أن يكون هناك نظام عام وعلم بما أبدع الله فى الأرض والسماء وتكون الأمّة قد تغلغل فيها العلم بالقيام بالقسط والعدل فى هذا الوجود فتكون الأمة أرقى الأمم بأن تتغلغل فى العلوم وتزدان بها ويعم العدل ربوعها فتكون علوم الطبيعة وعلوم الفلك والنظام العام معروفة عند الخاصة على انها دين ويقوم القضاة بالعدل والحكام بالقسط وجميع العائلات ليستتب فيها النظام اتباعا لربهم وقياما بالقسط كمبدعهم ذلك هو دين الاسلام

واعلم

واعلم أن هذا النور قد شرحناه مرارا فى البقرة وهكذا فى القسم الثانى فى هذه السورة وأطلنا فيه بما لامزيد عليه ولكن لأذكرهنا ان حسن النظام الموجود فيما مضى تذكرة للقيام بالقسط والعدل فى العالم المشاهد

﴿ نظام النبات بالمواد الداخلة فيه ﴾

فتعلم أيها الذكى ان الماء مركب من مادتين احداهما محرقة تسمى الأكسوجين والأخرى اذا وضع فيها حيوان يموت وتسمى الأودروجين هذا هو تركيب الماء كما قدمنا . والهواء مركب من الأكسوجين المتقدم ومن مادة تسمى الأوزوت وفيه كربون أى مادة فحمية والأوزوت المذكور يسمى أيضا نيتروجين ثم الكبريت وهو معروف والفسفور وهو مادة نارية تلتهب فى الماء والبوتاسيوم والمغنيسيوم والكالسيوم والحديد فهذه عشرة كاملة لابد من دخولها سائر النباتات ولا يقوم نبات الا بها وان نقص واحد منها لايعيش النبات

واعلم ان العناصر المعروفة تربو على السبعين والنبات لايأخذ من الأرض والهواء ماعدا هذه فليس يحوزه الذهب والقصدير والنحاس والفضة والزئبق وربما دخل بعض هذه فى النبات بقلة كالنحاس والخارصين ولكن العشرة المتقدمة لايستغنى عنها أى نبات فى الأرض

أفلا تعجب كيف أعطى النبات قوة أن يمتص من الهواء ومن الماء ومن التراب مايقوم به ويغتذى ثم يكون ذلك داخلا فى تركيب بنيتنا و بنية الحيوان

أهم أجزاء النبات أربعة وهى التى يقوم عليها حياته وحياة الحيوان وهذه الأربعة هى الأكسوجين والأودروجين والأوزوت والكربون هذه الأربعة يكون بعضها فى الماء وبعضها فى الهواء وهذه الأربعة أهم ماتقوم عليه أجسامنا

وهاك جدولا يعرفك بعض النظام بأدنى تأمل

أنواع النبات	ماء	مقدار المادة الجافة	الجزء القابل للاحتراق	رماد
القمح (حبوب)	٣ر١٤	٧ر٨٥	٥ر٧٦	٢ر٩
الشعير	٣ر١٤	٧ر٨٥	٧ر٧٠	٠ر١٣
الشوفان	٣ر١٤	٧ر٨٥	٧ر٧٥	٠ر١٠
الفول	٠ر١٥	٠ر٨٥	٥ر٧٩	٥ر٥
بزر الكتان	٨ر١١	٢ر٨٨	٣ر٨٤	٩ر٣
التفاح	٨ر٨٤	٢ر١٥	٨ر١٤	٤ر٠
جذر الجزر	٠ر٨٥	٠ر١٥	١ر١٤	٩ر٠
درنات البطاطس	٠ر٧٥	٠ر٢٥	١ر٢٤	٩ر٠
الحشائش وهى خضراء	٠ر٨٠	٠ر٢٠	٠ر١٨	٠ر٢
البرسيم	١١ر٨٦	٨٩ر١٣	٣ر١٢	٦٧ر١
ساق البطاطس وورقه	٠ر٨٥	٠ر١٥	٤ر١٣	٦ر١

(١) اذا قلعت نباتا من هذه المذكورات ووضعته فى فرن محمى الى درجة فوق درجة غليان الماء قليلا كأن تكون الدرجة ١٠٥ الى ١١٠ فانك ترى النبات يفقد شيئا من وزنه بما خرج منه من الماء ومتى استمررت على ذلك بضع ساعات خرج الماء منه كله ولم يبق من النبات الامادته الجامدة . وهذه المادة الباقية الجافة اذا أحرقت تركت وراءها مقدارا قليلا من رماد لايقبل الاحتراق لونه أبيض أو ضارب الى الصفرة وهذا الرماد امتصه النبات بجذوره من الارض وهو عبارة عن مواد معدنية فانظر الجدول وخذ القمح والتفاح مثلا . فان حب القمح الموضوع فى الفرن

ظهر أن الماء الذى كان فيه ٣ر١٤ من مائة جزء منه والباقى وهو ٧ر٨٥ مادة جافة يابسة فاذا أحرقناه ذهب منه ٥ر٧٦ والباقى وهو ٢ر٩ رماد . والتفاح لما وضع فى الفرن ذهب منه ٨ر٨٤ من المائة والباقى ٢ر١٥ من المائة يذهب منه بالاحتراق ٨ر١٤ من المائة والباقى وهو الرماد ٤ر . فالتفاح وضعت فيه قوة الحياة التى امتصت من الهواء ومن الماء الكربون والاكسوجين والأودروجين والأوزوت فكانت هذه الأربعة التى يطير أكثرها نحو تسعة أعشاره والباقى من مواد عضوية فى الأرض أومن عناصر وكان هذا التركيب مكونا لصورة التفاح ولوان التفاح عكس القضية فأخذ ما أقل من ذلك كالقمح ومادة جامدة أكثر فكانت ٧ر٥٨ من المائة مثلا لم يكن تفاحا بل كان قمحا فهذه النباتات وضعت فيها القوة العالية الشريفة فاختارت ما يصلح لها واصطفت المقادير المناسبة لها فكانت هذه قمحا وهذه تفاحا ومتى اختلفت المقادير تغير النبات فهنا نظامان (١) نظام جميع النباتات فقد حرم عليها أن تعيش بغير العشرة المتقدمة ومنعت من الحياة بالستين الباقية من العناصر وتبعها فى ذلك الحيوان فلا يعيش إلا بهذه العشرة غالبا كالنبات (٢) نظام كل نبات انه يأخذ بقدر من تلك العشرة يخالف الآخر فيها ليقوم بقسطه فى خدمة الانسان والحيوان . فترى الفول تناول ١٥ من المائة فى تركيبه ماء وخمسة ونصفا مواد معدنية صارت رمادا قد امتصتها جذوره من الأرض والباقى مواد عضوية أخذها بعروقه وورقه من الأرض والهواء

لو غير الفول هذا النظام بأن تعاطى ١١ر٨٦ من المائة فى تركيبه ماء والباقى أخذه من الهواء والارض لم يكن فولا بل يصير برسيما على شريطة أن تكون النسبة على مقتضى ما يناسب البرسيم كما رأيت عند آية الطير وابراهيم فى البقرة فانظر للعدل فى التركيب أمر كل نبات أن يتعاطى ما يعطيه قوة خاصة به بأن يكون حلوا أو نشويا أودهنيا وهى أصناف وأنواع لا تحصر ولكن اختلاف العناصر هو الذى أحدث هذا الابداع والجمال والرزق — شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم —

﴿ طعامنا ﴾

ان طعامنا مكون مما تكون منه النبات والحيوان فهو (١) مواد دهنية كالسمن والزيت ودهن الحيوان (٢) ومواد نشوية كالخبز والأرز والبطاطس (٣) ومواد زلالية أو أزوتية مثل اللحم والبيض والسمك (٤) أملاح غير عضوية كملح الطعام وأملاح الجير والفوسفور فالنشاء يخزن فى الكبد بهيئة أخرى والدهن يخزن تحت الجلد وحول القلب وحول الكليتين وحول الامعاء فى البطن . والمواد الزلالية يمتصها الجسم فتعوض ما فقده والباقى يفرزه الجسم بالكلى ونحوها

فانظر كيف حول الهواء والماء مثلا فى النبات الى مواد صارت فى أجسامنا لحما وشحما وعروقا . فذلك من القيام بالقسط والنظام التام ذلك هو المثل الذى اصطفيناه لهذه الآيات

﴿ جمال القيام بالقسط ﴾

لقد أوردت لك فى هذا المقام مسائل علمية وفوائد نباتية وعناصر تحليلية فربما كانت أقرب الى الدرس منها الى الفكاهة والأنس فلاسمعك من القيام بالقسط قولا جيلا ولأرك نور اساطعا وجمالا لعا وبدرا كاملا وأنسا شاملا

أيها الذكى قد علمت أن كل دين نزل من السماء هو دين الاسلام فالشرائع الفرعية والطاعة العامة والاقرار بالتوحيد كل ذلك مقتضى تلك الشرائع والله يشهد بذلك التوحيد وانه قائم بالقسط مدبر بالعدل والملائكة يشهدون بذلك التدبير والأنبياء والحكماء شهداء على ذلك

ولما كنت أيها المطلع على هذا التفسير العاشق له المغرم به الفرح بما اشتمل عليه من العلماء وهم المعطوفون على الملائكة فلتبشر بالسعادة النفسية والراحة الملكية والعلوم الاشراقية لأنك اليوم تشهد حسن النظام والقيام بالتدبير خير قيام بذلك تربى نفسك ويعظم نفعك ويشرق عقلك ويسطع نورك لأنك بعد الملائكة فى المقام

مقام

مقام الاطلاع على حسن النظام . لقد شهدت نظام النبات والحيوان والقيام في هذا التفسير يقول علماؤنا لا يعرف معنى القيام بالقسط ولا معنى الميزان المذكور في سورة الرحمن — ووضع الميزان — إلا من درس العلوم كلها ولقد اصطفيت لك في هذا التفسير أجملها واخترت منها أكملها وبينت أبهاها نورا وأحسنها منظرا وأنضرها اشراقا وأحلاها مذاقا وسهلت بتوفيق الله لك سبلها وذللت طرقها وأبنت مسالكها وأعطيت لك مقاليدها لتفتح ممالكها فلأذكر لك الآن زهرة من حديقتها ودرة من صدفها وأرك طرفة من طرائفها وغرة من جبينها ونورا من شمسها وكوكبا من فلكها وعجيبة من محاسنها لينشرح صدرك ويتم أنسك لتبتهج نفسك فأقول

﴿ ١ قيامه تعالى بالقسط في المادة من حيث حجمها ﴾

ان الانسان اذا فكر في أمر المادة لم يرها أقرب الى حالة من غيرها بل كل الأحوال لها على حد سواء هكذا جاءت في الواقع على مثال ما في نفوسنا . و بيانه أنها تكون صلبة قاسية كالحديد والحجر الأملس وأقل من ذلك كالخشب وأقل من ذلك كالورق والأغصان الخضر وأقل من ذلك كالعجين والطين وأقل من ذلك كالماء ثم الهواء ثم المادة الاثيرية

فانظر كيف تقلبت المادة في هذه الأشكال كما تخيلته عقولنا وأدركته نفوسنا وهذا من القيام بالقسط وهو الذي جعل من دلالة التوحيد

(٢) قيامه تعالى بالقسط في سلسلة الانسان والحيوان والنبات والمعدن

أنظر كيف جعل الله من المادة كل ما يصلح فكان النبات الصغير الذي لا يدرك . وكذلك الحيوان فقد تقدم في هذا التفسير في القسم الثاني من هذه السورة أن علماء الطبيعة يقولون ان رأس الابرة اذا كانت عليها قطرة لا نراها فانها تجمع آلاف الآلاف من تلك الحيوانات الصغيرة وأنها تقاتل وتفرح وتمرح وأنا أيضا رأيت هذا بنفسي تحت المنظار المعظم وهكذا منها ما هو فوق ذلك وفوقه الى الشجرة العظيمة والفيل الكبير الجثة والهائشة التي تعيش في البحر وحجمها أكبر من الفيل خمس مرات فأكثر . هذا من جهة الكبر والصغر وهناك سلسلة أخرى من حيث النشء والارتقاء . فأنواع الحيوان والنبات كثيرة وهي

أدنى المعدن — الجص والتراب والزاج وأنواع الشبوب

أوسطه — بقية المعادن كالرصاص والنحاس

أعلى المعادن — الياقوت الأحمر والذهب

أدنى النبات — خضراء الدمن

أوسطه — أكثر النبات

أعلاه — النخل مما يلي رتبة الحيوان . والكشوثي نبت يتعلق بالأغصان ولا عرق له في الأرض

أدنى الحيوان — دودة في جوف أنبوبة تنبت تلك الأنبوبة على الصخر الذي في سواحل البحار وشطوط الأنهار

أوسط الحيوان — أكثر الحيوانات

أعلى الحيوان — القرد والفرس وهكذا ولعلنا نشرحها في غير هذا المكان

أعلى من الأعلى — الانسان

فهذه السلسلة الاجمالية من ابتداء المعادن القريبة من الطين الى الانسان الذي هو الأعلى

(٣) قيام الله بالقسط في أنواع الحيوان

منه ما يسكن الهواء وهو الطير

ومنه ساكن البر وهي البهائم والأنعام والسباع

ومنه ما يسكن التراب وهي الهوام كالحيات والضب والقطا

ومنها ساكن الماء وهو كل حيوان يسبح في الماء كالسمك والسرطان والضفادع والصدف

(٤) قيام الله بالقسط فى اتجاه رؤس الأحياء

لما كانت الجهات ستا كان رأس الادنى وهو النبات فى الطين ورأس الحيوان وهو الأوسط فى الجهات الاربع ورأس الانسان وهو الأعلى جهة السماء فهو شجرة مقلوبة فروعها أسفل ورأسها أعلى اشارة الى أنه أعلى الجميع مع أن كل جهة فيها رؤس تتجه اليها وأكثر الجهات اتجه اليها الأسفل وأقلها الأعلى والأعلى هم الأقلون ان الكرام قليل وهذا من القيام بالقسط

(٥) قيام الله بالقسط فى خلق النبات فى الأماكن

منه ماينبت فى البرارى والقفار . ومنه ماينبت على رؤس الجبال . ومنه ماينبت على شطوط الأنهار وسواحل البحار . ومنه ماينبت فى الآجام والفيافى . ومنه مايزرعه الناس ويغرسونه فى القرى والبساتين

(٦) قيام الله بالقسط بين البر والبحر وفيه العجائب وبدائع الغرائب

انا أكثر ما قرأت فى هذا المقام من علوم اليابسة ان اليابسة فيها نبات وحيوان وبساتين وأنهار جارية وفيها قطارات تسير بالناس ليشاهدوا العجائب ويسعوا للرزق وفيها مهندسون يصطفون الأشكال الجميلة وهكذا مما يعلم الناس فهل البحر ليس فيه الا الامواج والسمك وقد خلا من ذلك الجمال والبدائع . أقول اعلم ان البحر أكثر نظاما وأغزر نباتا وأجمل بساتين وأبهى من البر

ألوان ماء البحر وجمال حيوانه

ان ماء البحر يكون أخضر فى سواحل العرب وورديا فى جهة (كاليفورنيا بأمريكا) وأحمر بالبحر الاحمر وذلك إما من ألوان النبات والاعشاب فى قاع تلك الجهات أو من ألوان حيوانات دقيقة ومنها ماتجعل لون الماء اسود جهة (مالديف) ومن تلك الحيوانات الدقيقة نوع له لمعان وباجتماعه وكثرته يظهر له على سطح الماء لمعان شديد يشبه ضوء النار وهذا النوع يكون فى جميع طباق البحر ولكل منها مساكن خاصة وطرق مسالكها تابعة تيارات مجهولة من القطب الى دائرة الاستواء ومن قطب الى قطب ثم ان الهائشة التى جرمها قدر جرم الفيل خمس مرات فأكثر تجرى خلفها فتأكل منها . فذلك الحيوان الجميل يسير بالتيار من القطب الى القطب أو من القطب الى خط الاستواء وذلك أقوى من سير السفن البخارية والقطر الحديدية فانها لا تصل القطبين وذلك من العدل الذى أجراه الله فى البرية فأعطى حيوان البحر مثل مامنح حيوان البر وجعل الماء سفينته والتيار قطاره ـ فتبارك الله أحسن الخالقين ـ

(٧) نبات البحر وأشكاله الهندسية والمرجان وعجائبه وانه يتكون جزائر

ان نبات البحر منه ماياخذ شكله صورا بديعة فيكون بساتين جميلة عظيمة أظرف من البساتين البرية وأجمل منها شكلا وأحسن نظاما وأبهج نورا وأشرق ضوءا وأشجارها تميل مع الامواج ميل أغصان الاشجار البرية مع الرياح . ولقد تقلع الامواج تلك البساتين وتجرى مع الامواج اميالا أميالا وهى مغطية مسافات عظيمة من البحر فتحجب الضوء والحرارة عن الماء وتوقف السفن عن المسير . ولقد ينبت النبات على الصخر فلا يقلع منه ولا يسير الامعه ومنه مايكون قريب الساحل لايبعد عنه إلا أربعين باعا والبحار الجنوبية أعظم نباتا وأكثر شجرا وأغزر بساتين وتراها تمتد الى نحو ألف وخمسمائة قدم وتمتد مسافات عظيمة على وجه الماء تبلغ ثلثمائة ميل ثم ان (كريستوف كولومب) قطع ثلاثة أسابيع كاملة فى مروره منها حين ذهب لكشف أمريكا

﴿ حشائش البحر ﴾

حشائش البحر مادة هلامية لزجة مغطاة بقشرة كالجلد لها شعب كثيرة وكل شعب كذلك له شعب كثيرة وتنتهى جميعها بأوراق رقيقة الاطراف وكثير من الطيور تقتات بها وذلك فى بحر الهند ومنه نوع سكرى يمتد الى عشرة أميال فروعه رقيقة كالخيط وورقه عرض اليد ويستخرج منه عصارة سكرية

وعلى سطح البحار القطبية الشمالية حشائش طولها ألف قدم وأوراقها حمر وردية يحملها الماء بشبه عوامات تحت

عقد الفروع تمنعها من الانغماس

﴿ تفاح البحر ﴾

وفى البحر شجر كالتفاح ذو فروع تحمل فواكه كثيرة وجذوره ثابتة فى الصخر وأوراقها مدلاة فى فروع كأنها فروع الصفصاف

﴿ الاشكال الهندسية فى البحر ﴾

فى البحار أنواع مختلفة من الاشكال تجتمع مع بعضها فتحدث رسوما هندسية وأشكالا غريبة ورسوما عجيبة وبدائع شائقة ومشاهد فائقة ما بين صغير وكبير من أشكال مخروطية وأخرى هرمية مربعات ومثلثات ولقد تسبح تلك الاشكال على سطح الماء فتمنع النور أن يضيئه والهواء أن يصيبه والحرارة أن تلقاه والسفن أن ترقاه وقد تكون تلك المزارع منفصلة الاماكن قريبة المساكن لها ألوان وأشكال مختلفات طولا وعرضا وكبرا وصغرا ولونا وجمالا واتقانا وابداعا وحسنا وجمالا واشراقا وأوراقا وأشجارا وفروعا فيحدث من ذلك الاختلاف لعالم البحر ما هو كالمدن والمساكن يأوى اليها الاحياء ويتحصن بها بعضها • ومن يبصر تلك الغابات ويتأملها يرى أمورا عجيبة مدهشة يرى على أغصانها ديدانا تسبح على الورق تغتذى به ويرى عجل البحر بين النبات وكلب البحر ذا العيون الرصاصية والنمر ذا الذكاء والترمسه وكل راصد غيره اما لتحصيل قوته واما للفرار من عدوه

ان تحت الماء وفى الغابات وعلى فروعها وخلال أشجارها محاربة مستمرة بين الطوائف البحرية والحيوانات المائية ـ ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ـ فحيوان البحر كحيوان البر أجناسا وأنواعا وأقساما وعداوة وصغرا وكبرا فهو قائم بالقسط مدبر بالعدل جعل العداوة فى البحر كما خلقها فى البر ليكون العالم على وتيرة واحدة ـ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط ـ فى شؤون خلقه فالقانون المسنون واحد كما ترى فى العالم المشاهد • فهل شهدت أيها الذكى أن العالم قائم بالقسط وأن النظام راجع لسنن واحد متشابه وهل شهدت انه جميل ـ قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى ـ فهل رأيت الهداية ـ سبح اسم ربك الاعلى الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى ـ أفلست ترى تسوية الخلق والتقدير فى الشكل والهداية للحياة • وانظر قوله ـ الذى أحسن كل شئ خلقه ـ أفلست ترى الحسن والهندسة والجمال فى البحر كما رأيتها فى البر • وانظر كيف كان فى البر جمال وزينة فجعل مثلها وخيرا منها فى البحر كالمرجان

﴿ المرجان ﴾

ان المرجان يظهر أولا فرعا فوق حجر فى قاع البحار وهذا الفرع أشبه بالنبات يسكن فيه حيوان ثم يخرج فرع غيره وهكذا فيتكون على طول الزمن جيلا بعد جيل المرجان • وقد يجىء بفرع من هذه الفروع عليه حيوان صغير جدا شكله كزهر النبات فى شكله ولونه وعادته أن يخرج من مقره ثم يعود اليه وهذا النبات مع صغره يفعل أفعالا مدهشة تحير الناظرين فهو يصنع بيوتا ترتفع من قاع البحر الى سطح الماء ويمتد البناء طبقات حسنة الشكل بهجة المنظر مضيئة الجوانب مشرقة الاركان زاهية البنيان أشكال هندسية ونظم بهية وألوان قزحية جميلة وهذا الحيوان من سنة الى أخرى ومن قرن الى آخر يختط مساكن وممالك صخرية واسعات فى قاع البحار • وكثيرا ما ترى هذه المساكن فى البحر عندما ترى الانقلاب فى صور وأشكال يحار اللب فى وصفها ومن عجيب صنع الله فيها أن تكون فى أواسطها بحائر راكدة آمنة مطمئنة لا تصل اليها الامواج ولا تؤثر فيها الزعازع ولا العواصف فتأوى اليها الحشرات وتؤمها الحيوانات وتربى بها صغارها مع الامن والدعة والراحة وتنبت فوقها وفى داخلها الحشائش والمزارع والبساتين وهذه بعيدة عن كل ما يؤذيها فرحة بنعمة باريها قريرة العين آمنة الجانب وبعد قرون ترتفع تلك الحشائش والغابات طبقة فوق طبقة حتى تكون جزيرة يسكنها الانسان والحيوان

فانظر كيف بنى حيوان المرجان بنيانا فجعل فى البحر مدنا وممالك ومسالك فيها بحيرات آمنة وأوى اليها الحيوان

المختلف الاجناس الحسن الالوان والنبات الجميل الاغصان البهج الازهار العجيب الخلقة ثم فى آخر الامر سكنها الانسان ـ فتبارك الله أحسن الخالقين ـ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ـ والحلية هو المرجان والدر

فياليت شعرى من ذا الذى يرى المرجان فيظن انه عظيم القدر كثير المنفعة عالى البنيان جليل المقام سامى المكانة والمكان فلئن تحلت به الحسان فأحرى العلماء أن يتحلوا بعقله ويقرؤا ـ ووضع الميزان أن لا تطغوا فى الميزان ـ وقوله تعالى ـ مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان فبأى آلاء ربكما تكذبان يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان فبأى آلاء ربكما تكذبان ـ وربك يخلق مايشاء ويختار ـ ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون

فلتكن ممن شهد بأن هذا الخلق محكم منظم قائم بميزان فالنجم (وهو مالا ساق له) والشجر يسجدان والارض وضعها للانام فيها فاكهة والنخل ذات الاكمام والحب ذو العصف (أى التبن) والريحان فبأى آلاء ربكما تكذبان ـ وهو الذى قام بالقسط والعدل فى العجائب بين البر والبحر ـ فتبارك الله أحسن الخالقين ـ وفى الارض آيات للموقنين ـ انتهى القسم الثالث من سورة آل عمران

(القسم الرابع من سورة آل عمران)

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ * قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ

وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ * قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ *

﴿ التفسير اللفظي بهذا القسم ﴾

(فان حاجوك) في الدين وجادلوك يامحمد بعد ما أقمت الحجج (فقل أسلمت وجهي لله) انقدت له بقلبي وأخلصت له بجملتي وجميع جوارحي لا أشرك به غيره وهذا هو الدين القيم الذي به قامت الحجج ودعت اليه الآيات والرسل وعبر بالوجه عن النفس لأنه أشرف الأعضاء الظاهرة وموضع الحواس والقوى العاقلة (ومن اتبعن) عطف على الفاعل في أسلمت (وقل للذين أوتوا الكتاب) من اليهود والنصارى (والأميين) وهم مشركو العرب (أأسلمتم) كما أسلمت أي أسلموا وذلك كما في قوله تعالى ــ فهل أنتم منتهون ــ كأنه يعيرهم بالبلادة أو بالعناد (فان أسلموا فقد اهتدوا) للفلاح والنجاة (وان تولوا) أعرضوا (فانما عليك البلاغ) تبليغ الرسالة وليس عليك هداهم (والله بصير بالعباد) فهو عالم بمن يؤمن فيثيبه وبمن لا يؤمن فيعاقبه (ان الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم) كان بنو اسرائيل يأتيهم الوحي على لسان الأنبياء وهم يذكرونهم أيام الله فيقتلونهم فيقوم المؤمنون بالأنبياء فيذكرونهم بعذاب الله فيقتلونهم فهؤلاء هم الذين يأمرون بالقسط أي بالعدل من الناس • عن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قال قلت يارسول الله أي الناس أشد عذابا يوم القيامة قال رجل قتل نبيا أو رجلا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس الى أن انتهى الى قوله تعالى وما لهم من ناصرين (أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة) حبطت بطلت وبطلانه أنه لا يقبل في الدنيا ولا يجازى عليه في الآخرة (وما لهم من ناصرين) يمنعونهم من العذاب (ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب) التوراة وهم اليهود والنصارى (يدعون الى كتاب الله) التوراة (ليحكم بينهم) روى أنه دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المدراس على جماعة من اليهود فدعاهم الى الله عز وجل فقال له نعيم بن عمرو والحرث بن زيد على أي دين أنت يامحمد قال على ملة ابراهيم قالوا ان ابراهيم كان يهوديا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هلموا الى التوراة فهي بيننا وبينكم فأبيا عليه فأنزل الله هذه الآية * وروى أيضا أن رجلا وامرأة من أهل خيبر زنيا وكان في كتابهم الرجم فكرهوا رجمهما لشرفهما فيهم فرفعوا أمرهما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجوا أن تكون عنده رخصة فحكم عليهما بالرجم فقال بعضهم جرت عليهما يامحمد وليس عليهما الرجم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيني وبينكم التوراة فقالوا قد أنصفت فقال من أعلمكم بالتوراة فقالوا رجل أعور يقال له عبد الله بن صوريا يسكن فدك فأرسلوا اليه فقدم المدينة وكان جبريل عليه السلام قد وصفه للنبي صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت ابن صوريا قال نعم قال أنت أعلم اليهود بالتوراة قال كذلك يزعمون فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتوراة فقرأ ابن صوريا ووضع يده على آية الرجم وقرأ ما بعدها فقال عبد الله بن سلام يارسول الله قد جاوزها ثم قام ورفع كفه عنها وقرأها على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى اليهود وفيها رجم المحصن والمحصنة اذا زنيا متى قامت عليهما البينة وتؤخر الحامل حتى تضع الحمل فاذن الداعي محمد صلى الله عليه وسلم والمدعو اليهود دعاهم الى التوراة ليحكم بينهم به في أن ابراهيم لم يكن يهوديا أو ان الزاني والزانية يرجمان (ثم يتولى فريق منهم) يعني الرؤساء والعلماء

(وهم معرضون) أى عادتهم الاعراض (ذلك) الاعراض والتولى بسبب انهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما
معدودات وهى سبعة أيام من أيام الآخرة كل يوم ألف سنة وقال قوم منهم أربعين يوما (وغرّهم فى دينهم ما كانوا
يفترون) من أن النار لن تمسهم إلا أياما قلائل أو أن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم أو أنه تعالى وعد يعقوب عليه الصلاة
والسلام أن لا يعذب أولاده الا تحلة القسم (فكيف اذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه) أى فكيف يكون حالهم اذا جمعناهم
فى يوم لا شك فيه (ووفيت كل نفس ما كسبت) أى جزاء ما كسبت (وهم لا يظلمون) الضمير لكل نفس كأنه يقال
كل انسان لا يظلم (قل اللهمّ) أى قل يا محمد يا ألله والميم عوض عن يا (مالك الملك) تتصرف فيما يمكن التصرف فيه
تصرف الملاك فيما يملكون (تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء) الملك المعطى كالنبوّة والدولة والعز والغنى
والجاه والثروة فقد أعطيت النبوّة لمحمد وأعطيته هو وأصحابه الدولة وغلبوا فارس والروم وتنزع النبوّة من بنى
اسرائيل (وتعز من تشاء وتذل من تشاء) تعز من تشاء كمحمد بالنبوّة والرسالة والمهاجرين والأنصار وأهل القناعة
والرّضا والطاعة وتذل من تشاء كاليهود ومشركى العرب وفارس والروم وأهل المعصية وأهل الحرص وعدم القناعة
(بيدك الخير) ولا يأتى الشرّ إلا تبعا (انك على كل شئ قدير) فتؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء * روى
أنه عليه الصلاة والسلام لما خط الخندق وقطع لكل عشرة أربعين ذراعا وأخذوا يحفرون ظهر فيه صخرة عظيمة لم
تعمل فيها المعاول فوجهوا سلمان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره فجاء عليه الصلاة والسلام فأخذ المعول منه
فضربها ضربة صدعتها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها فكأن بها مصباحا فى جوف بيت مظلم فكبر وكبر معه
المسلمون وقال أضاءت لى منها قصور الحيرة كأنها أنياب الكلاب ثم ضرب الثانية فقال أضاءت لى منها القصور الحمر
من أرض الروم ثم ضرب الثالثة فقال أضاءت لى منها قصور صنعاء وأخبرنى جبريل عليه السلام ان أمّتى ظاهرة على
كلها فابشروا فقال المنافقون ألا تعجبون يمنيكم ويعدكم ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة وأنها تفتح لكم
وأنتم انما تحفرون الخندق من الفرق فنزلت ولما كان عز قوم وذل آخرين من النظام العام وهو يوجب المساواة كالليل
والنهار فالعزيز يذلّ والذليل يعز كما أن الليل والنهار كل منهما يجئ عقب الآخر قال عقبه (تولج الليل فى النهار
وتولج النهار فى الليل وتخرج الحىّ من الميت وتخرج الميت من الحىّ وترزق من تشاء بغير حساب) أى تدخل الليل فى
النهار وتدخل النهار فى الليل فيزيد كل منهما ما نقصه الآخر وتخرج الانسان الحىّ من النطفة الميتة بحسب الظاهر
وكذلك الفرخ من البيضة والنبات من الحب والنخلة من النواة والمؤمن من الكافر والذكى من البليد وبالعكس فى الجميع
وتبسط الرزق لمن تشاء وتوسعه عليه من غير تقتير ولا تضييق (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين)
أى لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء أى أنصارا وأعوانا من غير المؤمنين وكيف يجعل المؤمن ولايته لمن هو غير
مؤمن ولقد كانوا يوالون بعض الكفار لصداقة فى الجاهلية أو قرابة ولقد كان لعبادة بن الصامت حلفاء من اليهود وهم
خمسمائة فأراد أن يستظهر بهم على أعداء المسلمين يوم الأحزاب هكذا حاطب بن أبى بلتعة وغيره كانوا يظهرون المودة
لكفار مكة فنهوا جميعا عن ذلك (ومن يفعل ذلك) أى موالاة الكفار فينقل الأخبار اليهم أو يظهر عورات
المسلمين اليهم (فليس من) دين (الله فى شئ الا أن تتقوا منهم تقاة) أى الا أن تخافوا منهم مخافة فلا يجوز موالاتهم
الا أن يخافوا من جهتهم ما يجب اتقاؤه وانما عدى الفعل بمن لتضمنه معنى الحذر أو المخافة (ويحذركم الله نفسه والى الله
المصير) تهديد عظيم وجعل التحذير من نفسه جل جلاله لزيادة التهويل (قل ان تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه
الله ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض) أى يعلم ضمائركم من موالاة الكفار وغيرها كما يعلم غيب السموات والأرض
(والله على كل شئ قدير) ومنه عقابكم اذا لم تنتهوا (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو
أن بينها وبينه أمدا بعيدا) أى تود كل نفس وتتمنى يوم تجد صحائف أعمالها حاضرة لو أن بينها وبين ذلك اليوم مسافة
بعيدة لما تبدّى بها من صحائفها السود (والله رؤف بالعباد) فاذا حذرهم فليس ذلك لغضبه كما يغضب العباد بل هو
يرشدهم فالغضب سوط يساق به العباد الى الرحمة (قل ان كنتم تحبون الله الخ) المحبة ميل النفس الى الشئ لكمال فيه

وقوله (فان تولوا) أى تتولوا وتعرضوا (فان الله لا يحب الكافرين) برضى عنهم اهـ التفسير اللفظى

فى هذا القسم فصول (الفصل الأوّل) فى قوله تعالى — ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس — (الفصل الثانى) — قالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودات — (الفصل الثالث) — تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل — (الفصل الرابع) قوله تعالى بيدك الخير (الفصل الخامس) وترزق من تشاء بغير حساب (الفصل السادس) لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء الخ — (الفصل السابع) — فاتبعونى يحببكم الله —

أما الفصل الثانى فقد أفضت الكلام عليه فى سورة البقرة عند مسألة شفاعته صلى الله عليه وسلم وأن المسلمين صرفوها عن وجهها الى الكسل كما فعل اليهود من تهوين العذاب عليهم بشفاعة آبائهم فارجع اليه هناك

أما الفصل الثالث فقد أوضحته أيما ايضاح فى قوله تعالى — ان فى خلق السموات والأرض — فى سورة البقرة أما الفصل السادس فقد اتضح عند الكلام على الرؤساء والمرؤسين فى البقرة فى قوله تعالى — ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا الخ —

وأما الفصل السابع فهو موضح فى ذلك المقام عند قوله تعالى يحبونهم كحب الله فارجع اليه هناك

أما الفصل الأوّل فانظر واعجب كيف جاء فى الآية السابقة ان العالم قائم كله على النظام والعدل والقسط وأن الله شهد به والملائكة والعلماء وكأنه يقول ان قام العلماء بالقسط والعدل الذى أنا قائم به وبالميزان الذى وزنت به سموانى وأرضى وساروا على السير الذى سننته ووزنوا بالميزان الذى وزنت به والمنهاج الذى اخترته اذ قلت — ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان — ثم قتلتموهم فانى أقول يا محمد بشرهم بعذاب أليم بخراب دولهم وضياع ملكهم لأن الملك لا يقوم الا بالقسط كما لا يقوم ملكى الا بالعدل فاذا قتلوا القائمين به ذهبت دولتهم كما أن العالم لو لم أكن أنا قائما بالعدل فيه تهدّمت أركانه وتمزقت أوصاله وذهب سدى كأنه لم يكن

ذلك هو السر فى ذكر القيام بالقسط بعد قوله تعالى قائما بالقسط فى آية شهد الله ولقد خربت دولة اليهود وتفرقوا شذر مذر وباؤا بالعذاب وذهبت ريحهم وأجلاهم الروم بعد المسيح وهم يريدون اليوم أن يرجعوا مجدهم بفلسطين ولكن القرآن فى آية أخرى حكم بزوال ملكهم الى يوم القيامة لأنهم قتلوا القائمين بالقسط ذلك هو سر هذه الآية ولقد أوضحت هذا المقام فى قوله تعالى قلنا اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة الى آخر الآية فى سورة البقرة

أما الفصل الرابع وهو قوله تعالى — بيدك الخير — فاعلم أن هذه المسألة من أهم المسائل التى حارت فيها العقول وزاغت الأبصار وتاهت البصائر وزلت الأقدام فقالت طائفة ممن نظروا فى بعض العلوم الطبيعية كالطب أو الزراعة أو طبقات الأرض أو الكيميا أو المعادن أو النبات أو الحيوان وكذلك الناظرون فى الفلك وأجرام الكواكب وكذلك دارسوا الهندسة والحساب وهكذا كثير ممن هم فى مصاف الطبقة الوسطى من الناس الذين ارتقوا عن طبقة العامة ولم يكوّنوا فى نفوسهم فكرة عامة عن العلوم العامة قال هؤلاء اننا نرى هذه الأرض وهذه الكواكب جارية بلا نظام ولا منظم ولا إله لان العناصر باجتماعها فى باحات الخلاء كوّنت الشمس من هباء لطيف وهو الأثير ثم دارت حول نفسها وصارت بعد آلاف الآلاف تامة التكوين وتبعها وانفصل عنها الأرض والسيارات وهذه الأرض قد تصادف ان اتحدت أجزاء على سطحها وتكوّنت وامتزجت وتفاعلت وحدثت أمزجة مختلفة فمنها نبات ومنها طيور ومنها سمك ومنها أنعام وكل ذلك بالاتفاق والمصادفة فاذا أصاب أحد هذه مرض أو جوع أو عطش مصادفة وطال عليها ذلك مات فالموت مصادفة والحياة مصادفة وهذا العالم كله هرج ومرج وقال قائلهم

حياة ثم موت ثم بعث   حديث خرافة يا أم عمرو

هذا هو الحديث الذى يدور على ألسنة الطبقة الوسطى فى العلوم والمعارف فى أنحاء الأرض من مسلمين ومسيحيين ويهود ومجوس وأتباع كونفشيوس وأتباع بوذا وكلهم على ذلك أجمعون

وأما الذين اتبعوا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فانهم يقولون نحن لا نفكر فى هذا ونكل علمه الى الله تعالى

ونقول هو أعلم بالحكمة فى خلقه ويقولون ما قاله شاعرهم

اذا ما رأيت الله فى الكل فاعلا عقلت فصيرت القباح ملاحا
وان لم تجد الا مظاهر صنعه جهلت فصيرت الملاح قباحا

وقال شكسبير الشاعر الانجليزى (وقد ترجته الى العربية)

إذا كان هذا الكون يكؤه الذى براه فأولاه الجمال وتمما
فماذا يراه عاقل غير أنه قصور جنان الخلد رصعن أنجما

وأنت خبير أيها الذكى ان هذا القول لا يدفع عارا ولا يذكى نارا ولا ينفع جارا ولا يقيم حجة ولا ينير المحجة وانما يجتزئ به المؤمنون الذين هم عن النظر عاجزون ولهؤلاء راحة وطمأنينة ولكن هذا التفسير قد أعددته للطبقة الوسطى وهم أكثر المتعلمين فى العالم الانسانى فلأذكر لك الحقيقة جلية مضيئة بهية مشرقة سنية أزفها لك مميطة القناع لابسة الحلل حالية بالجواهر باسمة الثغر ناعسة الطرف حوراء تسحر الناظرين وتسبى العاشقين وتشرح الصدور وتشرق بالنور تفوق الحور ان تخاتلت قتلت وان تجلت بهرت بجمال يأخذ بالألباب ونغمات مطربات يقصر عنها الرباب وحجج لم يعدها الصواب فأقول

اعلم أن هذه المسألة شرحها العلامة الرئيس بن سينا فى كتاب الاشارات وغيره من سائر الحكماء الاسلاميين قالوا ان ما نشاهده من الموجودات وما نعرفه من المخلوقات نعرضها على العقل ونبحثها بالفكر والعقل يقول انها لا تخرج عن أحوال خمسة الحالة الأولى أن تكون شرا محضا الحالة الثانية ان تكون خيرا محضا الحالة الثالثة أن يغلب خيرها الحالة الرابعة أن يغلب شرها الحالة الخامسة أن يتساوى الأمران • ثم قالوا والعقول الانسانية لا تتصور غير هذه الصور • أما الشر المحض والذى غلب شره على خيره والذى تساوى فيه الأمران لا أثر لوجوده وليس فى عالمنا ولا سواه فكيف يوجد الشر المحض وما معه

أما ما غلب خيره على شره أو هو الخير المحض فذلك هو الموجود وقد قالوا ان العالم الذى نحن فيه من القسم الذى غلب خيره على شره * هذا اجمال مقالهم ولنفصله كما فصلوه فنقول

ان ضوء الشمس والقمر والكواكب وماء السحاب والنار والنبات والحيوان غلب خيرها على شرها فضوء الشمس به حياة الموجودات ولكن قد يستضر به المحموم ويموت امرؤ بضربة الشمس

والماء الذى يحيا به النبات والحيوان قد يغرق فيه ناسك ويغطس فيه عالم وورع تقى • والنار كثيرا ما تحرق ثوب الناسك والمرأة العجوز والطفل الذى لا ذنب له

ولا ريب انه يغتفر هذا الضرر القليل فى جانب النفع العظيم ولو قال قائل انه يجب اطفاء الشمس وتغوير ماء البحر ومنع المطر واطفاء النار لمضارها وغفل القائل عن منافعها عد أبله عاجزا وجاهلا مغرورا فالحكمة تقضى ان ما أفاض الوجود الكثير والضرر القليل يجب حصوله وابرازه والبخل به جهل وحمق ومخالفة الحكمة

وهناك تبدت مسائل كثيرة فيقال لم خلقت الحيات والعقارب والذباب والزنابير والأسود والنمور والذئاب والدود وهى لم تخلق للمنفعة ولم تكن لها أدنى فائدة فهل هذه يخلقها الحكيم وأى حكمة فى خلقتها وأى فائدة فى ظهورها

فقال علماؤنا رحمهم الله ان الحيات والتماسيح والسباع والتنين والهوام والحشرات والجراد كلها مخلوقة من المواد الفاسدات والعفونات الكائنة ليصفو الجو والهواء منها لئلا يعرض لها الفساد من البخارات المتصاعدة فيعفن الهواء ويكون أسبابا للوباء وهلاك الحيوان دفعة واحدة

ذلك ان الديدان وطوائف الذباب والبق والخنافس لا تكون جاثمة فى دكان البزاز ولا الحداد ولا النجار وانما تكون فى دكان القصاب والسمان واللبان والدباس أو فى السماد والسرقين

فأنت ترى ان العفونات لو بقيت لأهلكت الحرث والنسل فلم يخلق منها الذباب والبق والدود والخنافس وما

شاكلها

شا كلها أفادت فائدتين أولاهما أنها خلقتها حولت العفونة الى أجسامها فصارت صافية وطهر الجو والمكان وصلح للتنفس وذهب منه الحيوان المسمى (بالمكروبات) التي تفتك بالناس والحيوان ولو تركت تلك العفونات لفسد الهواء وأنتن وأهلك الناس دفعة مع الحيوان فهذا العمل يدلنا أن هناك تدبيرا ونظاما وأن هناك يدا خفية تحول المضار فتجعلها نافعة

الفائدة الثانية أن هذه الحيوانات تصير أغذية للحيوانات التي هي أكبر منها وهذا العمل الذي يجري في الأرض والناس يجهلونه هم أنفسهم يعملونه سائرين على النمط الالهي وهم لا يشعرون ألا ترى أنهم يرون القاذورات في أفنيتهم ولو تركوها لأماتتهم فحولوها الى الأرض ليصلح بها الزرع فاستفادوا فائدتين نظافة الهواء ومصلحة الزرع لجلب الغذاء هكذا فعل الله حول العفونات الى حشرات وذباب وخنافس وهذه تأكلها حيوانات أكبر منها فكما أن الناس حولوا القاذورات الى ماينفعهم وينظف جوهم ويصلح زرعهم بالالهام والتجربة هكذا فعل الله فغذى الحيوان ونظف الهواء بل فعله أشرف وأعلى وأتم وأجلى اذ عمله في الحيوان واصلاحه وعمل الناس في الزرع وانمائه والحيوان أرقى فقام به الله والنبات أدنى فقام ببعض اصلاحه الناس — ان ربي لطيف لما يشاء انه هو العليم الحكيم —

وهكذا خلق الله السباع والأسود والنمور فانه قد تبين في العلم الحديث وفي علم طبقات الأرض (الجيلوجيه) أن الظباء والغنم والجاموس والبقر وسائر الحيوان الذي يأكل الحشيش في الأعصر الغابرة كثرت فملأت السهل والجبل والقفر والعامر فلم يكفها النبات لكثرتها وقد وجدرها مطمورة في كهوف ومغارات بعضها فوق بعض ففنيت وحينئذ خلق الله عز وجل هذه الحيوانات المفترسة وجعل أنيابها المحددة وأجسامها القوية معدة لأكل اللحم لا تعيش الا به لتقلل مايتكاثر من نسل تلك الحيوانات ولتكون آكلة لحمها فلا ينتن فيملأ الهواء نتنا وعفونة وحيوانات (مكروبية) تقتل الحيوان والانسان

وهكذا حكم الجوارح من الطير فان العصافير والقنابر والخطاف وغيرها تأكل الجراد والنمل والذباب والبق وما شاكلها ثم ان البواشق والشواهين وماشاكلها تصطاد العصافير والقنابر وتأكلها ثم ان البزاة والصقور والعقبان تصطادها وتأكلها ثم انها اذا ماتت أكلها صغارها من النمل والذباب والديدان ثم ان بني آدم يأكلون لحوم البقر والغنم والطير والحملان واذا ماتوا أكلتهم في قبورهم الديدان والنمل والذباب

فالمسألة كالدائرة تأكل صغار الحيوانات كبارها ويأكل كبارها صغارها والقاعدة ان فساد كل شئ صلاح آخر

﴿ فائدة ﴾

قال بعض العلماء ان الذئب يصيد الثعلب والثعلب يصيد القنفذ والقنفذ يصيد الأفعى والأفعى تصيد العصفور والعصفور يصيد الجراد والجراد يصيد الزنابير والزنبور يصيد النحل الخ تأمل

وقال عنترة

لي النفوس وللطير اللحوم وللـــوحش العظام وللخيالة السلب

﴿ الحكمة في سم الحيات ﴾

ان من الحيوان ما أعطى معدة أو كرشا أو قانصة فينضج الكيموس فيها بعد المضغ الشديد والحيات لم تعط معدة حارة ولا قانصة ولا كرشا ولا أضراسا فعوضت عن ذلك سما حارا جدا ينضج اللحم ويذيب الشحم فلولم تعط هذا السم لماتت جوعا وهلكت عن آخرها

ومن الحكمة ان سم الحيات لا يقتل الا اذا صادفه في الجسم جرح فيجري في العروق فاذا لم يصادفه جرح صار في المعدة غذاء لا ضرر فيه والفائدة في خلقتها بين الهوام كالفائدة في خلق السباع بين الأنعام والبهائم وكمنفعة التنين في البحر والكواسج والتماسيح وكمنفعة النسور والعقبان والجوارح في الطيور فالحية تأكل الهوام التي حولها

ومن العجائب ان لحم كل حيوان ذي سم يكون ترياقا لسمه فلحم العقرب والحية اذا وضعا على الملسوع بهما شفي حالا

﴿ حكمة الآلام في الحيوان ﴾

لقد قرأت في كلام اللورد افبري الانجليزي في بعض كتبه ان الآلام التي في أجسامنا انذار وتعليم . وبيان ذلك ان أعصاب الحس انما يكون عملها في سطح البدن وهو الجلد ولا احساس بها إلا هناك لتنذرنا بالخطر المحدق بنا ولا يكون ذلك في الداخل

وعليه نقول ان الانسان اذا أصابه الحرق والجرح ولم يحس بما أحاط به فالألم يدعوه لطلب النجاة وبقاء الحياة ولولاه لأهلكه العطب وأحاط به الموت وهو لا يدفع شيئا ولا يستدعي طبيبا كما لا يتعاطى الطعام لولا غريزة الجوع

﴿ حكمة الحكام الظالمين ﴾

ان الحكام الظالمين والقضاة المرتشين والأمم المستعمرة كل هؤلاء نفعهم أكثر من ضرهم فان الحاكم الجائر يمنع القوي عن الضعيف لحفظ الأنفس والأموال وان كان هو في نفسه فاسقا ظالما امرأ شيا فقد نفع غيره وأهلك نفسه وأصبح آلة للاصلاح وان كان فاسدا كالشمعة تضيء وتفنى وسيأتي دوره في القضاء الذي لا مناص منه في هذه الدنيا أو بعد الممات

اذن ما الخير وما الشر - ايضاح ما تقدم

قد تبين في هذا الكتاب في غير ما موضع ان الشر قد ينتج الخير كما نرى في السماد والسرقين وكيف تعاف النفس منظرهما وكيف يملأ الجو من جراثيمهما ثم ان هذه الكراهة لحكمة شريفة وغاية منيفة فان الناس بها ينظفون أفنيتهم ويحفظون صحتهم وأكثرهم يجعل هذا المكروه سمادا لأرضه وغذاء لزرعه ممثلة عناصره في فاكهته وحبه وشجره وقطنه الذي منه ثوبه وكذلك كتانه وسمسمه الذي منه زيته وهكذا زيتونه

فياليت شعري أين الشر اذن سرجين قذر قبيح المنظر سمج كريه يصبح فاكهة وأبا وثوبا وزيتا وعطرا . إذن ما هذه الكراهة هي سبب من أسباب داعية الى نقله الى الأرض فالأنفة من السماد والكراهة له من أسباب حياتنا أين الشر اذن هذا خير هكذا ما نراه في هذا الكتاب من الكلام على الحشرات الضارة انها مطهرة لجونا مغذية لطيرنا يأكلها فهي إذن نعمة لا نقمة وكراهتنا لها داعية لتطهير الأمكنة من القاذورات الحاملات للجراثيم

وقل ما تشاء في نقص الصحة والمال والأهل وأمثال ذلك مما يبتلي به الناس كل ذلك مكروه وشر ولكن نرى ان من يبتلون بهذا يكونون قدنا في القوة وهمة ولم نر في التاريخ من العظماء والأنبياء إلا من صبروا على المكاره وكثير منهم من سموا أولي العزم

فبهذا أصبح الشر من أسباب الخير مثلا نرى المرض يعطي المريض عظة واعتبارا وتذكرة ويهذب خلقه ويكون ذلك داعية لارتقاء علم الطب العام فيبحث الأطباء ويرتقي نوع الانسان

وأعظم المصائب عند الناس الموت وفهم الموت قوة متناول أكثر الناس فاذا حكمنا أن المصائب كالسماد مرقية لمن أصيب بها وقلنا ان الذين أصيبوا بها أعظم قدرا من الذين لم يبتلوا ولم يجربوا فكيف يسوغ ذلك في الموت نقول الموت انفصال الروح عن الجسم وما الجسم الا لوح النفس كما ان السماء والأرض هما اللوح الأكبر فالروح في الجسم تدرس هذه الدنيا فاذا مهرت في نظرها أدركت عجائب هذا الهيكل فهو لوحها الذي تقرأه ومدرستها التي تربت فيها وحقلها الذي تزرعه فاذا ارتقت الى عالم الأرواح استغنت عنه كما يستغني الطفل عن اللوح وكما يخرج الجنين من الرحم وكما يخرج الطفل من الصبا الى الفتوة فيترك جسمه الذي لا يبالي به تتغذى منه الحشرات من الديدان والذباب والخنافس كما كان يتغذى هو بأنواع الحيوان فأما روحه فانها تكون قد خرجت الى عالم ألطف وفي حال أرقى واذا كان الموت كما هو قول الأرواح التي خاطبها الناس في انكلترا وفرانسا وأمريكا وجميع الأمم على هذا النمط وهذا عينه أقوال الأنبياء والوحي فكيف يكون الموت شرا بل يكون خيرا فياليت شعري ما الذي به نعرف الخير من الشر وقد رأينا في هذه

الأمثلة أن المآل هو الخير وأما الشر فانما هي نسب وأحوال خاصة تؤول لخير

فصح ما نقرأ في الصلاة « اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ومن عذاب النار ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيخ الدجال » فالفتنة اذن الجهل بالموت والحياة

واعلم أن هذا الانسان معذب بالجهل ففتنة المحيا والممات هي الجهل بثمرتهما ونظامهما ولقد تبين لك في غضون هذا التفسير أن دين الاسلام كله يؤول للعلم فدعاء السجود والركوع للعلم بالتشريح وطبقات العين ودعاء الصبح فيه مسألة الرحمة وشمولها وهنا نرى مسألة الحياة والموت وهي أهم المسائل وهي عقدة العقد

يقرأ المسلم في صلاته الرحمن الرحيم ويكرر الرحمة في ١٧ ركعة وهي الفرائض قريبا من مائة مرة تارة صريحا وأخرى تلويحا فاذا أضاف السنن كانت ٢٠٠ مرة فأكثر ثم ان أول كل سورة بسم الله الرحمن الرحيم الرحمة شائعة في الدين فاذا كانت في أول كل سورة كان معناه ان كل ما ابتليتكم به مآله الرحمة فيقول المسلم أين الرحمة في المرض والفقر والذل والرق والاستعباد بل أين الرحمة في الموت أين الرحمة في ذلك كله وأعوص المسائل مسألة الموت والحياة

﴿ جمال المقال ﴾

وجمال هذا المقال وبهجته وخلاصته ان الآلام قسمان قسم ما هو دون الموت من فقد الأصحاب والمال والصحة والقسم الثاني الموت فاذا ما تدبرت وقرأت الكتب ونظرت بنفسك في كل يابسة وخضراء وأرض وسماء وناطقة وخرساء وقائم وحصيد وأجلت النظر ولم تحجبك العلوم التي قرأتها ولا الآراء التي عرفتها ولا الشهادات التي نلتها ولا المناصب التي وليتها ولا أكاذيب التعظيم التي أوليتها ولا الثروة التي ملكتها ثم درست هذا العالم درس المستبصرين وتنكبت طريق المتكبرين عرفت اذن أن الناس على الأرض يربون مع الحيوان وهم يساسون سياسة لين وشدة ويركبون طبقا عن طبق واعلم أنك لن تنال ذلك إلا بعد الجهد الجهيد والنصب والكد والنظر والاخلاص

أيها الذكي لا يغني أن تكون من المدرسين ولا المحامين ولا القضاة ولا المهندسين ولا رجال الادارة ولا رجال الزراعة أو الطب أو البيطرة أو الجيش فكل أولئك قاموا بركن من أركان الحياة الاجتماعية وان يخلص أحدهم من التقليد والجهل العتيد إلا بتلك النظرات فليكدح ليله ونهاره حتى يوقن بعقله خاصة أن الحياة والموت لم يكونا للتعذيب بل للتهذيب وأن المرض والفقر وأضرابهما ما تأجها ارتقاء النفوس لابد أن تعرفها بنفسك ولا تقف عند السماع ولا أقوال العلماء هناك تخرج من عذاب القبر ومن عذاب النار ومن فتنة المحيا والممات فذلك كله ناجم من جهلنا بنظام الحياة الانسانية ودرجاتها ولما كان هذا أهم علم عند الحكماء قديما وحديثا كان الدعاء به في آخر الصلاة ولقد قدمت لك فائدة الدعا بالاستعاذة من المسيخ الدجال عند قوله تعالى — إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا — وأبنت هناك ان هذا الدعاء راجع لأمور حاضرة من أزمان النبوة الى الآن وها أنا ذا الآن ذكرت لك ما هو أهم وهو فتنة المحيا والممات • واعلم أن ما أقوله الآن يسمعه أكثر الناس من وراء حجاب ولكن لا يغني قولي ولا ينفع وانما الذي يفيد بحثك بنفسك — كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا — وانك بعد أن تصل الى هذا المقام تفهم تحقيقا معنى قوله تعالى هنا — بيدك الخير انك على كل شيء قدير —

بهذا فليفهم معنى القرآن وبهذا تكون دراسة الحكمة — والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم —

أما الفصل الخامس وهو قوله تعالى — وترزق من تشاء بغير حساب — فلأذكر لك من عجائب الحكمة ما يدهش اللب ويسحر العقل ويضيء لأولي العقول الذكية والنفوس الشريفة ❊ فأقول في هذا المقام لطائف

﴿ اللطيفة الأولى ﴾

لقد رأى العلماء الباحثون في العصر الحاضر وكشفوا أن بعض الذباب يحفر لبيضه جحرا في الأرض يضعه فيه ثم يذهب الى عنكبوت أو دودة يمج فيها جزءا من السم فتسكن حركتها ثم يحملها الى جحره ويلقيها عند البيض ويسد عليه فاذا خرجت الأولاد من البيض وجدتها بجانبها فتغذت بها

وسبب ذلك ان هذه الحيوانات لا تأكل ميتا قط وأمهاتها علم انها لا ترى أولادها قط فتحضر لها هذه الحيوانات التي خدرتها بسمها حتى إذا خرجت من البيض أكلتها أليس ذلك من الرزق بغير حساب فأين تعلمت هذا تلك الذبابة ولم ترأمها قط ولم يكن هناك مدارس ولا معلمون ولا قضاة ولا محامون فرزق هذا الحيوان بلا حساب وهذه هي الرحمة ـ كتب ربكم على نفسه الرحمة ـ ورحمتي وسعت كل شئ ـ بسم الله الرحمن الرحيم ـ هذه هي الرحمة وهذا هو القرآن وهذا هو الدين وهذا هو الاسلام يا أيها المسلمون لا تناموا أيها المسلمون استيقظوا أيها المسلمون انظروا أيها المسلمون لهذا خلقتم هذا هو دينكم هذا هو الدين القيم هذا هو العلم هذا هو العقل والحكمة * القرآن يشير لكم بيديه الى هذه العجائب ويقول انطلقوا الى هذه العجائب فادرسوها والى هذه الحكم فاعلموها والى هذه الآيات فاتلوها ـ قل انظروا ماذا في السموات والأرض ـ وفي الأرض آيات للموقنين ـ هذه هي الآيات وهذه هي البينات فاقرأوا أمثال هذا فهو غاية القرآن ان الطبيعة كتاب كتبه الله بيده والقرآن جاء ليدلكم على ما خطه بيده سبحانه وتعالى من هذه الرسوم والكلمات هذه هي الكلمات ـ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا ـ

هذه هي الكلمات التي كتبها بيده وقال في القرآن انظروا فيها فالنظر فيها أفضل من العبادات وأشرف وأعلى لأن العلم أرقى من العمل والعامل الأبله الغافل قليل الحظ في الآخرة كالأجير المسخر فاقرأ سطور الكائنات كما قرأت الكتاب المقدس وهو القرآن

﴿ اللطيفة الثانية ـ الذباب الذي يعيش أولاده في جوف الحيوان الحي ﴾

من هذه الطائفة أي الذباب الذي لا يعيش إلا على حيوان حي ما تعمد الى دودة كبيرة فتخرق جلدها بخرطومها ثم تضع بيضها الكثير موضع الخرطوم تحت الجلد فاذا حصل الفقس وخرجت الأولاد أكلت من اللحم والدهن ولم تتعرض للاعصاب التي عليها مدار الحياة ومتى قدرت على الخروج شرعت تأكل الأعصاب فيموت ذلك الحيوان لأنها ليست في حاجة الى حياته ثم تخرج تلك الحيوانات ومتى خرجت عملت كل واحدة منها لنفسها خيطا محكما تلتف فيه وتتراكم فوق سطح الجثة فتغطيها بكثرتها فلا يرى الرائي منها شيئا ـ ان ربي لطيف لما يشاء انه هو العليم الحكيم ـ

﴿ اللطيفة الثالثة ـ الأرانب وبعض الحشرات ﴾

الأرانب تنتف شعر بطنها فتجعله فراشا لأولادها وبعض الحشرات أعظم منها شفقة وأكثر رحمة فانها تنتف شعرها كله ولا تكتفي بجزء منه ومتى باضت لفت بيضها في شعرها فجعلته أثوابا تصنعها لوقايته من الحر والبرد والعوارض الجوية ثم تموت

﴿ اللطيفة الرابعة ـ الحشرة التي تجعل جسمها وقاية لأولادها ﴾

وبعض الحشرات اذا باضت ضمت بيضها بعضه الى بعض وغطته بنفسها وأحاطت به من كل جهة بجسمها لتكون له كالكيس والوقاية ثم تموت فاذا خرجت الأولاد من البيض وكبرت فعلت ببيضها ما فعله بها أصلها

﴿ اللطيفة الخامسة ﴾ ان بعض الحشرات يعدو على غيره من الحشرات فيقتله ويأتي به الى ذريته

﴿ اللطيفة السادسة ـ يعسوب النحل ﴾

ان يعسوب النحل التي يقال لها أم النحل اذا ماتت اخترن واحدة منهن وهيأن لها مكانا أوسع من غيره خمس مرات وأخذن يخدمنها ويطعمنها الشهد الذكي الرائحة فتكبر سريعا لحسن المواد الغذائية فتأمر وتنهى وتعمل على مقتضى القوانين ولا يخترنها إلا إذا كانت فيها تلك الصفات التي يعرفنها بالالهام

﴿ اللطيفة السابعة ـ أسد النمل ﴾

رأى بعض العلماء هذا الحيوان الصغير يحفر في الرمل جحرا منتظما والرمل ناعم جدا وأخذت تلك الدابة تحفر برأسها وترفع التراب دائبة مجدة وترى التراب متلاحقا يرتمي السحاب كرة وراء أخرى وهكذا حتى اذا تم لها جحر

ناعم أملس سكنت في أسفله بحيث لا يظهر إلا رجلاها ثم لما مرت نملة عليه انزلقت رجلها فسقطت على تلك الدابة فأكلتها حالاً أي امتصت المادة التي فيها ثم لما جاءت نملة أخرى سقطت وأرادت التخلص منها هالت تلك الدابة عليها التراب فأسرتها ثم امتصتها ثم أخذت أجسام تلك الفرائس ورمت بها خارج جحرها وسوّته ورجعت الى ما كانت عليه من الانتظار

﴿ اللطيفة الثامنة ـ الحشرات الآكلة العنكبوت ﴾

ان من الحشرات ما تأكل العنكبوت ذلك انها تلبس ثوباً من نسج العنكبوت وتلتف فيه ثم تعفر جسدها بالتراب فاذا مرّ بها العنكبوت التقطته وهو غافل ثم تمزق ثوبها وترجع الى حالتها ولقد فعلت ما فعلته اليابان في حرب الروس اذ صنعوا مراكب ملوّنة بلون البحر حتى لا يراها الروس فوقعوا في الهلاك المبين

﴿ اللطيفة التاسعة ـ حيل النحل في عدوّه ﴾

ان النحل اذا دخل عليه عدوّ من الحشرات مزّقه فاذا كان العدوّ صغيراً رموه وان كان كبيراً اجتمعن عليه ولسعنه معاً حتى يموت ولما لم يكن في قدرتها إخراجه تعمد الى صمغ تحضره من بعض النبات فتلفه به وتغلفه فبالسم خلصت من حياته وبالصمغ خلصت من ضرر موته لأنه محنط كما فعل قدماء المصريين

هذه اللطائف التسع ذكرتها لتعلم كيف رزق الله هذه الحيوانات بغير حساب وعلمها بلا كتاب وأنعم عليها بنعم من عنده وألهمها ورزقها فلا مدارس ولا دروس ولا مدافع ولا أساطيل ولا جيوش جرّاره ولا سيوف بتاره وبعض الدول لا تعيش إلا بالسلاح والسكراع والنصب والتعب والكدح والكد ذلك رزق الله بغير حساب

ولعلك بهذا تفهم قوله تعالى ـ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرّها ومستودعها كل في كتاب مبين ـ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرّطنا في الكتاب من شئ ثم الى ربهم يحشرون ـ وقال تعالى ـ ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ان ربي على صراط مستقيم ـ لا عوج فيه لأنه عدل في القضية نظر للحيوان كما نظر للانسان فهذا هو الصراط المستقيم والعدل الدائم فانه لم يذر الذرّ ولا النمل ولا النحل كما لم يذر الجمل والفيل والانسان وهذا دلالة أنه ما فرّط في اللوح المحفوظ والعلم القديم بل انها كلها أمم أمثالنا والله معها ـ وهو معكم أين ما كنتم ـ واذا لم يكن معنا فكيف يتم هذا النظام ـ كتب ربكم على نفسه الرحمة ـ هاهنا أريتك رحمة الله للحيوان ولبيضه ولأفراخه قد رأيتها ملموسة منظورة تلمسها يدك وتنظرها عينك وتسمع أصوات تلك الحيوانات أذنك وتشم روائحها أنفك وتذوق لحمها بفمك

أوليست هذه هي آثار الرحمة قد كتبها الله بيده كتبها بحروف أوضح من حروف اللغات وكلماتها أبهج من فصيح الكلمات وجملها أبلغ من بليغ العبارات هذا هو السحر الحلال هذا هو الجمال والجلال فأين اللغات وعلومها وأين العربية والعبرية واللاتينية والفرنسية والانجليزية والالمانية وغيرها هل تبلغ من نفوسنا ما بلغته هذه الصور وهل تعطينا ايماناً كما رأينا بالبصر بهذا نفهم قوله تعالى ـ كتب ربكم على نفسه الرحمة ليجمعنكم الى يوم القيامة ـ وقوله تعالى ـ واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين ـ وهاتان الآيتان في سورة الأنعام يقول ـ كتب ربكم على نفسه الرحمة ـ وأعقبها بأنه يجمعنا ليوم القيامة فذكر إحياءنا عقب ذكر الرحمة وذكر في الثانية ان السلامة والأمان للذين يؤمنون وأنه يغفر لهم السيئات ثم قال ـ وكذلك نفصل الآيات ـ وانما ذكرها بعد ذلك ليبين أن آيات الرحمة سيبين هو تفصيلها في الحيوان وفي عجائب هذا العالم المشاهد كما استبان في هذا التفسير وهذا هو الزمان الذي يبين الله فيه الآيات يبينها بكتابه الذي كتبه بيده مع انه كتب على نفسه الرحمة كتبها في كل نفس وكل بيضة وكل جنين وكل حشرة وكل طير وكل هامة فعليه رزقها وعليه حفظها وعليه تدبيرها هذا هو مضمون الكتاب الذي كتبه بيده وهذا هو الكتاب المبين الذي يدعو الى النظر فيه التوراة والانجيل والقرآن فمن

لم يعقل كتابه الذى كتب على نفسه الرحمة فيه فليقرأ ما نزل من الكتب السماوية لترشده الى ذلك الجمال والكمال — والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم —

﴿ اللطيفة العاشرة — القنفذ ﴾

(١) ان القنفذ يصعد الى الكرم فيرمى بالعنقود ثم ينزل فيأكل منه ما يكفيه وان كان له فراخ تمرغ على الباقى فيتعلق بشوكه فيذهب به الى أولاده (٢) ان بين الغراب والذئب ألفة فانه اذا رأى الذئب يقربطن شاة سقط وأكل منها معه والذئب لا يضره (٣) ان الفأرة تأتى الى إناء الزيت فتشرب منه فاذا نقص صارت تشرب بذنبها فاذا لم تصل اليه ذهبت وأتت بماء فى فيها وتصبه فيه حتى يعلوها الزيت فتشربه

﴿ اللطيفة الحادية عشرة — الجراد والعنز والزرع والفلاحون فى مصر ﴾

ان الجراد قد يفتك بالزرع فى بلادنا المصرية فتراه فى جو السماء كأنه سحاب مركوم فاذا نزل بزراعة التهمها وأكل ورقها وحبها وصارت جرزا ولقد خلق الله فى جبالنا المصرية طائرا يسمى العنز أكبر من البط وأصغر من النعام يفتك بالجراد فتكا ويعدمه من الوجود

﴿ صفة ذلك ﴾

فاذا جاء الجراد وفتك بقوت العباد فتك به العنز وأنزل به الهلاك والبوار نزل الجراد يوما بزرعة تبلغ نحو ٦٠ فدانا وقد غطى وجه الزرع وأخذ يلتقمه التقاما والفلاحون يبكون ويندبون حظهم ولا يستصرخون ومن يستصرخون ويستغيثون اذا كان عدوهم سماويا وأمرهم ليس يقدر عليه إلا الحكيم الخبير فبينماهم على تلك الحال إذ أقبل لهم النصر وبسم لهم الدهر وكشف عنهم الضرر وأقبل الطائر المسمى بالعنز المذكور فأحاط بالمزرعة احاطة الهالة بالقمر والسوار بالمعصم وضرب عليها سورا من جنوده أحاطها بعسكره الجرار بنظام يعجز ضباط الجنود وقواد الجيوش الذين لا ينتظم جمعهم ولا يحفظ كيانهم إلا بتدريب المدربين وتعاليم المدرسين والداب والسهر فى النهار وفى السحر فلما أن انتظم جمعهم وقام صفهم كأنه بنيان مرصوص أرسل قائدهم جماعة منهم وسط المزرعة ليفرقوا الجراد ويزعجوه عن المزرعة فيلجأ للخروج فتلتقمه تلك الجنود وكلما امتلأ بطن واحد منهم الذى هو كالمخلاة رجع الى الجبل فأفرغه ليكون ذخيرة ثم يرجع وهكذا حتى لم يتركوا فى المزرعة جرادة اه والفلاحون واقفون ينظرون وبحمد ربهم يسبحون فياعجبا أليس هذا العنز قد رزق بغير حساب وهل هو الذى ربى هذا الجراد أم هو الذى بذر الزرع أوليس الجراد رزق بغير حساب وليس له فى الزرع عمل أوليس الانسان قد رزق بغير حساب فهل هو الذى ربى العنز الذى أكل الجراد . ياليت شعرى أنيام أهل الأرض أم مستيقظون وكأين من فلاح نظر هذه المسألة ولا ينظر فيها وكم من عالم سمع بها ولا يلقى اليها بالا ان الانسان لجهول وظلوم وكفار * أهل الأرض مساكين — ثلاثة أنواع من المخلوقات الجراد والانسان والعنز تألفت منهم رواية أدبية يخر لها العلماء سجدا ويقولون سبحان ربنا وينظرها الجهال غافلين . لعمرى ما أجهل الانسان . ولعمر الله ان هذه لأشبه بما ترى من استمساك القمر بالأرض وجريه حولها واستمساك الأرض بالشمس وجريها حولها واستمساك الشمس بالكوكب الذى تجرى حوله وهكذا طبقا عن طبق حتى تصل الى منبع الوجود

من هنا فليقرأ الناس العلوم وبذلك فليفرح المفكرون وياليت شعرى أى فارقة بين اتحاد الجراد والانسان والعنز وبين تماسك القمر بالأرض وبالشمس سلسلة متصلة ووحدة جامعة ونظام متماسك متحد — ان ربى لطيف لما يشاء انه هو العليم الحكيم —

﴿ اللطيفة الثانية عشرة ﴾

ان فى البحر الأحمر حيوانا يسمى الدرفيل قد رأيته أنا جسمه قدر الحمار يغدو ويروح ليس عليه من رقيب لأن حكومتنا حرمت قتله كما منعت قتل العنز المتقدم ومن قتله يعاقب بالشغل الشاق ٦ ستة أشهر

وهذا الدرفيل اذا صادفه غريق من بني آدم في البحر حمله على ظهره وجرى به جريا حثيثا حتى يلقي به في الشاطئ فانظر هذه اللطائف وتعجب من حكمة باهرة وبهذا فليكن في الاسلام علماء وحكماء — ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى — فهذه آيات الله ولقد فصلناها في هذا الكتاب تفصيلا وبيناها للناس تبيينا

﴿ اللطيفة الثانية عشرة — طائر يسمى السقا ﴾

ان في بحيرة (أخرى) بناحية منستر ببلاد البانيا طيرا يسمى سقا طير فوق الماء حجمه كبير ولا يقدر أن يصيد السمك الذي هو غذاؤه وهناك طير آخر يصطاد السمك غطاس فيغوص في الماء ويأتي بالسمك فيلتقمه السقا فيأكله وهذا السقا تبقى في فمه بقايا وهي مدوّدة والدود طعام ذلك الغطاس فتى أكل السقا فتح فاه ليتناول الغطاس طعامه من الدود الذي تولد من بقايا الطعام فانظر كيف أحكمت الدائرة سمك ودود السقا والغطاس كما أحكمت في العنز والجراد والزرع والفلاح . هناك أربع متلازمات . وهنا العدد نفسه — فتبارك الله أحسن الخالقين — وفي الارض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون — ان ربي لطيف لما يشاء انه هو العليم الحكيم —

وبهذا فليفهم المسلمون قوله تعالى — ورحمتي وسعت كل شيء — وكيف يعرف الانسان هذه الرحمة الواسعة إلا بالدراسة ونظر ما أنعم الله به على الحيوان وأسبغ عليه من رحمته . هنا فليفهم المسلمون — ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما — وهنا فليعرف المسلم كيف شملت رحمته وعلمه العوالم كلها شملها بالرحمة التي أصبح يراها العلماء في الذر والحشرات وكل ما دب ودرج يرونها بأعينهم ويلمسون تلك الرحمة وذلك العلم الشاملين لتلك الحيوانات التي خلقها والنعم التي أبرزها والكلمات التي خطها بيده والنفوس التي أبرزها بعلمه وصوّرها كلها بحكمته وغمرها برحمته هذا هو الله الذي بيده خطها وكتبها وأبرزها وأرانا بدائعها فشهدنا رحمة فيها وسعتها والعلم مع الرحمة لأنه قدّرها تقديرا وصوّرها تصويرا . ولعمري لا يغني المسلمين ما يسمعون حتى يبصروا ولا ما يقرؤون حتى يعلموا فالقرآن يذكر الرحمة . وعلى العقلاء أن يعرفوها في كل ما دب ودرج في الطيور الطائرات والدواب الماشيات والسمك العائمات والحشرات المتقلبات

هنالك فليفهموا قوله تعالى — ورحمتي وسعت كل شيء — والجاهل بهذه العوالم لا يدرك الرحمة فيها والغافل عنها لا يعقل معانيها فتتجافى معظم الرحمة عن النفوس الغافلة ويختص الله بالنفحات القلوب الكاملة العاقلة . ولذلك اختص بها المتقون والمؤتون الزكاة والمؤمنون ولذلك قال بعدها — فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذين يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل الخ — عمم الله الرحمة وجعل أعلاها وأخصها لمن اتبعوا النبي الأمي الرحمة عامة وخاصة والخاصة قال الله فيها فسأكتبها لأتباع النبي الأمي . ولعمري كيف يختصهم الله برحمته ان لم يدرسوها وكيف يذيقهم أجلها وهم لم يعلموها . ذكر الله الرحمة في أوّل كل سورة وفي سورة الفاتحة أربع مرات وجعل الدعاء بالهداية بعد الحمد على التربية المشوبة بالرحمة كأنه يشير الى أن المرء متى عرف المنحة استعدّ لها ومتى استعدّ لها رزقها . أمرنا أن نحمد الله على النعم المشمولة بالرحمة ثم نطلب الهداية بعدها . هكذا هنا ذكر أنه وسعت رحمته كل شيء وخصص أعلاها بالمؤمنين الذين أمروا بالنظر في آثارها — فانظر الى آثار رحمة الله — وهي التي رأيتها في هذه الحيوانات وعجائب المخلوقات هذه هي آثار الرحمة فالرحمة صفته والآثار في عمله وحكمته فاذا نظروا في آثار رحمة الله عرفوها واذا عرفوها تشبهوا به فيها . وفي الحديث تخلقوا بأخلاق الله واذا تخلقوا بها أفادوا أهل الأرض ولن يتخلقوا بمجرد السماع وانما ذلك بالاطلاع كما أطلعتك وبالفهم كما أريتك ومجرد القراءة بلا مزاولة المعاني قليلة الجدوى . الله واسع الرحمة والمسلم ينظرها ويتخلق بها ويكون رحمة لأهل الأرض قاطبة . ان نبينا رحمة للعالمين — وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين — ونحن خلفاؤه رحمة للعالمين فنكون خير أمّة أخرجت للناس — كنتم خير أمّة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر —

فنحن رحمة العالمين ولقد شرحت هذا المقام فى سورة البقرة من طريق آخر عند قصة سيدنا ابراهيم — ومن يرغب عن ملة ابراهيم الخ — وعند قوله تعالى — وكذلك جعلناكم أمة وسطا — ولقد أبنت فى تلك السورة أن المسلمين رحمة العالمين فهم خير أمة وقلت وذلك يوجب أن تكون أمة الاسلام أعلم الأمم بأحوال العالم وأقوى عددا وجيوشا ليكونوا ناصرى الضعفاء على الأقوياء ومعلمى الأمم واذن يكونون خير أمة أخرجت للناس

﴿ ملخص هذا الفصل الخاص بقوله تعالى وترزق من تشاء بغير حساب ﴾

ان الرزق بغير حساب بعموم الرحمة والعلم وعموم الرحمة يعرف بنظر العوالم ومتى عرفت الرحمة بآثارها تخلق بها المؤمن وصار خليفة لله ولنبيه وأما خلافته لله فبنظره فى آثار رحمته وفى تخلقه بها وفى الحديث تخلقوا بأخلاق الله ويقولون الحكمة أن يتشبه الانسان بالله بقدر الطاقة البشرية وأما خلافته لنبيه فان الله يقول — وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين — فيكون المؤمن عالما بهذه العوالم مستعدا أن يكون مفيضا عليها قاضيا بينها نافعا اتباعا لنبيه بمقتضى الوراثة وأنا أيها الذكى لا أدرى كيف تأخر فى هذا الزمان ظهور الأمة الاسلامية بهذا المظهر الالهى فعسى أن يكون قريبا حتى يعلموا هذا الوجود ويقوموا بنظام أهل الكرة الأرضية ويكونوا رحمة لهم وقضاة ومؤدبين للأمم جميعها وعسى أن يكون امتداد السكك الحديدية والأسلاك البرقية مقدمة لظهور هذا الجيل الاسلامى الذى هو اليوم ليس موجودا ولكن الموجود بذور الدين أما شجره وثمره وقيام أهله بنظام أهل الأرض ووصايتهم عليهم وحكمهم على الأمم الظالمة ورحمتهم للأمم المظلومة وقيامهم مقام الآباء لأهل الأرض فذلك لم يأت بعد وقد مهدت الأساس وبنيت القواعد له وقدمت المقدمات وعسى أن يكون قريبا

﴿ بهذا تفهم القنوت فى صلاة الصبح ﴾

يقول المصلى دائما وقت صلاة الصبح — وتولنى فيمن توليت — ياعجبا كيف يعرف المسلم أن الله رحمته واسعة ورأفته لا حد لها إلا اذا اطلع على مثل ما قررناه فى هذا التفسير وفى مثل هذه الحيوانات وأنها مرزوقة بغير حساب الناس كثيرا ما يعبدون الله خوفا من غضبه وفرقا من عذابه فى الدنيا وفى الآخرة ولكن اذا اطلعوا على مثل هذه اللطائف فى هذا الفصل حصل لهم يقين أنه يكفل الذر والنملة والنحلة والذبابة وانه رحيم رؤف بالحقير والعظيم هو رؤف حقا لأنه هكذا أعماله مع ضعاف خلقه وعلى ذلك يتبين للانسان علما يقينيا ان الله يتولى خلقه وعنده رأفة ورحمة لا حد لها ويرزق تلك المخلوقات بغير حساب ولكن لماذا يدعو المؤمن والله برحمته عم النمل والنحل والمكروب وتولاها ورزقها حتى أصبحت ترعى أجسامنا واذا كنا أفضل منها فلماذا ندعوه وقد كفلها وتولاها أفلا يكفلنا ويتولانا

﴿ الجواب ﴾

اعلم أن العوالم ثلاثة • عالم الحيوان له غريزة • وعالم الانسان له عقل • وعالم الملك والأرواح المجردة الذى ذكرنا آراء الناس والفلاسفة فيه عند قوله تعالى — واذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة — فى سورة البقرة

فعالم الحيوان قد تولاه الله وأنعم عليه بالغريزة فنال الهناء والسعادة وقل عناؤه وشقاؤه بالنسبة للانسان ولذلك ترى علماءنا أجمعوا على أن الحيوان قليل المرض والانسان كثير الأوجاع والهموم والوجوم

وعالم الانسان أعطى عقلا به يفكر ويشقى فى تحصيل الرزق وتعلمه وملبسه مما تبرأ منه الحيوان واستراح ومهد له الأسباب فتراه يغزل وينسج ويطير ويبنى البيوت ويغوص فى البحر وهو سعيد بلا كلفة ولا مدرسة ولا طب ولا هندسة ولا حساب ولا اشتغال وقد جعل الله له صحارى واسعة وشعابا وجبالا ومروجا وغابات واسعة وهو فيها رافل فى حلل السعادة فلا ضرائب ولا جباية ولا مدرسين ولا دروس وقد أعطى كل ما يحتاج اليه وهو فى أتم حال

أما عالم الملك والأرواح فله غرائز لا كغرائز الحيوان فهى لا نصب فيها ولا تعب ولكنها قوة قدسية فكما ترى العنكبوت ينسج والنحل يجنى العسل بلا تعليم هكذا الملائكة يفعلون ما يؤمرون وتكون أعمالهم سجية وغريزة من الغرائز العالية الشريفة فهذه المنحة فى الحيوان غير عالية كالوحى الى النحل والهامه وفى الملك نسميها (قوة قدسية)

والانسان

والانسان ارتقى عن الغريزة الحيوانية وانحط عن أفق الملائكة ولذلك تراه اذا سمع الوحي طار اليه سراعا وفرح به واستبشر فالله تولى الحيوان فى مرتبته السافلة وتولى الملائكة فى درجاتهم العالية والانسان فى حال التكليف يريد ان يصل الى الدرجات القدسية فيقول (تولنى فيمن توليت) ويقول أيضا (فلك الحمد على ماقضيت) ومحال أن يفهم ان القضاء كله خير وجمال حتى القضاء بما يكرهه إلا اذا اطلع على نظام هذا العالم كما رأيت كيف كانت القاذورات تحول الى حشرات لطهارة الجو والحشرات الى طيور والطيور يأكلها الانسان والحيوان الكبير فيقول العبد فى الصلاة (لك الحمد على ماقضيت) لانى علمت أن قضاءك لمصالح شريفة فيكون الحمد حقا لا بمجرد اللفظ واذا قال تولنى فيمن توليت يكون مطلعا على بعض ماتولاه الله به جازما بأنه قد وسعت رحمته وعمت ويكون موقنا بما اطلع عليه كما فى لطائف هذا الكتاب التى اقتطفت من علوم الأمم الحاضرة والكشف العلمى

ان الدعاء فى الدين الاسلامى فتح لباب العلم والفكر فاذا حمد المرء الله على قضائه وفيه ما يكرهه المسمى شرا وجب أن يعقله ويتأمل المخلوقات والا كان الحمد كذبا ونفاقا واذا قال تولنى فيمن توليت يجب ان يطلع على بعض ماتولى الله حياته وحفظه فان الانسان قليلا مايعرف رحمة الله فى نفسه بل تغلب عليه وساوسه وآراؤه المنحرفة المنغصة فينسى النعمة والله عام الرحمة عظيم الجود

﴿ خاتمة هذا القسم وعجائبه ﴾

أيها الذكى تأمل معى فى مجموع آيات هذا القسم أنظر فيها ألست ترى أمرا عجيبا يقول الله تعالى ـ ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم ـ ويقول ـ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ـ

هل لك أن ترجع معى الى أول السورة وتنظر الم أفلست ترى أن الم مع ماتقدم من الاشارات والرموز للعلوم تشير الى أمر أهم فى نفس هذه السورة أنظر معى وتفكر وقل لى ألست ترى قوله تعالى ـ ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا الخ قد ابتدئت بنفس الم وقوله تعالى ـ مالك الملك ـ جاء من الملك المكررة مرارا الم واعلك تقول وما فائدتنا من هذه الاشارة أولم يكفك مامضى من الاشارات الى العلوم حتى جئت الآن تقول انها أيضا تشير الى هاتين الآيتين وما المزية فى ذلك (أقول المزية فى ذلك) توبيخ المسلمين ولعلك تقول وأى توبيخ هنا والكلام فى اليهود أقول لك ان الله تعالى قال فى اليهود انهم أوتوا نصيبا من الكتاب وهو التوراة فلما دعوا للعمل به وامتثال أحكامه أعرضوا ولم أعرضوا أعرضوا بأضاليل دبجها لهم علماؤهم وأكاذيب زينوها لهم وحيل اخترعوها سهلوا الأمر على الشعب وعلى نفس العلماء فتارة يقولون لن تمسنا النار إلا سبعة أيام من أيام الآخرة كل يوم ألف سنة وقال قوم منهم أربعين يوما وقال قوم ان آباءهم الأنبياء يشفعون لهم وقال قوم انه تعالى وعد يعقوب عليه السلام أن لايعذب أولاده إلا تحلة القسم

كل ذلك تقدم ألا ترى ان المسلمين وقعوا فى نفس ماوقع فيه اليهود ماذا فعل اليهود . اتكلوا على شفاعة الآباء وآباؤهم أنبياء عظماء . اتكلوا على أن الله عاهد يعقوب أن لايعذب أولاده الا تحلة القسم . اتكلوا فاذا الاتكال فانظر ماذا حصل كانت النتيجة التهاون بالدين والتهاون بالمعاصى والتهاون فى الطاعات فلما دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم بحكم التوراة نكصوا . فانظر أليس هذا بعينه هو الحاصل الآن فى الاسلام . اتكل بنو اسرائيل على شفاعة آبائهم . واتكل المسلمون كذلك على الشفاعة . الشفاعة حق عندنا والشفاعة حق عند بنى اسرائيل ياعجبا يعاقب الله بنى اسرائيل ويسلبهم ملكهم . لماذا . لأنهم اتكلوا على شفاعة آبائهم الأنبياء ونحن فى ديننا نعتقد ان شفاعة الأنبياء حق بل منكرها يكفر فكيف يكون الحق سببا فى العذاب . نعم يكون الحق سببا فى العذاب اذا أريد به باطل والذين يجعلون شفاعة الأنبياء بابا للبطالة والكسل هم الذين اتخذوا الدين هزوا ولعبا ـ ذلك بأنهم قوم لايعقلون ـ وهذا هو الذى أصاب المسلمين اليوم . المسلمون اليوم إما متنورون يجحدون الدين واما جهلاء يتكلون على الشفاعة الاقليلا من الفريقين تربوا تربية عالية منزلية أومدرسية فاذا كان ذلك الاتكال سلب اليهود ملكهم أيام النبوة واذا كان الجد والنشاط فى أمة الاسلام الأولى أورثها الملك المذكور فى قوله تعالى ـ قل اللهم مالك الملك الى آخره ـ

فهكذا فى هذه الأيام أصبح الكسل والبطالة والاتكال على الشفاعة فى أمة الاسلام سببا من أسباب زوال ملكهم وضياع مجدهم وذهاب سعادتهم

فكأنه تعالى لما قال الم فى أول السورة يقول أنظر وافى آية ـ ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب الى آخر الآيات فان اليهود زال ملكهم بالتقاعد وجعل الدين الذى أنزل ليكون عاملا قويا بالرقى الاخلاق واسعاد الأمة وصلاحها سببا فى الفسوق والكسل . لذلك زال ملكهم وقد وعدت محمدا صلى الله عليه وسلم أن تلك أمته كثيرا من الأمم وذلك لأنهم قوم عاملون مجدون غير محرفين فى كتابهم كما حرف اليهود . فاذا رجع المسلمون كاليهود فى أخلاقهم وعوائدهم المذكورة فانى أعاملهم معاملة أولئك اليهود وأسلبهم ملكهم (هذا ما يؤخذ من تلك الاشارات) ولعلك تقول هذا يؤخذ من آيات أخرى من القرآن فما فائدة هذه الاشارة . أقول ان الاشارة دائما أبلغ من العبارة

واذا كان المسلمون اليوم مغترين بأمور دينية فان هذه الاشارة تنبههم الى الرجوع عن ذلك الكسل ويظهر لى أن هذا هو الزمان الذى تظهر فيه أسرار القرآن وعجائبه ويظهر لى ان الناس بعد ظهور هذا التفسير وأمثاله سيجولون جولات فى العلم والحكمة الاسلامية لاسيما ان الأمم الأوروبية اليوم قد اتجهت لدين الاسلام ولعلك تقول هذا عرفناه فى سورة آل عمران

فما الذى تشير اليه الم فى أول سورة البقرة أقول تشير الى أهم ما فى السورة وهو الجهاد وعلوم الطبيعة ذلك ان قوله تعالى ـ ألم تر الى الملأ من بنى اسرائيل من بعد موسى ـ جاءت فى الجهاد والحض عليه فارجع اليها وقوله تعالى ـ ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك الى آخر الآيات ـ فقد ذكر فيها محاجة ابراهيم للنمروذ وكلاهما فى الشمس وأن الله يأتى بها من المشرق فائت بها من المغرب وكذلك جاء هناك مسألة العزير وأن الله أحياه وأحيا حماره وقال له انظر الى العظام وكذلك مسألة الخليل إذ قال الله ـ أو لم تؤمن قال بلى الخ ـ وكل ذلك حض على علوم الطبيعة والتشريح

فكأن الم فى أول البقرة تشير الى العناية بأمرين الجهاد والعلوم بقسميها الأرضية والسماوية ولا بقاء لدين ولا لدنيا بغير هذين لاسيما فى هذا الزمان كما جاء فى هذه السورة ان الملك يدوم ما لم يجعل الناس الدين من أسباب التقاعد كما كان اليهود يفعلون

﴿ تذكرة ﴾

كأنى فى هذه الساعة أتخيل طائفة من مؤمنى هذا الزمان جالسين فى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ الم الله لا إله إلا هو الحى القيوم وكأنهم لذكأنهم أخذوا يفكرون ماذا يعنى بالم حتى اذا وصل الى قوله تعالى ـ ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون الى قوله تعالى وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون فكيف اذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه الى قوله تعالى قل اللهم مالك الملك الخ ـ

وكأنهم لما سمعوا ذلك قالوا ياليت شعرنا ماذا يعنينا من اليهود الذين مضوا وقد غرهم ما كانوا يفترون فى دينهم وقد رفضوا أن يحكم لهم بحكم التوراة الخ ثم يقولون بعد أن يتدبروا لابد أن يكون المقصود من هذا القول نحن معاشر المسلمين لاسيما فى هذا الزمان فان اليهود أيام النبوة كان لهم دين مضى عليه زمن طويل فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ـ ولذلك أدخلوا فى الدين خرافات وألصقوها به وبتوالى الأيام اغتروا بتلك الأوهام وخدعوا بها فجاءت أجيال صدقت بتلك الأوهام حتى صارت عندهم هى من الدين الأصلى وهذا عينه قوله تعالى ـ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ـ ثم كأنهم يقولون ألسنا اليوم غيرنا أيام النبوة وربما حصلت لنا تلك القسوة التى تحصل للأمم اذا طال عليها الأمد فها هو ذا الأمد طال علينا ولعل قلوبنا قست فقد مضى على النبوة ١٣٤٣ سنة عربية وهى قرون كثيرة نامت فيها العيون ونعست الجفون وطال الأمد وقست القلوب ثم كأنهم يقولون

فلننظر

فلننظر فى غرورنا فى ديننا الذى أشار له القرآن لننظر فى عيوبنا فى هذا الزمان لننظر فى ذلك لأن الم فى أول السورة جاء مفتاحاً لهذا العلم بها افتتح خزائن العلم خزائن العلم المخزونة فى قوله تعالى — ألم تر الى الذين أوتوا الى آخره — لأنها مبدوءة بنفس الم فلننظر أين غرورنا لأن الله قال فى آية سورة الحديد التى تقدمت — فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون — أعقبه بقوله تعالى — اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون — فكأنه يشير الى أن الأمة التى طال عليها الأمد وقست قلوبها وفسق أكثرها لاتيأس من روح الله . فلننظر المخرج مما وقعنا فيه . وكأنهم يقولون لننظر فى غرورنا نجده فى العلم وفى النسب وفى الشيوخ وغير ذلك

أما فى العلم فاننا اليوم لانعرف من مقاصد الدين الا علم الفقه وأصوله وقد درج المتأخرون من المسلمين على ذلك بحيث يعتنون به وبأصوله . فأما علوم الكائنات من طبيعيات ورياضيات وفلكيات فان المسلمين لايبالون بها . ومن قرأ هامنهم فانما يقرؤها لأجل الحياة الدنيا ولا يعتقد أن الدين يطلبها بل ربما اعتقد أنها تنافى الدين مع أن السور التى نزلت بمكة كلها اما كانت تدعو الا الى النظر فى عجائب هذه الدنيا وفى جمال النجوم وبهجة القمر ونور الشمس وبهجة الزهر وبهاء الزرع وحسن الشجر وعجائب البر والبحر وأكثر الأحكام الشرعية انما نزلت بالمدينة فاذا أراد المسلمون ملكا وثبتوه بعلم الفقه وحده فانهم جاهلون . فليفعلوا كما فعل النبى صلى الله عليه وسلم ابتدأ بالنظر فى هذا الوجود وفى تهذيب النفوس ثلاث عشرة سنة ثم أكمل الله الدين له فى عشرة أخرى وأنزل فيها الأحكام ثم يقولون اذن هذا خطأ يجب أن نتلافاه وجهل يجب ان نتجافاه وغرور يجب ان ننتهى عنه ونقلاه ونتركه ولانرضاه فلنقرأ العلوم كلها على انها دين اسلامى فترتقى العقول أوّلا والأخلاق ثانيا وينتظم أمر الصناعة والزراعة والتجارة والدولة الذى هو من لوازم تلك العناية العلمية . وكأنهم يقولون هذا غرور علمى أورثنا جهلا فاضحا فان هذه العلوم الكونية نزحت من بلادنا الى أوروبا ففرحوا بها وفرحنا بالجهل ثم كأنهم يقولون لم غضب الله على اليهود فى هذه الآيات . غضب عليهم لأنهم تركوا حكم التوراة أى لم يرضوا بالحكم (ومحصل هذا) انهم خالفوا فى أحكام شرعية لهذا كان الغضب منصبا عليهم . أما نحن فاننا خالفنا فى أمور أهم من ذلك خالفنا فى علم التوحيد ودراسته اكتفينا من التوحيد بالعلم المدوّن الذى لم يجعل إلا للرد على قوم مبتدعين فى الاسلام وهذا لا يكفى فان المحاجة شئ والعلم شئ آخر . غفل المسلمون عن القرآن ألم يدرسوا هذه الآيات المكررات فى القرآن التى تحض على معرفة ما فى السموات والأرض كما أوضحناه هذا هو المطلوب . فاغترار المسلمين اليوم بالاقتصار على علم الفقه وعلى علم التوحيد الذى حشى بالفلسفة الناقصة المشوّهة بعد عن الله أوّلا وعن رقى الأمة ثانيا

وليس الغرور قاصرا على ذلك بل يغتر الانسان تارة بعلم الشعر وأخرى بعلم المعانى أو علم البديع أو أى علم كان جزئى كل ذلك اغترار وجهل فاضح فليكن المسلم المتعلم ملما بالعلوم اجمالا بحيث يدرس هذه الدنيا ويكون له فيها نظرة كطالب القرآن

هذا بعض الغرور بالعلم . ان هذا الغرور قد أدى الى الجهل وبالجهل ذهب ملكنا كما جاء فى هذه السورة — وتلك الأيام نداولها بين الناس — فكأن آباءنا آتاهم الله الملك لما لم يغتروا وبغرورنا دالت دولتنا

{ الغرور بالنسب }

يغتر بعض الذين ينتسبون الى العظماء والى بيت النبوّة بذلك النسب ويفرطون فى الأمور الدينية أو فى العلوم والمعارف فهؤلاء لافرق بينهم وبين بنى اسرائيل اذ اتكلوا على أن الله قال ليعقوب لاأعذب أبناءك الا تحلة القسم فهؤلاء المسلمون الاشرار الذين وقع فى قلوبهم هذا القول مغرورون لأن الدين جاء لرقى الأنفس لالخذلانها وخسرانها والآباء الذين ارتقوا بالنبوّة والعلم لايرضون عن أبنائهم الذين يجهلون دينهم ويخالفون أمرهم — ألم تر الى قوله تعالى وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال انى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لاينال عهدى الظالمين — فعلى من اطلع على هذا وعلى من تنوّر من المسلمين أن يبينوا للناس كتاب الله وأن يشرحوا للمسلمين طرق الاغترار

التي شرحها الامام الغزالي في الاحياء حتى يرجع عنها المسلمون

{ الاغترار بالشيوخ }

ومن الاغترار الشائع بين المسلمين انهم اذا اتبعوا شيخا بطريق العهد جعلوا توكلهم كله عليه بحيث لا يعرفون الا قوله ولا يسمعون الاعامه وقد تركوا عقولهم وتفكيرهم والقرآن بين يديهم فلا يتفكرون ولا يتذكرون وهؤلاء يتكلون على شيوخهم في مغفرة الذنوب والشفاعة وهذا كله تهاون وجهالة فعلى المسلمين أن يتبصروا ويتعلموا — والله هو الولي الحميد —

{ ميزان يبان المغترين من المسلمين والموفقين }

هذا بيان جامع لعلامات العلماء الذين هم مغترون والعلماء الذين هم موفقون وكذلك الأمم التابعة لهم هذا الذي سأذكره تبيانا لهم وتعريفا لأحوالهم وتمييزهم عن الموفقين من علماء الاسلام وعامتهم

فاعلم أن كل ما يؤدي الى كسل المسلم وتواكله ونومه وقسوته وتأخره في دينه أو دنياه غرور وجهالة وكل قول أدى الى النشاط وقوة العزيمة والصبر والقناعة والهمة العالية وأحراز العلوم ومغالبة الأمم فذلك من صفات الموفقين وشيم الفضلاء وحكماء الاسلام

والدليل على ذلك ان الأمة العربية وان كانت قبل الاسلام قوية الشكيمة والعزائم والهمم لما جاء الاسلام جمعها وأرسلها الى اصلاح الأمم شرقا وغربا فهذا هو الاسلام هو الذي زاد شجاعة الشجعان ووجهها الى عظائم الأمور ومنافع الجمهور

فأما الأمم الاسلامية الحالية فانك ترى كثيرا منهم لا يزالون يظنون أن ديننا يرضى التواكل والكسل والجبن فيفرون من الفضائل والأعمال الشريفة والعلوم . ولعمرك ان علماء علموهم هذا التعليم غارون ومغرورون وأن ملوكا رضوا بهذا النوم والجهل لملوك مغفلون

فبهذا الميزان زن أعمال الأمة الاسلامية وأحوالها فاذا رأيتهم يتكلون على شفاعة الأنبياء أو على نظرات الشيوخ الذين علموهم أو على عطف مشايخ الطرق الذين لقنوهم وهم في ذلك كله متكلون فاعلم أنهم مغرورون والذين علموهم غارون فان هؤلاء لم يفهموا الشفاعة الا مقلوبة ولا نظرات شيوخ الصوفية الا مختلة معتلة

وهذا في الحقيقة الانتكاس . لو كان المتقدمون في الصدر الأول يفهمون الشفاعة كما فهمناها ما بلغوا مشارق الأرض ومغاربها ولا أذابوا مهجهم ولا نفوسهم في سبيل الله . ومن الجهالة أن يعرف الانسان باب الجنة بلا عمل ثم يجشم نفسه المخاوف والمصاعب واقتحام الأخطار فلو كان علمهم كعلمنا مقلوبا ما عملوا ولا علموا ولا جاهدوا ولم يكن لهم ملك ولا دول منتظمة ولا حكومات عادلة ولا ممالك شريفة في الشرق والغرب

فأما بعض مسلمي العصر الحاضر فانهم جعلوا شفاعة الشفعاء اغراء بالمعاصي وبابا للجهالة وخروجا عن الأدب والله ان هذا انقلاب وجهالة عمياء اذا ظن المسلم أن ديننا يرضى هذا النوم فهو مغرور

فهذا هو الميزان الذي يميز به المغرورون والموفقون الصادقون . اذا علمت هذا أدركت المناسبة بين قوله تعالى — وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون فكيف اذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون — وبين قوله تعالى — قل اللهم مالك الملك الخ — هذه هي المناسبة بين هذين المقامين غرور فزوال ملك استقامة فملك اليهود اغتروا بفتاوى دينية لا توافق أصل الدين فزال ملكهم وهكذا كثير من ممالك الاسلام ألقى اليهم الدين وغير شكل العلم والعمل فيه فزال ملكهم وهذا كله سر قوله تعالى الم في أول السورة بهذا يفهم بعض سر القرآن الآن وأن هذا السر واظهاره لارتقاء أمة الاسلام

لم يمنع الشرف الاسلامي من الرقي الا جهل القائمين بالدعوة ان الناس يؤثرون بوجدانهم ولو كان الوجدان خطأ وضلالا مبينا فلو وجه الوجدان الى عجائب العلم ومقاصد الدين من الارتقاء العلمي لكان في الشرق أمم لا يقاومها أحد

﴿ نموذج من بدع الدعاة الجاهلين ﴾

بينما أنا أكتب هذا التفسير اذجاء في جريدة الاهرام يوم ٨ مايو سنة ١٩٢٥ - ١٥ شوال سنة ١٣٤٣ تحت عنوان

﴿ دين جديد ﴾

في سوريا يؤله علي بن أبي طالب وهاك نصه

ظهر في بعض قرى العلويين القريبة من مدينة حمص متنبئ جديد يدعو الى عبادة علي بن أبي طالب رضي الله عنه بشكل باطني فتبعه كثيرون من العلويين وزعمائهم . ولما استفحل أمرهم في قرية (العاليات) أراد بعض رجال الأمن أن يدخلوا هذه القرية لفحص الحقيقة فأطلق القوم عليهم الرصاص فاستدعوا قوة من حمص فحضرت قوة من جنود الدرك ثم حضرت من دمشق ثلاث سيارات مدرعة تحمل الجند المختلط من فرنسويين وسوريين فأنذروا القرية بوجوب الاستسلام لقوة الحكومة وبعد الانذار أطلقت عليها النيران فقتل من الأهالي واحد وثلاثون قتيلا عدا من قتل قبل ذلك وعدا الجرحى الكثيري العدد . ثم دخلت القوة الى القرية وقبضت على الرجال وسلمت النساء الى جنود الجيش المختلط وأرسلت الجرحى الى مستشفى حمص بالسيارات . وكان شعار أتباع المتنبئ الجديد (لا إله إلا علي)

وبعد تلك الواقعة تجمهر بعض زراع قريتي (الرقامة) و (البلها) في الوادي فخرجت عليهم سيارات مدرعة فقتلت اثنين وجرحت اثنين وبلغ عدد المقبوض عليهم أكثر من مائة شخص

ووصف مراسل الزمان في حمص سبب هذه الفتنة فقال

ظهر في العام الماضي مشعوذ نصيري ادعى النبوة في بلاد العلويين فخافت الحكومة شر الفتنة بعد ان رأت خطورة هذه الدعوة فأصدرت أمرها بابعاده الى قرية اسمها العليليات من قرى أملاك الدولة في حمص تبعد عن هذه المدينة ١٥ كيلومترا الى جهة الجنوب الشرقي فأخذ (النبي) ينشر لواء دعوته في تلك القرية ويعمل بجد ونشاط والعين غافلة عن أعماله وأفعاله الى أن استطاع اقناع أهالي القرية وهم من العلويين باعتناق دينه الجديد فاشتدت عزيمته وقويت شوكته وأصبح تابعو دينه يفدونه بالمهج والأرواح وظلت عائلتان سنيتان بعيدتين عن دينه ورفضتا قبوله رفضا باتا فهاج عليهما أهل القرية فقتلوا أفراد تينك العائلتين بصورة شنيعة إذ أحرقوا منازلهما وهم فيها

وعلمت قيادة درك حمص بهذه الفاجعة فجهزت حملة تتألف من ١٥ دركيا وعلى رأسهم قائد درك حمص و٦٠ جنديا من الجيش المختلط بقيادة رئيس افرنسي

ولما اقترب الجنود من القرية عند ظهر يوم ٢٩ المنصرم قابلهم الأهالي برشق الحجارة واطلاق الرصاص وقاوموهم بشدة الى ان حل الظلام وطوقت الحملة تلك القرية العاصية وطلبت من دمشق تعزيزها بقوة أخرى فوصل المدد في اليوم الثاني (٣٠ ابريل) وبدأت الحركات العسكرية في الساعة الأولى وبعد مقاومة دامت نصف ساعة احتلت الحملة تلك القرية وفي طليعتها (أربع سيارات مصفحة ذات الرشاش) وقد قبض على ٦٢ شخصا من أهالي القرية وبينهم على ما اتصل بنا (النبي) الدعوى

أما عدد الجرحى والقتلى فقد ذاع انهم أكثر من ١٢٠ إلا أن مخبرنا استطاع الاطلاع على الاحصاء الرسمي وهذا هو

بلغ عدد القتلى الذين قتلهم الأهالي احراقا ١٨ منهم ٨ رجال و ٦ نساء و ٣ صبيان وطفلة . وبلغ عدد الجرحى الذين أصيبوا أثناء مقاومة الدرك ٢٧ منهم ٢٣ رجلا وأربع نساء والقتلى ٢١ رجلا

ولم ينل رجال الحملة أذى يذكر ومما يذكر ان أهالي القرية كانوا يقاتلون برباطة جأش وثبات وايمان أوجدها في نفوسهم ذلك النبي واعدا اياهم بالنعيم والرضوان . وكانوا ينادون (لا إله إلا علي) عند الهجوم على الجنود

هذا هو الذي ذكرته جريدة الاهرام وانذ كرهذا أثناء هذا التفسير من عجائب الحكمة الالهية فان هذا النبي اشتد شغفه بسيدنا على كرم الله وجهه اعتقد ألوهيته ثم اعتقد أنه نبيه ثم ان تأثر وجدانه بهذه العقيدة انتشر في سامعيه فصار وامثاله موقنين وهذا عجيب جدا يقوم المبتدع بوجدانه فيؤثر في الناس فيفدونه بمهجهم ولا يرجعون عن عقائدهم ويرون أنفسهم في الهلاك والعذاب والدمار والأذى كل ذلك للعقائد الثابتة في النفس بما أثر فيها من الحكايات المنقولة والآثار المشروحة في الكتب صدقا أو كذبا

فياليت شعري أعجز المسلمون أن يحبوا العلوم حب هذا النبي وأتباعه للبدعة أنام المسلمون حتى سبقهم أهل البدع فصاروا احرص منهم على بدعهم

يجب ان يكون تعليم الاسلام بهيئة غير التي نحن عليها الآن فليحبب الله لهم بجمال صنعه ويحبب النبي صلى الله عليه وسلم بأخلاقه وكماله ولتكن للدين صورة تهز القلوب فأما الاقتصار على القشور فهو الذى أنام الأمة آمادا طوالا وقد آن أوان السعادة وأقبلت أيام السيادة

ذكر غرور المسلمين في هذا الزمان وذكر أنواع المغرورين الذين ذكرهم الامام الغزالي اجمالا لقد علمت ان الذى فتح باب هذا المقام انما هو قوله تعالى الم نزل القرآن وكانت له حلاوة في القلوب وروعة تأخذ بالألباب وعلم الله أن أمة الاسلام ستأخذ أدوار الأمم التي قبلها كما جاء في بعض الأحاديث المشهورة فتنحط بعد علوها وتسفل بعد ارتفاعها فأراد أن يرينا كيف السبيل الى الخروج من المآزق اذا ارتطمنا في أوحال الغرور وانتابتنا نوائب الخذلان والجهالات فأنزل الحروف المفرقة ففتحت لنا باب العلم وقيل لنا اذا نزل بكم الغرور وصرتم كاليهود أيام النبوة وغركم في دينكم ما تفترونه فارجعوا عن هذا الغرور وليوجهكم عقلاؤكم الى الحقائق الناصعة ومن أعظم الغرور أن يقول المسلم انى منصور لأن الله ينصر المسلمين • ويأتي بآيات وأحاديث كقوله تعالى ـ الله ولىّ الذين آمنوا ـ وكقوله تعالى ـ ان ينصركم الله فلا غالب لكم ـ وكقوله تعالى ـ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ـ وكقوله تعالى ـ ولينصرنّ الله من ينصره ان الله لقوىّ عزيز ـ

وينتقل ذلك الفكر من جماعة الى جماعة حتى اعتقد المسلمون ان الله ينصرهم على أمم الفرنجة وان كان المسلمون جاهلين متعادين متحاسدين غافلين وذلك من أعظم الغرور هذا الغرور هو بعينه الذى كان عند اليهود أيام النبوة اغتروا بما ينقل اليهم عن سلفهم ففترت هممهم واتكلوا على الآباء فخابت آمالهم ويظن المسلم ان الله ينصره لأنه على دين الاسلام وفاته أن صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم كان هو نفسه يخرج للقتال ويحارب فلو كان النصر بلا علم ولا عمل فضيلة لكان الأولى به صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم فيظن أغبياء المسلمين من شيوخ وعامة أنهم أكرم على الله من صاحب الشرع فقد أخرجه للغزوات فنصره فأما هم فأقعدهم ونصرهم فهم على هذا أعز على الله من صاحب الشريعة وهذا غرور عظيم أضاع بلاد الاسلام فان ضياع الأمم وخرابها لا يكون الا بعد خراب عقول أبنائها وأى خراب أعظم من خراب هذه العقول المائتة

﴿ حكاية تركى قديم ﴾

منذ ثلاثين سنة حدثني أحد الباشاوات الترك قال انا حفظنا دولتنا التركية ستمائة سنة ولم يكن عندنا هذه الآلات الحديثة فأى حاجة لنا بها الله حافظ دولتنا فلا حاجة الى أمر جديد • ثم قال ان القوم يقرؤن الفتوحات المكية لمحيي الدين بن عربي ويقولون ماذا نريد بعد ذلك ومعنى هذه العبارة انهم لن ينظروا في شئ بعد ما هو عندهم علما من الفتوحات المكية وعملا بالأنظمة الموجودة وما عدا ذلك فهو لا قيمة له

سمعت تلك الحكاية أيام حكم السلطان عبد الحميد وتألمت أشد الألم واعتقدت ان الفرنجة لابد هاجمون على دولة الخلافة ثم مضت سنون وسنون ومزقت الدولة ولكن الله سبحانه وتعالى أرجع اليها شبابها لما غيرت الأفكار ولا يعلم الا الله ماذا يكون في المستقبل القريب والبعيد

اصناف

{ أصناف المغرورين من كلام الغزالي } جعلهم أربعة أصناف العلماء والعباد والمتصوّفة وأرباب الأموال

فالعلماء (١) فاما أن يغتروا بأحكام العلوم العقلية والشرعية واتقانها ومع ذلك يكونون قد تركوا تهذيب نفوسهم فهم شرهون عاصون ظالمون لا يعرفون مكائد النفس (٢) واما أنهم يعرفون علوم الأخلاق الباطنة ولكنهم يظنون انهم أكرم على الله من أن يطلعهم بها (٣) واما انهم اغتروا بالفتاوى الشرعية وظنوا انهم بذلك يخدمون الدين وقد نسوا الأعمال الظاهرة والباطنة (٤) واما انهم اشتغلوا بعلم الجدل في علم الكلام وفي رد الشبه الواردة فيه وضيعوا أعمارهم في ذلك وأفهموا الناس أن الدين لا يتم إلا برد هذه الشبه وهذه أكاذيب جاءت في الأمة الاسلامية فالصحابة كانت تحيط بهم الأكاذيب والشكوك وما تعرضوا للرد عليها ولا ضيعوا في ذلك زمانهم (٥) واما وعاظ لا همّ لهم إلا السمعة والصيت ولا قلوب لهم ولا وجدان (٦) واما فقهاء استباحوا لأنفسهم بالفتاوى مايحرم بالشرع حقيقة واكتفوا بالظواهر وهذا غرور عظيم

وأما العباد (١) فمنهم من أهمل الفرائض واشتغل بالنوافل والفضائل (٢) ومنهم من غلبت عليه الوسوسة في نية الصلاة (٣) ومنهم من غلبت عليه الوسوسة في اخراج حروف الفاتحة (٤) ومنهم من اغترّ بقراءة القرآن فيهذونه هذا وربما يختمونه في اليوم والليلة مرة (٥) ومنهم من اغترّ بالصوم بل ربما صام الدهر كله (٦) ومنهم من اغترّ بالحج مع أن عليه ديونا وحقوقا (٧) ومنهم من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وينسى نفسه (٨) ومنهم من يجاور بمكة وليس له من المحامد غيرها افتخارا

وأما المتصوّفة (١) فهم اما مغترون بالزيّ والهيئة والقلوب خالية (٢) واما مغترون بالأسامي والألفاظ كالمشاهدة والتجلي والوصول وبهذه وأمثالها يغرّ نفسه فيقول أنا واصل والفقهاء والمفسرون مغرورون والعامّة حمير وهكذا (٣) واما مغترون بالزهد والوله بالله والوجد والحب له مع أنه قد يتخيل أحدهم في الله خيالات هي بدعة أو كفر فيدّعى الحب قبل المعرفة (٤) واما مغترون بخدمة الصوفية ولا غرض لهم الا الشهرة (٥) واما مغترون بدقائق علم النفس والبحث عن رذائلها فتضيع حياتهم في ذلك غرورا (٦) واما مفتوح عليهم ولكن كلما فتح عليهم بشئ أعجبوا منه وفرحوا به فحجبوا عما بعده (٧) ومنهم من لم يمنعه الفرح بل ارتقى حتى اقترب من الله وظنّ أنه وصل اليه فوقف فهو مغرور

وأما أصحاب الأموال وهم الصنف الرابع (١) فهم اما مغترون ببناء المساجد والتكايا الخ والمال مأخوذ ظلما ولا ينفعهم كتابة أسمائهم عليها ولا يغفر الله لهم (٢) واما مغترون بسبب البنا المذكور والمال حلال وسبب الغرور أنه قد يكون هناك وجوه تقدم على هذا البناء (٣) واما مغترون بالعبادات وقد بخلوا بالأموال (٤) واما مغترون باخراج الردىء للزكاة فقط هذا اجمال أصناف المغرورين من الاحياء

{ الاغترار بعلوّ الآباء }

ومما ذكره وشدّد فيه التمسك بصلاح الآباء وعلوّ رتبتهم قال الامام الغزالي كاغترار العلوية بنسبهم ومخالفتهم سيرة آبائهم في الخوف والتقوى والورع بظنهم أنهم أكرم على الله من آبائهم اذ آباؤهم مع غاية الورع والتقوى كانوا خائفين وهم مع غاية الفسق والفجور آمنون وذلك نهاية الاغترار بالله تعالى وضرب أمثلة لذلك كنوح وابنه وكيف زين الشيطان للعلوى هذه المعصية فغره اهـ (أقول) ويقرب من هذا

{ اغترار أمة الاسلام اليوم والعداوات قد فرّقت شملها والعلم جمع شمل غيرها في أوروبا وأمريكا }

لقد علمت أيها الفطن كلام الامام الغزالي ولومه لبعض العلوية في زمانه وكيف خالفوا آباءهم الأولين الذين كانوا مجتهدين خائفين وهم في الكسل آمنون فانظر حال المسلمين اليوم كلهم ووازن بينهم وبين أسلافهم أنظر كيف رجع أبناء العرب منهم الى ما كان عليه آباؤهم الأولون قبل زمن النبوّة من تفرق الكلمة والجهالة السوداء أنظر كيف أصبح كل فريق منهم تحت حكم دولة من دول أوروبا

لقد كان أشهر الدول أيام النبوّة اثنتين فارس والروم وكان آباؤنا نحن أبناء العرب يكادون يكونون تحت اشراف الدولتين فلكل منهما نفوذ فى الجهة التى تليها

فلما جاءت النبوّة انقلبت الحال وأصبح السيد مسودا والحاكم محكوما وسار أبناء العرب من جزيرتهم الى شمال أفريقيا مصر وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش ثم ساروا الى بلاد الأندلس ولما مضى دورهم تقلصوا من الأندلس واستمسكوا فى شمال أفريقيا الى الآن وهاهم الآن نهب مقسم بين دول أوروبا فبعد أن كانت أوروبا ليس فيها دولة ذات غلبة أيام آبائنا إلا واحدة أصبحت اليوم دولا كثيرة كما انتشرنا نحن فى الأرض وصرنا أمما ففرقنا الله عليهم وأصبحت فرانسا فى مراكش ومعها أسبانيا وفرانسا أيضا فى الجزائر وايطاليا فى طرابلس وانكلترا فى مصر وفرانسا فى الشام واليهود مع الانجليز فى فلسطين والانجليز أيضا فى العراق • أنظر كيف رجع أبناء العرب الى حالهم قبل النبوّة بحال مكدرة واستعباد شنيع

وانما فعل الله ذلك بنا لما ركز فى نفوسنا من الجهالة العمياء والاغترار والاستكبار والعظمة الجاهلية • أنظر ماذكره الامام الغزالى من أصناف المغترين فاياك أن يجول فى خاطرك أن هذا التشديد الذى ذكره خارج عن المعقول أو تظن أن ذلك مبالغة لا يسلم منها أحد كلا

وأنا أوضح لك المقام الآن لتعلم ان أولئك المغترين من أسلافنا هم الذين أوقعونا فى الاستعباد واذلال أوروبا • أنظر الى أصناف العلماء وأصناف العباد وأصناف الصوفية وأصناف الأغنياء الذين مضى ذكرهم فى كلامه • أنظر كيف ترى ان الصوفية فى زماننا أكثرهم فى جهالة عمياء فانهم عادة يقطعون الصلة بين تلاميذهم وبين مجموع الأمّة ويفهمونهم أنهم على الحق وأما سواهم فانما هم قوم مغرورون وهكذا علماء المعاهد الدينية الذين لا يعرفون من دين الاسلام إلا الفتاوى الشرعية التى تليق القضاة فهؤلاء لا يبالون غالبا بتهذيب النفوس ولا بغيره وهكذا العباد يرون أن الخير خاص بهم وهكذا المثرون • فالاغترار فى هذه الأقسام الأربعة راجع الى قصر النظر وانفصال كل طائفة عن سواها ودعواها اختصاص الهداية بها

لذلك تجد أبناء العرب فى العراق وفى سوريا وفى فلسطين وفى شمال أفريقيا تجاورت ديارهم واتحدت لغتهم واتحد دينهم وهم من أصول متجانسة فهذه أربعة أسباب للاجتماع والتآلف قد جهلوها وقطعوا حبلها وجهلوا أنفسهم وسفهوها فلا باللغة تواصلوا ولا بالجنس تعارفوا ولا بالديار اتحدوا ولا بالدين ائتلفوا فتفرّقوا مذاهب وناموا واجتذب أرباب الطرق كل واحد منهم طائفة لنفسه وأناموهم فى كنفهم وهكذا المسمون بعلماء الدين فلما تفرّقوا ولم يفهموا سلط الله عليهم أوروبا كما قال الله تعالى فى قوم ـ تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ـ فانظر كيف جعل تفرق القلوب من أجل عدم العقل

أوليس من المبكى أن يكون هؤلاء سبب ارتقاء العالم الانسانى منذ ألف سنة ثم يصيرون الآن عبرة الأمم ضعيفى الهمم ان آباءهم الذين علموا الأمم واجتذبوا الى دينهم أهل الهند وجاوه والصين وغيرهم وأمم الترك فكيف أصبح الخلف على نقيض ما عند السلف

وكيف أصبح أهل الممالك المتحدة الذين لا يجمعهم جنس ولا أصل قد أصبحوا أمّة واحدة مع انهم ممالك يعدّون بالعشرات وأبناء العرب الذين كان آباؤهم مصابيح العالم أذلاء متقاطعين جهلاء أغبياء حتى انك ترى نفس الجزيرة العربية التى لا تعدو عدّ أصابع اليدين من آلاف الألوف مشتملة على ممالك متفرّقة منشأ كثيرة مختلفة متنافرة متعادية كالجاهلية الأولى فهم أذناب الأمم

فأما الممالك المتحدة ففيها نحو مائة ألف ألف وهم مملكة واحدة أخافت العالم وأزعجته وارتعدت لها فرائص أوروبا كل ذلك لأن القوم علماء ونحن جهلاء وهكذا أمم الالمان والانجليز وغيرهم كل منهم اتحدوا وعاشوا فى أمن لأنهم متعلمون فالعلم هو الذى رفعهم

وليست

وليست القوة وحدها بمغنية ألا ترى الى الآساد كيف أحجمت عن مهاجمة الناس فى البلدان ذلك لقلة عقولها مع انها لو عقلت لأفنت الناس هكذا الأمم الاسلامية اليوم انما منعها عن الاتحاد انها أمم مغترة بأصناف الغرور التى ذكرها الغزالى المجموعة كلها فى قوله تعالى على سبيل الاشارة (فرحوا بما عندهم من العلم)

﴿ ودواء هذا الداء وكيف يرتقى أبناء العرب خصوصا وأبناء الاسلام عموما ﴾

لاسبيل لرقى هذه الأمم العربية أوّلا والأمم الاسلامية ثانيا إلا أن يبدأ أوّلا أبناء العرب بتعميم التعليم للرجال والنساء ويكون ابتدائيا وثانويا وعاليا لكل بقدره ويكون الثانوى مشتملا على نظام هذه الدنيا رجالها كما تفعل دول أوروبا وتكون تلك العلوم ممتزجا به بعض الامتزاج آى القرآن كما فعلت فى هذا التفسير. اذا عم التعليم فى العراق وفى سوريا وفى مصر وفى بقية شمال أفريقيا هنالك يحصل التعارف بقراءة تاريخ أجدادهم وتخطيط بلادهم وقراءة أسرار دينهم وأدب لغتهم فيتواصلون بالقلوب و بالطرق الحديدية والسفن الهوائية والبحرية ويتعارفون واذن يكونون هم أولى بأن يكونوا ممالك متحدة من الممالك المتحدة ومتى فعل ذلك أبناء العرب قلدهم المسلمون فى الشرق وساعدهم اخوانهم الترك الذين قد أدركوا الأمر وابتدؤا يتعارفون فيعرف كل منهم أخاه التركى فى بلاد الروسيا وفى بلاد الصين وهم فى العالم نحو ثمانين مليونا فهم يريدون أن يتحدوا من حيث اللغة والجنس . هكذا فليفعل العرب ثم يكونون مع اخوانهم الترك أمما متعاونة لاجتماعهم معهم فى الدين وفى الجوار وفى أنهم أمم شرقية

هذا هو الذى يزيل الغرور من أمة الاسلام فان قراءة العلوم المختلفة تحبب سائر العلوم للانسان فيعرف كل انسان أن عند غيره مزية ليست عنده فلا يحتقر الصوفى عالم الفقه ولا عالم الفقه الصوفى ولا العابد الغنى ولا الغنى العابد بل هم جميعا يتصافون . هذا هو الدواء الناجع لامة الاسلام ﴿فان لم يكن ذلك فقل على دولهم وعلى أبنائهم السلام﴾

ذلك سر قوله تعالى - وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون - الذى هو سر ألم المذكورة فى أوّل السورة فقد أرشدتنا الحروف الثلاثة الى قصة اليهود المغرورين بشفاعة الآباء وتوصلنا بذلك الى غرور المسلمين وجهالتهم ونقلنا ملخص المغرورين من الاحياء وعرفنا الدواء وهو العلم فالمسلمون اليوم مغرورون . لذلك هم مقهورون والعلم هو الذى يدفعهم الى درجات الأمم الصادقة القوية

ذلك بعض أسرار القرآن التى أظهرها الله تعالى فى هذا الزمان ولله الأمر من قبل ومن بعد ومتى تم ما قلناه يفرح المؤمنون بنصر الله

﴿ موازنة هذا المقال برأى ابن خلدون ﴾

اعلم أن العلامة ابن خلدون يقول فى مقدمته ان العرب لا يجتمعون إلا على نبى أو ولى يريد بذلك انهم ليسوا كغيرهم من الامم يجتمعون اجتماعا سياسيا بعقولهم . نقول ان الطريق الذى سلكناه فى هذا المقال الذى سيتم إن شاء الله تعالى قد جمع لهم بين الدين والعلم و يرجعون الى العالم و ينيرونه أكثر مما كانوا سابقا ويكونون هم و بقية المسلمين شرفا ونورا لنوع الانسان

﴿ عجائب البلاغة فى القرآن والاعجاز ﴾

. انظر الى بلاغة القرآن فى هذا المقام . انظر الى الايجاز الذى يعجز العالم قاطبة أدهش العلماء فى الاسلام . البلاغة فى ايجاز قوله تعالى - وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى - وفى قوله - ولكم فى القصاص حياة - وهكذا فليكن دهشهم هنا أعظم انه لم يكن من نظام البلاغة أن يخاطب الله المسلمين قائلا ستكونون بعد قرون مقسمين الى أمم وتصبحون تحت أيدى الفرنجة بجهلكم وغروركم وظهور طوائف الفقهاء الصوفية والعباد والأغنياء الذين يدعى كل فريق منهم أنه هو المختص بالنعمة ويحقر الآخر وبهذا الغرور تكونون طوائف الى آخر ما تقدم . لم يذكر الله ذلك لأن فيه كسرا لحدة القوة الدينية إذ ذاك ولكن لابد من ذكره مرمزا لهذا ولغيره مما سمعته فى هذا المقام

بقوله ألم فهذه الحروف الثلاثة ذكر الداء والدواء

بهذا وبأمثاله يكون اعجاز القرآن . بهذا يعرف معنى قوله تعالى - أولم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون - فالذكرى قد قرأتها فى هذا المقام والرحمة هى اجتماع أبناء العرب وبقية الأمم الاسلامية اجتماعا علميا يطلبه الدين ويفوقون أبناء الفرنجة فهذه هى الذكرى وهذه هى الرحمة وهذه ميزة القرآن الذى هو المعجزة الباقية لآخر الزمان إذ خاطبنا الله تعالى بلفظ ألم وعلمنا علم العمران والسياسة وقد خزنها فى كتابه العزيز وأبرزها فى هذا الزمان لما آن الأوان . فبهذا يمتاز القرآن بمعجزته عن قلب العصا حية وابراء الأكمه والأبرص فبمثل هذا تحيا أمم وتشفى من المرض على طول الزمان وتقلب القلوب الجامدة فتصبح عاقلة مفكرة فى أمم متعاقبة الى آخر الزمان - والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم -

﴿ ايضاح - كيف يزول الغرور من أمة الاسلام ﴾

أيها المسلمون ها أنتم أولاء قرأتم قصة اليهود أيام النبوّة وكيف غرهم فى دينهم ما كانوا يفترون وعرفتم أن الغرور شمل اليوم وقبل اليوم أمة الاسلام علماءها وعبادها والصوفية فيهم وكيف كان علم الفقه وعلم التوحيد وعلم التصوّف والانكباب على حج أو على صلاة مع ترك بقية الأعمال النافعة فى الامة الاسلامية كما تقدم عن الغزالى أورث المسلم غرورا عظيما فيتنعم بالحج أو بالصلاة أو بالصدقات أو بالتصوف أو بغير ذلك . وقلنا ان هذا فرق العرب الذين على يديهم قام هذا الدين فأصبحوا فى ديارهم خاضعين للفرنجة ذلك كله بالغرور . اللهم إنى أحمدك وأشكرك اللهم انك انت المعلم والمرشد . اللهم إنى عاجز عن حمدك وشكرك فلطالما كنت أقول فى قلبى ما دواء الاسلام وما داؤه وما حال الصوفية وهل هم قاموا بما عليهم مثلا وهكذا فقد اتضح الأمر الآن وعرفت الحقيقة بمعونة الامام الغزالى فى الاحياء فقد جرت أنى بصريح عبارته أن أبرز للناس الحقيقة ﴿فلا عطر بعد عروس * ولا مخبأ بعد بوس﴾ وقد اتضح الأمر فلنكشف الحقائق فنقول

أمر الله المسلمين بالنظر فى هذا العالم المشاهد فقال تعالى - قل انظروا ماذا فى السموات والأرض - وقال أيضا - والذى قدر فهدى - وقال - أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض الخ - وغير ذلك

خلق الله العيون للناس والاسماع والقلوب ثم سلط عليهم الجوع والعرى والحاجات الكثيرة ليتخذوا لهم ما يسدّ حاجتهم مما حولهم ويتعلموا من نظام الطبيعة . ذلك أودعه الله فى الفطرة فنظر الناس الى النحل والنمل والغربان وكلاب البحر وأمثالها فوجدوا لها جمعيات منظمة فيكون للخلية الواحدة من النحل ملك وشغالون وجامعون للعسل وجامعون للشمع وحارسون من دخول الأجانب . وهكذا أمر النمل . فله ملكة وضباط للجنود ومحاربة ومربون للصغار وحجرات خاصة لكل جيل من أجيال الذرية . وأظآر جمع ظئر لتربية الذرية وهكذا مما ستراه فى سورة النحل والنمل . فلما رأى الانسان ذلك قديما كوّن جمعياته ونظمها ولكن لا كنظام النمل والنحل بل أقل ثم ارتقى الانسان اليوم فى جماعاته كما سترى التربية فى أمريكا قريبا فى آخر هذا المقال وكيف جعلوا المدارس كأنها نظام المدينة كلها وكأنهم اذ ينظمون تلاميذهم ويعطونهم العلوم العقلية والصناعات اليدوية يقرؤن قوله تعالى - لا يكلف الله نفسا إلا وسعها - فيما تقدم فى سورة البقرة أو كأنهم يقرؤن قوله تعالى فى هذه السورة - واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرّقوا - أو كأنهم يقرؤن غزوة أحد وقد جمع النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه وقسم عليهم الأعمال

المسلمون من مخلوقات الله تعالى وهم ينظرون بأعينهم

(١) قطرات الماء تتحد فى النهر فتغرق القرى وتهلك البلدان (٢) وتسقى الزرع وتدر الضرع

(٣) وذرات الهواء باتحادها وجريها تهدم الحصون والقرى وتقلع الأشجار كما تزجى السحاب وتنفع الناس

(٤) ويشاهدون النمل والنحل وكلاب البحر والغربان والجمهوريات النظامية

(٥) ويشاهدون الممالك المتحدة فى أمريكا والممالك الأخرى هناك كيف نظمت ممالكها مع اختلاف الأقوام

(٦) و يسمعون عن المدارس هناك كما سأذكره قريبا وذلك أن المدرسة فيها العلوم والصناعات فالتلميذ بناء أو نجار أو خائط أو صانع الكهرباء أو مواسير المياه والتلميذة خائطة أو طابخة أو منظفة وهكذا تجد المدرسة مستقلة فى زرعها وغرسها ودوابها وعماراتها والطلاب يصنعون كل شئ عقلى وحسى وهذا هو الذى يناسب نظام عالم النحل والنمل و يناسب القرآن والدين ويخالف كل المخالفة حال المسلمين قديما وحديثا بعد القرون الاولى

فالعالم الفقهى بفقهه مغرور والعالم بالتوحيد مغرور والصوفى مغرور والعابد مغرور وكل حزب اقتصر على شئ من الدين وشمخ بأنفه عن الباقى فهو مغرور

وما دين الاسلام الا العلم والعمل بكل ما يحتاج له المسلمون فى كل زمان بحسبه كما فعل أهل أمريكا وغيرهم فى الوقت الحاضر فلا يكون قوم بسبب الدين عالة على قوم بل كل الناس متعاونون

ولقد ذكر الله المسلمين بهذا كله ذكرهم بالنظر فى السموات والأرض فأعرضوا وقرّب الأمر لهم فأنزل سورتين احداهما باسم النحل والأخرى باسم النمل فما فكروا . أخيرا خلق لهم أمريكا التى قلدت النحل والنمل والغربان وكلاب البحر وأمما كثيرة من الطيور وغيرها فأعرضوا . علم الله ذلك فقال لهم — واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا —

فانظر كيف جعل هذا المعنى فى الماء الجارى وفى الهواء وفى النحل وغيره وفى أمم الانسان الراقى اليوم كل ذلك نصبه الله للمسلمين . ثم أسمعهم كلامه فقال تعالى — واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا — الخ

وهل بعد البيان فى هذا التفسير عذر للمسلمين اذا بقوا على القديم كلا فليعلم الرجال والنساء والعظيم والحقير العلم والصناعات من نجارة وحدادة وغيرها وكفى المسلمين تأخرا فهذا كله فرض كفاية ذكرها المسلمون فى الكتب ومثل بعضهم بدفن الميت والصلاة عليه كأنهم كانوا ينظرون الى موت الأمة ولكننا نحن ننظر الى حياتها لأن الله يريد ذلك . فلأذكر لك الآن نظرة سائح مصرى توجه الى أمريكا وذكر العلم والعمل فى مدارسها وحقر أمر العلم العقلى الذى لا منفعة فيه ثم قال يعتقد علماء التربية الحديثة

يعتقد علماء التربية الحديثة ان حصص الدراسة المعتادة يجب أن تتخللها الأعمال اليدوية الصناعية . و يرجع ذلك الى أسباب ثلاثة

(أولا) من لوازم الحياة أن يتعلم الطالب منذ نعومة أظفاره المبادئ الجوهرية فى صناعة أو أكثر من التى لا غنى لأحد عنها كالنجارة والحدادة وصناعة الأحذية والطباعة وغير ذلك

(ثانيا) ضرورة تعويد الناشئة مهما كانت منزلتهم الاجتماعية ومراكز والديهم المالية — ذكورا كانوا أو إناثا — احترام العمل اليدوى إذ لا عار فى العمل

(ثالثا) اكتشاف المواهب الكامنة فى أيدى الناشئة والتى لا يتسنى إظهار مكنوناتها ومواهبها الا بالنزول الى ميدان العمل أمام المطارق البخارية والآلات المستخدمة فى الصناعات على اختلاف أنواعها

﴿وبعبارة أعم﴾ يجب ان تكون المدرسة صورة مصغرة من العالم التى هى شطر منه . فمن الخطأ أن يقال ان الغرض من التربية الاستعداد لاقتحام ميدان الحياة بل يجب أن يقال ان التربية هى الحياة وان المدرسة ميدان الحياة . وكما أن الناس فى الحياة يستخدمون أيديهم كما يستخدمون عقولهم فكذلك يجب أن يكون التلاميذ فى المدرسة

و يلزم ان تكون الأعمال اليدوية فى المدارس متصلة تمام الاتصال بمواد الدراسة . مثال ذلك ان الانشاء فى معاهد أمريكا يعلمونه للطلبة كما يأتى — يصف الطالب الأطوار التى مرت عليه فى ورشة الأعمال اليدوية فى صنع دولاب من الخشب أو سبك كتلة من الحديد أو بناء زورق للسياحة أو تركيب جهاز لاسلكى أو تشييد غرفة فى بناية من بنايات المدرسة أو الكلية أو تحرير مقالة فى جريدة المدرسة واعطائها لأحد زملائه لطبعها — وتصحيح المسودة ومراجعتها أو وصف وانتقاد رواية مثلها هو وزملاؤه فى مسرح المدرسة — أو كتابة فصل فى زراعة البطاطس كما

شاهد العملية بنفسه فى حقول التجارب الزراعية . وتكتسب البنت أيضا فصولا عن زى أو أزياء معلومة خاطتها رفيقاتها أو عن أوان خزفية كافن بصنعها من طينة معينة وحرقها وطلائها بالأدهان

كذلك يدرس فن الرسم بمساعدة أساتذة الأعمال اليدوية — فيقدم هؤلاء أجهزة للمصابيح الكهربائية مثلا الى أساتذة الرسم . ويكلف هؤلاء تلاميذهم باعداد قطع من الورق أو القماش أو الحرير بشرط ان تصلح كظلات جميلة مختلفة الأوضاع والرسوم للمصابيح المذكورة ويلى ذلك نقش نماذج جميلة منقولة أو مبتكرة على هذه المظلات فتزداد جمالا وحلاوة

يرسم التلاميذ فى الجغرافيا مثلا خارطة أميركا على قطعة من الأرض فى حقل المدرسة الزراعى ويكلفون تلاميذهم أن يلونوا الخارطة بزهور صغيرة يمثل كل نوع منها قسما من أقسامها

يكلف التلاميذ الذين يدرسون علم الحساب مثلا عمل ميزانية للأجهزة والأدوات والأشياء التى يشرع اخوانهم فى صنعها فى الورشة — كذلك يتولون أعمال المصارف المالية التى تنشئها ادارة المدرسة فيها لا لتعويد الطلبة الاقتصاد وايداع الأموال فقط بل لتكون درسا عمليا فى الحساب . كذلك يكون بعضهم مسؤولا عن ضبط حسابات الأندية ومراقبة دفاترها

وقد يتوهم القارئ ان حسابات الأندية هذه مسألة تافهة لا تستغرق وقتا يذكر — غير ان كثرة عدد الطلبة فى بعض المدارس فى المدن يجعل ميزانية هذه الأندية شيئا لا يستهان به — فميزانية نادى الالعاب الرياضية فى مدرسة ثانوية واحدة فى نيويورك (واسمها دى وت كلنتون) عن سنة ١٩٢٣ كانت مائتى ألف ريال

هذه فقط أمثلة ضئيلة وتبدأ هذه الاعمال اليدوية من روضة الاطفال ويلى ذلك ثمانى سنوات فى الاقسام الابتدائية وأربع سنوات فى الثانوية

فبينما تجد بعض الطلبة يتلقون علم التاريخ ترى البعض الآخر فى نفس المعهد يقشرون الخشب ويسبكون الحديد ويصلحون السيارات ويقودونها ويصنعون الاوانى الزجاجية وأجهزة اللاسلكى والاسلاك الكهربائية — أو يشيدون عمارة أو يحرثون قطعة من الارض أو يربون المواشى والطيور الداجنة أو يصنعون الزبد — كل ذلك يقوم به الطالب والعرق يتصبب من جبينه غنيا كان أو فقيرا — ذكرا أو أنثى

ولا يقصد بذلك ان تحشد جميع المهن والصنائع فى كل معهد ويحتم على التلاميذ تعلمها — فهذا غير ممكن بالطبع — ففى نيويورك بلغ عدد الصنائع المختلفة فى العام المنصرم ١٧ سبعة عشر ألفا كانت المدارس الابتدائية والثانوية تقدم لطلبتها منها ٢٠٢ فقط — يختار منها الطالب عددا محدودا فى خلال الفترة التى يمكثها فى تلك المعاهد . وانى لا أغالى — بعد زيارة عدد وافر من هذه المعاهد فى كثير من الولايات — اذا قلت ان الصبى الامريكى (والبنت الامريكية) اليوم يسوق الاوتوموبيل ويركب جهاز اللاسلكى ويصلح ويركب الاسلاك الكهربائية ويتقن صناعة على الاقل من الصناعات المعروفة — قبل بلوغه سن الرشد

يقول لك علماؤهم ان اصلاح أوتوموبيل من أوتوموبيلات فورد خير من تحليل الكميات الى عواملها وتركيب التليفون أنفع من اعراب الكلمات وتحليل الجمل . وصنع مائدة للمنزل أفضل من ايجاد الجذر التكعيبى لكمية سلبية لا وجود لها فى الحياة وتربية البقر والفراخ وتحسين نتاجها أكثر فائدة لبنى الانسان من صرف السنين الطوال فى درس اللغة اللاتينية حتى يتمتع المتعلمون بمطالعة كتاب فى الفلسفة كتبه فرنسيس باكون اسمه (نوفيوم أرجانيوم)

كم أود لو زار الكثيرون من رجال التربية معهدا أو أكثر من المعاهد التى تسد حاجياتها بنفسها وفى مخيلتى الآن صورة واضحة من معهد همبتون فى ولاية فرجينيا — مساحة هذا المعهد ألف ومائة فدان وفيه مائة وخمسون بناية ولا بد ان يدهش القارئ اذا علم ان ادارة هذا المعهد قامت ببناء ثلاث بنايات فقط فى بدء تأسيسه وشيدت البقية بالتدريج سنة بعد سنة وكان الطلبة أنفسهم هم الذين شيدوها فى هذا المعهد وبلغ عددهم ثلاثة آلاف طالب وطالبة — وهذا

لايعد كبيرا جدا — ففي بعض المدارس الثانوية عشرة آلاف طالب وفي جامعة كلومبيا في نيويورك ٤٥ ألف طالب) — فيه يزرع الطلبة الارض ويأكلون ثمارها — ويربي الاولاد الماشية ويستخرجون الزبد والجبن من ألبانها — ويذبحون عجولها فيطبخ البنات لحمها ويأكل البنات والاولاد معا . ويفصل الطلبة أنفسهم الملابس ويخيطونها لزملائهم — وهم الذين يشيدون البنايات التي تحتاج اليها كليتهم ويركبون أبوابها ونوافذها ويمدون أنابيبها ويوصلون اليها الماء الساخن والماء البارد ويضعون أسلاكها الكهربائية ويطلون حيطانها ويصلحون ويقودون سيارات تنتقل من بناية الى بناية فيها وتلميذات الكلية عينها ينظفن حماماتها ويعملن في غسل الملابس وتنشيفها بواسطة آلات كهربائية وكيها ورتقها وارسالها لمكتب خاص لتوزيعها على ذويها ولذا ترى ذلك المعهد كمملكة واسعة الاطراف في الصادر والوارد اليها فلا تحتاج الى صانع ولا عامل ولا خادم ولا مواد غذائية من الخارج

لعمري ان هذه هي الحياة بعينها وهذا ما يجب ان يكون في كل مدرسة فان تجريد المدارس تجريدا تاما عن الحياة الطبيعية في الخارج يولد السآمة والملل ويخرج الطالب الى ميدان الحياة الحقيقي وهو غريب عنها — ضع أميريكيا من خريجي تلك الكليات في عمل من الاعمال واعتمد عليه في كل شيء تجده مدربا قويا واثقا بنفسه لانه انما كان يعمل نفس العمل في الكلية التي كان بها كما ان التلميذ في المدارس الابتدائية يشعر انه في العالم حقيقة وليس في ما نسميه نحن مدرسة — كيف لا وهو يصنع بيده جهازا لاسلكيا صغيرا فيأخذه الى غرفته في المنزل ولا يكاد الظلام يرخي سدوله حتى تصل اليه بواسطته أنغام الموسيقى وأصوات المغنين وأقوال الخطباء . وكيف لا وهو يفتخر أن المائدة التي يأكل عليها أفراد عائلته من صنع يده

رأيت مرة في احدى تلك المدارس في ولاية نيوجرزي فتاة في الرابعة عشرة من عمرها بجانب زورق كبير — فسألتها عما تريد أن تفعل بهذا الزورق بعد تمامه — أجابت انها تعده للنزهة في نهر الهدصون في فصل الصيف مع والديها واخوتها وانها صرفت في صنعه أكثر من ثلاثة أشهر

ثم قال رأيت في مدرسة ثانوية طالبا يصنع حذاء أتقن صنعه فسألته — بأي مهنة تريد أن تحترف بعد نهاية الدراسة — فقال سألتحق بالكلية ثم بمدرسة الطب — فعجبت وقلت له لعلك تنوي ان تختص بالأمراض الجلدية

وهكذا تجد تنوع العلوم في تلك المعاهد وما يتخللها من الصناعات اليدوية تكشف القناع عن ميول الطالب ومواهبه فيختار لنفسه أكثر الصناعات صلاحية له مع ارشاد أساتذته فلا بدع اذا كان الناس في تلك البلاد على اختلاف طبقاتهم أخف حركة منا بمراحل وأنشط عملا وأوسع حيلة — أروني موظفا في احدى المصالح يستطيع ان يصلح مصباحا كهربائيا اذا تلف أوسيارة أصابها عطب أو انبوبا ينفجر لذلك . لا نعجب اذا نظرنا الى الصناعات والصناع بعين الازدراء فانحطت صناعتنا — ووضع الأميريكيون صناعهم في مرتبة الأساتذة والكتاب وكبار الموظفين فرقت صناعاتهم ودقت أدواتهم وجلت آثاث منازلهم وقدروا أهل الصناعة فأصبح النجار والبناء ومن على شاكلتهما يتقاضى أجرة يومية من خمسة عشر ريالا الى ثمانية عشر ريالا انتهى

ولما وصلت الى هذا المقام اطلع عليه أحد العلماء فقال يا عجبا لك لقد تطرفت في الدين وكيف يجمع الانسان بين صناعة الحدادة والنجارة والنقش والتلغراف وأمثالها والعلوم العقلية من الهندسة والحساب والعلوم الدينية من الحج والصلاة والأعمال العادية كتربية الدجاج ومسك الدفاتر وحرث الأرض وحلب البقر

فقلت له هذا التعجب هو الذي قعد بهممنا أوليس جميع تلك الصناعات فرض كفاية قال بلى قلت فلماذا لا نجهر للناس بالحق ولماذا لا ننصح الناس

قل لي رعاك الله ماذا ترى في صلاة الجماعة أليست أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة أليس المسلمون يجتمعون في الأعياد وفي الحج وفي صلوات الجماعة وفي الغزوات . أليس هذا الاجتماع يقصد به تمرينهم على المودة

ألم يقل الله تعالى — واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرّقوا — فيا رعاك الله كيف يكون اتحاد بلا فراق الا بمقدّمات أوليست المقدّمات منها صلاة الجماعة والحج وأمثالهما وكيف تكون صلاة الفذ أقل من صلاة الجماعة بسبع وعشرين درجة • واذا كان ثواب الآخرة يزداد بالاجتماع بسبب عروج الناس الى ربهم واتحادهم في ذلك العروج وانهم تخف أرواحهم مجتمعين أكثر من الانفراد ٢٧ مرة أفليس هذا معناه ان الاجتماع سعادة فاذا زاد الارتقاء الروحى ٢٧ مرة فكيف يكون الارتقاء العمرانى الذى نشاهده ونحن نشاهد ان الشركات التجارية تفعل أفعالا مدهشة تعجز عنها الأفراد وان الآلات البخارية التى اشتراها أفراد بمالهم تنفعهم أضعاف ما كانوا عليه ٢٧ مرة فأكثر هذا هو سر الاسلام فاذا رأينا أمريكا تمادت فى الرقى الاجتماعى فلنقل هذا ديننا لان ديننا أمر به فى الحج والصلاة وغيرهما • وانظر قوله صلى الله عليه وسلم لتسوّن صفوفكم أو ليخالفن الله بين قلوبكم لقد ظهر سرّه اليوم فى الاسلام وفى أمم النصرانية فبعض أمم الاسلام لا اجتماع لها ولا محبة فذهبت مدنيتها و بعض الأمم المسيحية اعتادت الاجتماع العملى فاتحدت قلوبهم

فلتكن مدارس الاسلام وكلياته منبهة مرقية مشوقة لجميع العلوم والصناعات والتلاميذ فيها يعملون بأنفسهم ذلك هو باب السعادة والسلام فى بلاد الاسلام

وهذا كله سر قوله تعالى الم فى أوّل السورة المشير الى قصة اليهود الذين غرّهم فى دينهم ما كانوا يفترون فزال ملكهم ومثلهم بعض المسلمين فى العصر الحاضر لغرورهم فانهم قديما وحديثا وقد وصفنا الدواء بعد شرح الداء لرقىّ هذه الأمة والحمد لله رب العالمين — انتهى القسم الرابع

(القسم الخامس من سورة آل عمران)

وهو بابان * الباب الأوّل فى قصة امرأة عمران ومريم وزكريا ويحيى * الباب الثانى فى قصة عيسى ابن مريم الباب الأوّل فيه فصلان * الفصل الأوّل فى قصة مريم * الفصل الثانى فى قصة زكريا ويحيى

إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَاهِيمَ وَءَالَ عِمْرَانَ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ *

لما بين الله أن طاعة الرسل توجب حب الله أخذ سبحانه وتعالى بذكر مناقبهم وما أغدق عليهم من نعمه وآتاهم من فضله فذكر آدم ونوحا وآل ابراهيم وهم اسماعيل واسحق وأولادهما ولا جرم أن نبينا صلى الله عليه وسلم من ذرّية اسماعيل فهو فى جملتهم ومن آل ابراهيم من هم على دينه وقد دخل فى آل ابراهيم بنو اسرائيل وهم اليهود الذين جعل الله فيهم الملك والنبوّة الى زمن نبينا صلى الله عليه وسلم ثم جعل له ولأمته النبوّة والملك وهؤلاء هم من ذرّية ابراهيم من اسحق ومن اسماعيل أبى العرب الذين منهم نبينا صلى الله عليه وسلم

وأما آل عمران فهم عيسى وأمه مريم بنت عمران بن ماثان من نسل سليمان بن داود وبينه وبين عمران أبي موسى وهارون ألف وثمانمائة سنة

فهؤلاء اصطفاهم الله واختارهم على العالمين بالنبوة والرسالة (ذرية بعضها من بعض) بدل من آل ابراهيم وآل عمران والذرية من الذر أى الخلق أى انهم ذرية واحدة متشعبة بعضها من بعض والذرية الولد يطلق على الواحد والجمع أو بعضها من بعض فى الدين (والله سميع) بأقوال الناس (عليم) بأفعالهم ومنهم امرأة عمران فقد سمع قولها وعلم نيتها وهو يعطى كلا من القائلين والعاملين ما هو أهل له من ثواب وعقاب واجابة ورد واذكر (اذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى انك أنت السميع العليم) أى جعلت الحمل الذى فى بطنى نذرا محررا منى لك والنذر ما أوجبه الانسان على نفسه فيكون المعنى انه خالص لعبادة الله وخدمة الكنيسة لا يشغل بشىء من أمور الدنيا وكان المحرر يجعل فى الكنيسة فيقوم عليها ولا يبرح مقيما حتى يبلغ الحلم ثم يخير فان شاء بقى فيها والا ذهب وليس له بعد اختيار الكنيسة أن يتركها وكانت عادة أنبياء بنى اسرائيل وعلمائهم أن يحرروا أبناءهم لخدمة بيت المقدس وكان ذلك خاصا بالغلمان لان النساء لا يصلحن لذلك

ومحصل هذه القصة ان زكريا وعمران تزوجا أختين فكانت ايشاع بنت فاقوذا وهى أم يحيى عند زكريا وكانت حنة بنت فاقوذا أخت ايشاع عند عمران وهى أم مريم وحنة قد حرمت من الولد حتى أيست وكبرت وكانوا قوما صالحين فبينما هى فى ظل شجرة اذ بصرت بطائر يطعم فرخا فاشتاقت للولد فقالت اللهم ان رزقتنى ولدا تصدقت به على بيت المقدس ليكون من سدنته فحملت بمريم وحررتها فقال لها زوجها عمران ويحك ما صنعت أرأيت ان كان ما فى بطنك أنثى فلا تصلح لذلك فوقعا معا فى هم شديد فمات عمران وحنة حامل بمريم (فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى) قالت ذلك تحسرا وحزنا لانها كانت ترجو أن يكون ذكرا يقول الله تعالى (والله أعلم بما وضعت) أى بالشىء الذى وضعته فلعل لله فيه سرا وكيف لا (وليس الذكر) الذى طلبت (كالأنثى) التى وهبت

فما التأنيث لاسم الشمس عيب ... ولا التذكير فخر للهلال

ولو كان النساء كمن ذكرنا ... لفضلت النساء على الرجال

بل الأنثى التى وهبت أفضل من كثير من الرجال ثم قالت (وانى سميتها مريم) عطف على كلامها السابق وما بينهما جملة معترضة ومعنى مريم بلغتهم العابدة قالت هذا تقربا لله أن يعصمها حتى يطابق الاسم المسمى (وانى أعيذها بك) أجيرها بحفظك (وذريتها من الشيطان الرجيم) المطرود يقال رجمه رماه بالحجارة قال عليه الصلاة والسلام ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخا من مسه إلا مريم وابنها والمقصود ان كل مولود يطمع الشيطان فى اغوائه إلا مريم وابنها فان الله استجاب هذه الدعوة فعصمهما (فتقبلها ربها) رضى بها بدل الذكر (بقبول حسن) أى ان الله تقبل مريم من حنة مكان الذكر المحرر أى قبلها ورضيها (وأنبتها نباتا حسنا) أى سوى خلقها من غير زيادة ولا نقصان ورباها تربية بها اصلاح جميع أحوالها (وكفلها زكريا) أى جعله كافلا لها وضامنا لمصالحها ومن خفف الفاء أعرب زكريا فاعلا • وتلخيص هذا المقام ان حنة لما ولدت مريم لفتها فى خرقة وحملتها الى المسجد عند الأحبار من نسل هارون وهم القائمون بأمر بيت المقدس وقالت دونكم النذيرة فتنافسوا فيها لأنها بنت امامهم وصاحب قربانهم فقال زكريا أنا أحق بها لأن خالتها عندى فتنازعوا وكانوا ٢٩ رجلا ثم اصطلحوا على أن يقترعوا فألقوا أقلامهم التى كانت بأيديهم يكتبون بها التوراة فى نهر الأردن على ان من ثبت قلمه فى الماء وصعد فهو أولى بها من غيره فارتفع قلم زكريا فقرعهم زكريا رأس الأحبار ونبيهم • فأخذ ينظر فى شؤونها ويربيها أحسن تربية فوجد هناك عجبا عجابا ذلك انه (كلما دخل عليها زكريا المحراب) المسجد ويسمى محرابا لأنه محل محاربة الشيطان (وجد عندها رزقا) فكان يجد عندها فاكهة الشتاء فى الصيف وفاكهة الصيف فى الشتاء (قال يا مريم أنى لك هذا) أى من أين لك هذا الرزق الذى يأتى فى غير أوانه (قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير

حساب) أي بغير تقدير لكثرته أو بغير استحقاق تفضلا منه تعالى

ألا تتعجب معي أيها الذكي كيف يقال هنا وترزق من تشاء بغير حساب بعدما أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول ـ اللهم مالك الملك الى قوله تعالى وترزق من تشاء بغير حساب ـ فمريم تقول انه يرزقني تفضلا بلا استحقاق أو بكثرة هذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول ذلك وليس بين الجملتين إلا بضع آيات

يدعو هذا القول المسلمين الذين ورثوا الأمم وعلومها أن يدرسوا كيف يرزق من يشاء بغير حساب كما أريتك قريبا فلقد أطلعتك على عجائب الحشرات والحيوانات المعلمة بلا تعليم الملهمة بلا تكليف المرزوقة بلا أسباب ظاهرة ولا أعمال هامة وهنا ترى مريم كيف رزقت بغير حساب ـ انتهى الفصل الأول

(الفصل الثاني)

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ * فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ * قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ *

يقول الله هنالك أي في ذلك المكان لما رأى كرامة مريم دعا زكريا ربه قال رب كما وهبت لحنة العجوز العاقر ذرية طيبة ورزقت ابنتها الفواكه في غير أوانها لأنك ترزق من تشاء بغير استحقاق هب لي من لدنك ذرية طيبة انك مجيب الدعاء وكان زكريا طاهر القلب مستعدا لخطاب الملائكة فنادته الملائكة أي بعضهم وهو قائم يصلي في المسجد (أن الله يبشرك بيحيي مصدقا بكلمة من الله) وهو عيسى وانما سمي كلمة لأن الله قال له كن فكان من غير أب فوقع عليه اسم الكلمة لأنه بها كان وأول من آمن بعيسى وصدقه كان يحيي (وسيدا) يسود قومه ويفوقهم لأنه ماهم بمعصية قط (حصورا) مبالغا في حبس نفسه عن الشهوات والملاهي (ونبيا من الصالحين) ناشئا منهم (قال رب أني يكون لي غلام) استبعادا من حيث العادة (وقد بلغني الكبر) أدركني كبر السن وأثرفيّ ويقال انه كان له ٩٩ سنة ولامرأته ٩٨ سنة (وامرأتي عاقر) لا تلد من العقر وهو القطع (قال كذلك الله يفعل مايشاء) من العجائب مثل ذلك الفعل (قال رب اجعل لي آية) علامة أعرف بها الحبل لاستقبله بالبشاشة والشكر وزول عني مشقة الانتظار (قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا) أي ان لا تقدر على تكليم الناس ثلاثا فيحبس لسانك عنه ويخلص لذكر الله تعالى وشكره قضاء لحق النعمة وانما تكلمهم بالاشارة بيدك أو عينك أو بالايماء برأسك (واذكر ربك كثيرا) في أيام حبس لسانك عن كلام الناس لأنه هو القصد من حبسه (وسبح بالعشي) أي من زوال الشمس الى الغروب (والابكار) من طلوع الفجر الى الضحى

(الباب الثاني)

﴿ في عيسى ابن مريم وأمه ﴾

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ * ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ

إِلَيْكَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِذْ قالَتِ المَلائِكَةُ يامَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِى الدُّنيا وَالآخِرَةِ ومِنَ المُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِى المَهْدِ وكَهْلاً ومِنَ الصَّالِحِينَ * قالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قالَ كَذلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مايَشاءُ إِذا قَضى أَمْرًا فإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَيُعَلِّمُهُ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ والتَّوْراةَ والإِنْجِيلَ * ورَسُولاً إِلَى بَنِى إِسْرائِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّى أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ وأُحْيِي المَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وأُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وما تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * ومُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هٰذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ * فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الكُفْرَ قالَ مَنْ أَنْصارِى إِلَى اللهِ قالَ الحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنا آمَنَّا بِما أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنا الرَّسُولَ فاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الماكِرِينَ * إِذْ قالَ اللهُ ياعِيسَى إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً فِى الدُّنيا والآخِرَةِ وما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ * وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ واللهُ لايُحِبُّ الظَّالِمِينَ * ذٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآياتِ وَالذِّكْرِ الحَكِيمِ *

﴿ تفسير هذا الباب ﴾

يقول الله فى هذا الباب اذكر يا محمد اذ كلمت الملائكة مريم مشافهة أو ألهمتها قائلة (ان الله اصطفاك) أى تقبلك من أمك لخدمة المسجد ولم تقبل أنثى قبلها وفرغك للعبادة وأغناك برزق الجنة عن الكسب (وطهرك) عما يستقذر من النساء (واصطفاك) بالهداية وارسال الملائكة اليك واختصاصك بالولد من غير أب وبراءتك مما قذفتك به اليهود بانطاق الطفل وجعلك وابنك آية للعالمين فأنت بهذه الخمس مصطفاة (على نساء العالمين يامريم اقنتى

لربك) أديمي الطاعة كما في قوله تعالى ـ أمّن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما (واسجدي) صلي كقوله تعالى ـ ومن الليل فسبحه وأدبار السجود (واركعي) واخشعي (مع الراكعين) الخاشعين (ذلك) المذكور من القصص (من أنباء الغيب) التي ما كنت تعرفها أنت ولا قومك من قبل هذا (نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم) التي يكتبون بها التوراة وقدم توضيحه ليعلموا (أيهم) أي الأحبار (يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون) متنافسين في كفالتها وأبدل من اذ قالت الأولى (اذ قالت الملائكة يامريم ان الله يبشرك بكلمة منه) أي يبشرك ببشرى من عنده وهو ولد يولد لك من غير بعل ولا فحل وذلك الولد (اسمه) أي مايتميز به عن غيره من لقب أو اسم أو صفة (المسيح) وهو لقب شريف له كالصديق وأصله بالعبرية ـ مشيحا ـ ومعناه المبارك (عيسى) معرب ايشوع وهو اسمه (ابن مريم) صفة له (وجيها في الدنيا والآخرة) حال مقدرة من كلمة التي هي نفس عيسى فصح جعل الحال مذكرا وكل شيء خلقه الله بكلمة كن ـ انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ـ وعيسى كذلك كما يأتي في قوله تعالى ـ ثم قال له كن فيكون ـ واختص عيسى بالكلمة لأنه بلا واسطة وغيره ليس كذلك . والوجاهة في الدنيا النبوة وأنه يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى باذن الله ويظهر العجائب وفي الآخرة علو ه عند الله تعالى (ومن المقربين) يرفع الى السماء مصاحبا الملائكة (ويكلم الناس في المهد) أي حال كونه طفلا اذ قال اني عبد الله آتاني الكتاب الخ (وكهلا) أي في حال الكهولة والكهل في اللغة الذي اجتمعت قوته وكمل شبابه أو الذي فوق الثلاثين أو الذي وخطه المشيب وعند ذلك يستحكم فيه العقل وتنبأ الأنبياء وهذه المعاني اللغوية متقاربة قال البيضاوي يقال انه رفع شابا والمراد وكهلا بعد نزوله (ومن الصالحين) حال ثالث من كلمة (قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر) أي قالت على سبيل التعجب من أين يكون لي ولد ولم يصبني رجل (قال كذلك الله يخلق مايشاء) هكذا يخلق الله منك ولدا من غير أن يمسك بشر فانه يخلق مايشاء ويصنع مايريد (اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون ويعلمه الكتاب) الكتابة والخط باليد (والحكمة) العلم (والتوراة) التي أنزلت على موسى (والانجيل) الذي نزل عليه ويقول سبحانه وتعالى (ورسولا الى بني اسرائيل) الذين كان أولهم يوسف بن يعقوب وآخرهم عيسى (أني قد جئتكم بآية) علامة (من ربكم) على صدق قولي وأبدل منها قوله تعالى (أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا باذن الله) أي أقدر لكم وأصور شيئا مثل صورة الطير فأنفخ فيه فيصير حيا طيارا (وأبرىء الأكمه) الذي ولد أعمى (والأبرص) الذي به وضح (وأحيي الموتى باذن الله وأنبئكم بما تأكلون وماتدخرون في بيوتكم ان في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين و) قد جئتكم (مصدقا لما بين يدي من التوراة) وعطف على معنى مصدقا قوله (ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم) أي للتصديق ولا حلال بعض الذي حرم عليكم في شريعة موسى من الشحوم والثروب ولحوم الابل والعمل يوم السبت (وجئتكم بآية من ربكم) أي جئتكم بآية بعد آية فهذا كرسابقها (فاتقوا الله) في المخالفة بعد ما ظهرت الحجة (وأطيعون) فيما أدعوكم اليه ثم شرع في الدعوة الشاملة لقوتي العلم والعمل فقال (ان الله ربي وربكم) وهذا هو التوحيد الذي هو من أهم استكمال القوة العلمية التي رأيتها في سورة البقرة عند قوله تعالى ـ ان في خلق السموات والأرض ـ وفي أول هذه السورة أيضا (فاعبدوه) وهذا هو القوة العملية ولا سعادة في دين أو دنيا خارجة عنهما وهما المبادي والنهايات لجميع الديانات فالجمع بين العلم والعمل هو الطريق المشهود له بالاستقامة (هذا صراط مستقيم) قال عليه الصلاة والسلام قل آمنت بالله واستقم (فلما أحس عيسى منهم الكفر) عرف كفرهم كأنه مدرك بالحواس (قال من أنصاري) ملتجئا الى الله (قال الحواريون) الذين يحورون الثياب أي يبيضونها ويدعى صاحب هذه المهنة قصارا وكانوا اثني عشر وحواريو الرجل أيضا خاصته وأصفياؤه وهؤلاء خاصة عيسى وأصفياؤه أجابوه قائلين (نحن أنصار) دين (الله آمنا بالله واشهد) يوم القيامة لنا (بأنا مسلمون ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين) بوحدانيتك (ومكروا) أي الذين أحس منهم الكفر من اليهود اذ أضمروا قتله

(ومكر الله) اذ ألقى شبهه على يهوذا الذى أبلغ خبره الى رئيس الكهنة كما ستراه موضحا قريبا من انجيل برنابا فصلب يهوذا ورفع المسيح (والله خير الماكرين) أقواهم مكرا وقوله تعالى (اذ قال الله) ظرف لمكر الله (ياعيسى انى متوفيك) قابضك من الأرض من توفيت مالى أو مميتك عن الشهوات العائقة عن العروج الى عالم الملكوت (ورافعك إلىّ) الى محل كرامتى ومقرّ ملائكتى (ومطهرك من) سوء جوار (الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك) بالمحبة والادعاء وهم النصارى وبالاقرار بنبوّتك وهم المسلمون (فوق الذين كفروا) بك (الى يوم القيامة) يعلونهم بالحجة والسيف فى أغلب الأمر ولم يسمع أن لليهود ملكا أو دولة أو جندا. ولكنهم فى أثناء هذه الأيام عند كتابة هذا التفسير شرعوا يجعلون لهم وطنا قوميا بفلسطين تحت حماية الانجليز وهم فى ذلك مضطربون والله عاقبة الأمور (ثم الىّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) من أمر الدين ثم فصل الحكم فقال (فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين) وهم الذين يضعون الشئ فى غير موضعه أو من يظلم غيره حقا له أى لا يرحمهم ولا يثنى عليهم (ذلك) الذى ذكر من أخبار عيسى وأمه مريم والحواريين ونحوها (نتلوه عليك) حال كونه (من الآيات والذكر الحكيم) المشتمل على الحكم والممنوع من تطرق الخلل اليه — انتهى التفسير اللفظى للقسم الخامس

وفى هذا القسم ست لطائف (١) الملائكة والشياطين (٢) خوارق العادات (٣) هنالك دعا زكريا ربه (٤) قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام الارمزا (٥) ان الله ربى وربكم فاعبدوه (٦) اذ قال الله ياعيسى انى متوفيك

﴿ اللطيفة الأولى — الملائكة والشياطين ﴾

لقد تقدم الكلام على الملائكة مشبعا فى البقرة عند قوله تعالى — واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة — فلنجعل هذا المقال فى الملائكة وفى الشياطين معا لما فى الكتب السماوية من ذكرهما بالوسوسة والالهام والهداية والاضلال والاساءة والافضال فان كثيرا من الناس لاسيما المتنوّرين لا يقع فى خواطرهم وجودهما وتنبو نفوسهم عن التصديق بما لم يأنس به العقل وان أنس به النقل وعضده الوحى وآمن به كل حىّ فنقول

ان الانسان اذا نظر فيما حوله رآه قسمين اثنين لا ثالث لهما طيب وخبيث نافع وضار محبوب ومكروه فمن الثانى الآساد والنمور والذباب والحيات والعقارب والخنافس والنبات السام والحيوانات الدقيقة المسماة بالمكروب فمرضه بالحمى والتيفوس والتيفود والملاريا والحصبة والجدرى ومرض الكلى والطاعون العام وأمراض أخرى تحدث بتلك الحيوانات الصغيرة التى لا عدّ لها ولا احصاء

هكذا الظلام الحالك وحمارّة القيظ فى شعاب الجبال وضربات الشمس والصواعق والزلازل والبراكين وطغيان الأنهار على المزارع ونشيشها وانحسار مائها كالنيل والفرات وما شابه ذلك

ومن الأوّل الابل والبقر والغنم والبهائم والطيور النافعة والأنهار أيام اعتدالها والنبات المغذى النافع والفاكهة والأب لتغتذى به البهائم والحيوانات الدقيقة العجيبة التى فى دم الانسان المسماة بالكرات الحمراء والمسماة أيضا بالكرات البيضاء التى تصارع الحيوانات الفاتكة بالجسم وتنشب فيها مخالبها وتقهرها وتغلبها فترجع ظافرة منصورة وهكذا تلك الجموع الجرارة والجيوش المصطفة منها التى تسارع الى الجروح اذا حدثت فتكون هى أنفسها مادة القيح ومتى تم الشفاء كانت هى مادة اللحم الكاسية للجرح النافعة للمريض الشافية للجراح الكاتبة بخط يفقهه العقلاء — ويخلق مالا تعلمون —

فاذن جميع ما نراه قسمان بالنسبة للانسان وقد وصلنا الى أدق الحيوان الذى لم يعرف الا حديثا ولو أن امرأ منذ مائة سنة نطق بهذا لقيل له (أنت معتوه) وقد أصبح اليوم معلوما للخاص والعام ومن ذا كان يخطر له أن الحمى تكون بآلاف الآلاف من الحيوان وان شجرة القمح أو القطن أو الكتان يسخر تحت جذرها آلاف الآلاف من

تلك الحيوانات تمزق عناصر الأرض المغذية للنبات حتى تصلح لامتصاصها وتمثل بغصنه وزهره وثمره وانها للنبات كالعبيد يحضرون الطعام لساداتهم وكالخدم لمخدوميهم وكالرعايا لملوكهم وكأهل الشرق لممالك الغرب اذا ستذلوهم واستضعفوهم وأذلوهم صاغرين وجعلوهم عبيدا خاضعين فيجبي حكامهم المستضعفون لساداتهم من الغرب ثمرات كل شيء فهم أشبه بهذه الحيوانات الذرية (والمخلوقات المكروبية) من ذا كان يخطر بباله أو تحدثه نفسه ان ان هذه العوالم منبثة في أجسامنا للاهلاك تارة وللاحياء أخرى أم من ذا الذي كان يعقل أنها مغذية للنبات مميتة تعطيه الحياة والنجاة تارة والموت والهلاك أخرى هذه بعض عجائب ما حولنا وما عن أيماننا وشمائلنا من المخلوقات هذه الحيوانات فأين الملائكة والشياطين

بهذا القول أدركنا أن أحوال الناس وأحوال النبات والحيوان من صحة ومرض وقوة وضعف مرجعها حيوانات دقيقة ومخلوقات ضعيفة ولقد وجدنا فينا آراء وأحوالا ترجع الى عقولنا وتنطوي عليها أخلاقنا فنها الخبيث ومنها الطيب كما أن في أجسامنا صحة ومرضا وفي نباتنا قوة وضعفا وكذا في حيواناتنا وكما اننا كنا ننكر أن يكون لمرضنا والمرض حيواننا ونباتنا علة الا الأغذية والأحوال المشاهدة هكذا نحن ننكر الآن أن يكون لآرائنا الخبيثة والطيبة الا أحوال الناس وتعاليمنا واستعدادنا فاما ان شيطانا يضلنا أو ملكا يهدينا فذلك لا طاقة لنا بقبوله ولا قدرة لنا على التصديق به

(١) قالت طائفة انا نرى ان الذباب لا يقع إلا على عين فيها القذى ويتجاوز النظيف الجسم الطاهر البشرة ونرى ان التلميذ المهذب يقبل عليه المعلمون ويهديه المرشدون ويتجاوزون التلميذ البليد أو القذر أو الذي لا يطيع ولا يكون ذا خلق جيد

فلعل في العالم المعنوي ما يشابه ذلك فيكون هناك عالم يغوي الرجل الشرير كالذباب يقع على العين القذرة وفيه من يهدي من له استعداد للهداية وهذا القول لا سبيل للاقناع به بل هو ضرب أمثال والأمثال ليست تغني في البيان

(٢) وقال علماء الهند في كتاب يسمى راجايوقا ألقى محاضرات في مدينة نيو يورك في سنتي ١٨٩٥ - ١٨٩٦ وجمع مقالات باللغة الانجليزية وصدر بمقدمة هذا ملخصها بايضاح

ان جميع الأمم في الشرق والغرب يصدقون علماء كل فن ويؤمنون بما يبدون من الآراء وما يصفون من الأحوال ألا ترى ان جميع أمم العالم تحكم بما يقوله الأطباء فاذا أنذروا بالوباء أو بظهور داء أو بعموم الحمى أو الجدري أو ما أشبه ذلك من كل ما فيه العدوى اتبع الناس آراءهم وحكموا بقولهم وأطاعوا ما به يأمرون

هكذا علماء الحساب والفلك والطبيعة والزراعة والبيطرة فليت شعري من ذا الذي درس الاجرام السماوية وانها أعظم من الأرض ومنها ما هو أعظم من الشمس وانها بعيدة بعدا لا يتناوله الاحصاء ولا تدركه عقول النبلاء

لعمرك لم يدرس الأمراض وأحوالها الا الأطباء ولا عظم الأجرام السماوية الا أولئك العلماء بالفلك الدارسون لتلك القضايا البعيدة المرمى القائمة على صدق الأحكام وانما صدق الناس ذلك من هؤلاء ومن هؤلاء لانهم يرون أن لكل علم طرقا تتبع وسبلا يسار فيها وأصولا يزاولونها ونواميس يدرسونها وخواص يعرفونها فاذا سار سائر من الناس على مناهج تلك العلوم وصل الى حقائقها وأخبر بما أخبر به الأولون مع بعض تحسين لا يضر بالأصول ولا ينقض كل ما هو منقول فكل امرئ يقول لو أني سلكت سبلهم وقرأت أصولهم لأخبرت خبرهم ولعرفت كما عرفوا فمن هذا الوجه أصبح الناس واثقين بعظم الأجرام السماوية وان لم يدرسوها خائفين من الأمراض والوباء وان لم يعقلوها ذلك لأنهم لفهمها مستعدون وعلى فهمها قادرون

ومن الناس طوائف تهذبت بالرياضات واعتكفت عن الماديات وصامت عن الدنيا واعتزلت الناس فوصلوا الى ما لم يره الناس وقالوا قد رأينا عالما روحانيا فنهم الصالحون ومنهم دون ذلك فهم طوائف مختلفون وأصناف متعددون وهؤلاء الطوائف مثلهم كمثل الأطباء وعلماء الفلك فالناس يصدقون وان كانوا لا يدرسون في

العلوم المادية هكذا يجب أن يصدقوا وان لم يدرسوا فى العلوم الروحانية لأنهم اذا ساروا على السنن التى رسمها الروحانيون ودرسوا ماهم دارسون وعلموا ما يعلمون وصلوا الى ما اليه وصلوا وعرفوا ما غفل عنه الأكثرون ولقد نقل عن أناس مهذبين مرتاضين فى الشرق والغرب ومن جميع الديانات والملل والنحل والمذاهب فى الأعصر الغابرة والأيام الحاضرة انهم رأوا ما لم تره العيون وأخبروا عن عالم مكنون واطمأنوا الى مايعلمون وأيقنوا أنهم مبصرون فلماذا ننزلهم فى المرتبة عن علماء الفلك والطب ولماذا نظلمهم ونبخسهم حقهم ان ذلك لظلم مبين فثبت بهذا ان هناك عالما لطيفا لم تره العيون من الملائكة ومن الشياطين هذا هو البرهان الذى قاله علماء الهند واطمأنوا اليه وهم مصدقون

أيها الذكى ان أردت المزيد فى هذا المقام فهناك كتاب الأرواح الذى ألفته قبل هذا الكتاب ولكن لأنقل لك جلا منه تريك بهجة العلم وجماله عسى أن تكون لك مقنعا هداك الله الى سبيل الرشاد

وقد نقلت لك عن العلامة الرازى فيه ما يأتى

الحجة العاشرة — ترى جميع فرق الدنيا من الهند والروم والعرب والعجم وجميع أرباب الملل والنحل من اليهود والنصارى والمجوس والمسلمين وسائر فرق العالم وطوائفهم يتصدقون عن موتاهم ويدعون لهم بالخير ويذهبون الى زياراتهم ولولا انهم بعد موت الجسد بقوا أحياء لكان التصدق عنهم عبثا فالاطباق على هذه الصدقة وعلى هذا الدعاء وعلى هذه الزيارة يدل على أن فطرتهم الأصلية السليمة شاهدة بأن الانسان شئ غير هذا الجسد وان ذلك الشئ لا يموت بل يموت هذا الجسد الى أن قال

الحجة الحادية عشرة — ان كثيرا من الناس يرى أباه أو ابنه بعد موته فى المنام ويقول له اذهب الى الموضع الفلانى فان فيه ذهبا دفنته لك وقد يراه فيوصيه بقضاء دين عنه ثم عند اليقظة اذا فتش كان كما رآه فى النوم من غير تفاوت ولولا ان الانسان يبقى بعد الموت لما كان ذلك . ولما دل هذا الدليل على أن الانسان يبقى بعد الموت ودل الحس على ان الجسد ميت كان الانسان مغايرا لهذا الجسد الميت . وقال رحمه الله تعالى فى تفسير قوله تعالى — وقال الشيطان لما قضى الأمر ان الله وعدكم الآية — فى سورة ابراهيم قال فى صفحة ٢٤٠ ج خامس . وذكر بعض العلماء فيه أيضا احتمالا ثالثا وهو ان النفوس البشرية والأرواح الانسانية اذا فارقت أبدانها قويت فى تلك الصفات التى اكتسبتها فى تلك الأبدان وكملت فيها فاذا حدثت نفس أخرى مشاكلة لتلك النفس المفارقة فى بدن مشاكل لبدن تلك النفس المفارقة حدث بين تلك النفس المفارقة وبين هذا البدن نوع تعلق بسبب المشاكلة الحاصلة بين هذا البدن وبين ما كان بدنا لتلك النفس المفارقة فيصير لتلك النفس المفارقة تعلق شديد بهذا البدن وتصير تلك النفس المفارقة معاونة لهذه النفس المتعلقة بهذا البدن ومعاضدة لها على أفعالها وأحوالها بسبب هذه المشاكلة ثم ان كان هذا المعنى فى أبواب الخير والبركات كان ذلك إلهاما وان كان فى باب الشر كان وسوسة فهذه وجوه محتملة تفريعا على القول باثبات جواهر قدسية مبرأة عن الجسمية والقول بالأرواح الطاهرة والخبيثة كلام مشهور عند قدماء الفلاسفة فليس لهم أن ينكروا اثباتها على صاحب شريعتنا محمد صلى الله عليه وسلم اهـ من الرازى

وفيه أيضا مما نقلته عن الغزالى رحمه الله

والعالم من محرك الفلك التاسع من الصفحة التى تلى جهة فوق الى التى تلى جهة أقدامنا مملوء جنودا وملائكة — وما يعلم جنود ربك إلا هو — الى أن قال ولا ينبغى أن ينكر منكر ذلك وقد شهد شعاع الشمس وروحانيته وبساطته حتى ان قرصها يكون بالغرب وشعاعها بالشرق فما هو الا أن يغيب خلف جبل فينقطع الشعاع الذى بالمشرق بلا زمان فلو كان جسما ما انقطع فى عدة سنين واذا أخذت مرآة وعكست بها الشمس انعكس الى حيث شئت ثم تعطفه لا فى زمان . وجوهر الشعاع بالاضافة الى جوهر النفس كثيف فليس فى العالم موضع الا وهو مغمور بما لا يعلمه الا الله ولذلك أمر الشارع بالستر فى الخلوة وعند الجماع والعالم مشحون بالأرواح اهـ

وفيه أيضا

(ثالثا) قال في اخوان الصفا الجزء الثالث صفحة ٣٦٢ - واعلم ان النفوس المتجسدة الخيرة ملائكة بالقوة فاذا فارقت أجسادها كانت ملائكة بالفعل كذلك النفوس المتجسدة الشريرة هي شياطين بالقوة فاذا فارقت أجسادها كانت شياطين بالفعل فهذه النفوس الشيطانية بالفعل توسوس للنفوس الشيطانية بالقوة لتخرجها الى الفعل كما قال تعالى - شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا - فشياطين الانس هي النفوس المتجسدة الشريرة أنست بالأجساد وشياطين الجن هي النفوس الشريرة المفارقة للاجسام المحتجبة عن الأبصار وقال قبل ذلك (ما ملخصه) ان هذه النفوس الشريرة لما فارقت الجسد وكانت معلقة بالدنيا وسلبت الحواس وآلات اللذات حزنت وتمنت لو رجعت للذات كرة أخرى فحينئذ تصبح النفس كأنها لاحية ولاميتة كما قال تعالى - لايموت فيها ولايحيا - وتقول - ياليتنا نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل - ياليتني كنت ترابا - هل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا - وقال تعالى ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون - لما ركب فيهم من الأخلاق الشائنة وتبقى تلك النفوس متعلقة بأبناء جنسها المتجسدة توسوس لهم وهكذا شأن الغافلين اه ملخصا من اخوان الصفا

وفيه أيضا مانقلته من خطبة اللورد أوليفر لودج أكبر علماء الطبيعة بانكلترا قال

ولنذكر في هذا المقام اننا لسنا أجساما فقط بل كل منا مركب من عقل ووجدان وروح فضلا عن الجسم ويتصل الانسان بهذه الكائنات العليا المدركة ويناجيها بغير حواسه البدنية ويرتاح الى الاتصال بها أكثر مما يرتاح الى اتصاله بهذا العالم المادي الذي قضى عليه أن يعيش فيه الى حين . كل العظام الذين ماتوا كانوا يرتاحون الى مناجاة المدركات العليا أكثر مما يرتاحون الى الأمور الدنيوية ولم يزل كثيرون منا يطلعون على شئ من أمور هذه المدركات العليا من وقت الى آخر واذا عملنا على تقوية مداركنا وقوانا اطلعنا على أكثر من ذلك ومكننا الوحي من معرفة أمور لانقدر أن ندركها بغيره . ان طرق البحث المادية ليست كل طرق البحث ولم يزل الرجال العظام منذ قديم الزمان يرون رؤى ويطلعون على حقائق وأظهر منهم بدائه يحاولون تدوينها لينتفع بها غيرهم وبمثل ذلك يكون البحث على بعض الحقائق وهو طريقة رجال الدين . ولا أقول اني سرت عليه أنا في بحثي . اذ يظهر اني محروم من ذلك . ولكنني قد وصلت الى نتائج لاتختلف عن التي وصلوا اليها ببحثي من طرق علمية مألوفة وجميعنا يعرف ان في الكون قوى للشر وقوى للخير

وفيه أيضا من خطبة اللورد أوليفر لودج المذكور في الحياة بعد الموت . وليس من العقل أن يقال ان النفس تضمحل اذا تلف الجسد بل سنظل موجودين بعد موتنا وانتهاء أعمارنا القصيرة على هذه الأرض . أقول ذلك مستندا الى أدلة علمية - أقوله لأني تحققت أن بعض أصدقائي الذين ماتوا لايزالون موجودين اذ أني قد ناجيتهم ومناجاة الموتى ممكنة ولكن يجب أن يسار على نواميسها وأن تعرف شروطها وهي ليست من الأمور الهينة . وقد حادثت أصدقائي الموتى كما أحادث واحدا من الحضور وقد كانوا في حياتهم من أهل العلم ولذلك برهنوا لي براهين قاطعة نشر بعضها وسينشر البعض الآخر في حينه انهم هم أنفسهم كانوا يحدثونني واني لست واهما . ان ذلك حقيقة أنا مقتنع بها وبصحتها بكل ما في من قوة الاقتناع اني مقتنع بأننا لانضمحل عند الموت وأن الموتى يهتمون بأمور هذا العالم ويساعدوننا ويعرفون أكثر مما نعرف بكثير ويقدرون على مناجاتنا أحيانا

ان هذه النتيجة التي وصلت اليها عظيمة لاتعرفون أنتم ولا أعرف أنا مقدار عظمتها . وتعلمون ان بين رجال العلم كثيرين غيري ممن يعتقدون بذلك مثلي وان منهم كثيرين أيضا لايعتقدون به . ومن رجال العلم كثيرون لم يبحثوا في هذا الموضوع . وليس لكل أحد ان يبحث في كل شئ ولكن من يقضي ثلاثين سنة أو أربعين يبحث في أمر من الأمور يحق له أن يبدي رأيه في النتيجة التي وصل اليها . ولابد لكم من أمثلة تختص بهذا الأمر لكي تبحثوا فيها ومثل هذه الأمثلة كثير في مجلدات الجمعية العلمية وسيزداد كثيرا على أن الأمثلة يجب أن يهتم بالنظر فيها لأجل بناء الاحكام عليها وقد لاتتفق أحكامهم في أول الأمر مع آرائي التي أبديتها ولكنها ستتفق معها أخيرا بعد سنوات ولا بأس من التمهل

غيران الباحثين الذين اهتموا بهذا مدة سنين قد اتفقوا على ان الأدلة عليه تكاد تكون قاطعة . وأنا لا أشك في أن الموتى يناجوننا مع انى قضيت سنين كثيرة أحاول تعليل ماينسب الى مناجاة الأرواح بعلل أخرى ولكنى رأيت فساد تعاليلى الواحد بعد الآخر وليس لى طريقة الآن أعلل بها ماينسب الى مناجاة الأرواح غير القول بأن الأرواح موجودة فعلا وتناجينا غير انى لا أقول ان الميت يكون موجودا كل مرة يقال انه ناجى فيها . وعلى الباحث ان يكون يقظا يستعمل كل مالديه من طرق التمحيص ولا يترك فرصة للبحث تسنح له لأن هذه الفرص نادرة جدا وحقيقة البقاء بعد الموت قد تثبت بالطرق العلمية وهى مساعد تساعدنا على ادراك الاتصال بين جميع حالات الوجود . وذلك مايبعثنى على القول ان الانسان ليس منفردا بل تحيط به مدركات أخرى . واذا عرفتم ان فوق الانسان مدركا يفوقه هان عليكم أن تتصوروا درجات أخرى من المدركات أرقى فأرقى الى أن تصلوا الى المدرك الأعلى نفسه أى الى الله سبحانه وتعالى

وعالم هذه المدركات ليس عالما غريبا عن عالمنا فان الكون واحد ان مداركنا ونحن هنا على الأرض محدودة فلا نرى كثيرا من الأمور التى تجرى ولكن تحيط بنا كائنات وتعمل معنا وتساعدنا قد عرفها قليل من الناس بعض المعرفة من الرؤى التى رأوها وعندى ان كل ماتقول به الأديان من أن الملائكة والقديسين معنا وأن الله نفسه يساعدنا على وجهه من غير تأويل هذه هى خطبته فى تاريخه

هذا ما أردت نقله من آراء المحدثين والقدماء ملخصا لتكون أيها الذكى فى هذا التفسير مطلعا على الآراء المختلفة لتفهم الآيات الواردة فى الملائكة والشياطين وتعرضها على كتاب الأرواح أو على مانقلته فى هذا التفسير ثم الآيات الواردة مثل سورة الجن — بسم الله الرحمن الرحيم قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد — وجاء فى تلك الآيات ان الجن (ويماثلها الأرواح التى خرجت من الدنيا وهى ناقصة محصورة الفكر كما ذكره اخوان الصفاء والفخر الرازى وعلماء الأرواح فى أوروبا والغزالى) قالت

(١) ان الله لا ولد له (٢) وان الجن ما كانوا يظنون ان هناك أكاذيب على الله (٣) وان الانس يستغيثون بالجن وهذا وبال لأن الجن بهذا طغوا مع انهم جاهلون (٤) وان الجن كانوا يظنون كالانس ان الله لا يبعث أحدا (٥) وانهم منعوا من الاخبار بالغيب ولا يدرون ما الذى سيحدث لأهل الأرض (٦) وانهم منهم الصالحون والفاسقون كأهل الأرض (٧) وان قوما منهم آمنوا بالقرآن واهتدوا به (٨) وان الجن اجتمعوا على النبى لما دعا الله فكانوا متراكمين عليه (هذا ملخص) ماجاء فى سورة الجن وهذا موافق أشد الموافقة للعلم الحديث بأوروبا وان الروح بعد الموت هى الروح فى الحياة الدنيا فهذا جاهل يوسوس للناس بجهله وهذا فاضل يلهم المستعدين من علمه — ومايعلم جنود ربك إلا هو وماهى إلا ذكرى للبشر —

ثم انى نقلت لك هذا لتطلع على العلم المنقول ولا تقف عنده بل تنظر ببصيرتك وثاقب ذهنك فى الكتب وفى العلوم — وقل رب زدنى علما —

﴿ تفصيل الكلام على قوله تعالى — كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ﴾

ان الانسان يخشع لما فوق طاقته ويخضع لما لاتناله قوته وجميع مظاهر العظمة والجلال تنحصر فى دائرتين دائرة البطش ودائرة غرائب العلم — والدائرة الأولى تتجلى فى كل مابهر الناس من آثار العظمة . ان الانسان له قوة قدسية سامية كمنت فيه ومتى شعرت بأعاظم الأمور تحركت الى ماسمت اليه غريزتها وحنت الى ما استكن فيها . ومن هذا المقام بنيت له الهياكل وأقيمت له التماثيل فى الأمم الغابرة والأجيال الحاضرة لتثير فى نفسه الاعجاب والاجلال هذه سجيته المكنونة وغريزته المخزونة . ولقد جعل الله من عباده من سمت مواهبهم وأجرى على أيديهم غرائب استثارة للاعجاب وتذكيرا لهم فاذا رأوا فاكهة الصيف شتوية وفاكهة الشتاء صيفية وان الأكمه والأبرص برئا والميت حى على يد انسان . عظم اعجابهم وسمعوا مايقوله من النصائح التى يلقيها من ظهرت العجائب على يديه . على

ذلك درج الأنبياء والرسل والقديسيون

والدائرة الثانية وهي العلمية تماثل الأولى ففي أخبرني بما لاعهد لهم به من الغيب وأنسوا بالخبر واعتادوا صدق الأخبار الغيبية على يديه تبعوه وصدقوه فيما يأتي من نصائحه وما يعلم من حكمته فالمرجع لروعة القدرة والعلم

ولما علم الله أن هذه الأمة ستكون أيام انقلاب العالم أنزل في القرآن ان سحرة فرعون لما آمنوا ثبتوا على ايمانهم لما أيقنوا بالعلم أن موسى فوقهم وسحرهم لا يتناول مقامه وليس في علم السحر عند كبار السحرة أن العصا تبتلع الحبال والعصى فخروا ساجدين . أما بنو اسرائيل فانهم بهرهم عجل السامري المصنوع من الذهب وكان له خوار ولما رأوا أقواما يعكفون على أصنامهم . قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة فكان ذلك في القرآن تنويرا للعقلاء . ان خرق العادات لا يفيد الناس ثباتا في العلم ولا رقيا في الحياة فالخوارق لا تؤثر الا الى أمد قريب ومن آمن بالعصا لما انقلبت حية حق له أن يرتد اذا رأى عجلا من ذهب والأمم في أيام جاهليتها كالشاب أيام صباه يحب فتاة فاذا وجد أجمل منها هجر الحبيب الأول أما من اشتركت معه زوجته في الحياة وله منها بنات وبنون فثبات المودة غالبا مصون هكذا العلم والحكمة يقضيان بثبات العقول والآراء لذلك جاء القرآن ألا ترى في قوله تعالى ردا على مشركي العرب ـ أولم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ـ وقوله تعالى ـ وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات الا تخويفا ـ يقول الله تعالى ان الأمم في حال جهالتها نخوفهم بخوارق العادات ولا ثبات الا بالعلم والحكمة

لقد منعنا أن نرسل بخوارق العادات اننا أردنا رقي الانسان ليفهم الحكمة بعقله ويدركها بفهمه ولا يقنع بالتخويف كالأطفال ولا بالغرائب المنافية للنواميس المعروفة فان الأجيال السابقة والأمم الدارسة لم يكونوا ليصلوا الى سمو العقل غالبا فسلطنا عليهم عصا التأديب ليتفعوا زمنا قليلا أما الآن فاننا نزل القرآن يحث على النظر والعلم وهنا يرى المفكر في عجائب جسمه وغرائب الصنع وفي بدائع الآفاق من النواميس البديعة والآيات الرفيعة ما ينسيه خوارق العادات ويتجلى له في جميع الوجود آيات

﴿ خوارق العادات المذكورة في القرآن ﴾

يعجب العقلاء من الأمة الاسلامية ويقولون ما الناري كتابنا المنزل مشحونا بالعجائب والخوارق والمعجزات التي كانت في الأمم السالفة والأجيال الغابرة وما لنا ولذكرها ولو أنها كانت أمامنا لم تزدنا يقينا وكيف تزيدنا يقينا والقرآن نفسه قد جاء فيه ان الله تعالى ما يرسل بالآيات إلا تخويفا فهو جعل الأمم السالفة أطفالا في أخلاقهم صبيانا في أعمالهم فأراهم الأعاجيب ورزق أنبياءهم صيفا ما نبت شتاء وشتاء ما نبت صيفا ونقل عرش بلقيس لسليمان في لحظة وقلب العصا حية لموسى وهكذا ما جاء من ناقة ثمود وغير ذلك واذا كان الله يأمرنا في القرآن أن نتذكر ونتفكر ونسير بالعقل ونعقل الحكمة فكيف نجمع بين المعقول وخوارق العادات ان المسلمين ليعجبون من كل ذلك وهم متحيرون

﴿ الحال الروحية والحال الجسمية ﴾

نقول اعلم أن الانسان له حالان حال جسمية وحال روحية . ففي الحال الأولى يزرع ويحصد ويتجر ويتعلم ويأكل ويلبس ويلد بأعمال ارادية وتكاليف ومشاق جسمية ارادية . فأما في الحال الروحية فانه يعمل تلك الأعمال بلا كلفة ولا مشقة بل بالارادة والفكر والعزيمة كما نرى أنفسنا في حال النوم لابسين آكلين شاربين والدين مالكين جالسين على الأسرة صورته أرواحنا من المادة الأثيرية المالئة لهذا الكون بلا كلفة ولا مشقة ونحن نراه في النوم ولا نعجب لأنه مما تألفه النفوس في تلك الحال ولا تتعجب منه هكذا حال الروح بعد الموت فاننا نفعل هذا كله بالغريزة والطبيعة والفطرة والقوة الروحية بلا تكليف ولا أمر ولا نهي ولا انذار ولا وعيد

فالروح تصوغ المادة الثانية والسائمة والأغذية والفواكه وليس لها أدوات ولا آلات الا ارادتها واذن الله تعالى وكذلك تصوغ الألبسة المختلفة . تصوغها بغريزتها وهي تجهل كيف تصوغها اذا كانت أرواحا منحطة من فئة قليلة الترقي

فى العوالم العلوية فالمادة الاثيرية (أى اللطيفة) التى هى أصل العوالم كلها تتصرف فيها الروح على مقدار ارتقائها هذه قدرة الارواح التى أودعها الله عز وجل فيها كما أودعها فى أرواحنا عند النوم ـ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى أجل مسمى ـ والروح فى الحال الروحية تفعل بالغريزة ما كانت تفعله تكلفا ولا تعقل ما تفعله الا اذا كانت روحانية فاضلة شريفة كاملة

أما فى الحال الدنيوية فان هذه الاعمال مخالفة للناموس لا تراق فى حالنا فلو أن امرأ أنزل الله عليه الخبز واللحم والفاكهة وهو جالس فى بيته ثم أفرغ عليه العلوم والمعارف من غير كد ولا نصب لكان ذلك مخالفا للناموس والقانون الذى عليه أهل الارض وليس يكون ذلك سببا فى رقيهم بل الرقى فى هذه الحياة بالعمل والسعى وهذا العمل والسعى يكونان سببا فى الرقى بعد الموت وعلى هذا تكون المعجزات وخوارق العادات التى جاءت على أيدى الانبياء كالرزق الذى رزقت به مريم فى هذا المقام ليس مما يناسب عالمنا وانما يناسب عالم الارواح ولذلك تجد الناس يبتهجون به ويفرحون لاسيما اذا كانوا من العامة والجهلاء فانهم أقرب الى التصديق ونفوسهم تحن الى ما استكن فى فطرتها وقد عجزت عنه لامد معلوم فيكون ذلك الاعجاب سببا فى الايمان بالانبياء والقديسين وينتفعون بذلك الايمان ولكن هذا الايمان فى الدين الاسلامى ليس غاية العلم ولا منتهى الادراك بل دين الاسلام يدعو الى النظر العقلى والتفكر الحكمى ـ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ـ يرشدنا القرآن ان تلك العجائب جاءت للامم وهم أطفال والأجيال وهم جهال فكانت خوارق العادات هى التى لها القول الفصل فى الايمان ألم تر الى قدماء المصريين كيف كانوا يخيفون الشعب بالامور الهائلة والهيا كل العظيمة وكيف كانوا يمثلون لهم العظمة بأبى الهول المركب من رأس امرأة على جسد ثور بأظافير أسد وجناحى نسر رمزا الى هذا الانسان الذى نبغ وسط الحيوان وظهر على هذه المخلوقات . وهكذا علماء النصرانية كانوا يرمزون للشعب ولا يصرحون قال سينيسيوس الاسقف اليونانى الذى تولى فى آخر حياته أسقفية عكاومات سنة (٤١٠)

ان الروح السرى الذى تراه سار يا فى سائر الاديان القديمة لناتج من كون الشعب يحتقر دائما ما سهل عليه ادراكه فلهذا يؤثر أن يكون مغشوشا مغالطا هكذا فعل كهنة مصر الاقدمون (وأما أنا فسأكون فيلسوفا مع نفسى وكاهنا مع الشعب) اهـ

وقال غريغوريوس فى رسالته الى (ايرونيموس) ان الاعجام والابهام ضرورى لالقاء الهيبة فى الشعب فكلما قل ادراكه ازداد عجبه . ان كثيرا من رجال الدين وآباء الكنيسة نطقوا بما يلائم الظروف والاحوال لا بما كانوا يعلمون . فأنت ترى أيها الذكى ان الامم السالفة كانت تألف العجائب والغرائب ولم يكن يؤم العقل ويعرف الحقائق الا أكابر العلماء . لذلك أرسل الله لهم الانبياء وأعطاهم العجائب موافقة لحالهم وهم جاهلون

ولكن لما جاء القرآن أراد الله أن ينشئ خلقا جديدا مفكرا عالما فقال ـ وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الاولون ـ وقال تعالى ـ أدع الى سبيل ربك بالحكمة ـ لأرقى الطبقات ـ والموعظة الحسنة ـ للجهال ـ وجادلهم بالتى هى أحسن ـ للطبقة المتوسطة وحض على التفكر والتدبر والتعقل والنظر فقال ـ قل انظروا ماذا فى السموات والارض ـ وقال تعالى ـ أولم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والارض وما بينهما إلا بالحق ـ وقال تعالى ـ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ـ وكيف يبصر الانسان ما فى نفسه والآفاق الا اذا كان ذكيا وانك لو أتيت الى الجهلاء وقلت لهم انظروا فى عجائب أجسامكم وفى عجائب زرعكم كما نظرت فيما قرأت فى هذا التفسير لضحكوا استغرابا ولعجبوا من قلة عقل القائل ولكنك لو قلت لهم ان مريم رزقت بغير حساب لفهموها وسبحوا الله بكرة وأصيلا فالقرآن جاء للاكثار من الناظرين والمفكرين وللاقلال من المغرمين بخوارق العادات لان الله لا يرسلها لاهل الارض الا قليلا ولا يأمر بها الا لمنفعة علمية ومصلحة دينية ويفضل عليها العلم والحكمة والنظر الصحيح ولذلك ترى أهل الارض من بعد نزول القرآن قد ارتقت أفكارهم . وأهل أوروبا من اختلاطهم

بالمسلمين فى الحروب الصليبية عقلوا وفكروا بعقولهم ورقوا جميع أعمال الحياة وان كان المسلمون أصبحوا عبيد الهوى نائمين على بساط الراحة ولذلك جاءهم الاوروبيون فأمطروا عليهم وابلا من العذاب ومن نام من الارهاق فأخذوا يستيقظون وقاموا ينفضون الغبار عن رؤسهم وينفون الذل عن بلادهم وهذا التفسير من مبشرات تلك النهضة ومقومات ذلك العز القادم والجد الدائم فيرى المسلم ان فاكهة مريم وعرش بلقيس وعصى موسى انما جاءت لامم كانت نائمة عما بين يديها وما خلفها أما المسلم فيقول — ان فى السموات والارض لآيات للمؤمنين وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون — ويعلم ان الجهال عن ذلك معرضون والعقلاء به مغرمون

﴿ خوارق العادات والعلوم الطبيعية والرياضية ﴾

لقد استبان ان خوارق العادات تكون للناس فى أحلامهم وتكون لهم بعد موتهم وهناك لا تكون خوارق وانما هى حقائق ثابتة لا يستغربونها ولا ينكرونها بل هم بها موقنون وهذه العجائب لا تزال تتوالى على الناس فى كل زمان ومكان فتكون على يد الانبياء معجزة مقرونة بالتحدى فيقولون انا مرسلون من عند الله والله أيدنا بهذه المعجزات ويقول علماؤنا رحمهم الله ان هذه الخوارق تكون على يدى أتباع الانبياء الذين يسمون أولياء ويقولون ما جاز أن يكون معجزة لنبى يكون كرامة لولى (أنظر كتاب النقاية للشيخ السيوطى) وأثبت ذلك بكتاب عمر الذى جرى النيل بارساله ووضعه فيه وبقوله (وهو على المنبر بالمدينة وجيشه بنهاوند وسارية أمير ذلك الجيش محذرا له من العدو الكامن له وراء الجبل يا سارية الجبل الجبل) هذا ما فى النقاية المذكورة وفى غيره من كتب علمائنا ان هذه قد تكون على يد الساحر ويد الجاهل فكما تكون معجزة على يد نبى تكون كرامة لولى ثم (معونة) لجاهل ثم (استدراجا لفاسق) فيقول علماؤنا ان تلك الخوارق تكون فى سائر الطبقات وتسمى بأسماء مختلفة على حسب الواقعة هى على أيديهم . ولست الآن أقول لك هذا لا لتقف على ما يقوله أهل الشرق والغرب فى هذا المقام أما رأيى أنا فانك ستسمعه قريبا هنا

أقول ولقد ظهر فى أقوال علماء الارواح ما فيه العجب العجاب ولعمرى لا يوضح المقام الا ما جاء فى علم الارواح فى العصر الحاضر أولا ثم فى التعقل والتفكير ثانيا وها أنا ذا أشرحه لك الآن شرحا وافيا فأقول لقد ظهر علم الارواح وأيد هذه الغرائب ولو اطلعت على الكتاب الذى ألفته المسمى (الارواح) وعلى غيره من كتب الامم المعاصرة لنا وعلى ما كتبه صديقنا محمد فريد وجدى الذى هو أول من أظهر هذا العلم فى بلادنا المصرية وعلى ما جاء فى كتاب المذهب الروحانى لو اطلعت على ذلك كله لرأيت عجبا عجابا رأيت ان أعظم الفلاسفة والحكماء فى انكلترا وفرانسا وأمريكا الذين لا يظن فيهم الغفلة قد أحضرت الأرواح على يد الوسطاء فواكه وأزهارا وملابس أمامهم وغير ذلك من عجائب وغرائب واذا سئلت الارواح عن ذلك قالت انى أحضرته من أرضكم لا من أرض أخرى لأن العوالم الأخرى لا تناسب عالمكم . ذلك ذاع وشاع وملأ الأصقاع . والناس فى الشرق نيام والناس أعداء ما جهلوا هذا ما أجلته الآن من علم العصر الحاضر وهو أقرب لما قاله علماؤنا فالمعجزة للأنبياء والكرامة للأولياء والسحر للسحرة وأما ما عند علماء أوروبا فسمه ما تشاء أن تسميه ولقد سئلت الأرواح (عن كيفية احضار تلك الأشياء والأغذية والملابس والازهار التى حفظها الفلاسفة والعلماء فى انكلترا وغيرها ودامت كم تدوم عندنا تماما) فأجابت ان هناك شيئا (يسمى السائل المغناطيسى الانسانى) يكون كثيرا فى الوسيط فتخلطه الارواح بالسائل المغناطيسى الذى هو فى طباعها وهذا المزيج هو الذى به تحضر تلك الفواكه والملابس وتصنع العجائب والارواح بدون السائل الذى فى الانسان لا تقدر على فعل شئ من ذلك هذا فى أوروبا

ولقد رأى بعض الضباط من الانجليز فى الهند قوما من أهلها عبادا يصنعون العجائب ويضعون الرمل ويطلبون من الحاضرين أن يفكروا فى أى شعر وأى نثر على أى لغة فما أسرع ما تكتب تلك العصى على الرمل بأجل خط وأبدعه بتلك اللغة التى تصورها الجالسون وغيرهم لا يعلم

فلما سئل الهندى عن هذا أجاب ان لنا معابد وتعاليم تحرم علينا الترف والنعيم ونحن نتمسك بالزهد والتقشف والامساك عن النساء وبهذا نستعد للاتصال بأرواح آبائنا وتلك الأرواح تمزج (السائل المغناطيسى) الذى عندنا بالسائل المغناطيسى الذى فينا بسبب الزهد وغيره وبهذين السائلين يفعلون تلك الأعاجيب ألا تعجب كيف اتفق ماقاله علماء أوروبا حين سألوا الأرواح مع ما أجاب به عباد الهند. ما أجل العلم وما أعجب الحكمة (ومنفعة هذا فى مقامنا أن نقول) ان العجائب والغرائب وخوارق العادات كما قدمنا جعلها الله فى هذا النوع الانسانى لتكون بمثابة تذكار لهم بما يكونون عليه بعد الموت من القوة الغريزية التى تكون فيهم ولذلك ترى الناس فى الشرق والغرب يفرحون وتنشرح أفئدتهم بما يسمعون من عجائب مريم وعيسى وموسى وترى الأطفال والنساء والجهال جميعا فرحين بذلك نشطين لسماعه وليس ذلك فى الأرض موضوعا عبثا كلا. وانما ذلك لأنه كامن فى نفوسهم سائغ فى فطرهم ان القوة فى عالم الأرواح فلما أن برزت على يد الأنبياء دهشوا له وحنوا وطربوا

(فوائد المعجزات فى التربية الحديثة)

ولقد جاء فى كتاب أميل القرن التاسع عشر الشارح للتربية التى يجب أن تكون عليها الأمم والأجيال ان أمة الانجليز يدرسون للصغار فى المدارس ولصغار العقول من الجهلاء حكايات الجن والعفاريت والخرافات صباحا ومساء ويصنعون لهم الروايات كمسألة الفتاة التى طلبت من والدها ثوبا كالشمس وثوبا كالقمر ولبست جلد الحمار واختفت عن الأبصار وتوارت عن الناس وغابت وأورد كثيرا من الأمثلة على ذلك وعاب أمته الفرنسية قائلا انها ظنت ان تلك الخرافات باطلة والحقيقة انها وسعة للقوة المخيلة فتتسع القرائح ويكبر الخيال وليس يجوز للعلم أن يقول لهم هذا غير حق بل يتركهم فرحين مستبشرين ولا يدخل عليهم الحزن والكدر باظهار الحقائق واضحة جلية فان عاشوا جاهلين فقد انتفعوا وان تعلموا العلوم الرياضية والطبيعية أزالت ما علق بالأذهان من الخرافات ومحصت الحقائق بعد ان تكون الاذهان قد استعدت لتلقيها ذلك ما جاء فى كتاب (أميل القرن التاسع عشر) الذى ألفه عالم فرنسى ينصح أمته أن ترقى التعليم فتبتدئ بالخرافات وتنتهى بالحقائق بالرياضيات والطبيعيات فيكمل العقل ويتم

(العلامة جوستاف ليبون)

ولقد خفيت هذه الحقائق الكاملة على العلامة جوستاف لوبون (الفرنسى) الذى قد انتشرت تعاليمه فى الجمهور المصرى. ان الرجل ينظر بعين واحدة ولقد وقف فى الطريق فهو يكره المدنية الحديثة ويكره المادة ويكذب علم الأرواح ويكذب الديانات لانه نظر بعين واحدة ومن قرأ كتبه أصبح فى حيرة شديدة ألم تر الى قوله فى كتابه روح الاجتماع ناقلا عن العالم (فوكرو) أحد رجال الثورة فى تقريره اذ ذاك ونقله عنه (تاين) قال (ان ما هو مشاهد فى كل مكان من اقامة صلاة يوم الأحد والتردد على الكنائس يدل على ان مجموع الفرنسيين يطلب الرجوع الى عاداته الأولى ولم يعد فى الامكان مقاومة هذا الميل فى الأمة لان السواد الأعظم فى حاجة الى الدين والى العبادة والى القسيسين ومن خطأ بعض فلاسفة العصر الحاضر (وهو خطأ وقعت فيه أنا أيضا) القول بامكان ايجاد تعليم عام لازالة الاوهام الدينية لان فى الدين سلوانا للمساكين) وأطال فى ذلك

ولقد علمت أيها الذكى ان التعليم والتربية سيلزمهما مايوسع الخيال بحسب التعاليم الحالى وأعظم مناهجه فكان (جوستاف لوبون) ومن نحا نحوه قد نظروا بعين واحدة فظنوا ان الغرائب التى فى الديانات جاءت عبثا ولقد علمت أيها الذكى انها فى طبيعة الارواح وثانيا توسع الخيال والعلوم الطبيعية تهذبه فيما بعد. و لذلك ترى علماء (البيداجوجيا) أى فن التعليم على الوجه الأكمل قد أوجبوا ان تكون الحكايات الخرافية لاتساع الخيال فما بالك اذا كان مايوسع الخيال جاء حقا على ألسنة الانبياء الصادقين

(نتيجة هذا المقال)

ان الناس لابد لهم من العجائب والغرائب كما رأيت فى أقوال علماء أوروبا وكما ترى فى بلادنا الشرقية من الحكايات

التي اخترعها الناس في الازمان الغابرة من أعمال عنترة العبسي وحكايات الغيلان والشاطر محمد وأمثالها وهذه ان أضرت من وجه نفعت من آخر ثم يكون علم الطبيعيات والرياضيات منظما للعقل وأما الجاهلون فهم على كل حال جاهلون

والقرآن الكريم جاءت فيه تلك العجائب لا على سبيل الخرافة بل على سبيل المعجزة وهي تؤدي الغرض من توسيع الخيال ثم ترى فيه النظر في الارض والسماء والعجائب الطبيعية كما ترى في مسألة حشرة العنكبوت وانها لها ألف ثقب في جسمها من كل ثقب يخرج خيط فهذه حقيقة أشبه بالخرافات والاعاجيب فاذا اتسع الخيال في الصغر للعجائب وورد في الكبر منهل العلوم الحقيقية تقبلها بشوق ووجد فيها من العجائب ما يفوق ما كان يقرؤه بلا تحقيق ولا تدقيق فعلى هذا يكون القرآن معلما لسائر الأمم والأجيال ـ جمع بين ما يوسع الخيال بالمعجزات وما يصقله من العلوم الطبيعية وهذه هي الحقيقة الناصعة التي ألقيت في فؤادي وشرح لها صدري . ولم أكن أنا المملي لها بل الخاطر الهاجم على الفؤاد . ولعمري ما كتبت سطرا من هذا الا والالهام مبدؤه ـ والى الله عاقبة الامور ـ اه

﴿ اللطيفة الثانية ـ تفصيل الكلام في قوله تعالى هنالك دعا زكريا ربه الآية ﴾

اعلم أن في الانسان قوة عظيمة يسمونها المغناطيسية الحيوانية يقول علماء العصر الحاضر كما رأيته في كتاب (راجايوقا) الهندي المترجم الى اللغة الانجليزية وفي كتاب انجليزي أيضا يسمى (قواك وكيف تستعملها) ان الانسان متى وجه فكره لأمر توجيها تاما موقنا بنجاحه صادقا في عزيمته صارفا كل همه اليه نال ذلك الأمر لا محالة ولهم في ذلك طرق يستعملونها وسبل يسلكونها وفي الكتاب الثاني ما يفيد ان ساعة يجمع الانسان فيها فكره نحو القصد الذي قصده خير من أيام يقضيها في العمل لحاجته بلا توجيه قلب وهذا سر قوله عليه الصلاة والسلام ـ انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى ـ وسر قوله تعالى ـ ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ـ وسر قوله صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى ـ أنا عند ظن عبدي بي ـ وسر قوله صلى الله عليه وسلم ـ أدعوا الله وأنتم موقنون بالاجابة ـ

ولقد رأيت في الفتوحات المكية لمحيي الدين بن عربي ما يفيد هذا المعنى قائلا ما ملخصه (لم أر انسانا كملت انسانيته وعظمت همته وفاقت عزيمته كزكريا فانه لما رأى مريم ووصفها وهي سيدة النساء عفيفة تمنى أن يكون له ولد فدعا الله متوجها توجها تاما حاضرا فكره فيما تخيله في مريم فرزق بيحيى فجاء على صفات مريم اذ قال الله فيه ـ وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين ـ فانطبقت صفاته على الصفات التي تمناها لما شاهد في مريم) فالأستاذ محيي الدين بن عربي يطابق كلامه ما ورد عن الأمم الاوروبية والهندية في العصر الحاضر وكل يدور على محور هذه الآيات فتعجب من العلم والحكمة وزد عجبا من القرآن الذي امتلأ حكمة وعلما في غضون القصص وفي أثناء الحكايات عن الامم السالفة والأجيال الفائتة ولقد قال مؤلف كتاب قواك وكيف تستعملها

ان أفكار الانسان لها أثر كلي على ظاهره فمن أحس انه من العلماء أو من التجار أو من العامة أو من السوقة لبس ملابسهم وتزيا بزيهم وسار مسيرهم ودرج في طريقهم

فالفكر أبرز مكنونه على ظواهر الجسم وألبسه لباسه ويقولون أيضا ان كل فكرة نشعر بها كعز أو خذلان واستضعاف يكون لها أثر ما في الجو المحيط بنا وفي الاثير المالئ للكون فتسير مسير الكهرباء وتطير كما يطير البرق وتخمد القوى المساعدة وتعطل النفوس المعاضدة هكذا يقول ذلك المؤلف ـ وبضدها تتميز الاشياء . فلو ان امرأ امتلأ قلبه بالآمال موقنا بالنجاح أثر قلبه فيمن حوله وان كان لا ينطق بذلك وشرط المؤلف أن يجتنب الطالب الشرور والجدال وما لا فائدة فيه حتى تعتدل الروح فتؤثر في الجو الذي يحيط بها. أقول وهذا الكلام وان كان لا دليل عليه جدير بالتفكير فيه فان النتائج التي يراها من سار على الدرب تصدق تلك المقدمات فلا تصديق الا بالتجربة

ويقول هؤلاء أشعر قلبك السرور دائما واطرد عنه كل فكر يوقع فيه غما وحزنا كتذكار النوائب الفائتة والمصائب الماضية فكل فكرة محزنة يعاقب عليها المرء بما يماثلها فكأن المصائب والرزايا تحل في القلوب التي تجد

فيهامرعى خصيبا

فأما القلب الذى ترعرعت فيه ناضرات الحدائق المزهرة وباسقات أشجار السرور المبهجة فذلك يجلب اليه ما كان من جنسه من المسرات ومايليق له من السعادات وان ورد عليه مايحزنه ألبسه لباس الجمال وتوجه بتاج البهجة وفعل به مافعلت النحل بماهجم عليهامن الحشرات فانها كما تقدم قريبا تقتله وتحنطه بصمغ كما كان يحنط قدماء المصريين موتاهم فتكفى شرذلك الهاجم حيا وميتا فهكذا ذلك القلب الجميل يكسو ماحل به من المصائب جلابيب من العلم مصنوعة من النور منسوجة من الجمال مخيطة بالحكمة فلايذكر الا الجمال والبهجة ويسير فى طريقه ناجحا فى عمله وذلك جزاء الصابرين المفكرين العاملين انتهى

﴿ اللطيفة الثالثة ــ قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام الا رمزا ﴾

اعلم أن حفظ العواطف فى القلب وكتمان مايريد الانسان النطق به شديد على النفس ولم ينل العلم والحكمة وقضاء المصالح الا أولئك الذين يحفظون قوتهم المغناطيسية فلايبذرون فيهاء وان أردت المزيد فارجع الى هذا المقال فى سورة البقرة عند تفسير قوله تعالى ــ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين ــ وذلك مما نقلنا عن علماء الجمعية النفسية بأمريكا فذكر الله هنا أن زكريا أخبره الله أنه لا يكلم الناس ثلاثة أيام الا رمزا ليتوفر على شكر الله عزوجل وانحباس النفس عن شهوات الكلام المضيعة للقوة الروحية العظيمة وذلك من عجائب العلم

ومما قاله علماء الجمعية النفسية المذكورة لاتدع مجالا لتيار الرغبة والشهوة أن يفلت من يديك ولا تحقق تلك الرغبة لتكون قوة تلك تنضم الى أخواتها فتكون قوى الجذب النفسى لغيرك ومامثل الآراء والأفكار المحبوسة فينا الا كمثل الحمام اذا حفظناه جذب غيره الينا وان أفلتناه من أيدينا انطلق ولم تكن لنا فائدة به فيحظى به غيرنا فاذا رغبت أن تدهش غيرك بأخبار عجيبة ورأيت نفسك طامحة لذلك فاسكت فهذه قوة تحفظها لنفسك فاذا حققت ذلك أضفته الى مافيك من قوة المغناطيسية فاكتم عن أصدقائك مالاقيمة له من الاخبار واعلم ان هذه القوى فى نفسك كالماء الجارى فى النهر كلما سددناه وحفظناه انتفعنا به وكلما تركناه زال عنانفعه والرجل الساكت الهادى يزيد اعجاب الناس به . فهذا القول من علماء النفس وأمثاله من أقوال علماء الاسلام فى فضل الصمت يدهشنا ان الآية ترمز اليه وان السكوت من القوى الشريفة النفسية الحافظة لقوانا وهذا من عجائب القرآن

﴿ اللطيفة الرابعة ــ ان الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾

اعلم أن علماءنا المفسرين قال كثيرمنهم ان فى قول عيسى فيما تقدم ــ وجئتكم بآية من ربكم ــ أن تلك الآية هى قوله تعالى ــ ان الله ربى وربكم فاعبدوه ــ وبينوا كونها آية بما ذكرناه من أن كل دين راجع الى العلم والعمل فالعلم رمزله بالوحدانية والعمل رمزله بالعبادة

كأن المسيح عليه السلام يقول أنا لم آت لكم ببدع فكيف تكذبون . ان ماجئت به علم وعمل وهكذا شأن الأنبياء أما السحرة ومستخدمو الأرواح والدجالون فهؤلاء لايهمهم العلم ولا العمل ولا هداية الناس وانما نحن معاشر الأنبياء جئنا لهداية البشر اه (أقول)

اعلم أيها الذكى انى لا أريد من هذا التفسير الا ارتقاء عقلك وسمو فكرك ونبوغ قواك وشرفك فلتعلم أن المسيح وأمه لم يذكرا فى القرآن لمجرد الايمان ولا للتاريخ وانما هما عظة ومثل لنا ان عيسى ومريم قدذكرهما الله عفيفين زاهدين مبرأين من الشيطان ومن المادة التى غمرتنا وكان عروجهما الى الملأ الأعلى والى الله ليكون ذلك القول داعيا الى أن تفكر فى نفسك أن العالم الانسانى من أصل روحى وجهاده فى الدنيا ليخرج يوما مامن سجنها الى فسيح الجنان ثم عالم الملائكة والأرواح المجردة لذلك تراه سبحانه يذكر عيسى ومريم رمزا لذلك وعيسى عليه السلام رفعه الله من الأرض فصارمع الملائكة فلتجد فى العلم والحكمة حتى تصيرفوق هذه الأرض وتعشق الخروج من سجن المادة فانك يوماما ستكون ــ فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ــ مع عالم الملائكة فأنت اذا كنت فى الدنيا

بشرا بالفعل فان فيك القوة الملكية وإياك أن تظن أن قولي مبالغة أو مجازفة أو خروج عن أقوال علمائنا كلا وان أردت البرهان فارجع الى ماذكره الفخر الرازى وأيده بأقوال الامام الغزالى فى تفسير سورة النازعات قال ان نفس الميت تنزع اذا كان فى سياق الموت ومعنى غرقا نزعا شديدا أبلغ ما يكون وأشد من اغراق النازع فى القوس ومعنى تنشط تخرج ثم انها تسبح وتسبق سبقا اذا كانت مشتاقة للعالم الأعلى زاهدة فى العالم الأدنى فأما الجاهلة والغافلة فهى محبوسة فاذا وصلت الى المنتهى ظهرت لها آثار فى أحوال هذا العالم فدبرته فهى المدبرات أمرا كما تدبر الملائكة وضرب لذلك أمثالا كثيرة ضربنا عن ذكرها صفحا مشاكلة لما ظهر فى علم الارواح الحديث القائل ان الأرواح العالية فى هذه الأرض ترتقى فى عوالم الجمال طبقا عن طبق وفى كل عالم تصل اليه يكون عدتها فيه ما كسبت من العلم اذ العمل يصبح غريزة فيها وتكسب غيره وهكذا حتى تصل الى عالم الأرواح الخالى من المادة فتكون من المدبرات ان العلم لعجيب ووالله ما قصر قدماؤنا الأول ولقد ورثونا علما أصبحنا نأخذه عن أوروبا لجهلنا بآثار آبائنا الأولين

واعلم أيدك الله ان قول عيسى ان آية صدق ان الديانات كلها لغرض واحد وهو العلم والعمل أشبه بما جاء فى قوله تعالى ـ ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم واياكم أن اتقوا الله ـ فلأوردلك جلا وجيزة من كل دين عرفناه لتكون واقفا على حقائقها لانك من أمة قال الله لها ـ لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ـ فلتنظر فى ديانات الأمم وعلومها لتعلم أن الديانات متحدة فى معناها وان اختلفت فى مبناها واذن تعرف سر القرآن فلم يكن الله بغافل عن السابقين ولا بمضيع للحاضرين

(١) كتاب الفيدا

أصل ديانة الهنود التى هى أقدم من دين البراهمه يتركب من أربعة أسفار وهى الريجفيدا والساما فيدا والياجورفيدا والآثارفافيدا وهى أسفار الهنود المقدسة قال فيها الله القيوم بذاته والموجود فى كل الكائنات الذى لا يمكن أن تصيبه الحواس المادية بل الارواح وهو المنزه عن هذه المادة وهو أزلى سرمدى وهو روح الكائنات الذى لا يمكن لعقل أن يدركه على ما هو عليه هذا من القسم العلمى

﴿ القسم العملى ﴾

ان الصبر ومقابلة الاساءة بالاحسان والقناعة والاستقامة والطهارة وكبح جماح الحواس ومعرفة الكتب المقدسة ومعرفة الله والصدق واجتناب الغضب هى الفضائل العشرة التى تجب على الانسان

(٢) دين خرستا

خرستا ظهر سنة ٤٨٠٠ قبل الميلاد وتاريخ حياته كالمسيح وأمه عذراء ورفع الى السماء وهكذا حذو القذة بالقذه ودينه أشبه بمن قبله يعلم وحدة الله ويقول من رام بلوغ الكمال فليطلب علم الوحدة التى هى أصل الحكم ليصل الى الله وقال ان فى باطننا نورا إلهيا والنفس التى وحدت الله تنتشل من أمر الطبيعة وذم الغضب والحسد وقال ان الفضائل مقوية للنفس

(٣) دين بوذا

قبل ظهور الدين المسيحى بنحو ٦٠٠ سنة ظهر بوذا ساكيومانى وهو ابن ملك ولما بلغ من العمر عشرين سنة تأمل فى شعبه ورأى البراهمة اتحدوا مع الملوك وأذلوا الشعب الهندى بتعاليمهم ذهب الى الغابات فصرف فيها سنين وعاد وله من العمر ٣٥ سنة وأخذ يزلزل ما بناه البراهمة من الحواجز بين الشعب فاتبعه أهل الهند وأهل الصين واليابان وخلافهم ويتبع هذا الدين ثلث المعمورة وتعاليمه علم وعمل

فالعلم يقول فيه ان الشهوة هى التى تربطنا بالمادة والشر الأعظم هو الجهل ومنه يصدر العذاب والشقاء والعلم يجب أن يشمل ما نرى وما لا نرى والبحث فى الانسان واستقصاء مصادر الأشياء وأسبابها ولا بد من الحب مصحوبا

بالعلم

بالعلم فتعشق النفس العلم لتخرج من هذه المادة

أما العمل فهو يقول فى وصاياه العشر لا تقتل لا تسرق كن عفيفا لا تشهد بالزور لا تكذب لا تماق تجنب كل كلمة نجسة كن خالى الغرض لا تأخذ بالثار لا تعتقد اعتقادات باطلة وهو يحض على قهر النفس وعلى الشفقة على سائر المخلوقات

ومن كلامه (أنا بوذا الذى بكيت ابكاء اخوتى وانسحق قلبى لحزنهم أصبحت اليوم ضاحكا مسرورا لأن الحرية موجودة

كل ما نحن عليه نتائج فكرنا وأحوالنا عليه مؤسسه ولا بد للانسان أن يعود فيحصد ما زرع وأهم ما يوصى به العلم والمحبة) اه

(٤) دين قدماء المصريين

أما ظواهر الدين المصرى فمشهورة بين الناس فهى كلها أصنام وآلهة حجرية وحيوانية ووصاياهم للعامة كانت فى صلواتهم هكذا يقولون ان النفس يوم القيامة تقف أمام ٤٢ قاضيا سماويا وتقول أيها الاله العظيم ورب الحق أتيت ملتمسة لنعمتك وانى أعرفك وأعرف اسمك وعرفت أسماء الاثنين والاربعين إلها الجالسين معك فى ديوان الحق لمعاقبة الاشرار ثم تقول الروح امحوا ذنوبى فانى لم أرتكب شرا ضد قريبى ولا أحزنت أحدا ولا جعلت العامل من الشغل فوق طاقته لم أكسل لم أخطئ لم أسبب البكاء لأحد ولا وشيت بالأسير أمام سيده ولا قتلت ولا أسأت أحدا لم أطفف المكيال ولم أغبن فى الوزن ولا أخرجت اللبن من فم الرضيع ولا اقتنصت الوحوش من مرابضها وهذه هى الصلاة التى ان صدق بها الانسان أمام القضاة نجا وان أخطأ هوى الى العذاب هذا ما عند العامة (وأما حقيقة الاله عند الخاصة فهى هذه)

﴿ رؤيا هرمس ﴾

كان عند المصريين سر لا يطلع عليه الا أكابر العلماء وأصحاب السر رؤيا منقوشة بالكتابة الهروغليفية فى المعابد وكان يتناقلها الأحبار شفهيا وهى

رأى هرمس وقت الانخطاف الكون والعوالم وانتشار الحياة فى كل صقع فسمع قائلا فى وسط النور يقول ان النور الذى رأيته هو نور الله الذى أشرق على كل شئ وأما الظلمة فانما هى العالم المادى الذى يعيش فيه الناس وروح الانسان اما أن تكون أسيرة فى المادة واما أن ترقى فى النور وجميع الأوجاع والآلام والمصائب تحملها نيرة فتطير الى العلا من الظلمات الى النور فثبت قلبك اذن يا هرمس حين ماترى الارواح صاعدة فى معارج الافلاك العلوية توصلا الى الله . ثم سبحت الأفلاك السبعة هاتفة الحكمة الحب العدل البهاء العظمة العلم الخلود

ثم يقول الحبر لمن تم امتحانه اعلم يا بنى أن ناموسا نظاميا واحدا يدبر كل شئ لا يجوز أن تقال الحقيقة للضعفاء لئلا يتسلموا بها للشر فلتعلم ولتصمت اه فحينئذ يكون دينهم التوحيد عند الخاصة والاشراك عند العامة

(الخامس) دين (بو) الكبير قبل المسيح بألفى سنة بالصين

(السادس) ليونسو سنة ٥٩٠ قبل الميلاد بالصين وعاش ٧٣ سنة وكان دينه كدين بوذا

عقائد هذين النبيين وغيرهما فى الصين كما نقل عن الجريدة الفرنسية المطبوعة فى مدينة ليون سنة ١٨٦٥ عن الكتب المقدسة للصينيين نشرت قبل المسيح سنة ٢٨٠٠ (تيس) هو الرب العظيم

ذو علم غير متناه وأينما توجهت فهو حاضر هو غير متناه لا يحابى بل يجود بنعمه يحب استعمال الرحمة يعتنى بالأرض حاضر فيها دائما الملائكة فوقنا وتحتنا وعن أيماننا وعن أيسارنا نريد أن نراهم فلا نقدر لانهم فى غاية اللطافة يتراءون للأحياء نادرا ان الأرواح تسر بالقلب المخلص ان للاموات الفضلاء مكانا فى السماء

هذه هى الديانات المنتشرة اليوم وفى الأيام السالفة فى أعم بقاع الأرض فانظر كيف اتفقت كلها على التوحيد ولا اشراك الا عند العامة لأنهم لا يقدرون أن يتصوروا الها لا يرى وانظر كيف يجمع علمهم كله فى كلمتين المعرفة والعمل

وكانت الديانات كلها دينا واحدا فى جوهرها فأما الخلاف فراجع الى الظواهر التى تكسى بها تلك الديانات فصح حينئذ أن يكون قول المسيح ـ ان الله ربى وربكم فاعبدوه ـ آية من آيات الله تعالى لانها ملخص الديانات وكذلك تفهم أيضا قوله تعالى ـ ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم واياكم أن اتقوا الله ـ فهذه هى الديانات كلها وما اليهودية والنصرانية بخارجتين عما تقدم ولله الأمر من قبل ومن بعد وانى لأرى كأن النوع الانسانى يتسابق الى ربه يعرج اليه فوجا بعد آخر ومن لم يدرك بقى فى سجن الجهالات وجهنم الذل والهوان والله يهدى من يشاء

﴿ تفصيل الكلام على قوله تعالى ـ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم الخ ـ وعلى الأناجيل وعددها ﴾

لأقدم لك مقدمة فى الأناجيل لتقف على الحقيقة التاريخية لهاثم أخص انجيل برنابا بالنقل لأنه يوافق القرآن فأقول

اعلم أن المسيح اختار أتباعه من ضعاف الناس وهم الصيادون فى بحيرة طبرية كأنه يقول أيها الناس ان تعاليمى لايعوزها ذكاء خارق للعادة ﴿ وبعد موته ﴾ أخذ الرسل يبشرون بتوحيد الله وبالمحبة ويرمزون الى طهارة النفس من الذنوب بماء المعمودية التى أخذت عن الاسونيين فانتصب اذ ذاك بولس وهو فريسى يعرف اللغة اليونانية ولم ير المسيح قط فادعى انه أخذ الدين عنه وصار يخاصم بطرس ويوحنا فانقسم النصارى فريقين فريق يتبع الرسل وفريق يتبع بولس وذلك بعد المسيح بعشر سنين ثم تمرد اليهود على نيرون الرومانى فأرسل لهم (نسبا سيانوس) الرومانى ثم ابنه طيطس يقود الجيوش وانتهى الأمر بافتتاح أورشليم سنة (٧٠) ب م وخرب الهيكل وتفرق اليهود شذر مذر ومات الرسل ماعدا يوحنا وفيلبس وانحلت الرابطة وتفرقوا شذر مذر واختلطت تعاليم المسيح بالفلسفة اليونانية المنتشرة اذ ذاك لاسيما بالاسكندرية ولما كان تلاميذ المسيح لاقدرة لهم على المجادلة تغلبت الفلسفة اليونانية على تعاليمهم

وفى أثناء هذا الاختلاط والمشاغبة نشأت الاناجيل فى أواخر القرن الأول وما الاناجيل الا مجموع روايات منقولة فى الأصل عن الرسل

وقد كانت هنالك أناجيل كثيرة فى القرن الأول والثانى واختير أربعة ورفض الباقى وقد أحصى من المنبوذ فابريسيوس (٣٥ انجيلا) مثل انجيل مار بطرس وانجيل المصريين وانجيل حياة يسوع وانجيل مارتوما وانجيل مار اندراوس وانجيل مار برتلماوس وانجيل قرشيه وانجيل ڤالشينوس وانجيل السيمونيين وانجيل يهوذا وانجيل برنابا وانجيل السريان وانجيل العبرانيين وانجيل النصارى وانجيل نيقوديموس ولم يبق من هذه الاناجيل الا أسماؤها ماعدا انجيل برنابا الذى ظهر فى هذه الأيام ويرجح العارفون ان اختيار الاناجيل الاربعة المنسوبة الى متى ومرقس ولوقا ويوحنا الذائعة بين النصارى تمت فى منتصف القرن الثانى المسيحى

وقد قال المعلم ساباتيه رئيس الدروس العليا فى مدرسة السربون لما تعذر على الكنيسة معرفة المؤلفين الحقيقيين للأناجيل اضطرت الى القول الانجيل حسب متى أو حسب مرقس وهكذا

ولقد لام شيلسوس الفيلسوف فى القرن الثانى النصارى فى كتابه المدعو الخطاب الحقيقى على تلاعبهم بالاناجيل ومحوهم فى الغد ما أدرجوه بالامس وفى سنة ٣٨٤ م أمر البابا داماسيوس أن تحرر ترجمة لاتينية جديدة من العهدين القديم والحديث تعتبر قانونية فى الكنائس وكان تيودوسيس الملك قد ضجر من المخاصمات الجدلية بين الاساقفة وتمت تلك الترجمة التى تسمى (فولكاتا) وكان ذلك خاصا بالاناجيل الاربعة متى ومرقس ولوقا ويوحنا وقد قال مرتب تلك الاناجيل (بعد ان قابلنا عددا من النسخ اليونانية القديمة رتبناها بمعنى اننا نقحنا ما كان فيها مغايرا للمعنى وأبقينا الباقى على ما كان عليه)

ثم ان هذه الترجمة قد ثبتها المجمع (التريدنتينى) سنة ١٥٤٦ أى بعدها بأحد عشر قرنا ثم خطأها سيستوس الخامس سنة ١٥٩٠ وأمر بطبع نسخ جديدة ثم خطأ كليمنوس الثامن) هذه النسخة الثانية أيضا وأمر بطبعة جديدة منقحة هى الدارجة اليوم عند الكاثوليكيين

لعمري لقد لخصت لك أيها الذكي تاريخ الاناجيل من الكتب خالصا سائغا للشاربين ولقد كنت قبل الآن أود أن أكون على علم بهذه الجملة الموجزة لان معرفة الحقائق سعادة فأنا اليوم أعرفها معك لنبتهج بالعلم والمعرفة معا ولترى أيها الذكي كيف كان هذا الانسان مكينا مسخرا للتقاليد واتباع السير على ماسمعه من أساتذته وشيوخه وهو وهم ساهون لاهون ساكين . ولعمري ان هذه شنشنة سارت عليها الامم قديمها وحديثها ولا تستثن أحدا كيف لا وأنت ترانا نحن المسلمين وان لم نغير كتابنا قد غيرنا المنهج الذي يطلبه والصراط المستقيم الذي سنه ألم تر رعاك الله كيف حض على النظر في العالم والتعقل والتفكر فعرف هذا اسادتنا وآباؤنا في العصور الاولى ثم خلف من بعدهم خلف ناموا على الوضوء والنجاسة والبيع والفرائض وأغمضوا عيونهم — ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فالمدار على تغيير ما بالأنفس لا على تغيير الكتاب المقدس . كان المسيحيون قبل ظهور بولس موحدين صادقين يدعون للمحبة فلما جاء بولس كثر الخلاف وبعد ذلك طرد اليهود نيرون من أرضهم فتفرقوا شذر مذر وغير لانجيل . فأما نحن معاشر المسلمين فان ديننا سهل وكان القرآن في العصور الاولى يحث على التعقل ثم انحصرت العقول وأسدل عليها حجب من الجهالة والتعصب والعمى فداستنا الامم وانقدنا لها كارهين ذلك لتغيير طرق الفكر لا لتغيير الكتاب وسيكون هذا التفسير وتعاليم أخرى تظهر على يد فضلاء من المعاصرين لنا في الاسلام سببا في انتشال الامة من وهدتها ورجوع وحدتها — والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم — اه القول في الاناجيل والانعاظ بما حدث فيها فلنفصل الكلام على مسألة الصلب وانجيل برنابا

﴿ انجيل برنابا — ومسألة الصلب ﴾

لقد قدمت لك الكلام على انجيل برنابا في سورة البقرة عند قوله تعالى — وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم — وذكرت لك هناك ان ماذكره أسلافنا رحمهم الله نقلا عن التوراة قد حذف منها الآن ولم يبق له رسم ولا اسم وقلت ان الأناجيل الأربعة هي التي بين أيدي الناس اليوم وانجيل برنابا يوافق القرآن . وقد فهمت من هذا المقال الآن ما حصل من نبذ جميع الأناجيل الباقية منذ القرن الثاني ولا يعرف الناس عنها شيئا . أفليس من العجب أن يكون هذا التفسير أكثر حظا وأوفر سعادة بظهور انجيل برنابا في هذه الأيام وانه ربما انعدم من الوجود قريبا لأن حكومة البلاد تحت أمر الانجليز وهم وجميع الأوروبيين لهم السلطة في أكثر بلاد الاسلام ولقد منع نشره بين الجمهور الآن فلأثبت لك ما فيه الآن أيها الذكي وهو أمامي ولتقرأه مطلعا على ما فيه والفرصة سانحة فأقول

﴿ رفع المسيح الى السماء وصلب يهوذا وانه شبه به ولم كان هذا العقاب ﴾

ولألخص لك ما في الفصل الثامن بعد المائتين وما بعده من الانجيل المذكور قال (الحق أقول ان ابن ابراهيم هو اسماعيل الذي يجب أن يأتي من سلالته (مسيا) الموعود به ابراهيم أن به تتبارك كل قبائل الأرض)

فلما سمع هذا رئيس الكهنة حنق وصرخ (لنرجم هذا الفاجر لأنه اسماعيلي وقد جدف على موسى وعلى شريعة الله فقام الناس ليرجموه فاختفى يسوع عن أعينهم وتبعه المؤمنون الى بيت سمعان ثم ذهب هو والذين دعاهم رسلا فقط الى بيت نيقوديموس وبستانه وراء جدول قدرون وفي ذلك الوقت كانت العذراء مريم تصلي فأخبرها جبريل بما أصاب ابنها وبشرها بأن الله سيحميه من العالم فانطلقت مريم باكية تطلب ابنها فلم تدر أين هو

فتوجه رئيس الكهنة الى هيرودس والى الوالي الروماني متهما يسوع انه يريد أن يجعل نفسه ملكا على اسرائيل وأحضر لذلك شهود زور

وقد كان الوالي الروماني يعطف على المسيح فهدده هيرودس انه يتهمه بالعصيان أمام قيصر . في ذلك الوقت قال المسيح في بيت نيقوديموس لقد دنت الساعة التي أنطلق فيها من هذا العالم ثم أخذ يدعو الله ومن دعائه (أيها الرب الاله أذكر قبائل الأرض كلها التي قد وعدت أن تبارك بها برسولك الذي لأجله خلقت العالم ارحم وعجل بارسال رسولك لكي لا يسلب الشيطان عدوك مملكته) فأجابوا كلهم آمين خلا يهوذا لأنه لم يؤمن بشيء صفحة ٣١٠

وجاء صاحب المنزل فأخبر يسوع بكل ما أمر هيرودس والوالى ورئيس الكهنة . ثم قال يسوع ليهوذا (ان وقتى قد دنا فاذهب وافعل ما يجب أن تفعله) فظن التلاميذ انه يشترى شيئا ليوم الفصح ثم أخذ المسيح يقبل أرجل تلاميذه ثم قال يسوع ان واحدا منكم سيسلمنى فأباع كخروف فذهب يهوذا وأخذ من رئيس الكهنة ثلاثين قطعة من الذهب ليدل على المسيح وقدم الجنود مع يهوذا فلما سمعهم المسيح انسحب الى البيت خائفا وكان الأحد عشر نياما فأخذ جبريل وميخائيل ورفائيل وأوريل يسوع من العالم فحملوه ووضعوه فى السماء الثالثة فى صحبة الملائكة يسبحون الى الأبد فدخل يهوذا بعنف الى الغرفة التى صعد منها المسيح فتغير يهوذا فى النطق وفى الوجه فصار شبيها بيسوع قال برنابا حتى اننا اعتقدنا انه يسوع أما هو فبعد ان أيقظنا أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم . لذلك تعجبنا وأجبنا أنت ياسيد هو معلمنا أنسيتنا الآن أما هو فقال متبسما هل أنتم أغبياء حتى لا تعرفوا يهوذا الأسخريوطى فدخلت الجنود وألقوا بأيديهم على يهوذا لانه كان شبيها بيسوع من كل وجه . قال برنابا أما نحن فلما سمعنا قول يهوذا ورأينا جمهور الجنود هربنا كالمجانين ثم قال فأخذ الجنود يهوذا وأوثقوه ساخرين منه لأنه أنكر وهو صادق انه هو يسوع فقال الجنود مستهزئين به (ياسيدى لاتخف لأننا قد أتينا لنجعلك ملكا على اسرائيل وانما أوثقناك لأننا نعلم أنك ترفض المملكة) فأجاب يهوذا العلكم جننتم انكم أتيتم بسلاح ومصابيح لتأخذوا يسوع الناصرى كأنه لص أفتوثقوننى أنا الذى أرشدتكم لتجعلونى ملكا فأخذوا يضربونه ويرفسونه وقادوه الى أورشليم ثم ان يوحنا وبطرس تبعا الجنود وشاهدا الجموع الذين اجتمعوا لقتل المسيح فتكلم يهوذا كلمات جنون كثيرة والناس يضحكون من قوله معتقدين انه هو يسوع وانه يتظاهر بالجنون خوفا من الموت ولذلك عصب الكتبة عينيه بعصابة وقالوا له مستهزئين (قل لنا من ضربك ولطموه وبصقوا فى وجهه) وطلب رئيس الكهنة ومن معه شاهد زور على يهوذا معتقدين انه يسوع فلم يجدوا مطلبهم . قال برنابا (ولماذا أقول ان رؤساء الكهنة اعتقدوا أن يهوذا يسوع بل ان التلاميذ كلهم مع الذى يكتب اعتقدوا ذلك حتى ان حزن كل واحد كان يفوق التصديق . لعمر الله ان الذى يكتب نسى كل ماقاله يسوع من أنه يرفع من العالم وأن شخصا آخر سيعذب باسمه وانه لا يموت الى وشك نهاية العالم لذلك ذهب (الذى يكتب) مع أم يسوع ومع يوحنا الى الصليب

فأمر رئيس الكهنة أن يؤتى بيسوع موثقا أمامه وسأله عن تلاميذه فكان جميع قوله يدور حول هذه الكلمة (أنا يهوذا لا يسوع) فأخذوا يضربونه ويرفسونه ثم ألبسوه لباس مشعوذ وأخذوا يعذبونه ثم قادوه الى الوالى الذى كان يحب يسوع سرا . ولما سأله أفهمه انى لست يسوع بل أنا يهوذا ولست يسوع الساحر الذى حولنى هكذا بسحره فهم الوالى أن يطلقه وقال ان لم يكن المسيح فلا حق لنا فى قتله وان كان هو المسيح فقد جن ولا حق لنا فى قتل المجنون . فقال القوم انه يسوع ولكنه خبيث فأراد بيلاطيس (وهو اسم الوالى) أن يتخلص من هذه الدعوى وقال خذوه الى هيرودس فلما حضر اليه سأله فأنكر انه يسوع أيضا ثم رده محقرا الى بيلاطيس قائلا (لا تقصر فى اعطاء العدل بيت اسرائيل) وذلك بسبب ان رؤساء الكهنة أعطوا هيرودس مبلغا كبيرا من النقود . ولما صار عند الوالى ألبسه الجند ثوبا قديما من الارجوان تهكما قائلين (يليق بملكنا الجديد أن يلبس حلة ويتوج فجمعوا اشوكا وصنعوا اكليلا شبيها باكليل الذهب والحجارة الكريمة التى يضعها الملوك على رؤسهم ووضعوه فوق رأس يهوذا ووضعوا فى يده قصبة كصولجان وأجلسوه فى مكان عال ومر من أمامه الجنود حانين رؤسهم تهكما مؤدين له السلام كأنه ملك اليهود وبسطوا أيديهم لينالوا الهبات التى اعتاد اعطاءها الملوك الجدد فلما لم ينالوا شيئا ضربوا يهوذا ثم أعطوا الوالى أيضا نقودا فتناولها وأسلم يهوذا للكتبة والقديسين كأنه مجرم وصلبوه فى جبل الجمجمة عريانا مبالغة فى تحقيره وصرخ يهوذا قائلا (يا ألله لم تركتنى فان المجرم قد نجا أما أنا فأموت ظلما) قال برنابا (ولقد اعتقد التلاميذ اعتقادا جازما أن يهوذا هو يسوع ولذلك ارتد كثير منهم عن دينه أما الذين ثبتوا على دينه فهم كانوا فى حزن شديد لما رأوا انه هو المصلوب وطلبوا جسده من الوالى ودفنوه فى القبر الجديد بعد ان ضمخوه بمائة رطل من

الطيوب

الطيوب ورجع كل الى بيته ومضى الذى يكتب و يوحنا و يعقوب أخوه مع أم يسوع الى الناصرة وذهب من التلاميذ من لم يخف الله وسرقوا جثة يهوذا وخبؤها وأشاعوا ان يسوع قام فحصل اضطراب

فعادت العذراء الى أورشليم ومعها (الذى يكتب) و يعقوب و يوحنا ثم صعد الملائكة فأخبروا يسوع فى السماء الثالثة مع الملائكة وقصوا عليه كل شئ فسأل يسوع ربه أن يأذن له أن يرجع الى أمه لتراه فأذن له أن ينزل مع الملائكة الأربعة فجاء محفوفا بالسناء الى أمه العذراء مع أختيها ومع (الذى يكتب) يعنى برنابا و يوحنا و يعقوب و بطرس فخروا من الهام كأنهم أموات فأنهض يسوع أمه والآخرين من الأرض قائلا (لا تخافوا لأنى أنا يسوع ولا تبكوا فانى حىّ لا ميت) فلبثوا جميعا كالمخبولين فقالت العذراء باكية (قل لى يا بنىّ لماذا سمح الله بموتك ملحقا العار بأقربائك وأخلائك وملحقا العار بتعليمك وقد أعطاك قوة على احياء الموتى الخ) أجاب يسوع (صدقينى يا أماه لانى أقول لك بالحق انى لم أمت قط لأن الله قد حفظنى الى قرب انقضاء العالم ثم ظهر الملائكة كأربعة شموس وقصوا على العذراء كيف جعل الله يهوذا فى صورة يسوع ليعذب جزاء وفاقا

حينئذ قال برنابا يا معلم أيجوز لى أن أسألك الآن كما يجوز عندما كنت مقيما معنا أجاب يسوع سل ماشئت يا برنابا أجبك فقال برنابا اذا كان الله رحيما فلماذا عذبنا بهذا المقدار بما جعلنا نعتقد أنك كنت ميتا ولقد بكتك أمك حتى أشرفت على الموت وسمح الله أن يقع عليك عار القتل بين اللصوص على جبل الجمجمة وأنت قدوس الله أجاب يسوع صدقنى يا برنابا ان الله يعاقب على كل خطيئة مهما كانت طفيفة عقابا عظيما لان الله يغضب من الخطيئة فلذلك لما كانت أمى وتلاميذى الأمناء الذين كانوا معى أحبونى قليلا حبا عالميا أراد الله البرّ أن يعاقب على هذا الحب بالحزن الحاضر حتى لا يعاقب عليه بلهب الجحيم فلما كان الناس قد دعونى الله وابن الله على أنى كنت بريئا فى العالم أراد الله أن يهزأ الناس بى فى هذا العالم بموت يهوذا معتقدين انى أنا الذى مت على الصليب لكيلا تهزأ الشياطين بى فى يوم الدينونة وسيبقى هذا الى أن يأتى محمد رسول الله الذى متى جاء كشف هذا الخداع للذين يؤمنون بشريعة الله ثم قال يسوع انك لعادل أيها الرب إلهنا لان لك وحدك الاكرام والمجد بدون نهاية ثم أوصى يسوع برنابا وأمره أن يكتب الانجيل و يظهر انخداع المؤمنين بمسألة يهوذا ثم ذهبوا جميعا الى جبل الزيتون وعانق أمه على محضر من تلاميذه وقال السلام عليك يا أمى توكلى على الله الذى خلقك وخلقنى ثم التفت الى تلاميذه وقال نعمة الله ورحمته معكم ثم حملته الملائكة الاربعة أمام أعينهم الى السماء

و بعد ذلك بشر بعض الناس بأن يسوع مات ولم يقم وآخرون بشروا بأنه مات بالحقيقة ثم قام وآخرون بشروا ولا يزالون يبشرون بأن يسوع هو ابن الله وقد خدع فى عدادهم بولس وأما نحن فانما نبشر بما كتبه الذين يخافون الله ليخلصوا فى اليوم الأخير لدينونة الله آمين انتهى الانجيل

هذا ملخص ما فى انجيل برنابا من صفحة ٣٠٤ الى ٣٢٥ من الفصل الثامن بعد المائتين الى الفصل الثانى والعشرين بعد المائتين وهو آخر الكتاب

وانظر أيها الذكى كيف وافق هذا الانجيل القرآن موافقة صريحة عجيبة اذ يقول هنا ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا ـ و يقول فى سورة النساء بعد هذه السورة ـ وقولهم انا قتلنا المسيح بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظنّ وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزا حكيما ـ • أفليس هذا هو نفسه عين ماقاله برنابا فى الانجيل وأن المسيح أمره أن يعلن هذا الخ ولولا ما ذكره العلماء المسيحيون من أن هذا الانجيل لم يعرف عند المسلمين قط ولم يسمعوه لظن العقلاء انه تأليف اسلامى فكيف وقد تقدم فى سورة البقرة تاريخ الكتاب وكيفية ظهوره فارجع اليه ان أردت الاستيعاب والصواب • ثم تعجب من العلم والحكمة • وانظر فيما ذكرت فى هذا المقال ان الاناجيل الأربعة اختاروها فى القرن الثانى المسيحى ونبذوا ماسواها من الأناجيل والمنبوذ ٣٢ ومنها انجيل برنابا الذى نحن بصدده فلم يكن يعلمه الناس فى زمن بعثة نبينا صلى الله عليه

وسلم وانظر كيف جاء القرآن بما يطابقه ولا علم لأحد بما فيه الا فى هذه الأيام والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم اهـ

(١) المذاهب المسيحية قديما وحديثا ومذاهب أوروبا وذكر دولها واستقلالهم وتنصرهم

اعلم أن المذاهب فى الدين المسيحى ثلاثة فى الزمان القديم (١) الملكانية (٢) والنسطورية (٣) واليعقوبية فالأوّلون يقولون بالتثليث المسيح وأمه والله ويقولون ان المسيح ناسوت قديم ومريم ولدت إلها أزليا والأب هو الله وعيسى ابن الله بنوة حقيقية . والنسطورية يقولون بالامتزاج فالكلمة عندهم أشرقت على جسد عيسى كاشراق الشمس على بلور . وأما اليعقوبية فيقولون انقلبت الكلمة لحما ودما فصار الاله هو المسيح ولما تمادى الزمان وانقرضت الاجيال الاولى لم يبق الا المذهب الأوّل وهو الملكانية وأصحابه هم (الكاثوليكية) وهى صفة مدح كأهل السنة عند المسلمين . وأما النسطورية واليعقوبية فلم يبق منهم أحد الآن فى بلاد الافرنج وربما يوجد منهم فى نصارى الشام ومصر والحبشة ورئيس الكاثوليكية البابا برومة وهو كالقطب عند المسلمين وقد صار البابا سنة مائة وثمانية هجرية رئيسا سياسيا وأصبحت ملوك أوروبا تحت أمر الباباوات بعد أمد طويل ولما ظلموا الملوك انحطوا فى رئاستهم الى سنة ١٢٨٨ هجرية أى سنة ١٨٧١ ميلادية فسقط أمرهم بالكلية ودخل الايطاليون عاصمة البابا ثم انهم فى القرن التاسع الهجرى لما تذمروا من البابا وانشقت طائفة فلم يعترفوا برئاسته سموهم (بروتستانت) أى مبتدعة كالمعتزلة عند المسلمين وهناك فرقة تسمى (أرثوذكس) ببلاد الروسيا فلا يعترفون بالبابا وان كانوا يوافقون الكاثوليك فى كل ما هم عليه

(وهاك دول أوروبا ودينها القديم وزمن استقلالها وحالها قبل الاستقلال وزمن دخولها النصرانية)

الدولة	اصل دينها	أول زمن استقلالها	حالها قبل الاستقلال	دخولها النصرانية
فرانسا	تشبه ديانات الهنود	٤٢٠ ميلادية	تحت ملوك اليونان فالرومان	٤٩٦ ميلادية
الانكليز	يسجدون للحجارة والماء والصخر	٨٢٧ ميلادية	كانت تتناوبهم دول من أوروبا	٤٩٦ ميلادية
النمسا	يعبدون الأوثان	٩٨٢ ميلادية	كانت تتناوبهم دول من أوروبا	نحو السابقين أعلاه
البروسية	يعبدون الأوثان	١٣١٥ ميلادية	كانت تتناوبهم دول من أوروبا	نحو ما تقدم أعلاه
الدولة الروسية	يعبدون الأوثان	٨٩٢ ميلادية	كانت تتناوبهم دول من أوروبا	٣٧٥ هجرية
دولة اسبانيا	يعبدون الأوثان	٩٠٠ هجرية تقريبا	اليونان فالرومان وبعض ملوك اوروبا فالاسلام	كدول أوروبا غير الروسيا
البرتغال	يعبدون الأوثان	١٠٥٠ هجرية	للرومان ولمن بعدهم	كدول أوروبا غير الروسيا

ومثل من تقدم الفلمنك والدانيمارك والسويد والنورويج وأما البلجيك وسويسرا فدخولهما النصرانية كما تقدم وبقية أحوالهما مقاربة لدول أوروبا السابقين

(القسم السادس من سورة آل عمران)

المحاورة المرتبة على قصة مريم وعيسى كمحاجة النصارى فى عيسى واقامة الحجة على أهل الكتاب وتكرار النداء

لهم ست مرات بقوله تعالى يا أهل الكتاب من قوله تعالى ان مثل عيسى الى قوله تعالى - وما الله بغافل عما تعملون -
وهذا القسم أربعة فصول * الفصل الأول محاجة النصارى فى عيسى الى قوله تعالى اشهدوا بأنا مسلمون * الفصل
الثانى فى اقامة الحجة فى أمر ابراهيم وذكر سيئات أهل الكتاب وتقريعهم الى قوله تعالى وهم يعلمون * الفصل
الثالث فى آداب الرسل وأنهم يدعون الى الحرية وليسوا هم ولا الملائكة معبودين الى قوله تعالى وهو فى الآخرة من
الخاسرين * الفصل الرابع فى تقريع أهل الكتاب وتذكيرهم بابراهيم ودعوتهم الى اتباعه

(الفصل الاول)

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ *

قال ابن عباس رضى الله عنهما ان رهطا من أهل نجران قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم وكان فيهم السيد والعاقب فقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم ماشأنك تذكر صاحبنا فقال من هو قالوا عيسى تزعم انه عبد الله فقال النبى صلى الله عليه وسلم أجل انه عبد الله فقالوا له فهل رأيت له مثلا وأنبئت به ثم خرجوا من عنده فجاء جبريل عليه السلام فقال له قل لهم اذا أتوك (ان مثل عيسى) شأنه الغريب (كمثل آدم) كشأن آدم ثم أخذ يبين وجه الشبه وهو انه خلق جسمه من تراب فلا أب ولا أم له فهو أغرب من عيسى المخلوق بلا أب افحاما للخصم فهذا قوله (خلقه من تراب ثم قال له كن) بشرا (فيكون) فكان فقوله خلقه من تراب راجع لجسمه وقوله كن فيكون راجع لروحه وهكذا عيسى قال له كن فكان بلا أب * الذى أخبرتك به من تمثيل عيسى بآدم (هو الحق من ربك فلا تكن من الممترين) الشاكين خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم لزيادة الثبات (فمن حاجك) من النصارى (فيه) فى عيسى (من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا) هلموا (ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم) أى يدع كل منا ومنكم خاصته وأهل بيته وأصفياءه من ولد وامرأة ونفس وقدم هؤلاء الأبناء والنساء مع ان الانسان يدافع عنهم بنفسه لشدة اليقين لان من يفديهم بنفسه قدمهم فى ذكر المباهلة دلالة على صدق النبوة (ثم نبتهل) نتضرع فى الدعاء ونلتعن بأن نلعن الكاذب منا ومنكم ثم بينه بالعطف فقال (فنجعل لعنة الله على الكاذبين) فى أمر عيسى ﴿قال محمد بن اسحق فى سبب نزول هذه الآية والآيات قبلها من أول السورة﴾ قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نجران ستون راكبا فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم وثلاثة منهم كانوا أكابر القوم أحدهم أميرهم واسمه عبد المسيح والثانى مشيرهم وذو رأيهم وكانوا يقولون له السيد واسمه الايهم والثالث حبرهم وأسقفهم وصاحب مدارسهم يقال له أبو حارثة بن علقمة أحد بنى بكر بن وائل وملوك الروم كانوا شرفوه وموّلوه وأكرموه لما بلغهم عنه من علمه واجتهاده فى دينهم فلما قدموا من نجران ركب أبو حارثة بغلته وكان الى جنبه أخوه كرز بن علقمة فبينا بغلة أبى حارثة تسير إذ

عثرت فقال كرز أخوه تعس الأبعد يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو حارثة بل تعست أمك فقال ولم يا أخي فقال انه والله النبي الذي كنا ننتظره فقال له أخوه كرز فما يمنعك منه وأنت تعلم هذا قال لأن هؤلاء الملوك أعطونا أموالا كثيرة وأكرمونا فلو آمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم لأخذوا منا كل هذه الأشياء فوقع ذلك في قلب أخيه كرز وكان يضمره الى أن أسلم فكان يحدث بذلك ثم تكلم أولئك الثلاثة الأمير والسيد والحبر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على اختلاف من أديانهم فتارة يقولون عيسى هو الله وتارة يقولون هو ابن الله وتارة يقولون ثالث ثلاثة ويحتجون لقولهم هو الله بأنه كان يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص ويبرئ الأسقام ويخبر بالغيوب ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيطير ويحتجون في قولهم انه ولد الله بأنه لم يكن له أب يعلم ويحتجون على ثالث ثلاثة بقول الله تعالى فعلنا وجعلنا ولو كان واحدا لقال فعلت فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلموا فقالوا قد أسلمنا فقال صلى الله عليه وسلم كذبتم كيف يصح اسلامكم وأنتم تثبتون لله ولدا وتعبدون الصليب وتأكلون الخنزير قالوا فمن أبوه فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى في ذلك أول سورة آل عمران الى بضع وثمانين آية منها ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يناظرهم فقال ألستم تعلمون أن الله حي لا يموت وأن عيسى يأتي عليه الفناء قالوا بلى قال ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد الا ويشبه أباه قالوا بلى قال ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه فهل يملك عيسى شيئا من ذلك قالوا لا قال ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء فهل يعلم عيسى شيئا من ذلك الا ما علم قالوا لا قال فان ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء فهل تعلمون ذلك قالوا بلى قال ألستم تعلمون ان ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث وتعلمون ان عيسى حملته امرأة كحمل المرأة ووضعته كما تضع المرأة وغذي كما يغذى الصبي ثم كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث قالوا بلى فقال صلى الله عليه وسلم فكيف يكون كما زعمتم فعرفوا ثم أبوا الا جحودا ثم قالوا يا محمد ألست تزعم أنه كلمة الله وروح منه قال بلى قالوا فحسبنا فأنزل الله تعالى — فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه الآية — ثم ان الله تعالى أمر محمدا صلى الله عليه وسلم بملاعنتهم اذ ردوا عليه ذلك فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الملاعنة

روى انهم لما دعوا الى المباهلة قالوا حتى ننظر فلما تخالوا قالوا لصاحب الرأي فيهم ما ترى فقال والله لقد عرفتم نبوته ولقد جاءكم بالفصل في أمر صاحبكم والله ما باهل قوم نبيا الا هلكوا فاذا أبيتم الا إلف دينكم فوادعوا الرجل وانصرفوا فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد غدا محتضنا الحسين آخذا بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعلي رضي الله عنه خلفها وهو يقول اذا أنا دعوت فأمنوا فقال أسقفهم يا معشر النصارى اني لأرى وجوها لو سألوا الله تعالى أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله فلا تباهلوا فتهلكوا فأذعنوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبذلوا له الجزية ألفي حلة حمراء وثلاثين درعا من حديد فقال صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لو تباهلوا لمسخوا قردة وخنازير ولاضطرم الوادي عليهم نارا ولاستأصل الله نجران وأهله وهذا من دلائل النبوة (ان هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله) وليس ثالث ثلاثة (وان الله لهو العزيز الحكيم) لا أحد يساويه في القدرة التامة والحكمة البالغة فاذن ليس له شريك

(فان تولوا) أعرضوا (فان الله عليم بالمفسدين) أي عليم بهم فيجازيهم فوضع الظاهر موضع الضمير ليدل على ان التولي عن الحجة والاعراض عنها افساد للدين • ولما قدم وفد نجران المدينة واجتمعوا باليهود اختصموا في ابراهيم فكل يدعي انه على دينه فقال صلى الله عليه وسلم كلاهما بريء من ابراهيم بل كان حنيفا مسلما وأنا على دينه فاتبعوا دينه الاسلام فقالت اليهود ما تريد الا أن نتخذك ربا كما اتخذت النصارى عيسى ربا وقالت النصارى يا محمد ما تريد إلا أن نقول فيك ما قالت اليهود في عزير فأنزل الله (قل يا أهل الكتاب) من اليهود والنصارى (تعالوا الى كلمة سواء) أي عدل لا يختلف فيها التوراة والانجيل ثم فسرها فقال (أن لا نعبد الا الله) أي نوحده بالعبادة ونخلص

فيها (ولا نشرك به شيئا) ولا نجعل له شريكا فى استحقاق العبادة (ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) ولا نقول عزير ابن الله ولا المسيح ابن الله ولا نطيع الأحبار والرهبان فيما أحدثوا من التحريم والتحليل لأن كلا منهم بشر مثلنا * روى أنها لما نزلت اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله قال عدى بن حاتم ما كنا نعبدهم يا رسول الله قال أليس كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم قال نعم قال هو ذاك (فان تولوا) عن التوحيد (فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) مخلصون بالتوحيد لله والعبادة له وقد لزمتكم الحجة فاعترفوا بأنا مسلمون وانكم كافرون بما نطقت به الكتب السماوية

﴿ لطيفة ﴾

أنظر الى هذا الترتيب (١) ذكر عيسى وقصته وأحواله (٢) ثم أتى بالحجة الدامغة على انه ليس إلها (٣) ثم دعاهم للمباهلة (٤) ولما لم يجد قال اتبعوا ابراهيم الذى أجمعت عليه الديانات الثلاث (٥) ثم لما لم يجد أعرض عنهم وقال اشهدوا بأنا مسلمون

(الفصل الثانى)

يا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِى إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * هَا أَنْتُمْ هٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللّٰهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلٰكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللّٰهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ * وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * يا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّٰهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * يا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّٰهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّٰهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللّٰهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللّٰهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ * وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّٰهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّٰهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِى

الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ * وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتابِ وَما هُوَ مِنَ الْكِتابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَما هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ *

لما ادعى كل من النصارى واليهود أن ابراهيم على دينهم كما تقدم قال الله تعالى (يا أهل الكتاب لم تحاجون فى ابراهيم وما أنزلت التوراة) على موسى (والانجيل) على عيسى (إلا من بعده أفلا تعقلون) هذه المسألة التاريخية المشهورة وكيف يكون ابراهيم على دين موسى وقد أنزل التوراة عليه بعد ابراهيم بمدة ٥٧٥ و بين موسى وعيسى ١٦٣٢ ويقال ان المدة الأولى ٥٦٥ والثانية ١٩٢٠ فتكون المدة بين ابراهيم وعيسى اما ٢٣٠٧ واما ٢٤٨٥ ثم أخذ يقرعهم فقال عجب لكم وأى عجب حاججتم فيما لكم به علم بما تدعون انكم وجدتموه فى التوراة والانجيل مكابرين معاندين فكيف ساغ لكم المحاجة والمجادلة فيما لاعلم لكم به مما لم يذكر فى كتابكم ولا يقبله العقل ولا يساعده النقل (والله يعلم) أمر ابراهيم الذى حاججتم فيه (وأنتم لا تعلمون) أفلا يستنتج من ذلك انه (ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا) مائلا عن العقائد الزائغة (مسلما) منقادا لله وليس المعنى انه على دين الاسلام وملة محمد صلى الله عليه وسلم ولو كان كذلك لقيل ان الاسلام بعد التوراة والانجيل فكيف كان ابراهيم على دين محمد صلى الله عليه وسلم ولم ينزل القرآن الا من بعده بنحو ثلاثة آلاف سنة (وما كان من المشركين) معرضا بأن النصارى واليهود مشركون أى لم يكن منكم أيها المشركون (ان أولى الناس بابراهيم) أى أخصهم به من ولى اذا قرب (للذين اتبعوه) من أمته (وهذا النبى والذين آمنوا) به لموافقة شريعتهم لشريعته غالبا (والله ولى المؤمنين) ينصرهم ويجازيهم بايمانهم • ولما دعا اليهود حذيفة وعمارا ومعاذا الى اليهودية نزل (ودت طائفة من أهل الكتاب لو) بمعنى ان (يضلونكم وما يضلون الا أنفسهم وما يشعرون) انهم قد أضلوا أنفسهم برسوخ العوائد المذمومة وثباتها فيهم بالمران على الاضلال فان العمل أثره فى النفس دائما (يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله) وهى ما جاء فى التوراة والانجيل الدالات على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (وأنتم تشهدون) انها آيات الله ويصح أن يقال لم تكفرون بالقرآن وأنتم تشهدون بعث محمد فى كتابيكما (يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل) تخلطون الحق الوارد فى الكتاب المقدس الدال على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بالباطل وهو تحريف القول وتبديله فيقع الشك فى نفوس أتباعكم (وتكتمون الحق) نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (وأنتم تعلمون) بما تكتمونه • ولما قال كعب بن الاشرف ومالك بن الصيف لاصحابهم لما حولت القبلة آمنوا بما أنزل عليهم من الصلاة الى الكعبة وصلوا اليها أول النهار ثم صلوا الى الصخرة آخره فان المسلمين اذا سمعوا ذلك قالوا هم أعلم منا وقد رجعوا فيرجعون وقيل ان اثنى عشر من أحبار اليهود قالوا ندخل الاسلام أول النهار ونقول فى آخره نظرنا فى كتابنا وشاورنا علماءنا فلم نجد محمدا بالنعت الذى ورد فى التوراة لما قيل ذلك نزل (وقالت طائفة من أهل الكتاب الى لعلهم يرجعون) وقالت تلك الطائفة اليهودية أيضا ولا تصدقوا أن يعطى أحد مثل ما أعطيتم من العلم والحكمة والكتاب والعجائب كفلق البحر لموسى وقلب العصا حية أو يحاجوكم و يجادلوكم عند ربكم كلا لا تصدقوا ذلك إلا لمن يتبع دينكم من شعب الله الذين اصطفاهم على العالمين وهم بنو اسرائيل فاذا جاء نبى فهو منهم والا فلا فقال الله حاكيا (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل ان الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم) وجملة ان الهدى هدى الله معترضة يقول الله تعالى ان الهدى من عند الله فله أن يجعل النبوة فى العرب كما كانت فى بنى اسرائيل وزاده ايضاحا فقال (قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع) ذو سعة يتفضل على من يشاء (عليم) بمن يستحق الفضل وكأنه يقول ان فضلى وان كان واسعا يصحبه علم وحكمة فلا أعطى إلا حيث يحسن العطاء ولا أمنع الا حيث يحسن المنع فلذلك

(يختص

(يختص برحمته من يشاء) على حسب الاستعداد (والله ذو الفضل العظيم) فهنا ذكر انه واسع وانه رحيم وانه ذو فضل عظيم وأظهر هذه المواطن عند أكثر الناس ما ذكرته سابقا عند قوله تعالى - وترزق من تشاء بغير حساب - فان الفضل هناك فى المحسوسات فهى أبين عند جميع الناس وأما النبوة والرسالة فالفضل فيهما لا يفهمه حق فهمه الا أولوا الألباب . ولقد استودع قرشى عبد الله بن سلام ألفا ومائتى أوقية ذهبا فأداها اليه وفنحاص بن عازوراء استودعه قرشى آخر دينارا فجحده ولقد جرت عادة النصارى أن يكونوا فى الغالب مأمونين ، أما اليهود فانهم غالبا خائنون لذلك نزل قوله تعالى (ومن أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك إلا مادمت عليه قائما) أى الا مدة دوامك قائما على رأسه تطالبه مبالغا فى ذلك لأن اليهود يعتقدون انهم لا يعاقبون على من ليس من دينهم (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) انهم كاذبون فى دعواهم ان من ليس على دينهم لا حرمة له والله عز وجل رب العالمين لا رب اليهود وحدهم وليست رحمته قاصرة على أحد من خلقه بل هى عامة (بلى) اثبات لما نفوه بل عليهم سبيل (من أوفى بعهده واتقى فان الله يحب المتقين) من أوفى بعهده فأدى الأمانة واتقى الكفر والخيانة ونقض العهد فان الله يحب المتقين المؤدين الواجبات المجتنبين المنهيات . ولقد كتب علماء اليهود فى التوراة بأيديهم ما تقدم من انهم ليس عليهم فى الأميين سبيل وانهم لا يطالبون بحق إلا اذا كان ليهودى وحلفوا على ذلك لذلك قال تعالى (ان الذين يشترون) يستبدلون (بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا) متاع الدنيا (أولئك لا خلاق) نصيب (لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله) كلاما يسرهم وذلك لغضبه عليهم (ولا ينظر اليهم يوم القيامة) استهانة بهم (ولا يزكيهم) ولا يثنى عليهم بالجميل (ولهم عذاب أليم) على فعلهم وهذه الآية النازلة فى اليهود ليست خاصة بهم بل تشمل كل عهد وميثاق أوجبه الانسان على نفسه فكل ذلك من عهد الله الذى يجب الوفاء به والمراد بالأيمان الكاذبة فى أى عقد من العقود أو عمل من الأعمال أو رأى من الآراء . وفى الحديث من حلف على مال امرئ مسلم بغير حقه لقى الله وهو عليه غضبان - وفيه أيضا ان رجلا أقام سلعة وهو فى السوق فحلف بالله لقد أعطى بها مالم يعط ليوقع فيها رجلا من المسلمين فنزلت الآية * وفى هذا المقام روايات كثيرة فى البخارى ومسلم لا تخرج عن هذا المعنى فلا نطيل بها . وقد عرفت الحقيقة ان الآية شاملة لكل عهد ولكل يمين فاجرة فى علم أو عمل فافهم هديت . فعلى العلماء فى أقطار الاسلام أن يمنعوا المسلمين جميعا من الحلف لأن ذلك أصبح مرضا ويظهر ان الغضب الذى حل بديار الاسلام ناجم من جهلهم بعظمته تعالى فيحلفون على النقير والقطمير صدقا وكذبا والمسيحيون ينزهون لسانهم عن الحلف فواعجبا كل العجب من جهلة المسلمين

ان كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وحيى بن أخطب وأبا ياسر وغيرهم كانوا يعمدون الى اللفظة فى التوراة المكتوبة باللغة العبرية فيحرفونها بتبديل حركات الاعراب فيتغير المعنى تبعا له وذلك فى صفات النبى صلى الله عليه وسلم وغيرها لذلك قال تعالى (وان منهم) أى اليهود (لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب) التوراة (لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب) وانما هو المحرف الذى غيروا معناه الى ما أرادوا (ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله) بل من عند أنفسهم (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) انهم كاذبون

(الفصل الثالث)

ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِباداً لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلٰكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ وَبِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْباباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ

إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ * قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ *

﴿ ملخص هذا الفصل ﴾

مايجب على الأنبياء فى ارشاد الخلق وهو أوّلا أن لا يأمروا الناس بعبادتهم ولا بعبادة الملائكة وانما يأمرونهم أن يكونوا معلمين الخير لغيرهم وأمراء وملوكا عادلين على سنن أنبيائهم وثانيا على كل نبى وأتباعه انهم اذا سمعوا أن الله عز وجل أرسل رسولا مصدّقا لكتابهم أن يؤمنوا به وينصروه ثالثا أمر النبى صلى الله عليه وسلم وأمّته أن يكونوا مؤمنين بما أنزل على سائر الأنبياء لا يفرّقون بينهم (هذا ملخص الآيات)

روى أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم يارسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك قال لا ينبغى أن يسجد لأحد من دون الله ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله * وروى أن أبا رافع القرظى والسيد النجرانى قالا يا محمد أتريد أن نعبدك ونتخذك ربا فقال معاذ الله أن يعبد غير الله وان نأمر بغير عبادة الله فما بذلك بعثنى ولا بذلك أمرنى فنزل (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم) الفهم والعلم (والنبوّة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله) أى لا تجتمع النبوّة مع قوله للناس اعبدونى (ولكن) يقول (كونوا ربانيين) منسوبين الى الرب ومربين فتربون الناس بصغار العلم قبل كباره وتكونون علماء تعملون بعلمكم جامعين بين علم البصيرة وعلم السياسة تلون أمور الناس فتكونون ملوكهم وعلماءهم ومعلميهم الخير ومواظبين أنتم على طاعة الله وعبادته قال أبو عبيدة أحسب هذه الكلمة غير عربية انما هى عبرانية أو سريانية وعلى كل فهى تدل على الذى علم وعمل بما علم وعلم الناس طريق الخير الخ (بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) أى بسبب كونكم معلمين الكتاب وبسبب كونكم دارسين له (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا) منصوب عطفا على ثم يقول (أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون) الضمير فى يأمركم للبشر وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه كالقوم والرهط ويوضع موضع الواحد والجمع فيشمل عيسى ومحمدا صلى الله عليهما وسلم وغيرهما (و) اذكر يا محمد (اذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدّق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه) أى والله لئن آتيتكم كتابا وحكمة الخ فاللام للقسم وما شرطية ومن كتاب وحكمة بيان لما وقوله لتؤمنن به الخ جواب القسم وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب الشرط كأنه يقول والله ان آتيتكم الكتاب والحكمة ثم جاء رسول مصدّق لهما لتؤمنن به ولتنصرنه هذا اذا فتحت اللام وان كسرت يكون الجار والمجرور هكذا لأجل ايتائى إياكم الكتاب ثم مجىء رسول مصدّق له أخذ الله الميثاق لتؤمنن به ولتنصرنه (قال) الله تعالى (أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى) عهدى

سمى به لانه يؤصرأى يشد (قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) فليشهد بعضكم على بعض ولتشهد الملائكة بهذا الاقرار وأنا أيضا على اقراركم شاهد • والمعنى ان الله أخذ العهود على الأنبياء والأنبياء على أممهم أن يؤيد كل رسول وكل أتباعه من جاء بعدهم من الأنبياء مصدقا لكتابهم فكيف يعاند النصارى واليهود وكتابهم فيه هذا الميثاق بل هذا الميثاق مقرر فى الفطرة الانسانية • ان من دعا الى الخير يعضده كل داع مثله فى الفطرة توكيده وفى العقل تثبيته (فمن تولى) أعرض (بعد ذلك) بعد الميثاق (فأولئك هم الفاسقون) المتمردون من الكفرة (أفغير دين الله يبغون وله أسلم) انقاد وخضع (من فى السموات والأرض طوعا) طائعين بالنظر والحجة (وكرها) كارهين بالسيف وغيره (واليه يرجعون قل) يا محمد (آمنا بالله) أمر الرسول أن يخبر عن نفسه وعن أتباعه بالايمان بالله (وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط) أولاد يعقوب وكانوا أنبياء وعددهم اثنا عشر (وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم) تصديقا وتكذيبا (ونحن له مسلمون) منقادون أو مخلصون فى عبادته (ومن يبتغ غير الاسلام) أى غير التوحيد والانقياد لحكم الله المنزل على الأنبياء (دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) الواقعين فى الخسران

(الفصل الرابع)

كَيْفَ يَهْدِى اللّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ * كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِى إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ صَدَقَ اللّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَاللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ *

لقد كان الفصل الذى قبل هذا فى النبيين وواجباتهم وما يدعون اليه وانهم لا يدعون الناس لعبادة أنفسهم وانما يأمرون أشياعهم وأتباعهم أن يؤمنوا بما ينزل على كل نبى بعدهم ولا جرم أن هذا منطبق على اليهود والنصارى الذين ظهر صدق النبوّة المحمدية فى كتبهم لذلك أتبعه بهذا الفصل يذكر فيه أنه يستبعد أن يهدى الله قوما كفروا بالقرآن وبالرسول بعد ايمانهم به وقد كانوا من قبل يقرون به ويشهدون أنه حق ويقولون ان نبيا قد أظل زمانه وقد ظهرت لهم الدلائل على صدقه ــ والله لا يهدى القوم الظالمين ــ

فهؤلاء لا هداية لهم فى الدنيا وعليهم فى الآخرة لعنة الله والملائكة والناس أجمعين حتى الكافرين فان جميع الناس من كافر ومؤمن يلعنون منكر الحق وان كان بعضهم يجهله ــ ثم ــ لا يخفف عنهم العذاب ولا هم يؤخرون • ثم استثنى التائبين الذين أصلحوا أعمالهم ــ فان الله غفور ــ يقبل توبتهم ــ رحيم ــ بهم

ثم ان للمفسرين فى هذا المقام مقالين مقالا فى قوم من العرب أسلموا ثم ارتدوا ولحقوا بمكة ثم تربصوا بالنبىّ ريب المنون ومقالا آخر فى اليهود والنصارى كما تقدّم فقوله تعالى (ان الذين كفروا بعد ايمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون) يصح فى القسمين معا فاليهود والنصارى آمنوا بموسى وعيسى ثم كفروا بالتوراة والانجيل بما غيروا وبدّلوا ثم ازدادوا كفرا بالنبى وهكذا المرتدون من العرب كفروا بعد ايمانهم ثم ازدادوا كفرا اذ تربصوا بالنبى ريب المنون • ثم قال (ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا) أى قدر ما يملأ الأرض ذهبا لو افتدى به والواو زائدة لتأكيد النفى (أولئك لهم عذاب) مؤلم (وما لهم من ناصرين) مانعين يمنعونهم من العذاب وقوله تعالى (لن تنالوا البرّ) أى لن تبلغوا حقيقة البرّ الذى هو كمال الخير الذى يترتب عليه الرحمة من الله والرضا والجنة والبرّ من الله الثواب ومن العبد الطاعة يقول لن تنالوه (حتى تنفقوا مما تحبون) من العلم فى الهداية والجاه فى منفعة الناس والبدن فى الحرب والمال فى الانفاق وقوله تعالى (كل الطعام كان حلا) أى حلالا (لبنى اسرائيل) أى يعقوب (الا ما حرّم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة) سبب هذه الآية ان اليهود لما نزل قوله تعالى ــ فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أحلت لهم ــ قالوا لسنا أوّل من حرّمت عليه تلك الطيبات بل كانت محرّمة على نوح وابراهيم من بعده حتى انتهى الأمر الينا فحرّمت علينا كما حرّمت على من قبلنا فقال الله لهم ليس كذلك بل كل الطعام كان حلالا لبنى اسرائيل أى أولاد يعقوب الذين كانوا قبل موسى ولم يحرّم عليهم إلا ما حرّمه يعقوب على نفسه لما كان به عرق النسا فأشار عليه الأطباء بأن لا يأكل لحوم الابل ولا يشرب ألبانها فحرّمها على نفسه وتبعه أولاده فى ذلك التحريم وذلك (من قبل أن تنزل التوراة) التى اشتملت على تحريم كل ذى ظفر وبعض الشحوم وبعض ما حملت الظهور وما اختلط بعظم وذلك التحريم لبغيهم وذلك لم يكن محرّما على يعقوب ولا على أولاده ولا على ابراهيم ونوح (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين) فيما تدعون أمر الله النبىّ صلى الله عليه وسلم بمحاجتهم بكتابهم فلما سمعوا ذلك بهتوا ولم يجسروا أن يخرجوا التوراة وفى هذه الآية دلالة على النبوّة وهذه المسألة من أعجب المسائل وأدقها ولن تعرف الا بطريق الوحى • ثم قال (فمن افترى وابتدع على الله الكذب من بعد ذلك) أى من بعد إلزام الحجة (فأولئك هم الظالمون) الذين لا ينصفون وهم يكابرون (قل) يا محمد (صدق الله) أى وكذبتم (فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا) أى ملة الاسلام التى هى فى الأصل ملة ابراهيم (وما كان من المشركين) فيه تعريض بشرك اليهود وكيف تتبعون غير دين ابراهيم و(ان أوّل بيت وضع للناس للذى ببكة) لغة فى مكة والبيت الذى فى مكة هو المسجد الحرام ثم بعده بيت المقدس وأوّل من بنى المسجد الحرام ابراهيم فهدم ثم بناه قوم من جرهم ثم العمالقة ثم قريش ومعنى (مباركا) كثير الخير والنفع لمن حجه واعتمره (فيه آيات بينات) يقول المفسرون منها انحراف الطيور عن موازاة البيت ومنها ان ضوارى السباع تخالط الصيد ولا تتعرّض له ومنها ان كل جبار قصده بسوء قهره كأصحاب الفيل ومنها (مقام ابراهيم) أى الحجر الذى كان يقوم عليه عند بناء البيت (ومن دخله كان آمنا) أى ومنها أمن من دخله (ولله على الناس حج البيت) قصده للزيارة على الوجه المخصوص المعلوم فى سورة البقرة وأبدل من الناس قوله تعالى (من

اسطاع

استطاع اليه سبيلا) وقد فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستطاعة بالزاد والراحلة وبه أخذ الشافعي والحسن وسعيد ابن جبير ومجاهد واحمد بن حنبل وقال الشافعي في الاستطاعة اما بالبدن واجدا ما يبلغه الحج فاستطاعة تامة فعليه الحج واما أن لا يثبت على الراحلة وهو قادر على من يطيعه اذا أمره أن يحج عنه أو قادر على مال يجد من يستأجره فيحج عنه فيجب عليه . وأما حكم الزاد والراحلة فهو ان يجد زادا يكفيه ذهابا وايابا ونفقة من تلزمه نفقته وكسوتهم وان يكون دينه مقضيا وان يجد له رفقة يخرجون في الوقت الذي جرت العادة فيه بالخروج فان قدموا أو أخروا لا يجب عليه ويشترط أمن الطريق من عدو مسلم أو كافر أو رصدي يطلب الخفارة وتكون منازل الماء مأهولة يجد فيها الماء والزاد بحسب العادة فان تفرقوا لم يجب . وقال مالك الاستطاعة بالبدن فيجب على من قدر على المشي والكسب في الطريق وقال أبو حنيفة بمجموع المال والبدن . والضمير في اليه للبيت أو الحج وكل ما أدى الى الشيء فهو سبيله ولقد فصلت الكلام في الحج وجميع أعماله في سورة البقرة فهناك صورة منه واضحة جلية فلا نعيده هنا (ومن كفر فان الله غني عن العالمين) كأنه قال ومن لم يحج فان الله غني عنه فجعل عدم الحج كفرا وذلك تغليظ على تاركه قال عليه الصلاة والسلام من مات ولم يحج فليمت ان شاء يهوديا أو نصرانيا

(قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله) السمعية والعقلية الدالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم في الاسلام والحج وغيرهما (والله شهيد) مطلع على أعمالكم فيجازيكم عليها (يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن) هذا التكرار للمبالغة في التقريع ذلك انهم كانوا يفتنون المؤمنين ويوقعون الشقاق بينهم ومن ذلك أنهم أتوا الى الأوس والخزرج وذكروهم بالوقائع التي كانت بينهم في الجاهلية وأنشدوا أشعارها فأثارت حمية الجاهلية (تبغونها عوجا) أي حال كونكم باغين طالبين لها عوجا أي اعوجاجا (وأنتم شهداء) تشهدون انها سبيل الله والصد عنها ضلال واضلال أو أنتم عدول عند أهل ملتكم يثقون بأقوالكم ويستشهدون بكم في القضايا (وما الله بغافل عما تعملون) وعيد لهم انتهى تفسير القسم السادس بفصوله الأربعة وفي هذا القسم لطائف

﴿ اللطيفة الاولى ـ تفصيل الكلام في قوله تعالى قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الآيات ﴾

اعلم أن الانسان في جميع عصوره لا يزال يرى ان في الناس من لهم مزية ظاهرة وعبقرية حاضرة وعلوم باهرة وغرائب نادرة وعجائب ساحرة تأخذ الألباب وتحير العقول فالنصارى بهرهم المسيح لما سمعوا احياء الموتى على يديه وابراء الأكمه والأبرص وهناك أمم قبلهم وأمم قبلهم وهكذا تراه في سائر الأقطار والأمصار قديما وحديثا لكل أمة غرام وعشق وافراط في رجل أو رجال يرون فيهم عجائب سواء أكانت حقا كما في المسيح أو غيره معلوم كما ورد في مسيح الهند المسمى (خرستا) من قبله بنحو خمسة آلاف سنة رووا عنه ماروى المسيحيون عن عيسى ومثله آخر في العراق من قبل المسيح وهكذا رواية المصريين في قديم الزمان عن ازيريس وايزيس وما أشبه ذلك وهكذا أهل المكسيك لما دخل عندهم أهل أوروبا رأوهم منتظرين الفادي لهم نازلا من السماء بعد رفعه ولقد تجد الآن في الأمة الاسلامية أكثر طوائفها مغرمين بشيوخهم ومنهم من يرى انهم رفعوا الى السماء كما في بعض بلاد الغرب وبعض بلاد الفرس ولست أريد اطالة في القول فاني أريد التوفيق والاصلاح لا التفريق والجراح فالقرآن أعطانا حكمة وقولا عدلا وكلمة لا عوج فيها وهي ان هؤلاء الذين على أيديهم ظهرت خوارق وعجائب ليسوا الا عبيدا مسخرين خلقهم الله فاذا اختلف المسلمون في طرائق حججهم ومذاهبهم وتشاكسوا وتدابروا فليكن لهم هذا المنهاج الحق القائل ـ تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ـ ولقد علمت مما سبق ان الأحبار والرهبان كانوا يحللون ويحرمون فها هو ذا كتاب الله يقول لنا لا يجوز لأحد أن يحرم ويحلل والا لكان اتباعه عبادة له وانما التحليل والتحريم لله عز وجل ولرسوله ولجماعة المسلمين

﴿ مجلس عام في الاسلام ﴾

على المسلمين جميعا في أقطار المسكونة أن يكون لهم مجلس عام يجمع أكابر القوم من سائر المذاهب والشيع والطوائف

ويعرض فيه كل مافيه خلاف من معاملات أو عبادات ويكون هذا المجلس له القول الفصل وهذا المجلس دائما تعرض عليه المسائل كل حين ويبقى مع الدهر مادامت السموات والأرض ودين الاسلام وهنالك نكون حقا قد عملنا بقوله تعالى ــ ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ــ والدليل على ذلك ان الانسان يخرج وقد وجد قومه على مذهب من المذاهب فيسير هو عليه ولو ولد فى قوم على مذهب آخر لاتبعه فكان الأمم اقطاعات للمذاهب ولكن وجود جماعة فى أكبر عاصمة اسلامية كافل بخروج الناس من تبعة التقصير واست أريد أن المذاهب تترك كلا فكل جماعة يبقون على مذهبهم ولكن هذه الجماعة القائمة على الحق تنظر فى كل مايعرض من الأحوال وتهذيب المسائل العلمية والافتاء بما هو الأقرب والأنسب حتى لا يكون هناك وقوف ولا نكوص على الأعقاب وهذه الجماعة تشير لأهل كل مذهب بما يناسبهم اهـ

﴿ اللطيفة الثانية ــ تفصيل الكلام فى قوله تعالى ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤدّه اليك ﴾

لقد علمت مانقلناه فيما تقدم ان اليهود أميل الى الخيانة وان النصارى أقرب الى الأمانة فاعلم أن اليهود لهم عقيدة خاصة ومذهب يرجع الى الاستئثار بالسلطة وهم لا يريدون أن يدخلوا أحدا فى دينهم من غير بنى اسرائيل فهو من جهة دين ومن جهة قومية فلذلك اشتهر عنهم قديما وحديثا انهم حريصون على جمع المال من غير أهل دينهم وهم اليوم أصحاب الحول والطول فى الكرة الأرضية

لقد ذكر أحد علماء الفرنجة أنه قرأ فى التلمود (وهو شرح التوراة) ما يأتى

نحن شعب الله فى الأرض وقد أوجب أن يفرّقنا فى الأرض لمنفعتنا ذلك انه لأجل رحمتنا ورضاه عنا سخر لنا الحيوان الانسانى وهم كل الأمم والأجناس سخرهم لنا لأنه تعالى يعلم اننا نحتاج الى نوعين من الحيوان نوع أخرس كالدواب والأنعام والطير ونوع ناطق كالمسيحيين والمسلمين والبوذيين وسائر الأمم من أهل الشرق والغرب فسخرهم لنا ليكونوا مسخرين لخدمتنا فلذلك فرّقنا فى الأرض لنمتطى ظهورهم ونمسك بعنانهم ونستخرج فنونهم ونسخرهم لمنافعنا أجمعين

لذلك يجب علينا أن نزوّج بناتنا الجميلات للملوك والوزراء والعظماء وأن تدخل أبناءنا فى الديانات المختلفات وأن تكون لنا الكلمة العليا فى الدول وأعمالها فنفتنهم ونوقعهم فى الحروب وندخل عليهم الرعب والخوف وفى ذلك كله نحن نستفيد الاستفادة كلها

لذلك ترى البلشفية يهودية والحرب الكبرى أشعلها اليهود ومنهم شوبنهور الفيلسوف الالمانى وماركس مؤسس مذهب البلشفية ولينين رئيس البلشفية الآن فى بلاد الروسيا ولا ترى فلسفة قائمة فى أوروبا الآن فلاسفة اليهود وهم هم الذين أذاعوا فى ألمانيا انه (لارحمة على ضعيف) حتى وقف غليوم ملك الالمان وقال (ويل للمغلوب) كل ذلك فعل اليهود وهم الذين قاموا يسترجعون فلسطين بعد ضياعها من أيديهم نحو ألفى سنة • ولقد أخبرنى أحدهم قائلا ان لهم جمعية دائمة ترسل فى كل عام جماعة تجوس الأقطار وتبحث فى الأمصار عن اليهود القاطنين فى الأماكن المختلفة وتحصى ما يحتاجون اليه من المعونة وترجع فترسل لهم ما اليه يحتاجون فهذه بعض خصال اليهود الدالة على محافظتهم على قوميتهم التى تغالوا فيها الى الاضرار بالأمم

﴿ علم الأخلاق واليهود ﴾

وهاك حكاية رواها علماؤنا السابقون فى علم الأخلاق قائلين ان الانسان قد تكون أخلاقه تابعة لاعتقاده فاذا اعتقد رأيا أو ذهب مذهبا وتصوّره وتحقق به صارت أخلاقه وسجاياه مشاكلة لمذهبه واعتقاده لأنه يصرف أكثر همه وعنايته الى نصرة مذهبه وتحقيق اعتقاده فى جميع متصرفاته فيصير ذلك خلقا له وسجية وعادة يصعب اقلاعه عنها

﴿ حكاية يهودية ﴾

والمثال فى ذلك ماجاء فى الخبر أن رجلين اصطحبا فى بعض الأسفار أحدهما مجوسى من أهل كرمان والآخر

يهودى من أهل أصفهان والمجوسى كان راكبا على بغلة وعليها أمتعته واليهودى كان ماشيا ليس معه شئ فبينما هما يتحدثان قال المجوسى لليهودى ما مذهبك قال اليهودى مذهبى ان فى السماء إلها هو إله بنى اسرائيل أسأله الرزق والصحة وأن يعيننى ويعين بنى اسرائيل وان جميع بنى آدم لا حرمة لهم فمالهم ودمهم حلال لى ولأهل دينى ويحرم على نصرة من ليس على دينى والشفقة عليه فقال المجوسى أنا أعتقد أنه يجب على أن أريد الخير لأبناء جنسى كلهم ولا أريد سوأ لأحد من أهل دينى وغيرهم وان ظلمنى وتعدى على لأن إلهى فى السماء إله الجميع وهو عادل فقال اليهودى للمجوسى اذن انصر مذهبك لأنى من أبناء جنسك فأركبنى بغلتك فقد ترانى متعوبا وأطعمنى فقد ترانى جائعا فأركبه ساعة وأطعمه ومشى المجوسى فلما أعيا المجوسى حرك اليهودى البغلة وسبقه فقال المجوسى قف فقد أعييت فقال اليهودى ألم أخبرك عن مذهبى فأنا اليوم أنصره أنت نصرت مذهبك باعطائى البغلة وأنا أنصره بخيانتك فقال له المجوسى أتتركنى هنا كأنى الوحوش والسباع فمضى اليهودى فأما المجوسى فانه فكر فى اعتقاده وقال قد قمت بأمر اعتقادى فأعطيته فلأقم بآخره فادعو إله السماء فقال يا إلهى أنا قمت بأمرك فحقق لليهودى وعدك لى بالنصرة عليه لبغيه فمشى قليلا حتى رأى البغلة قد رمت اليهودى ودقت عنقه وهى واقفة تنتظر صاحبها فلحقها وركبها وترك اليهودى فى البرية للسباع والوحوش فقال اليهودى ارحمنى ولا تتركنى فقال المجوسى قد فعلت مرة ولم تفهم ما قلت لك ان فى السماء إلها يجازى بالعدل فما منعك أن تعمل به وخنتنى قال مذهب نشأت عليه وصار طبيعة فى اقتداء بالآباء والأمهات والأستاذين والمعلمين فحمله المجوسى معه حتى جاء به المدينة وسلمه الى أهله مكسورا وحدث الناس بقصته فلامه الناس على رحمته له وكيف حمله بعد الخيانة فقال انه اعتذر بأن هذا المذهب صار عادة يصعب اقتلاعها فأنا كذلك الرحمة عادة يصعب اقتلاعها اهـ

واعلم أيها الذكى ان هذا المذهب اليهودى اليوم صار صفة عامة فى رجال السياسة فى الأمم الأوروبية فأصبحوا خائنين يستحلون دماء أهل الشرق وأموالهم ودماء بعضهم وان أمم النصارى فى ديارهم محبون لبعضهم فى داخلها ولكن دولهم متقاطعة متعادية مع بعضها ومع أمم الشرق ومعاملاتهم السياسية كمعاملة اليهود فلله الأمر من قبل ومن بعد وهو حسبنا ونعم الوكيل

﴿ اللطيفة الثالثة ــ تفصيل الكلام فى قوله تعالى ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا ﴾

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من حلف على يمين صبر يقتطع بها مال امرئ مسلم لقى الله وهو عليه غضبان وأنزل الله تصديق ذلك ــ ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا الآية ــ ولقد قدمت لك انه يدخل فيه العهود والمواثيق المأخوذة من جهة الرسل ويدخل فيه ما يلزم الرجل نفسه من عهد وميثاق فكل ذلك من عهد الله الذى يجب الوفاء به

﴿ واجب علماء الاسلام والحلف بالله ﴾

على المسلمين فى أقطار الأرض أن ينظروا فى مسألة الأيمان فان الله عز وجل يقول ــ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم الآية ــ وتقدم تفسيرها فى سورة البقرة والآية هنا قد نددت على الحالفين الكاذبين وانهم لا نصيب لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ــ واعلم أن المسلمين قد ابتلوا بالحلف صدقا وكذبا ولم يجدوا من العلماء من يمنعهم مع أن الوعيد الذى جاء على الحلف لم يكن على سواه من أمور الدين

ولعل ما نشاهده من الذلة والهوان والجهل المطبق واذلال الأمم للمسلمين ربما جاء من هذا الخلق اللئيم الحلف بالله والكذب فى الوعد فعلى علماء الاسلام فى الأقطار أن يخيفوا المسلمين من هذا العمل الشائن والقول الكاذب والوعد المخلف فان هذا يرقى أخلاقهم ويعدل نفوسهم والله هو الولى الحميد

﴿ اللطيفة الرابعة ــ فى الأمة العربية قديمها وحديثها ﴾

وفى وفد نجران وكيف كان ساداتهم يمتنعون عن الاسلام حفظا للرياسة واحتراما للعهود التى أخذها الفرنجة

عليهم واعجب كيف كانت الدولة الرومانية ذات سلطان عليهم بحيث لا يبرمون أمراً الا اذا رضيته ولا يدرون الا ما كرهته واعجب للأمة العربية كيف كانت خاضعة لسلطان الأمم فكانت فارس من جهة لها سلطان والروم من أخرى لها سلطان وهما يتجاذبان العرب وكل منهما يدلى اليهم بسبب من القوة تارة والمال أخرى وهم كرة بصوالجة فتلقفها هذه مرة وتلك أخرى كريشة فى مهب الريح ساقطة لا تستقر على حال من القلق

حتى اذا جاء الاسلام زال الغمام واستتب السلام وترك الزمام وصينت الأمة وعظمت المنة وتوحدت القيادة وثبتت السيادة وغلبت العرب وظهر منهم العجب وأصبحوا سادة بعد ان كانوا مسودين وقادة بعد ان كانوا مقودين وثبت ملكهم على الأساس ـ وتلك الأيام نداولها بين الناس ـ

هذا ما كان فى الأيام الخالية والقرون الماضية ثم انقلب الزمان واستدارت الأيام وتبدلت المحن وكثرت الاحن ودارت الدورة الشمالية فى الأفلاك العلوية فرجع بعض العرب الى أيام جاهليتهم وغلبهم من كان من خدامهم فترى كثيراً من أمرائهم بالفرنجة يحتمون وعلى مدافعهم يعولون وبقربهم يفرحون ولهم يقدمون وكأن الاسلام ما كان فهم كملوك الطوائف الفارسية بعد دولة الاسكندر وكتلك الممالك الأندلسية ـ فانا لله وانا اليه راجعون وترى الشريف حسين بن على يجعل الحرمين تحت إشراف الانجليز والمسجد الأقصى بفلسطين تحت اشرافهم واشراف اليهود ولقد طرد الأطباء الذين أرسلتهم بلادنا المصرية أن تدخل الأقطار الحجازية ومنعهم من دخول البلاد المقدسة فرجع المحمل المصرى ومن معه من الحاجين وذلك عند كتابة هذه الأسطر وفى ظنى ان هذه الحال لا تدوم وان الأمة الاسلامية ستأنف دورها ويعظم قدرها وتحفظ كيانها وترجع مجدها وتصون بيضتها وتتم حجتها وتكون من أجل أمم العالمين كما قررناه فى هذا الكتاب وقررناه فى كل باب وليكونن للاسلام شأنه وللمجد العربى حسنه فالدهر قلب والزمان استدار ولينصرن الله الشرق وأهله ويعطى القوس من كان له ويرجع العلم الى نصابه والسيف الى قرابه وتدخل المدنية من بابها وتطلع الشمس من مشرقها بعد المغارب ويظهر جمالها فى تلك السباسب فيعز من كان ذليلا ويذل من كان عزيزا وتقر النواظر وتسر الخواطر وتشرح الصدور ويظهر السرور ويزينه النور وتقوم دول كانت نائمة وتخنس أمم كانت قائمة ـ سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا ـ

القسم السابع من سورة آل عمران

وهو فصلان اثنان * الفصل الأول فى طلب اتحاد المسلمين وأنهم خير أمة * الفصل الثانى فى توصيف أعدائهم وايجاب الاحتراس منهم

(الفصل الاول)

يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ كافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آياتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ * يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ *

وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ *

بعد أن أمر الله النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يخاطب أهل الكتاب تقريعا لهم لصدهم عن سبيل الله أخذ يخاطب هو سبحانه المؤمنين بنفسه تعظيما لهم وتكريما واسعادا لهم وتشريفا قائلا (يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم الخ) ذلك أن نفرا من الأوس والخزرج كانوا جلوسا يتحدّثون فرّ بهم شاس بن قيس اليهودى فغاظه تألفهم واجتماعهم فأمر شابا من اليهود أن يجلس اليهم ويذكرهم يوم بعاث وينشدهم بعض ماقيل فيه وكان الظفر فى ذلك اليوم للأوس ففعل فتنازع القوم وتفاخروا وتغاضبوا وقالوا السلاح السلاح واجتمع من القبيلتين خلق عظيم وغضب الفريقان غضبا عظيما فتوجه اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقال أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد اذ أكرمكم الله بالاسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بين قلوبكم فعلموا أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوّهم فألقوا السلاح واستغفروا وعانق بعضهم بعضا وانصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما خاطبهم الله بنفسه بعدما أمر الرسول أن يخاطب أهل الكتاب تشريفا لقدرهم واعظاما لمقامهم. فتراه يقول فيما تقدّم قل يا أهل الكتاب تعالوا الخ ولكن يقول هنا الله عز وجل مخاطبا المؤمنين (يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب) يعنى شاسا اليهودى وأصحابه (يردوكم بعد ايمانكم كافرين) والكفر موجب لهلاك الدارين. ولما كان المسلمون يتلون القرآن وفيه الارشاد والنصائح كانت حالهم داعية الى تعجب المتعجبين فانه لا يليق بهم التخاذل والانقسام بعد ما سمعوا من الحكم والأحكام فلذلك أعقبه بقوله (وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله). ولما كان التعجب محالا على الله كان المراد منه المنع والتغليظ قال قتادة فى هذه الآية علمان بينان كتاب الله ونبيّ الله صلى الله عليه وسلم أما نبيّ الله فقد مضى وأما كتاب الله فقد أبقاه الله بين أظهركم رحمة منه ونعمة (ومن يعتصم بالله) أى يستمسك بدينه فى الحلال والحرام وجميع الأحكام ويلتجئ اليه فى جميع الامور (فقد هدى الى صراط مستقيم) طريق واضح وهو الطريق المؤدّى الى الجنة (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) تقوى الله حق تقاته أن يطاع فلا يعصى ويشكر فلا يكفر ويذكر فلا ينسى كما قاله ابن مسعود وهذا ظاهره أنه خارج عن طاقة العبد ولكن المحققون حملوه على ما يقدر عليه العبد فلو كان الانسان ساهيا أو ناسيا غفر له ذلك وهؤلاء جعلوا قوله تعالى - فاتقوا الله ما استطعتم - فى سورة التغابن مفسرا لهذه الآية فهى محكمة لا منسوخة كما قاله ابن عباس وطاوس وغيرهم جعل الأولى منسوخة بالثانية كسعيد بن جبير وقتادة والسدى وقوله تعالى - ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون - أى لا تكونن على حال سوى حال

الاسلام اذا أدرككم الموت فالنهى متوجه هنا للقيد الذى قيد به الموت (واعتصموا بحبل الله جميعا) اذ من تمسك بالحبل المعارف نجا من التردى هكذا من تمسك بدين الاسلام أو القرآن نجا من الهلاك فى الدنيا والآخرة فالحبل مستعار للقرآن أو للدين . ومعنى الاعتصام هنا الوثوق والاعتماد عليه . وقوله جميعا أى مجتمعين عليه (ولا تفرقوا) أى لا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كما تفرق أهل الكتاب وأهل الجاهلية (واذكروا نعمة الله عليكم) بالهداية والتوفيق للاسلام الذى يهدى الى الائتلاف وكم لله من نعم غيرها (اذ كنتم أعداء) فى الجاهلية تتقاتلون (فألف بين قلوبكم) بالاسلام (فأصبحتم بنعمته اخوانا) متحابين مجتمعين فى الله . يقال كان الأوس والخزرج أخوين لأبوين فوقع بين أولادهما العداوة وتطاولت الحروب مائة وعشرين سنة حتى أطفأها الله بالاسلام وألف بينهم نبينا صلى الله عليه وسلم (وكنتم) يامعشر الأوس والخزرج (على شفا حفرة) على طرف حفرة مثل شفا البئر ليس بينكم وبين الوقوع فى النار الا أن تموتوا على كفركم (فأنقذكم منها) أى نخلصكم بالايمان من الحفرة أو النار . أو الشفا بمعنى الشفة أى الطرف (كذلك) أى مثل ذلك التبيين (يبين الله لكم آياته) دلائله (لعلكم تهتدون) ثم قال تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) قوله منكم للتبيين أى كونوا أمة تدعون الى الخير الخ كقوله كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف الخ والدعاء للخير يشمل كل مافيه صلاح دينى أو دنيوى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أخص من الدعاء للخير . ذكرا معطوفين عليه للتنبيه على فضلهما ويصح أن يقال ولتقم طائفة منكم بالدعاء الى الخير والأمر بالمعروف الخ على ان من للتبعيض ذلك لأن الدعاء للخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يقوم بهما الا من استوفوا شرائط خاصة وهى فروض كفايات وفروض الكفايات متى قام بها قوم سقطت عن الباقين ولو تركوها أثم جميع المسلمين (وأولئك) الداعون الآمرون الناهون (هم المفلحون) الذين اختصوا بكمال الفلاح * روى أنه عليه الصلاة والسلام سئل من خير الناس فقال آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأوصلهم للرحم (ولا تكونوا) يامعشر المؤمنين (كالذين تفرقوا) وهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى (واختلفوا) فى التوحيد والتنزيه وأحوال الآخرة وأمر الله ونهيه (من بعد ما جاءتهم البينات) الحجج المبينة للحق الموجبة للاتفاق عليه . والتفرق المذموم انما هو فى الأصول دون الفروع لقوله عليه الصلاة والسلام من اجتهد فأصاب فله أجران ومن أخطأ فله أجر واحد (وأولئك) المتفرقون المختلفون (لهم عذاب عظيم) وقوله تعالى (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) منصوب بما فى لهم من معنى الفعل أى لهم عذاب عظيم يوم تبيض وجوه بالبهجة والسرور وتسود وجوه بالكآبة والحزن فالبياض والسواد كنايتان عن ذلك (فأما الذين اسودت وجوههم) من أهل الكفر والردة والنفاق يقال لهم على سبيل التوبيخ والتعجيب (أكفرتم بعد ايمانكم) اذ مكنتم بالفطرة من الايمان أو آمنتم بالقرآن ثم كفرتم أو ارتددتم (فذوقوا العذاب) أمر اهانة (بما كنتم تكفرون) أى بسبب كفركم (وأما الذين ابيضت وجوههم) من أهل الايمان والمخلصين (ففى رحمة الله) أى جنة الله وعبر عنها بالرحمة لأنها دارها ولأن حياة الانسان وعمله وما يترتب عليه كله من رحمة الله تعالى وجميع الوجود من رحمة الله وكأنه يقال أدائمة هذه الرحمة أم منقطعة فقيل (هم فيها خالدون تلك آيات الله) الواردة فى وعده ووعيده (نتلوها عليك بالحق) متلبسة بالحق فلا شبهة فيها (وما الله يريد ظلما للعالمين) وكيف يكون منه الظلم ولا ظلم الا حيث يوضع الشئ فى غير موضعه ومن وضع الشئ فى غير موضعه تهدم بنيانه وزال ملكه فليس ابيضاض بعض الوجوه واسوداد الأخرى وعذاب قوم ونعيم آخرين الا على أساس ونظم ثابتة بموازين صادقة لحكم معلومة عنده فى كتاب مكنون والملك لا ثبات له الا على العدل والنظام ووضع الشئ فى موضعه ولو أن ملكه أسس على غير العدل لزال ولكننا وجدنا مثل السموات والأرض منه منظما دائما فالعدل اذن ثابت أزلا وأبدا ولذلك أعقبه بقوله (ولله ما فى السموات وما فى الأرض) وقد قاما على العدل ولولاه لفنيا وهو كما أسس ملكه على العدل لا يبقى من الأمم إلا العادلة ولا يرفع عنده الا العادلون ولذلك قال (والى الله ترجع الأمور) فيبقى الأمم مادامت نافعة مضاهية لنظامه

ويفنيها ان ظلمت هكذا يثيب ويعاقب الناس على مقتضى ذلك • ولما كان المسلمون العاملون بمقتضى القرآن الذين يعتصمون بحبل الله جميعا لا يتفرقون الداعون الى الخير الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر أقرب الى الخير والعدل كما أن السموات والأرض أسستا على العدل قال الله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) أى أظهرت لهم أى ما أخرج للناس خير من أمة محمد صلى الله عليه وسلم • ثم بين كونهم خير أمة فقال (تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) فهذه هي المزية التى فضل المسلمون بها سائر الأمم وهذه المزية لا تتم الا بشرطها وهو الايمان فلذلك قال (وتؤمنون بالله) ثم ذكر على سبيل الاستطراد أهل الكتاب فقال (ولو آمن أهل الكتاب) من اليهود والنصارى بمحمد صلى الله عليه وسلم (لكان خيرا لهم) مما هم عليه من اليهودية والنصرانية (منهم المؤمنون) كعبد الله بن سلام وأصحابه الذين أسلموا من اليهود والنجاشي وأصحابه الذين أسلموا من النصارى (وأكثرهم الفاسقون) المتمردون فى الكفر طلبا للمناصب والرياسة وبهذا تم الفصل الأول من القسم السابع

(الفصل الثاني من القسم السابع)

لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ * ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ *

لقد عمد رؤساء اليهود الى من آمن منهم فآذوهم فأنزل الله (لن يضروكم الا أذى) ضررا يسيرا كطعن فى الدين وتهديد (وان يقاتلوكم يولوكم الأدبار) منهزمين فلا يضروكم بقتل أو أسر (ثم لا ينصرون) وهذه الجملة ابتداء اخبار معطوفة على جملة الشرط والجواب فكأنه قيل أخبركم انهم ان يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم أخبركم أنهم لا ينصرون وهذه الآية قد تحقق ما جاء فيها من الغيب فان بنى قريظة والنضير ويهود خيبر قد غلبوا فمنهم من قتل ومنهم من نفى وأخرج من الديار (ضربت عليهم الذلة) هدر النفس والمال والأهل والتمسك بالباطل والجزية (أينما ثقفوا) وجدوا (الا بحبل) عهد (من الله وحبل من الناس) أى الا بعهد وذمة من الله وكتابه وذمة المسلمين أو الا بدين الاسلام واتباع سبيل المسلمين (وباؤا بغضب من الله) رجعوا به (وضربت عليهم المسكنة) فهى محيطة بهم كما يحيط البيت المضروب على أهله. ويقال ان اليهود غالبا أذلاء اذ ليست لهم دولة ولا ملك (ذلك) أى ما ذكر من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بغضب (بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق) بسبب كفرهم وقتلهم (ذلك) الكفر والقتل (بما عصوا وكانوا يعتدون) بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله (ليسوا سواء) أى ليس أهل الكتاب سواء فى المعاصى (من أهل الكتاب أمة قائمة) جماعة مستقيمة عادلة من أقمت العود فقام وهم الذين أسلموا منهم (يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون) يتلون القرآن ساعات الليل ـ يقال أنى كمعى وأنو كقنو ـ وهم يصلون متهجدين (يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف) كالايمان وسائر أبواب البر (وينهون عن المنكر) الكفر ومنهيات الدين (ويسارعون فى الخيرات) يبادرون اليها خشية الفوت. وهذه الصفات خاصة بمن أسلم من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام. أما أولئك الذين لم يسلموا فهم لا يصلون بالليل ولا يؤمنون بالله الا ايمانا مشوبا بالشرك. وهكذا بقية الصفات (وأولئك) الموصوفون بما ذكر (من الصالحين) الذين صلحت أعمالهم وأحوالهم عند الله فرضى عنهم (وما يفعلوا من خير فلن يكفروه) فلن يحرموا جزاءه (والله عليم بالمتقين) بشارة للمتقين بجزيل الثواب (ان الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من) عذاب (الله شيئا وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)*وقوله تعالى (مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا الخ) أى فى المفاخر والمكارم وكسب الثناء وحسن الذكر بين الناس أو ما يتقربون به الى الله وهم كافرون أى مثل اهلاك ما ينفقون (كمثل) اهلاك (ريح فيها صر) برد شديد (أصابت حرث) زرع (قوم ظلموا أنفسهم) بالكفر (فأهلكته) عقوبة لهم على كفرهم (وما ظلمهم الله) باهلاك زرعهم (ولكن أنفسهم يظلمون)*واعلم أن هذه الصفات من ضرب الذلة والبوء بالغضب والكفر وقتل الأنبياء والعصيان والاعتداء وعدم نفع أموالهم لهم وكونهم أصحاب النار وأن ما ينفقونه ضائع لا تلائم صفات المؤمنين الذين يتلون آيات الله ويسجدون ويؤمنون بالله ويؤمنون باليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات واذا فعلوا خيرا نالوا ثوابه والله عليم بهم. وهذا بشارة لهم فهذه تسع صفات لمؤمنى أهل الكتاب تقابل تسع صفات للكافرين منهم كما يقابل الليل النهار والظلمة الضياء والعدم الوجود. وأنت تعلم ان العداوة انما تنشأ من اختلاف الصفات وتباعد الأخلاق ومن تباعدت أخلاقهم وتنافت صفاتهم وآدابهم لا يتناصحون بل يتنافرون ولذلك أعقبه بما ترتب عليه من النصيحة للمؤمنين أن لا يتخذوا لهم منهم أصدقاء يفشون لهم أسرارهم فقال (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة) بطانة الرجل ووليجته صفيه شبه ببطانة الثوب ويقال فلان شعارى والشعار الثوب الذى يلامس الجسم بخلاف الدثار (من دونكم) من دون المسلمين أى بطانة كائنة من دونكم (لا يألونكم خبالا) أى لا يقصرون لكم فى فساد دينكم ودنياكم. يقال ألا فى الأمر يألو قصر فيه والخبال الفساد (ودوا ما عنتم) أى ودوا عنتكم أى شدة ضرركم ومشقتكم أى تمنوا أن يضروكم فى دينكم ودنياكم أشد الضرر وأبلغه وهذه جملة مستأنفة وهم مع ضبطهم أنفسهم يتفلت من ألسنتهم ما يعلم به بغضهم للمسلمين (قد بدت البغضاء من أفواههم)

ومهما يكن عند امرئ من خليقة * وان خالها تخفى على الناس تعلم

(وما تخفى صدورهم أكبر) مما بدا لأن بدوّه ليس عن روية واختيار ولما كان أكثر الناس يغفل عن كشف

المواطن بفلتات ألسنتهم أعقبه بقوله (قد بينا لكم الآيات) الدالة على علامات الأعداء وموالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين (ان كنتم تعقلون) مابيناه لكم والجمل مستأنفة ويجوز أن تكون الثلاثة الأولى صفة لبطانة (ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم) أى أنتم أولاء الخاطئون فى موالاة الكفار من يهود ومنافقين وغيرهم وافشائكم الأسرار لهم إما لقرابة أو مصاهرة أو غيرهما تحبونهم فتفشون لهم أسراركم ولا يحبونكم فلا يفعلون مثل ذلك معكم وهم فى باطلهم أصلب منكم فى حقكم لأنهم لا يؤمنون بكتابكم (وتؤمنون بالكتاب كله) ومنه كتابهم (واذا لقوكم قالوا آمنا) نفاقا (واذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) من أجل الغيظ تأسفا وتحسرا حيث لم يجدوا الى التشفى سبيلا (قل موتوا بغيظكم) دعاء عليهم بدوام الغيظ بتضاعف قوة الاسلام (ان الله عليم بذات الصدور) أى بالخواطر القائمة بالقلب . ولما كانت حالة فى القلب كنى عنها بذات الصدور فهو يعلم مايسرونه من عض الأنامل غيظا اذا خلوا وما هو أخفى منه وهو مايسرونه فى قلوبهم (ان تمسسكم حسنة) من خير ومنفعة (تسؤهم وان تصبكم سيئة) من ضر وشدة (يفرحوا بها) شماتة وذلك لتناهى عداوتهم فهم تارة حساد وتارة شامتون (وان تصبروا) على عداوتهم وعلى مشاق التكاليف (وتتقوا) موالاتهم وما حرم الله عليكم (لا يضركم كيدهم) عداوتهم ومكرهم (شيئا) لأن المتقين فى كنف الله والصابرين الذين اطمأنت نفوسهم للحوادث يقل انفعالهم لما يصيب من المكروه (ان الله بما تعملون) من الصبر والتقوى (محيط) علمه فيجازيكم بما أنتم أهله . وقد قرئ بالياء أى بما يعملون فى عداوتكم فيعاقبهم * انتهى القسم السابع وتفسيره اللفظى

وهنا لطائف اللطيفة الأولى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر * الثانية ـ وما الله يريد ظلما للعالمين ولله مافى السموات ومافى الأرض ـ * الثالثة ـ كنتم خير أمة أخرجت للناس ـ * الرابعة ـ ضرب الذلة والمسكنة على اليهود ـ * الخامسة ـ وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ـ * السادسة ـ اتخاذ البطانة من الأعداء ـ

﴿ اللطيفة الأولى ﴾ ـ ان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الواردين فى هذه الآيات

قد تقدم الكلام عليهما فى آخر سورة البقرة عند قوله تعالى ـ لا يكلف الله نفسا الا وسعها ـ وبينا هناك العلوم والصناعات الواجبة على الأمة فكل علم وكل صناعة وكل فن من الفنون ووعظ وارشاد تجب على الأمة وقد بينا هناك ان الأمة الاسلامية اليوم قد تاهت فى الكسل فأحاطت بها أمم أوروبا وهكذا قد ألفت كتابا يسمى (القرآن والعلوم العصرية) بينت فيه ان الصناعات والعلوم واجبة على الذين لهم طاقة وقدرة من الأغنياء وغيرهم وأرسلت ذلك الكتاب والمجلد الأول من هذا التفسير المشتمل على الفاتحة والبقرة الى سائر الأمم الاسلامية شرقا وغربا وأرسلتهما الى ملوك الاسلام لأؤدى ما على قبل الفوت فكل من عنده علم وكتمه عاقبه الله عز وجل على كتمانه وتهاونه وغفلته والذى أضر بالأمم الاسلامية ظنها انها ليست ملزمة من العلوم الا بالفقه وهذا ضرب من الحماقة والجهل العظيم

﴿ اللطيفة الثانية ـ قوله تعالى وما الله يريد ظلما للعالمين ولله مافى السموات ومافى الأرض ﴾

لما كان الكلام السابق فيه قوم ابيضت وجوههم وآخرون اسودت وجوههم وقوم كفروا وآخرون آمنوا وقوم يعذبون وآخرون ينعمون وكان الخلق كلهم عباد الله وخلقه أردفه بقوله ـ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ـ فلا شبهة فيها وليس الله بمريد ظلما للعالمين وانما عمله عز وجل سائر على نظام أكمل والعدل انما هو النظام التام وليس العدل ما تتعارفونه بينكم وانما هو نظام العالم العام فاذن يكون العذاب والنعيم والكفر والايمان من كمال ذلك النظام التام فى السموات والأرض (ليس فى الامكان أبدع مما كان) واذا أردتم التثبت من هذه النظرية فتأملوا فى السموات والأرض تجدوا العدل فيهما من ظلمة ونور وأرض وسماء ورفع وخفض فلا تبتئسوا بما ترون فذكر السموات والأرض فى هذا المقام لتبيان العدل . وهذا المقام يحتاج لايضاح فأقول

(١) نظرة فى العوالم المشاهدة الأرضية (٢) نظرات القرآن فيها (٣) لم ذكرت السموات والأرض فى مواضع كثيرة فى القرآن

(١) نظرة فى العوالم المشاهدة الأرضية

اذا تأملت أيها الذكى فيما ترى فان فى الشجر والزرع والعنب مقاصد شتى ألم تر أن النخل تقصده لمآرب شتى فالجذع لسقوف بيوتنا والجريد لسقائف تفيأ ظلالها والخوص لأسفاطنا نضع فيها أمتعتنا والليف للحبال نشدّ بها ما أردنا والتمر نغتذى ونتفكه به هكذا التين والرمان وغيرهما النافيها مآرب شتى من فاكهة بثمره ودواء بورقه وتسوية طعام بخشبه وتفيؤ الظلال بشجره وهو قائم وهكذا . هذه هى الفوائد التى ننالها فى حياتنا الدنيوية

(٢) نظرات القرآن فيها

ولقد ذكر الله الزرع والنخل تارة للاستدلال على الخالق وتارة على البعث وتارة على فناء الناس وتارة على قرب الارتحال وهكذا

(٣) فأما عالم السموات

فقد جاء ذكره فى القرآن كذلك وفى كل موطن له مقصد جىء فيه لأجله ألا ترى الى ماجاء فى سورة البقرة فى قوله تعالى ـ ثم استوى الى السماء الخ ـ للاستدلال على اثبات الألوهية وفى قوله تعالى ـ ان فى خلق السموات والأرض الخ ـ للاستدلال على الوحدانية بالوحدة فى هذا الكون . وفى سورة آل عمران فى قوله تعالى ـ ان الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ـ للاستدلال على سعة علمه وهنا فى هذه الآية للاستدلال على عدم ظلمه يقول هنا ـ وما الله يريد ظلما للعالمين ـ فان كنتم فى شك من ذلك وقد رأيتم وجوها ابيضت وأخرى اسودت وقوما كفروا وآخرين آمنوا افلا تعتبروا هذا ظلما وأنتم لا تعلمون نهايات أعمالى فأنا لا أريد الظلم والظلم يتبعه الخراب والدمار والسموات والأرض باقيات آمادا طوالا واذا انتهت أيامها بدلت الأرض غير الأرض والسموات غير السموات والنظام فى الحالين تام فاذا كان هذا هو نظامى وهو لا خلل فيه فهو عين العدل فاذن يكون ماترون من كفر وايمان ونعيم وعذاب كله من تمام النظام فقوم يسجنون وآخرون يكرمون والنظام بهذا الاختلاف تام لا عوج فيه ومع ذلك كله فليس لكم الخوض فى هذا لأنكم لا تدرون غاياته ولا تعرفون نهاياته لأن عواقب الأمور ليست اليكم حتى تحكموا عليها وانما الأمور راجعات الى الله فانظروا لظواهر الكون وسلموا بأن الله عدل فأما الحقائق ونهاياتها فلا طاقة لكم بعلمها وانما الى الله ترجع الأمور اهـ

واعلم ان الكلام على السموات والأرض قد تقدم فى قوله تعالى ـ ثم استوى الى السماء وهى دخان ـ فهنالك مقال شاف فى عدد السموات وحقائقها وآراء المتقدمين والمتأخرين وهكذا بيان الوحدة فى هذا الوجود فى قوله تعالى ـ ان فى خلق السموات والارض ـ وايضاح الارض وفهمها ثم الكلام قد تقدم فى أول السورة على حركات الكواكب وعجائب النظام لبيان علم الله فارجع اليها هناك فى كل مقام بحسبه وهكذا سيأتى فى آخر هذه السورة النظر فى السموات للذكر والتفكر ودوام ذكر الله فى القيام والقعود وان هذا الخلق لم يكن باطلا فتعجب من غفلة بعض المسلمين الذين يقرؤن القرآن وهم عن الارض والسموات معرضون

يامن يقرأ كتابى هذا قل للمسلمين فى أقطار الأرض ان القرآن جعل الله فيه السموات والارض لبيان العدل وجمال الصنعة واتساع العلم وكل ذلك لارشادكم الى النظر والتفكر والبحث والتدقيق فان ذكرهن للعلم تارة ذكرهن للعمل والانتفاع أخرى ألم يقل فى سورة البقرة ـ هو الذى خلق لكم مافى الارض جميعا ـ طالت الآيات التى فيها اختلاف المسلمين والنصارى واليهود فأراد الله أن يقول ارجعوا الى وانظروا فى سمواتى وأرضى ولا يشغلنكم الاختلاف الدينى عن النظر الطبيعى

ولما كان الكلام على السموات قد أسهبنا فيه سابقا وكان ذكرها لاجل العدل لم يكن الا فى هذه الآيات ناسب أن نذكر وصف العلامة (فلامريون) الفلكى المشهور فنقول

كيف يقوى الفكر البشرى على الاحاطة بما لا يتناهى من الشموس والكواكب التى لا تعرف نهاياتها فتأمل

وصف (فلامريون) له وصفا سهلا يشهد بالعدل في النظام والتساوي في الاحكام وان سكان كل كوكب كأهل أرضنا يرون أقدار الكواكب وأعدادها على النحو الذي نراه نحن فهذا عدل عام وهذا مبدأ قوله يا أيها القارئ الكريم انه لو أتيح لنا أن نعيش ملايين الملايين من السنين وان نكشف طريقة للمواصلات أسرع من القطرات والاوتوموبيلات والطيارات طريقة يمكننا السير بها بسرعة النور أي بسرعة ٣٠٠ ألف كيلومتر في الثانية

فاذا تم ذلك لنا أصبحت الكرة الأرضية ضيقة بنا وصرنا بطبيعة الحال نتوق الى الطواف حول هذا الكون الواسع فنخرج من الارض الضيقة غير آسفين عليها قاصدين أقرب الكواكب وهو القمر الذي يبعد عنا ٣٨٩ ألف كيلومتر ولكن هذه المسافة الهائلة نقطعها في ثانية وثلث بسيارتنا المدهشة التي تسير بسرعة النور • ومتى وصلنا الى القمر رأينا الارض منه كوكبا يزيد حجمه أربعة أضعاف عن حجم البدر لما كنا ننظر اليه من الارض

ثم ننتقل منه الى المريخ وهو أقرب السيارات الينا وعلى مسافة خطوتين منا حسب الاصطلاح الفلكي لأنه لا يبعد عنا سوى ٦٠ مليون كيلومتر

والمريخ أصغر من الأرض لا يزيد قطره عن نصف قطرها الا قليلا ومادته نحو عشر مادتها وجوّه أقل كثافة من جوّها • ومتى وصلنا الى المريخ زرنا سكانه ـ اذا كان فيه سكان ـ ينظرون الى أرضنا التي هي نجمة الصبح عندهم كما ننظر نحن الى الزهرة ويسألون هل هي مسكونة أم لا وقد أجمعوا على أنها غير صالحة للسكنى لأن هواءها ثقيل جدا • فالثقل النوعي فيها أضعافه في المريخ • وكذلك السرعة • فالرجل الذي يزن في المريخ خمسة وسبعين كيلوغراما يزن على الأرض أكثر من مائتي كيلوغرام • والجسم الذي يقع من علو شاهق يقطع في المريخ مترا و ٨٤ سنتيمترا في الثانية • وهذا منتهى ما تستطيع أن تقطعه الأجسام في عالم صالح للحياة على رأي علماء المريخ أما على الأرض فالجسم الذي يقع فيها من أعلى الى أسفل يقطع أربعة امتار وتسعين سنتيمترا في الثانية ثم تزداد سرعته على نسبة مربع البعد • لذلك قرر علماء المريخ ان الأرض غير صالحة للحياة ولاسيما وأن قربها من الشمس يحول دون نموّ الحياة فيها • أما المريخ فهو الكرة المتوسطة الصالحة للحياة اذ لابرد ولاحر فيها

وهذا القول نسمع مثله في كل السيارات والكواكب الآهلة بالسكان والتي نمر بها في سياحتنا المدهشة • ثم نبرح من المريخ الى زحل الذي يبعد عن الشمس نحو ٨٨٢ مليون ميل فنصل اليه في نحو سبع دقائق اذا سرنا بسرعة النور • ويبلغ حجم زحل ٧٤٥ ضعفا من حجم الأرض • والسنة فيه تعادل ٢٩ سنة تقريبا من سني الأرض • ولهذا السيار تسعة أقمار لا ترى من أرضنا الا بالمنظار

وبعد ما نجتاز السيارات واحدا فواحدا نصل الى نجم (الفا) الذي هو أقرب النجوم الى الشمس لأنه لا يبعد عنا سوى ٢٧١ ألف ضعف بعد الشمس • فالقطار الذي يسير اليه بسرعة ٦٠ كيلومترا في الساعة لا يبلغه الا بعد ٧٥ مليون سنة سنة • ولا تصل القنبلة اليه الا بعد مليون ونصف مليون سنة بعد انطلاقها • واذا وقع فيه انفجار هائل فاننا لا نسمع صوت هذا الانفجار الا بعد مرور ثلاثة ملايين سنة على وقوعه

واذا واصلنا سيرنا مسافة مائة مليار كيلومتر بلغنا نجما يعده علماء الفلك من نجوم القدر الثاني عشر • ثم نجما آخر يبعد عن الأرض ٦٥٢٠ سنة اذا سرنا اليه بسرعة النور • ثم آخر وهكذا على التوالي

وكلما تقدمنا في الفضاء اللامتناهي رأينا عوالم جديدة تتألف كل منها من ألوف من الشموس ويبعد الواحد عن الآخر مليارات المليارات من الأميال الى أن نصل الى المجرة التي تبدو لسكان الأرض ذرات من الرمال كل ذرة منها شمس محرقة

ثم نبلغ بعد ما نسير ألوفا أخرى من السنين بسرعة النور الى مجرة أخرى فأخرى الى ما لا نهاية لها • فينقضي عمرنا الذي فرضناه ملايين الملايين من السنين ونحن في وسط الفضاء اللامتناهي لم نتقدم خطوة ولم نبلغ غاية وكثيرا ما نشاهد حولنا في ابان سيرنا في الفضاء بسرعة النور عوالم مندثرة تدلنا على ان كل شيء في الكون عرضة للموت ولكنه ينبعث

بشكل آخر ولا يتغير منظر السماء علينا فى هذه الرحلة الهائلة الا فى وضع النجوم واذا حاولنا أن نكشف موضع الارض اضطررنا الى البحث عن مركز الشمس أما النجوم فتكون بالنسبة الينا كما كانت ونحن على الارض فاذا أحصيناها من أى محل كان وجدناها ١٩ نجما من القدر الاول و ٦٠ من القدر الثانى و ١٨٢ من القدر الثالث و ٥٢٠ من القدر الرابع و ١٦٠٠ من القدر الخامس و ٤٨٠٠ من القدر السادس (وهذا كل ما يرى بالعين المجردة) و ١٣ الفا من القدر السابع ثم يزداد عددها بسرعة كما لو كنا قربها من الارض حتى يبلغ عدد نجوم القدر الخامس عشر ٤٠ مليونا أما نجوم القدر السابع عشر والثامن عشر فلا تقع تحت حصر فنستدل من ذلك على اننا لو سرنا فى الفضاء بسرعة النور مليارات المليارات من السنين لما تغير شكله بالنسبة الينا ولما اختلفت مناظره كثيرا عما كانت عليه ونحن فى الأرض

ونقول الآن ان الحياة موجودة فى النظام الشمسى موجودة فى الأرض بلا جدال وموجودة فى المريخ والزهرة على الغالب وان السيارات الأخرى كعطارد والمشترى وزحل وغيرها ليست قفراء ولكن سكانها يختلفون عنا على ما يظن اختلافا كبيرا فى تركيبهم الكيماوى

وكما ان للشمس ثمانى سيارات يتألف منها نظامنا الشمسى . كذلك النجوم التى كل منها شمس هائلة . فقد أثبت العلم ان للنجوم سيارات عديدة ورصد العلماء أخيرا بعض هذه السيارات وعرفوا كثيرا عن أحوالها

ولا يخفى أنه كان للعلوم الرياضية شأن كبير فى الاكتشافات الفلكية . فلولاها لما اكتشف السيار نبتون ولولاها لما عرف شئ كثير عن حقيقة العوالم السابحة فى الفضاء اللامتناهى . وقد لجأ علماء الفلك الى الرياضيات فى تقدير عدد العوالم الآهلة بالسكان فقالوا اذا فرضنا أن لكل من النجوم المعروفة لدينا ثمانى سيارات كما للشمس وأن ثلاثا من هذه السيارات الثمانى تصلح للحياة كان عدد العوالم الآهلة بالاحياء ٣٠٠ مليون أرض كأرضنا على أقل تقدير لأن ما أحصى من النجوم حتى القدر الخامس عشر بلغ مائة مليون نجم الى الآن . أما نجوم القدر السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر الخ التى لا يحصيها عدّ ولا تقع تحت حصر فلم تدخل فى حسابنا لأننا اقتصرنا على النجوم التى رصدها البشر ودرسوها . على أن ما قيل عن النجوم المعروفة يقال مثله عن النجوم التى لم يتوصل البشر بعد الى معرفتها . وحينئذ يصير عدد العوالم الآهلة بالأحياء أعظم من أن يحدّه رقم أو يقع تحت حصر

ولا ندرى لماذا يكون بين سيارات النظام الشمسى سيارات تصلح للحياة ولا يكون مثل ذلك بين سيارات النجوم . وقد ثبت أن النجوم ليست سوى شموس عظيمة لها سيارات كما للشمس ولكل نجم منها نظام مستقل كالنظام الشمسى مرّ أو سيمرّ فى مثل الدور الذى تجتازه الشمس وتوابعها الآن . فكما ان النظام الشمسى كان سديما واحدا ثم تجزأ أجزاء عديدة ثم جمدت هذه الأجزاء كذلك بعض النجوم . وكما أن نور الشمس يحتوى على أشعة ضرورية للحياة كذلك نور النجوم . فضلا عن أن المواد التى تتألف منها الشمس والسيارات هى المواد عينها التى تتألف منها النجوم كلها تقريبا . فلماذا نريد أن نحصر الحياة فى نظامنا الشمسى بل فى الأرض التى نعيش على سطحها . وليست الحياة الارضية من أرقاها (الانسان) الى أدناها (الاسفنج والمرجان) سوى نتيجة القوى الطبيعية العاملة فى الارض وفى كل كوكب تتوافر فيه شروط العمل المتوافرة بلا جدال فى جميع العوالم السماوية مهما اختلفت أحوالها

والظاهر ان أقدم الأحياء الأرضية ظهر لما كانت المياه لا تزال حارة ونشأ عن مزيج قوامه الكربون المتحد بالأوكسيجن والهيدروجن ولم يكن لهذه الاحياء حينئذ سوى شعور طفيف كشعور الاسفنج والمرجان . ثم ظهرت اليابسة وظهرت معها الاحياء التى تتنفس ومنها الأفاعى ثم الطيور والوحوش ثم الانسان

فالكربون اذن هو العنصر الاساسى فى الحياة الارضية . وليست الكيميا العضلية سوى كيميا الكربون كما يقال . والكربون موجود فى جميع السيارات التى لابد أن تكون قد مرت أو ستمرّ فى دور يمكنه من الاتحاد

بالاوكسيجن

بالأوكسيجن والهيدروجن بفعل قوى الطبيعة العاملة فى كل مكان فتظهر بذلك الحياة كما ظهرت على الأرض

وإذا لم يصح هذا القول الاعلى سيارة واحدة من السيارات التابعة لكل نجم معروف كان لنا ١٠٠ مليون عالم آهل بالسكان . أما اذا صح على ثلاث سيارات كما يرجح أن يكون فى السيارات التابعة للشمس فيزيد عدد العوالم المسكونة حينئذ على ٣٠٠ مليون . واذا اتخذنا هذه النسبة اساسا للبحث فيما يحتمل أن تكون عليه السيارات التابعة للنجوم التى لم يتمكن العالم من التعرف اليها بعد . بلغ عدد العوالم المأهولة بأحياء كالاحياء الأرضية حدا لا يحصيه عد ولا يحده حد

ولنعد الآن الى البحث فى الأحياء الذين يختلفون عن الأحياء الأرضية فى تركيبهم الكيماوى

لقد تقدم القول بأن الكربون هو قوام الاجسام الحية فى الارض . وان للكربون خصائص ومزايا لا يظهر تأثيرها الا فى أحوال شبيهة بأحوال الارض من الوجهة الطبيعية . لذلك لا يحتمل أن يكون فعله فى نبتون مثلا كفعله فى الأرض لاختلاف أحوال هذه السيارة من حيث الحرارة وكثافة النور وطبيعة المواد الموجودة فيها عنها فى أرضنا . ولكن القول بأن هذه السيارة والسيارات الاخرى كالمشترى وزحل وأورانوس وغيرها غير صالحة للحياة أبعد عن العقل والمنطق من القول بأن فيها أحياء يختلفون عنا فى تركيبهم الكيماوى لهم جهاز هضمى غير جهازنا ورئات غير رئاتنا وحواس غير حواسنا

واذا كان الكربون لا يصلح لان يكون عنصرا جوهريا لهذه الاحياء ففى الطبيعة عناصر أخرى يمكنها أن تحل محله . لنأخذ عنصر السيليسيا مثلا . فانه شديد الشبه بالكربون ينشأ عن اتحاده بالاوكسيجن حامض السيليسيك الموجود بكثرة فى كل سيارة . وتظهر بعض تراكيبه بمظاهر غريبة منها خلايا كخلايا النبات ونباتات كالنباتات الدنيا على ان هذه الخلايا ليست حية وان تكن شبيهة بالخلايا الحية ولكن من منا كان يعلم قبل سنوات ما نعلمه اليوم عن حياة الاسفنج وما الذى يدلنا على ان عنصر السيليسيا ليس فى العوالم الاخرى قواما للحياة كالكربون فى عالمنا الارضى وهو أكثر منه تحملا للحرارة فلا يحل فى درجة شديدة الحرارة ولا يجمد فى درجة شديدة البرودة

والاحياء الذين يحتمل وجودهم فى العوالم الاخرى ليسوا على شاكلتنا بلا جدال فهيئاتهم غير هيئاتنا وحواسهم غير حواسنا وتركيبهم الكيماوى غير تركيبنا

ولسنا ندرى لماذا يصعب على العقل التسليم بوجود حواس غير حواس البشر وأحياء غير الاحياء الارضيين وكلنا يعلم أن الارض بالنسبة الى العوالم الاخرى أصغر من ذرة رمال فى صحراء أفريقيا وأن حواسنا قاصرة جدّا عن ادراك كثير مما يقع حولنا

خذ مثلا اهتزازات أوتار العود . فاذا بلغت ٣٢ فى الثانية أثرت فى طبلة الاذن وأسمعتنا نغما أو صوتا وكلما زاد عدد الاهتزازات اختلفت الاصوات الى ان تبلغ ١٠٣٤ اهتزازا فى الثانية . وتبدأ الاذن تتألم بعد ما يزيد عدد الاهتزازات على ٧٠٠٠ فى الثانية ومتى بلغ عددها ٣٢ ألفا استحال على الاذن أن تسمع شيئا أما الاهتزازات التى يبلغ عددها ٣٤ مليارا فى الثانية فلا تقع تحت حاسة من حواس البشر لانها تصير تموّجات كهربائية

وتحدث التموجات التى يبلغ عددها بين ٣٤ مليارا و ٣٥ مليارا فى الثانية أشعة موجودة ولكن العلم لم يعرفها بعد وتختلف تموّجات النور بين ٤٥٠ الى ٧٥٠ تريليون فى الثانية وتبتدئ من الاحمر الى البنفسجى مارة بجميع الالوان والتموّجات الاقل عددا من تموّجات النور الاحمر هى أشعة الحرارة والتموّجات التى تزيد عددا على تموّجات النور البنفسجى أى على ٧٥٠ تريليون فى الثانية هى أشعة لا تؤثر فى العين ولكنها تؤثر فى الالواح الفوتغرافية

ومتى بلغت التموجات ٢٨٨ كتريليون فى الثانية نشأت عنها أشعة رنتجن فلو ان بصرنا يحس بهذه التموجات لما كان للالوان أثر فى الوجود بل كانت الارض تظهر لنا بمظهر غريب فنرى البشر هيا كل عظمية والاشجار عبارة عن سائل متجمد واذا شئنا حينئذ أن نستتر وجب علينا أن نرتدى لباسا من الزجاج والرصاص وأن نجعل نوافذنا

من الخشب بدلا من الزجاج

أما اذا استطاع بصرنا أن يشعر بتموجات أسرع من هذه التموجات فانه يرينا عجائب لا تخطر على بال انسان

فهل يبعد أن يكون للأحياء غير الارضيين حواس تجعلهم يشعرون بهذه الاشعة التى لا نشعر بها نحن لضعف حواسنا وقلتها

ان الحركة هى أساس كل شئ فى هذا الكون فالتموجات تسمع اذا كانت أقل من ٣٢ ألفا فى الثانية ومتى زادت عن ذلك تحولت الى ألوان ثم الى أشعة كهربائية فنورية فكيماوية ومعظمها لا يقع تحت حواسنا وان كنا نعرف نتائجه ونراها فلماذا يصعب على العقل أن يسلم بامكان وجود حواس غير حواس البشر تحس بهذه المظاهر وأمثالها

ان جميع ما فى الكون من عوالم ومجرات وشموس ونجوم وأقمار مرت أو يمر الآن أو سيمر فى المستقبل بمثل الدور الذى يجتازه اليوم عالمنا النجمى وعالمنا الشمسى أى دور صالح لنمو الحياة فقبل مئات الملايين من القرون كانت عوالم كثيرة كعالمنا الحالى موجودة فى الطبيعة ولكنها ليست العالم الذى نحن فيه لأن تلك العوالم قد دمرت الآن ولأن عالم اليوم لم يكن موجودا فى تلك الأثناء

كانت حينئذ نجوم وشموس وأقمار وسيارات وأيام وليال وقرون وفصول وسنوات وأحياء وحوادث ولكن غير النجوم والشموس والكواكب والاحياء الخ الموجودة اليوم

الأرض التى نحن عليها لم تكن قد تكونت بعد بل كانت سديما ليس فيه ماء ولا هواء ولا حياة ولا شئ من العناصر التى يسميها الكيماويون بسيطة كالهيدروجن والأوكسيجن والحديد والأزوت وغيرها كانت كلها غازا ملتهبا يحتوى على جراثيم الحياة وبذور الوجود اذا صح هذا التعبير

الانسانية وتاريخها والبشر ومجهوداتهم وكل ما فى الأرض من جماد وحيوان ونبات لم يكن موجودا فى هذا السديم الالهيئة نطفة أو جنين . ولم يكن محل الأرض سوى غاز متموج فى وسط الفضاء اللامتناهى . وقد قلنا محل الأرض وذلك خطأ لان الارض كسائر النجوم والشموس والسيارات لا تمكث دقيقة فى محل واحد بل تسير على الدوام فى الفضاء الواسع

لم تكن أرضنا موجودة حينئذ بل كانت نجوم وشموس وسيارات أخرى آهلة بالسكان كما هى الحالة اليوم وكان هؤلاء السكان يعيشون ويموتون ويتألمون ويسرون ويحبون ويكرهون ويتكاثرون جيلا بعد جيل مثلنا تقريبا وكانت لهم حضارة وشرائع وعلوم وآداب تتناسب مع درجة رقيهم فى مختلف الأدوار التى مروا بها

وكانوا يعتقدون كما نعتقد أن الخليقة كلها تقف عندهم ولا تتعدى دائرة فلكهم وقد انقرضوا كما سننقرض نحن لأن الأبدية التى لا بداية ولا نهاية لها لا تجرف أمامها الممالك والدول والشعوب فقط بل تجرف العوالم التى توالت وستتوالى الى الأبد أما الطبيعة فهى القوة الخالدة التى تعمل على الدوام انها باقية وكل ما عداها فان لان الماضى والمستقبل غير موجودين فى نظرها لان الحاضر هو كل شئ بالنسبة اليها

وان محاولتنا البحث فيما كانت عليه هذه العوالم كمحاولة النملة درس تاريخ الأرض فكما ان النملة تظن تاريخ البشرية محصورا فى تاريخ وكرها كذلك نحن وكما انها تظن نفسها صاحبة الحقل الذى تعيش فيه وتعتقد ان كل ما فى الكون ملك لها وتجهل وجود أحياء أخرى غيرها كذلك نحن بالنسبة الى العوالم الأخرى فما يمكننا والحالة هذه أن نعرفه عن العوالم المنقرضة أقل بكثير مما قد تعرفه النملة عن عالمنا الأرضى

وليس من السهل على عقلنا المحدود أن يتصور الأبدية التى لا حد لها وأن يقتنع بأن عوالم أخرى قبل عالمنا الحالى كانت تدور حول شموسها منذ الأزل وأنه لم يكن لها بداية ولن يكون لها نهاية ولكنها هى الحقيقة التى تدل على عظمة الخالق وجلال الخليقة

و بعد مئات الملايين من القرون تصبح الأرض التى نحن عليها صحراء قاحلة لان عالمنا الشمسى لا يعود حينئذ صالحا

للحياة

للحياة بل تنطفئ الشمس وتظلم السيارات وتنقرض الاحياء منها وستظل مواصلة سيرها فى الفضاء الواسع ملايين الملايين من القرون الى أن تصطدم بعالم آخر فيعيد اليها الحرارة والنور والحياة بقوة هذا الاصطدام

ولكن السدم التى نراها الآن تسكون قد تحولت حينئذ الى شموس تدور حولها كواكب يتعاقب فيها الليل والنهار وتنمو على سطحها الحياة وهكذا على التوالى الى مالانهاية له

فالفضاء ممتلئ الآن بعوالم لايحصيها عد منها ماظهر حديثا أى منذ ملايين من السنين ومنها مابلغ دور الشيخوخة ومنها ما أصبح فى حالة الانحلال ومنها مالايزال سدما غازية فهنا عوالم ممتلئة حياة وهناك شموس منطفئة وهنالك سدم فى حالة التسكوّن وقوى الطبيعة لا تنقص ولا تزيد بل هى فى حالة نشاط أبدى تعمل على تحويل عوالم الكون من حال الى حال اذ لاشئ يخرج من العدم ولاشئ يعود الى العدم فى هذا الوجود

اذن المستقبل كالماضى والعوالم المقبلة موجودة فى الطبيعة كالعوالم المنقرضة فاذا انطفأت شمسنا بعد ملايين من السنين فان الفضاء لا يكون خاليا حينئذ من شموس ونجوم وعوالم أخرى غير شمسنا ونجومنا وعالمنا ولا من الحياة وان تكن غير حياتنا فما وجد قبلنا ومعنا سيوجد حتما بعدنا فى حالة لاتختلف كثيرا عن حالنا

ولكن كيف يمكننا ان نتصور ذلك بل كيف يمكننا ان نستوعب (الزمان والمكان) اذا أخرجناهما من دائرة عالمنا المحدود ان المكان موجود من تلقاء نفسه أما الزمان فلا وجود له الا بالنسبة الينا لأن المكان يمكننا أن نتصوره فنعرف أنه فضاء خال أو ممتلئ كبير أوصغير يسع قليلا أو كثيرا فلو لم يكن العالم موجودا لما عجزنا عن تصور المكان أما الزمان فعلى عكس ذلك اذ لو لم تكن الارض موجودة تدور على محورها ولو لم يكن الليل والنهار لما وجدنا (الزمان) فاذا زال الكون بقى المكان ولكن الزمان يزول معه وما قولنا (اليوم) أو (غدا) الاقول نسبى لا يمكن أن يقال على اطلاقه فاذا توقفت الارض مثلا فى دورتها على محورها انتفى ماقصدناه بهذا القول واذا أسرعت الارض فى سيرها أسرع الزمان أيضا معها وهو لاوجود له بالنسبة الينا ونحن نيام فاذا نمنا مليون سنة فكأننا لم ننم سوى دقيقة واحدة ثم ان الحاضر لاوجود له بالنسبة الينا فهل هو الساعة كلا لأن الساعة يمكن تقسيمها الى ماض ومستقبل وهل هو الدقيقة كلا لأن الدقيقة تقسم أيضا وكذلك الثانية والساعة والدقيقة والثانية من مقاييس الزمن على سطح الأرض ولا يمكن أن تتخذ كذلك فى الكواكب الاخرى حتى فى أقربها الينا لاختلاف يومنا طولا وقصرا عن يوم كل منها بسبب السرعة فى دورانها على محورها ودورتها حول الشمس فالزمان بالنسبة الينا اما أن يكون ماضيا أو مقبلا أما الحاضر فاذا وجد على أرضنا فانه يكون عشر الثانية على الاكثر على أن الطبيعة لاتعرف الا الحاضر لان الماضى وجد والمستقبل موجود فى الماضى بالنسبة اليها ولان المقاييس التى نقيس بها الزمن نسبية لا يمكن اطلاقها على العوالم الاخرى ولا تتفق مع الابدية التى هى أهم خواص الطبيعة والوجود اه

أقول أفلست ترى ان العدل واضح فى هذا القول بحيث ان سكان كل كوكب يرون القدر الأول ١٩ والقدر الثانى ٦٠ والثالث ١٨٢ وهكذا يرى سكان كل كوكب كما يرى الآخرون اه

﴿ اللطيفة الثالثة — كنتم خير أمّة أخرجت للناس ﴾

قد تقدّم الكلام على هذا المقام فى سورة البقرة عند قوله تعالى — وكذلك جعلناكم أمّة وسطا — وعند قوله تعالى — ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه — وأبناهناك فى هذين المقامين ماينتظر من أمّة الاسلام فى مستقبل الزمان وكيف كان أبناء ابراهيم الخليل قد أصبحوا اليوم تحت أمر الفرنجة وان ذلك بسبب جهلهم فى الحجاز والشام ومصر وشمال أفريقيا وأنه قد اقترب الوقت الذى يبنون فيه مجدهم وآن أوان استيقاظهم وان تأخرهم لأنهم لم يقوموا بما قام به الخليل صلوات الله وسلامه عليه من الخصال الأربعين الموضحة هناك

﴿ اللطيفة الرابعة — فى الكلام على اليهود وانهم ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله ﴾

ولقد تقدّم الكلام على ذلك هناك فى سورة البقرة فى الآيات التاليات لقوله تعالى — واذ استسقى موسى لقومه

الخ ـ وهناك استبان كيف كان سقوطهم فى هاوية الضلالة درجات بعضها فوق بعض بالترتيب الطبيعى وهذا من أعجب العجب فانظر كيف ذكر اليهود فى سورة البقرة بصفات هى بعينها التى جاءت فى سورة آل عمران ولم يجعل لغيرهم كالنصارى والمجوس أو مشركى العرب ذلك دلالة على ان الحقيقة هى هى لا تحيد عنهم شعرة

﴿ اللطيفة الخامسة ـ وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾

لقد تقدم الكلام على الجنة والنار فى سورة البقرة فى قوله تعالى ـ واتقوا النار التى أعدت للكافرين ـ وسيأتى شرح أهم للجنة والنار فى هذه السورة قريبا ونذكر حقائق تسر الناظرين وكيف كان الكشف الحديث مطابقا للقرآن والحديث فى بيان النار

﴿ اللطيفة السادسة ـ اتخاذ البطانة من الكافرين ﴾

ولقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة البقرة فى قوله تعالى ـ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا الخ ـ

(القسم الثامن من سورة آل عمران)

وفى هذا القسم أربعة فصول * الفصل الاول فى نظام الدفاع عن البلاد الاسلامية والعقيدة الدينية والدعاية لها (وهذا هو الجهاد الأصغر) من قوله تعالى ـ واذ غدوت الى قوله تعالى والله غفور رحيم ـ الفصل الثانى فى الجهاد الأكبر بحفظ ثروة البلاد فلا يكون الربا و بالطاعة وحسن الخلق والعفو الخ من قوله تعالى ـ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة الى قوله تعالى ونعم أجر العاملين ـ الفصل الثالث فى الاعتبار بالأمم السالفة وأنبيائهم فلما صبروا مع أنبيائهم نصروا وفازوا من قوله تعالى ـ قد خلت من قبلكم الى قوله تعالى وهو خير الناصرين ـ الفصل الرابع تطبيق ذلك الاعتبار على هذه الأمة مع النبى صلى الله عليه وسلم من قوله تعالى ـ سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب الى قوله تعالى وخافون ان كنتم مؤمنين ـ

(الفصل الاول)

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ * لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *

﴿ تفسير هذا الفصل ﴾

روى أن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء ثانى عشر شوال سنة ثلاث من الهجرة فاستشار الرسول عليه الصلاة

والسلام

والسلام أصحابه ودعا عبدالله بن أبي ابن سلول ولم يدعه من قبل فاستشاره فقال عبدالله ابن أبي ابن سلول (كثر الأنصار يارسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج اليهم فوالله ماخرجنا منها الى عدوّ قط الا أصاب منا ولا دخلها علينا الا أصبنا منه فكيف وأنت فينا فدعهم يارسول الله فان أقاموا أقاموا بشر مجلس وان دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم وان رجعوا رجعوا خائبين) وكان صلى الله عليه وسلم أميل الى هذا الرأى وقال بعض أصحابه أخرج بنا الى هذه الاكيلب لئلا يروا انا جبناعنهم وضعفنا وخفناهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنى قد رأيت فى منامى بقرا فأوّلتها خيرا ورأيت فى ذباب سيفى ثلما فأوّلتها هزيمة ورأيت أنى أدخلت يدى فى درع حصينة فأوّلتها المدينة فان رأيتم أن تقيموا بالمدينة و تدعوهم فقال رجال فاتهم بدر وأ كرمهم الله بالشهادة يوم أحد أخرج بنا الى أعدائنا و بالغوا حتى دخل فلبس لامته فلما رأوا ذلك ندموا على مبالغتهم وقالوا اصنع يا رسول الله ما رأيت فقال لا ينبغى لنبى أن يلبس لامته فيضعها حتى يقاتل فخرج بعد صلاة الجمعة واصبح بشعب أحد يوم السبت ونزل فى جانب الوادى وجعل ظهره وعسكره الى أحد وصفهم وأمّر عبدالله بن جبير على الرماة وقال ادفعوا عنا بالنبل لا يأتوا من ورائنا ثم قال اثبتوا فى هذا المقام فاذا عاينوكم ولوا الادبار فلا تطلبوا المدبرين ولا تخرجوا من هذا المقام فلما علم عبدالله بن أبى ابن سلول ذلك شق عليه مخالفة رأيه وقال لاصحابه أطاع الولدان وعصانى وأشار على قومه أن ينهزموا اذا رأوا العدوّ وحينئذ يتبعهم بقية الجيش وفى ذلك ماينفى قول النبى صلى الله عليه وسلم انهم اذا عاينوكم ولوا الادبار وكان عسكر المسلمين ألفا وعسكر المشركين ثلاثة آلاف وانخذل عبدالله بن أبى بثلثمائة من أصحابه المنافقين وثبت الله الباقين وهم سبعمائة حتى هزموا المشركين وحينئذ طمع المؤمنون أن تكون هذه كوقعة بدر فطلبوا المدبرين مخالفين النبى صلى الله عليه وسلم فرجع المشركون وكروا على المسلمين فانهزم المسلمون و بقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جماعة من أصحابه كأبى بكر وعلى والعباس وطلحة وسعد رضى الله عنهم وكسرت رباعيته صلى الله عليه وسلم وشج وجهه الشريف وكان من غزوة أحد ما كان فهذا قوله تعالى (و) اذكر (اذ غدوت من أهلك) أى من حجرة عائشة رضى الله عنها (تبوّئ المؤمنين) تنزلهم (مقاعد) مواضع ومواطن (للقتال) فتتخذ عسكرا وتسوّى صفوفهم وتهيئهم (والله سميع) لاقوالكم (عليم) بنياتكم ومايصيبكم بترككم مركز القتال لما انهزام عبدالله بن أبى ابن سلول فهمت بنو سلمة من الخزرج و بنو حارثة من الأوس وهما كانا جناحى العسكر فقوله (اذ همت طائفتان منكم) متعلق بقوله سميع عليم فهو تعالى يقول انى أعلم ماتقولون وماتضمرون يابنى سلمة و يابنى حارثة حين هممتما (أن تفشلا) أى تجبنا وتضعفا وانى أعلم ان مافى قلوب هاتين الطائفتين لم يخرج عن حديث النفس وما كان من حديث نفس فليس بذنب فلذلك أعقبه بقوله (والله وليهما) عاصمهما من اتباع ماخطر من حديث النفس وناصرهما فى الحرب وحافظهما ومتولى أمورهما بالتوفيق والعصمة على ماتقتضيه الحال فليكن جميع المؤمنين متوكلين على الله اذا فرغوا من المشاورة وأجمعوا أمرهم بينهم أن يقوموا بالعمل ولا يترددوا بعد تمام المشاورة فهذا معنى قوله (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وهو اذن ينصرهم لأن يدالله مع الجماعة فليفوّضوا أمورهم اليه فى نتائج ماتمت الاستشارة فيه وتم العزم عليه وليرضوا بما يأتى به القدر بعد ذلك فان النصر بيد الله بعد الأخذ بالأسباب المعقولة كما حصل فى واقعة بدر ﴿و بدر اسم لماء بين مكة والمدينة﴾ كان لرجل يسمى بدرا فسمى به يقول تعالى (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم) ثلثمائة و بضعة عشر أو ثلاثة عشر رجلا (أذلة) بقلة السلاح والمركوب والمال وعدم القدرة على مقاومة العدوّ وكان الجماعة منكم يتعاقبون على البعير الواحد ومامعكم الافرس واحد أما عدوّكم من كفار قريش فكانوا زهاء ألف مقاتل ومعهم السلاح والشوكة فلم يكن نصركم لضعف عدوّكم أولقوتكم وكثرتكم بل كان بالاتحاد والطاعة وماترتب عليهما من نصر الله لجماعتكم (فاتقوا الله) فى الثبات كما اتقيتموه فى بدر (لعلكم تشكرون) أى لعلكم تنالون نعم الله فتشكرون عليها وقوله (اذ تقول للمؤمنين) ظرف لنصركم يقول الله تعالى ــ ولقد نصركم الله ببدر ــ حين قلت للمؤمنين تقوية لقلوبهم وتثبيتا لهم (ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين) منكرا بالاستفهام ألا يكفيهم ذلك موقعا الثبات

والاطمئنان فى قلوبهم وقد كانوا كالآيسين من النصر لضعفهم وقوة عدوهم ولقد أمددناهم بألف ثم صيرناهم ثلاثة آلاف وقد أجاب عن هذا الاستفهام الانكارى فقال (بلى) أى يكفيهم ذلك ثم وعدهم الزيادة على أجرهم وتقواهم حثا عليهما وتقوية لقلوبهم فقال (ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم) أى المشركون (من فورهم هذا) من ساعتهم هذه وأصله مصدر من فارت القدر اذا غلت فاستعير للسرعة ثم صار للحال التى لاريث فيها والمعنى ان يأتوكم (يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين) بكسر الواو معلمين أنفسهم وخيلهم بعلامة تعرف فى الحرب والسومة والسيما العلامة أو بفتحها أى سوّمهم الله (وماجعله الله) أى امدادكم بالملائكة (الابشرى لكم) بالنصر (ولتطمئن قلوبكم به) ولتسكن اليه من الخوف (وما النصر الامن عندالله) لامن العدة والعدد فلاحاجة فى نصركم الى مدد أو عدد وانما وعدتكم بالمدد وأمددتكم ربطا لقلوبكم لأن نظر العامة الى الأسباب أكثر فأما الخاصة فانهم يعلمون أن النصر من الله (العزيز) الغالب (الحكيم) فى نصره من يشاء وخذله من يريد على مقتضى سنته التى سنها وانما نصركم (ليقطع طرفا من الذين كفروا) بقتل بعض وأسر آخرين فانكم قتلتم سبعين وأسرتم سبعين من صناديد قريش (أو يكبتهم) والكبت شدة الغيظ (فينقلبوا خائبين) فينهزموا منقطعى الآمال فنصركم بقتل بعض وأسر بعض وخيبة آخرين واذن تكون أو للتنويع واذا كنت أنا مالك أمرك وأمرهم والنصر من عندى وأنا القاهر الحكيم فى نصرى من أشاء وخذلى من أشاء فاذن (ليس لك من الامر شئ) أى ليس لك من أمر خلقى شئ يامحمد الاماوافق أمرى وانما أنت عبدى مبعوث لانذارهم ومجاهدتهم وأنا أعلم بصالحهم ثم عطف توبتهم وتعذيبهم وهما مصدران للفعلين المنصوبين بأن المضمرة على الأمر فى قوله ـ ليس لك من الأمر شئ ـ فقال (أو يتوب عليهم أو يعذبهم) لاستحقاقهم ذلك (فانهم ظالمون) وهذه الآية تشير لأمور كثيرة فمنها ماروى أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا على عامر بن الطفيل لما قتل هو ومن معه سبعين رجلا من أصحابه اذ أرسلهم الى بئر معونة وهى بين مكة وعسفان وأرض هذيل فى صفر سنة أربع من الهجرة على رأس أربعة أشهر من أحد وانما بعثهم ليعلموا الناس القرآن والعلم وكان أميرهم المنذر بن عمرو وروى البخارى عن ابن عمر أنه كان يدعو عليهم اذا رفع رأسه من الركوع فى الركعة الأخيرة من الفجر بعد مايقول سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد وروى أنه قنت شهرا فى الصلوات كلها يدعو على تلك القبائل وفى البخارى ومسلم أنه كان يقول اللهم العن فلانا وفلانا لأحياء من العرب ومنها أنه لما كسرت رباعيته وشج رأسه وجعل يسيل الدم منه جعل يقول كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم الى الله ومنها أنه قيل ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يدعو عليهم بالاستئصال ومنها أنه لما قتل عمه حمزة ومثلوا به أراد أن يدعو عليهم فهذه الأمور وأمثالها أحزنت النبى صلى الله عليه وسلم فقال الله ـ ليس لك من الأمر شئ الآية ـ فانا انما ابتليت بعضكم ببعض وأمرتك بالجهاد لحكم أردتها ونتائج أعددتها فاذا استجبت دعاءك فاستأصلتهم لم يكن ذلك موافقا لسننى التى رتبتها وسأجعل منهم نسلا يدخلون دينك ويحفظون شريعتك ويعمرون أرضى ويساعدون عبادى فافعل ماتؤمر واصبر واذا كنت أستجيب الدعاء فى مثل هذا فنى أعداؤك فبطل الجهاد فمن أين تكون العزيمة والصبر اللذان لا يكونان الاحيث يكون الأعداء أقوياء والرجال العظماء لاسيما الأنبياء أعظم مايتميزون به الصبر على الشدائد حتى يسموا ﴿أولى العزم﴾ فذوو العزيمة هم الذين يغالبون الشدائد الطبيعية والعدوّ الانسانى هذا بعض ماقضت به سننى فى خلقى فليس لك يامحمد ولا لأحد من خلقى أن يقاومها ـ ولن تجد لسنة الله تبديلا ـ ألا وان أعداءك يامحمد وأولياءك وجميع من فى الأرض والأرض نفسها والسماء ومن فيها خلقى وملكى فلى الأمر كله فلذلك أعقبه بقوله موغلا فى نفى الأمر عن الخلق (ولله مافى السموات ومافى الأرض) خلقا وملكا فله الأمر لالك فربما هداهم فغفر لهم (والله غفور) لعباده (رحيم) بهم فلاتبادر الى الدعاء عليهم اهـ الفصل الأوّل فى الجهاد الأصغر

(الفصل الثانى)

﴿ فى الجهاد الأكبر لحفظ ثروة البلاد فلا يكون الربا وبالطاعة وحسن الخلق والعفو ﴾

يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبا أَضْعافاً مُضاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ * وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * وَسارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها السَّمٰواتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولٰئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ *

لما فرغ من الكلام على الجهاد والمحافظة على الوطن وهى هنا المدينة وعلى الصبر والثبات فى الحرب وان النصر تابع لهما وان كل تأييد من الله لن يكون إلا على مقتضاهما وماعدا ذلك فانما هو غرور شرع يذكر أصول ذلك وأساس بنيانه من المحافظة على الاقتصاد فى البلاد وحفظ الأموال حتى يتيسر للناس استثمار أموالهم ومن الانفاق فى الأمور العامة وللفقراء والمساكين ومن تهذيب النفوس بالصبر وكظم الغيظ والعفو فقال (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة) لا تزيدوا زيادات متكررة فانهم كانوا فى الجاهلية عند حلول الدين يزيدون المال ويؤخرون الأجل فاذا كان لانسان دين وجاء أجله ولم يكن للمديون ما يؤدى قال له صاحب المال زد فى المال وأنا زيدك فى الاجل ويفعلون ذلك مرارا فيصير الدين أضعافا مضاعفة وانما كرر هذه الآية هنا وان كان أصل الربا حراما وان لم يضاعف هذه المضاعفة لان هذا النهى عن أمر واقع كانوا يفعلونه (واتقوا الله) فيما نهيتكم عنه (لعلكم تفلحون) راجين الفلاح فى الدنيا والآخرة وكيف تفلحون فى الدنيا كقتال العدو وأنتم لا تعرفون طرق الحياة ونظام الأمور والحروب لا تقام إلا بالمال ولا مال إلا بصناعة وزراعة وتجارة وعمارة فاذا اغتال الأغنياء منكم الفقراء فأرهقوهم بالدين والرباغات أيديهم وشلت ووقف دولاب الحركة الصناعية والزراعية والتجارية ولا يظهر ذلك ظهورا بينا الا فى أيام الحروب فان خذلان الأمم يتبع سوء نظامها وضياع أفرادها وماذا يفعل القواد اذا كان الشعب مغلول الأيدى ضعيفا فقيرا مكسور الجناح ان الدولة الروسية تمزقت شذر مذر فى الحرب الكبرى فى هذا القرن لأن الشعب كان حسيرا ذليلا فقيرا فلم يقو على مقاومة الألمان فقامت البلشفية ورأت أن الربا يجعل المال فى يد الأغنياء فمنعته بل جعلت الأموال موزعة تقريبا على الشعب ولذلك قدرت أن تصد الأمم كلها عن فتح بلادها ببعض ما قامت به من نظام الأموال هذا الموجز يريك سر ذكر الربا فى هذا المقام وهو سر لا يكاد يفطن له الناس الا لما قامت هذه الحرب فنبهتنا بل عرفتنا لماذا كسر المسلمون وشتتوا فى القرون المتأخرة ذلك لجهل ملوكهم واستبدادهم وضربهم على أيدى العلماء حتى صار المال قليلا وهذا القليل فى أيدى الأغنياء وهم قليل أيضا فهزمتهم الفرنجة وغير الفرنجة فهذا سر قوله تعالى لعلكم تفلحون ـ بعد الكلام فى مسألة الربا فتعجب من الحكمة ومن العلم المخزون فى كتابنا المقدس والمسلمون أكثرهم نائمون . ولما كانت هذه المعانى الشريفة العالية قل أن يتفطن لها الناس أردفه بما يناسب العقول ويفقهه العامة والخاصة معا فقال (واتقوا النار التى أعدت للكافرين) بأن تتركوا متابعتهم وتعاطى أفعالهم فاذا عاملتم

الناس بالربا كالجاهلية مستكم النار فى الآخرة وخذلتم فى الدنيا فى حروبكم (وأطيعوا الله والرسول) بترك المحرمات كالربا ونحوه وفعل الصدقات (لعلكم ترحمون وسارعوا) بادروا وأقبلوا (الى مغفرة من ربكم) أى الى الاسباب الموصلة الى ذلك كالتوبة والاخلاص (وجنة عرضها السموات والأرض) أى عرضها كعرضهما وهذا كالتمثيل للدلالة على سعتها لانه اذا كان العرض كذلك فكيف يكون الطول (أعدت للمتقين) هيئت لهم ثم وصفهم على سبيل المدح فقال (الذين ينفقون فى السراء والضراء) فى حالتى الشدة والرخاء أى فى جميع الأحوال اذ الانسان لا يخلو من مسرة أو مضرة فهم ينفقون ما قدروا عليه (والكاظمين الغيظ) الممسكين عليه الكافين عنه مع القدرة يقال كظمت القربة اذا ملأتها وشددت عليها وفى الحديث من كظم غيظا وهو يقدر على انفاذه ملأ الله قلبه أمنا وايمانا (والعافين عن الناس) التاركين عقوبة من استحقوا مؤاخذة وعن النبى صلى الله عليه وسلم ان هؤلاء فى أمتى قليل الا من عصم الله وقد كانوا كثيرا فى الأمم التى مضت (والله يحب المحسنين) أى جنسهم ومنهم هؤلاء (والذين اذا فعلوا فاحشة) فعلة بالغة فى القبح كالزنا (أو ظلموا أنفسهم) بأن أذنبوا أى ذنب كان دون الكبائر (ذكروا الله) تذكروا وعيده وحقه العظيم وحكمه والحرمان من جواره والطمع فى مشاهدته والقرب منه (فاستغفروا لذنوبهم) بالندم والتوبة (ومن يغفر الذنوب الا الله) أى لا يغفر الذنوب الا الله وهذه جملة معترضة للحث على الاستغفار ولاطماع الناس فى رحمته (ولم يصروا على ما فعلوا) أى لم يقيموا على الذنوب ولم يثبتوا عليها بل تابوا منها واستغفروا (وهم يعلمون) أنها معصية وأن لهم ربا يغفرها وأن الاصرار ضار (أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها) وهذه الجملة بيان لجملة والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم الخ ـ يقول ان لهم أمرين تخلية وتحلية فالتخلية بالمغفرة والتحلية بالجنات (خالدين فيها) فى الجنات (ونعم أجر العاملين) والمخصوص بالمدح محذوف تقديره ذلك الجزاء والمغفرة . ولعمرك كم من فارق بين جنة عرضها السموات والارض ينالها المرء بالمسارعة لعمل الخيرات وفعل المبرات وجنة تجرى تحتها الأنهار لم يذكر سعتها ولا عجائبها بل اكتفى فيها بالأنهار فالأولى هى التى طلبت بالخيرات والثانية هى التى ذكرت أجرا لأولئك الذين أذنبوا ثم تابوا فغفر لهم فعد ذلك أجرا والأجر على التوبة شئ والثواب الواسع على الفضائل والأخلاق العالية شئ آخر فاحداهما جنة العارفين والثانية جنة الصالحين الذين يعبدون الله خوفا لا حبا وغراما وعشقا للفضائل والكمال والجمال متبتلين

(الفصل الثالث)

﴿ فى الاعتبار بالأمم السالفة وأنبيائهم وأنهم لما صبروا فازوا ﴾

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ * وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللّٰهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّٰهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ * وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ

أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ على أَعْقابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ على عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ * وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتاباً مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْها وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَما وَهَنُوا لِما أَصابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَما ضَعُفُوا وَما اسْتَكانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَما كانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَإِسْرافَنا فِي أَمْرِنا وَثَبِّتْ أَقْدامَنا وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ * فَآتاهُمُ اللَّهُ ثَوابَ الدُّنْيا وَحُسْنَ ثَوابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ على أَعْقابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ * بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

(قد خلت من قبلكم سنن) وقائع سنها الله فى الامم قبلكم (فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) لتعتبروا بما ترون من آثارهلاكهم (هذا) القرآن عموما وماجاء فيه من الاعتبار بالسير فى الأرض خاصة (بيان للناس وهدى) من الضلالة (وموعظة) وهى مايفيد الزجر (للمتقين) لأنهم هم المنتفعون به (ولا تهنوا) ولا تضعفوا عن الجهاد (ولا تحزنوا) على من قتل منكم (وأنتم الأعلون) بالنصر والغلبة (ان كنتم مؤمنين) مصدقين بأن ناصركم الله (ان يمسسكم قرح) بضم القاف وفتحها جرح يوم أحد (فقد مس القوم) الكفار (قرح مثله) يوم بدر ولم تضعف قلوبهم عن معاودتكم الى القتال فأنتم أولى (وتلك الأيام نداولها بين الناس) نصرفها بينهم نديل لهؤلاء تارة ولهؤلاء أخرى كما قيل فيوم لنا ويوم علينا * ويوما نساء ويوما نسر والمراد بها أوقات النصر والغلبة وانما نداولها لضروب من التدبير (وليعلم الله الذين آمنوا) أى ليميز المؤمن المخلص ممن يرتد عن الدين اذا أصابته نكبة وشدة ومن يصبر على الجهاد من غيره فالمراد بالعلم لازمه مجازا (ويتخذ منكم شهداء) ويكرم ناسا منكم بالشهادة وهم من استشهدوا يوم أحد يشهدون يوم القيامة مع الأنبياء والصديقين على الأمم ويشهد الله لهم بالجنة (والله لا يحب الظالمين) المشركين ودينهم ودولتهم فيكون نصرهم استدراجا لا استشهادا (وليمحص الله) يطهر ويصفى من الذنوب (الذين آمنوا) اذا كانت الدولة عليهم (ويمحق) يهلك (الكافرين) ان كانت الدولة عليهم (أم حسبتم) بل أحسبتم استفهام انكارى (أن تدخلوا الجنة) بلا قتال أيها المؤمنون (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) نفى العلم مجاز يراد به نفى المعلوم أى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يصدر الجهاد عنكم (ويعلم الصابرين) معطوف على ماقبله أى ولما تجاهدوا وتصبروا (ولقد كنتم) أيها الذين لم يشهدوا بدرا (تمنون الموت) بالشهادة فى الحرب لتنالوا مانال شهداء بدر فألححتم يوم أحد على الخروج (من قبل أن تلقوه) من قبل أن تلقوا يوم أحد (فقد رأيتموه وأنتم تنظرون) أى فقد رأيتموه معاينين له حين قتل دونكم من قتل من اخوانكم وهو توبيخ لهم على أنهم تمنوا الحرب وتسببوا لها ثم جبنوا فانهزموا عنها ولما رمى عبد الله بن قميئة الحارثى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر فكسر رباعيته وشج فذب عنه مصعب بن عمير وكان صاحب الراية حتى قتله ابن قمئة وهو يرى أنه قتل النبى صلى الله عليه وسلم فأعلن ذلك فى الناس فانكفأ الناس وانهزموا وجعل الرسول يدعو الى عباد الله نزل قوله تعالى (وما محمد الا

رسول قد خلت من قبله الرسل) فسيخلو كما خلوا بموت أو بقتل ولقد بقي أتباع الرسل على أديانهم بعد ما خلت أنبياؤهم ثم أخذ يوبخهم بالاستفهام الانكاري قائلا أتجهلون سنن الانبياء السالفين (فان مات) محمد (أو قتل انقلبتم على أعقابكم) ارتددتم عن الدين الى دينكم الاول لخلوه بموت أو قتل يقال لكل من رجع الى ما كان عليه رجع وراءه ونكص على عقبيه (ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيأ) بارتداده بل يضر نفسه (وسيجزي الله الشاكرين) على نعمة الاسلام بالثبات عليه كما فعل أنس بن النضر عم أنس بن مالك اذ قال ياقوم ان كان قتل محمد فان رب محمد حي لا يموت وما تصنعون بالحياة بعده فقاتل حتى قتل (وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله) بمشيئته كتب ذلك (كتابا مؤجلا) مؤقتا لايتقدم ولايتأخر فلا الفرار ينجي منه ولا الاقدام يجلبه . ولقد تقدم أن الرماة خالفوا أمر النبي صلى الله عليه وسلم وأقبلوا على النهب وخلوا أمكانهم فانقض المشركون عليهم فكانت الهزيمة فقال تعريضا لهم (ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها) ثوابا (وسنجزي الشاكرين) لنعم الله تعالى فلم تشغلهم الغنائم عن الجهاد (وكأين) أصله أي دخلت عليها الكاف وصارت بمعنى كم والنون تنوين أثبت في الخط على غير قياس (من نبي) بيان لكأين (قاتل معه ربيون كثير) جماعات والربى من الربة وهي الجماعة (فما وهنوا) فتروا لما أصابهم في سبيل الله (وماضعفوا) عن العدو (وما استكانوا) وماخضعوا للعدو وهو من السكون لأن الخاضع يسكن لصاحبه ليفعل به مايريده (والله يحب الصابرين) لينصرهم (وما كان قولهم الا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فآتاهم الله) بالاستغفار والالتجاء اليه تعالى (ثواب الدنيا) بالفتح والغنيمة (وحسن ثواب الآخرة) في الجنة (والله يحب المحسنين) الذين يفعلون مثل مافعل هؤلاء (يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا الذين كفروا) المنافقين (يردوكم) الى الكفر (على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين) ذلك ان المنافقين قالوا للمؤمنين عند الهزيمة ارجعوا الى دينكم واخوانكم ولو كان محمد نبيا ماقتل (بل الله مولاكم) ناصركم (وهو خير الناصرين) فاستغنوا به عن ولاية غيره ونصره انتهى التفسير اللفظي

كأن الله تعالى يقول اذا كنتم ذوي مبادئ شريفة وسنن قويمة فكيف تحزنون وليست الحياة الا ثمراتها ولا هذه الدنيا الا بالاعمال فيها فاذا أصاب امرأ الضراء لاجل المناقب الشريفة فكيف يهون وهو من الاعلين أو يحزن الفضلاء وقد امتلأت أفئدتهم بالايمان بمبادئهم وأشربت قلوبهم العمل للفضيلة فاما حياة عالية واما موتة عاجلة. على انى قد قسمت الأمر بين عبادي وجعلت الأيام دولا فمن سره زمن ساءه زمن وكيف لا يكون ذلك ألم أجعل الحياة جهادا ألم أجعل بعضكم لبعض فتنة ثم قلت لكم أتصبرون أولست قادرا أن أخلقكم نائمين على فراش الراحة تأكلون كما يأكل الدود ولكن كلا ان سنتي أن أجعل السعادة تابعة للاعمال ولذلك خلقت البغضاء والحسد والغيرة والمنافسة فلم أذر الوحش في وجاره ولا الظبي في كناسه ولا الأعرابي في باديته ولا النبي الموحى اليه في قومه بل سلطت كلا على كل ليكون ذلك سائقا لأعمالهم باعثا على فضائلهم مستخرجا لما كمن في غرائزهم وليس يكون هذا الوجود على غير هذا النظام . ألم تر الى أهل قرطاجنة وهي مدينة قرب تونس كانت على شاطئ البحر الابيض يسكنها أناس نزحوا من سواحل الشام يسمون الفينيقيين وقد حصلت بينهم وبين الرومانيين حروب متطاولة وكان من قواد القرطاجنيين (أنيبال المشهور) فذاق منه الرومانيون طعم الموت وقد أصلاهم نارا حامية وأذاقهم العذاب الهون فانقض الرومانيون على نفس قرطاجنة وخربوها وفرقوا أهلها شذر مذر وانتصر الغرب على الشرق فقال حكيم من حكمائهم ان موت أعدائنا موت لنا وستذهب دولتنا فقالوا له لماذا فقال لأن الامة التي لاعدو لها يناوئها تصبح ساهية لاهية نائمة على وساد الراحة فتهلكها الشهوات وتموت بالحسرات وكيف يظهر في أبنائها المواهب أو ينبغ من بينها الشجعان الجحاجيح الا بالعدو المغير فذلك هو الذي يستخرج منها الفضائل وينفي عنها الرذائل باستعدادها لمناوأته واستبسالها لمحاربته ولقد كان ماقاله • وسمنت رومة وعظم أمرها وترفت فمزقت كل ممزق في الازمان القديمة وقامت على أنقاضها أوروبا الحديثة فهذا كله سر قوله تعالى ـ وتلك الايام نداولها بين الناس ـ فاذا لم تكن مداولة وتم الامر لبعض الناس أطغاهم العيش الهنيء ـ ولو

بسط

بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الارض - ومتى بغوا وطغوا اهلكوا بالبطنة والجهالة والترف والنعيم ثم قال أتحسبون أن السعادة تنال بغير الاعمال أو الجنة فى الآخرة بمجرد الايمان ثم قال كيف تجهلون سنن الامم السالفة فى الايام الخالية والدول الفائتة وما الانبياء الا قواد الامم فى العلم والدين والامم ترث ذلك عنهم فالامر ليس الى الانبياء انما هم مبلغون ورسل والرسول عليه البلاغ وعلينا الحساب وكيف تعصون المرسل اذا مات الرسول وكيف تذرون رسالتى التى أرسلتها وأوامرى التى أمرتكم بها اذا مات رسولى أو قتل وهل ذلك شأنكم فيما بينكم أن تعلقوا صلتكم بمن يكاتبونكم من الذين تودونهم من أمثالكم على حياة الرسل الذين يرسلونهم اليكم فكيف تجعلون صلتكم بى وعبادتى وطاعتى معلقات على بقاء رسولى فاذا مات الرسول فأنا الحى الذى لا يموت . أيها الناس انما هى سنن أنزلتها وآيات أحكمتها وعلوم فيكم أفشيتها وحكم أبدعتها فكيف تعكسون الامور وتضلون الجهور وتذرون النور وأنا الذى هديتكم فليس ايمانكم بى لأجل حياة محمد بل للسنن المسنونة والاحكام المنصوبة والعلوم الفاشية والآيات القائمة وكيف يضلون بعد أن جاءهم الهدى فيعتمدوا على العظماء وكبار الدولة فاذا كان هذا فى حق الانبياء فكيف بغيرهم . فاياكم أن تكونوا أسرى الاوهام فتعتمدوا على قوادكم أو تهنوا بموتهم فلتكن الحية فى المرؤسين كالرؤساء . أقول ولعمرى ما أضل أمة الاسلام ولا أخل بنظامها الا الاعتماد على الرؤساء والخضوع التام لملوكهم فاستبدوا بهم خاضعين وأذلوهم مخدوعين وقتلوا رجالهم واستحيوا نساءهم وهم خاضعون ألم تعلموا أن العالم سائر على نظام محدود وسنن ثابتة وان الآجال مقدرة فى كتاب وليس ما أنتم فيه الا لترقية أنفسكم وتعليمكم وتهذيبكم فكيف تجبنون ولا ينالكم الا ما سيكون وثمرات الاعمال تابعات لها فمن كانت همته للحياة وغنائمها أو لارتقاء النفوس للحياة الآخرة أوتى كل منهما على حسب نيته فى همته . ألم تروا الى الانبياء قبلكم مع أممهم وجموعهم العظيمة كيف صبروا على القتال وفازوا بالنوال ولم يهنوا لمصيبة ولم يضعفوا لعظيمة ولم يستنيموا لأعدائهم بل ظلوا ثابتين - ولو أنى أيها الناس جعلت الفوز الدائم مكرمة والنعمة والعافية غاية هذه الحياة الدنيا لكان الاولى بها رسولى فانى منعته أن يدعو على الاعداء وقلت له ليس لك من الامر شئ - ولم يفعل من الامر الا ما أوحيته اليه فاما ألا يكون له عدو فلا فأنا الذى خلقت الاعداء والعداوة وأمرتكم بالمحاربة لظهور الفضائل

فكأنه سبحانه لما أمر رسوله بالصبر حتى منعه من الدعاء على الاعداء فلا يدعو باستئصالهم خاطب الشعب كله آمرا لهم بالثبات فلا يفرون من عدوهم كأنه يقال لا مناص من العداوة والاعداء للانبياء وأتباعهم . أنظر الى حكم الله عز وجل فى القرآن وكيف كان الصبر على مقاومة الاعداء وغيرهم أجل شئ . ولهذه المناسبة أذكر هنا قطعتين من الشعر نظمتهما الاولى مترجمة من كلام (شكسبير) الشاعر الافرنجى والثانية تخميس لابيات عربية

﴿ القطعة الاولى ﴾

(فوائد الآلام الطبيعية للانسان - من شعر شكسبير الشاعر الانجليزى)

يا صاحبىّ تقصيا نظريكما * فى حال منفانا و بعد الدار

أو ماترون البدو فى قفر وفى * شظف الحياة هنا وخبز قفار

أصفى وأهنا من معيشة حاضر * كالقبر مطليا بذوب نضار (١)

بل هذه الشجرات فى الفلوات أبهج منظرا فى الصبح والاسحار

من ساحة الملك الرفيع عماده * مابين حساد و بين ضوارى (٢)

إنا وان كانت خطيئة آدم * حقت علينا سنة الاقدار

فتتابعت نوب الحوادث خلفة * والصيف يتلوه الشتاء العارى

والثلج عضّ بنابه والريح نز * جر نابيطش الصر (٣) والاعصار (٤)

(١) الذهب (٢) الآساد (٣) البرد الشديد (٤) رياح تصعد كالعمود من الارض الى السماء

فأظل مرتعـدا وتنذرنى فما * ذا كم سوى التعليم والتذكار
عريت عن الملق الذميم وانما * آيات وعظ فصـلت للقارى
ان المواهب كالمعاطب صوّرت * شـوهاء أقذت أعين النظار
ان النوائب حيـة رقطاء فى * أنيابها السمّ الزعاف السارى
لكن فى فيها جواهر أخفيت * تزهو على التيجان يوم فخار
هذى الحياة وان تكن فى قفرة * فالعـلم فيها صـفوة الاسرار
فصوامت الاحجار فيه نواطق * والكتب فى شجر ونهر جارى
فبأىّ آلاء الاله تكذبا * ن وأنها قبس من الانوار

﴿ القطعة الثانية ـ قال بعض القدماء ﴾

عداى لهم فضـل علىّ ومنة * فلا أبعد الرحمن عنى الاعاديا
همو بحثوا عن زلتى فاجتنبتها * وهم نافسونى فاجتنيت المعاليا
فلست بهياب لمن لا يهابنى * ولست أرى للمرء ما لا يرى ليا
كلانا غنى عن أخيه حياته * ونحن اذا متنا أشـدّ تغانيا

﴿ فقلت مخمسا هذه الابيات ﴾

اذا ما اعترتنى فى الحوادث محنة * تبدّت لنفسى فى المعارف سنة
وان يحسد الاعدا بدت لى فطنة * (عداى لهم فضـل علىّ ومنة
فلا أبعد الرحمن عنى الاعاديا)
لقد علموا آداب نفس سبرتها * وهذبتها حتى استقامت وصنتها
ولم ألم الاعداء لا بل شكرتها * (هم بحثوا عن زلتى فاجتنبتها
وهم نافسونى فاجتنيت المواليا)
ولى همة فوق الثريا تقلنى * فأثنى عنانى للفتى حين يفتنى
وأضرب عنه الذكر صفحا ولا أنى * (فلست بهياب لمن لا يهابنى
ولست أرى للمرء ما لا يرى ليا)
وانى امرؤ بالعلم أكمل ذاته * فلا طمع فى الصحب الا أماته
ولست أدارى المرء إلا تقاته * (كلانا غنى عن أخيـه حياته
ونحن إذا متنا أشـدّ تغانيا)

هذا ولنرجع الى أصل الموضوع فنقول

قال الله تعالى أيها الناس لا تطيعوا الذين كفروا وهم المنافقون اذ قال بعضهم استكينوا لأبى سفيان وأشياعه واستأمنوهم فان تطيعوهم يردوكم الى دينهم وهكذا كل كافر فان مطاوعته تدعو الى النزول على حكمهم وموافقتهم ولعمرى ان هذا هو ما عليه المسلمون الآن فان الله يقول هنا ان تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين ولقد صدق الله وعيده وحقت الكلمة على المسلمين الذين فى زماننا والذين قبلهم اذ طاوعوا الفرنجة فاستذلوا لهم وشربوا خمرهم ولبسوا اللباس الذى ينسجونه فى بلادهم ومن الجهل الفاشى فى أمة الاسلام اليوم الغفلة المستحكمة والنذالة الفاشية والجهالة الغاشمة والموتة العمياء والداهية الدهياء ان الفرنجة تحكموا على العقول وبصقوا فى الوجوه وأخذوا النفوس فاذا فعلوا زينوا للمسلمين كل فسوق وفجور وأولع بهم المترفون والشرفاء والمتعلمون فى المدارس ولا يزالون يقلدونهم ويشربون فى حاناتهم ويأكلون فى مطاعمهم ويذرون بيوتهم

واذا

واذا احتفلوا بعظمائهم لا يهنأ لهم ذلك الا فيما بناه الفرنجة فى ديارهم كأنهم لا عقول لهم ولا أسماع ولا أبصار وهم لا يعلمون أن ذلك اخضاع لهم واستنزاف لثروتهم وشين لسجيتهم ألا ساء ما يعمل الجاهلون فهذه من طاعة المسلمين العمياء وجهالتهم حتى صاروا عبيدا خاضعين وأذلاء مسخرين وما تفطن لذلك الا الرجل الحازم (غاندى) الزعيم الهندى فهو الذى أمر أهل الهند أن يلبسوا ما يصنعونه فى بلادهم فقد عمل بمقتضى هذه الآية وان كان لا يعلم ذلك والمسلمون فى الشرق الأدنى غافلون وسيقوم فيهم مرشدون وسيعلمون ويعملون انتهى تفسير الفصل الثالث

﴿ درس على ما حصل فى أحد وتطبيق حال الأمم على هذه الأمة والاعتبار بذلك كله ﴾

(الفصل الرابع)

سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ * وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ * إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ * فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

الْمُتَوَكِّلِينَ * إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ * لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ * الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

لما قذف الله تعالى فى قلوب الكفار يوم أحد الرعب نادى أبو سفيان يا محمد موعدنا موسم بدر لقابل ان شئت فقال صلى الله عليه وسلم ان شاء الله ولما رجعوا وكانوا ببعض الطريق ندموا وأرادوا أن يرجعوا فألقى الله الرعب فى قلوبهم وهو قوله تعالى (سنلقى) نقذف (فى قلوب الذين كفروا الرعب) الخوف (بما أشركوا بالله) بسبب اشراكهم به (مالم ينزل به سلطانا) أى آلهة ليس على اشراكها حجة لهم وأصل السلطنة القوة (ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين)

النار (ولقد صدقكم الله وعده) اياكم بالنصر وشرط التقوى فى ذلك والصبر فصبرتم واتقيتم وضربتموهم فانهزموا وأنتم على آثارهم (اذ تحسونهم) تقتلونهم من حسه اذا أبطل حسه (باذنه حتى اذا فشلتم) جبنتم لما لم تتقوا فخالفتم وانطلقتم من أمكنتكم الى الغنيمة (وتنازعتم فى الأمر) فقال قوم من الرماة منكم ما موقفنا ههنا وقد انهزم المشركون وقال آخرون لانخالف أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فثبت أمير الرماة عبد الله بن جبير فى نفر يسير دون العشرة ونفر الباقون للنهب فلما رأى خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل ذلك حملوا على الرماة الذين ثبتوا مع عبد الله بن جبير فقتلوا عبد الله بن جبير وأصحابه وأقبلوا على المسلمين فانهزمتم (وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون) من الظفر والغنيمة وانهزام العدوّ وجواب الشرط وهو اذا محذوف أى امتحنكم فكنتم عند الامتحان فريقين (منكم من يريد الدنيا) وهم التاركون مراكزهم (ومنكم من يريد الآخرة) وهو أمير الرماة ومن معه (ثم صرفكم عنهم) كفكم عنهم فغلبوكم (ليبتليكم) على المصائب ويمتحنكم أتصبرون (ولقد عفا عنكم) تفضلا لما علم أنهم ندموا على المخالفة (والله ذو فضل على العالمين) فى الابتلاء بالمصائب كاغداق النعم كلاهما فضل منه وقوله (اذ تصعدون) من الاصعاد وهو الذهاب والابعاد فى الأرض متعلق بقوله ليبتليكم (ولا تلوون على أحد) ولا يقف أحد لأحد (والرسول يدعوكم فى أخراكم) من خلفكم يقول الىّ عباد الله أنا رسول الله من يكر فله الجنة وكان اذ ذاك فوق الصخرة وأوّل من عرفه كعب بن مالك رضى الله عنه قال عرفت عينيه تزهران تحت المغفر فناديت بأعلى صوتى يامعشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأشار الىّ أن اسكت فانحازت اليه طائفة من أصحابه فلامهم صلى الله عليه وسلم على الفرار ثم عطف على قوله صرفكم عنهم قوله (فأثابكم غما) بما فاتكم من الظفر والغنيمة وبما ذقتم من القتل والجرح وبما سمعتم من الارجاف بموت الرسول (بغم) بسبب اغتمام أذقتموه الرسول بعصيانكم له وانما أثابكم أى جازاكم هذه المجازاة لتتمرّنوا على الشدائد ولتقووا على النوائب ومن عركه الدهر وأصلت ناره الحامية جسمه بلهيبها وذاق ألوان الشدائد وحلب شطرى الدهر أصبح صلبا قويا بل لاسعادة لمن لم تقوّه الحوادث الجسيمة ولا راحة لمن لم تعركه الحوادث عركا ولم تذوّب نار الحوادث جوهره فى بواتق الآلام فيكون اذ ذاك معدنا نقيا خالصا خلصته نار الحوادث ونفخ عليه الدهر فى كيره فصار ذهبا ابريزا فكان ذلك التمرين (لكيلا تحزنوا على ما فاتكم) من منافع ترجونها (ولا ما أصابكم) من مضار ذقتم آلامها (والله خبير بما تعملون) فلذلك جعل عملكم بين السار والضار ابتلاء بالنعم وامتحانا بالنقم فى سائر أطوار حياتكم ولكن هذه الحادثة أعظم الحوادث أثرا فى حياتكم فهى جديرة أن تجعلكم مستصغرين كل عظيمة من المصائب فانها أقل منها خطرا وأضعف أثرا (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة) أمنا (نعاسا) بدل من أمنة عن أبى طلحة رضى الله عنهما قال كنت فيمن يغشاهم النعاس يوم أحد حتى سقط سيفى من يدى مرارا يسقط وآخذه يسقط وآخذه وقال رفعت رأسى يوم أحد فجعلت أراهم وما منهم يومئذ أحد الا يميد تحت حجفته من النعاس وقال نحوه الزبير بن العوّام ومن قوله انى لأسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشانى ما أسمعه الا كالحلم يقول لو كان لنا من الأمر شئ ما قتلنا ههنا وهذا قوله تعالى يصف لفظ نعاسا (يغشى طائفة منكم) وهم المؤمنون المخلصون (وطائفة) وهم المنافقون (قد أهمتهم أنفسهم) لايهتمون الا بخلاصها (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية) صفة ثانية لطائفة الذين يزعمون أن الأنبياء متحكمون فى قضاء الله وقدره وانه اذا أرسل نبيا فكأنما أخرجه من طور البشرية وأبعده عن كل فتنة وبلية وأصبح يقول للشئ كن فيكون وكيف يكون كذلك ألم يرد فى هذه السورة لنفس نبيكم صلى الله عليه وسلم - ليس لك من الأمر شئ - وحرّمت عليه أن يدعو على أعدائه بالاستئصال بل قلت فوق ذلك ان ما فى السموات وما فى الأرض لى فلى الغفران ولى الرحمة ورحمتى وسعت كل شئ فربما أسلم منهم قوم وربما أسلم أبناؤهم بهذا يخاطب رسولكم ثم ترجعون الى سيرة الجاهلية فيقول قائل منكم (هل لنا من الأمر من شئ) أى ءالنا معاشر المسلمين من أمر النصر والغلبة على العدوّ شئ (قل ان الأمر) أى النصر والغلبة (كله لله) فليس لكم من الأمر شئ كما لم يكن لنبىّ من الأنبياء ذلك وانما يعطيه الله الصابرين المؤمنين من فضله على

حسب الاستعداد ومقتضى الحكمة وهذه الجملة معترضة بين صاحب الحال في يقولون وبين الجملة الحالية وهى (يخفون في أنفسهم مالا يبدون لك) لأن هذا القول فاتحة الشك وظن السوء والرجوع للجاهلية الأولى كبعض عامة الأمم الذين يرون ان الله متى اصطفى عبدا من عباده أغدق عليه النعم الدنيوية وأزاح عنه العلل البدنية وأرسل على أعدائه كل قاصمة للظهر قاطعة للعمر فأبعده من الوجود كعاد وثمود أوقضى حياته فى خمود ذلك رأى الجاهلين من أهل مكة الذين قالوا كما فى سورة الاسراء - لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا - أى تفجر لنا من أرض مكة وهى قاحلة ينبوعا أو يكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أى يكون لك بستان يشتمل على ذلك - أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا - أى قطعا - أو تأتى بالله والملائكة قبيلا - أى كفيلا بما تدعيه أو شاهدا على صحته ضامنا لدركه وهكذا الى آخر المسائل الست التى اقترحوها كما ستراه هناك ان شاء الله تعالى فهذا نوع آراء الجاهلية الأولى فى الأنبياء فالرسل والأنبياء فى نظرهم فوق القدر مسلطون على السموات العلى والأرض وما حوت وهم أشبه بالعظماء فى الممالك المستبدة الذين يأمرون فيطاعون واذا كان هؤلاء مقربين من ربهم فهذا معناه أنهم مسلطون على ملكه متى طلبوا أجيبوا فهؤلاء لا يألون من شئ إلا أهلكه الله ولا يطلبون شيئا الا أحضره الله هذا رأى الجاهلية بل هذا رأى العامة فى زماننا وفى كل زمان يرون ان العابدين الصالحين أمرهم كذلك وأن المقرب من الله هكذا يكون فيتملقون للصالحين العابدين لأجل أن يزيحوا عنهم البلايا ويخرجوهم من مضض الشقاوات فى الحياة هكذا هؤلاء الذين يقولون هل لنا من الامر من شئ أى أليس نبينا محبوبا لله والله هو المالك لهذا العالم وكيف يكون المصطفى المختار عنده مهزوما بجيشه مقهورا من أعداء الله وأعداء الرسول فلو كان نبيا ما سلط الله عليه هؤلاء الأعداء فهذا هو الذى أخفوه فى مضمون قولهم - هل لنا من الامر من شئ - ثم أبان ذلك أشد إبانة وأوضحها فقال على سبيل الاستئناف (يقولون لو كان لنا من الامر شئ ما قتلنا هاهنا) أى لما غلبنا وقتل من قتل منا فأجابهم الله على لسان رسوله يقول أنا لم أخلق العالم بلا نظام وانما أنا أبدعته بسابق علم وأحكمته أشد احكام فلكل امرئ مصرعه ولكل أجل كتاب ولكنى جعلت الاسباب مقدمات المسببات لأربى فيكم الارادة وأقوى العزيمة وأستخرج من هذه المادة المظلمة نفوسا مشرقة أفعل معها كما يفعل المختبرون فاذا أخرجتكم للحرب وحكمت عليكم بالهزيمة فى أحد فذلك لابين لكم قوى العزيمة وضعيفها وأميز الخبيث من الطيب وهل يمتاز الذهب الابريز إلا بايقاد النار كما لا يمتاز الشجعان الصادقو الايمان والعزيمة الا بالنوازل العظيمة والفوادح العميمة فهذا قوله تعالى (قل لو كنتم فى بيوتكم) فى المدينة (لبرز) لخرج (الذين كتب) قضى (عليهم القتل الى مضاجعهم) أى الى مصارعهم بأحد . وانما حكم الله بالحرب والقتال لحكم عنكم أخفاها وعجائب علمها (وليبتلى الله) ويختبر (مافى صدوركم) أى يظهر ما اختبأ فى صدوركم حتى يتبين لكم وللرسول القوى ايمانه والضعيف فى دينه (وليمحص) مافى قلوبكم) يطهرها من الشك والارتياب بما أعطاكم من الامنة وماغشاكم به من النعاس وما أنعم عليكم به من صرف العدو عنكم فهذه دروس الايمان ليثبته فى قلوبكم (والله عليم بذات الصدور) بخفياتها وأنتم لاتعلمون فلذلك أظهرها لكم بهذه الامتحانات التى ألقاها عليكم فى أحد فالله عالم من الازل وأنتم تعلمون الآن بما يظهر من العمل واعلموا أيها المؤمنون ان الذنوب يتبع بعضها بعضا فلاحقها تابع لسابقها حذو النعل بالنعل وكل ذنب يستتبع ذنبا فيكون اللاحق عقابا على السابق كما يكون اللاحق من المبرات كالثواب للسابق منها وهذا معنى قوله مبينا السبب فى ترك الرماة مراكزهم وانطلاقهم الى الغنيمة (ان الذين تولوا) انهزموا (منكم يوم التقى الجمعان) جمع محمد صلى الله عليه وسلم وجمع أبى سفيان بأحد (انما استزلهم) دعاهم الى الزلة وحملهم عليها (الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم) تجاوز عنهم (ان الله غفور) للذنوب (حليم) لا يعجل بالعقوبة ثم ان هؤلاء الذين تركوا مراكزهم تبعهم أكثر المحاربين ولم يبق مع النبى صلى الله عليه وسلم الا أربعة عشر رجلا سبعة من المهاجرين وسبعة من الانصار وكان فيهم أبو بكر وعمر وعلى وطلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عوف والزبير وسعد بن أبى وقاص (يا أيها الذين

آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم) لأجل اخوانهم فى النسب أو المذهب (اذا ضربوا فى الارض) سافروا فيها وأبعدوا للتجارة أوغيرها فماتوا (أوكانوا غزا) جمع غاز كعاف وعفى فقتلوا (لوكانوا عندنا ماماتوا) كما ماتوا فى سفرهم (وماقتلوا) كما قتلوا فى غزوهم هذه الجملة مفعول قالوا وانما قالوا ذلك لتكون عاقبته أن يكون حسرة فى قلوبهم فهذا قوله (ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم) فاللام لام العاقبة مثلها فى قوله تعالى ـ ليكون لهم عدوّا وحزنا ـ فرد الله عليهم قائلا ليس السفر والغزو هما سبب الموت ولا الاقامة سبب الحياة (والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير ولئن قتلتم فى سبيل الله أومتم) فى سبيله وجواب القسم قوله (لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون) من الدنيا (ولئن متم أوقتلتم) على أى وجه اتفق هلاككم (لالى الله) لا الى غيره (تحشرون فبما رحمة) فبرحمة وما زائدة (من الله لنت لهم ولوكنت فظا) سيئ الخلق جافيا (غليظ القلب) قاسيه (لانفضوا من حولك) تفرقوا عنك ولم يسكنوا اليك (فاعف عنهم) فيما يختص بك (واستغفر لهم) فيما لله تعالى (وشاورهم فى الامر) أمر الحرب وفى كل ما يصح أن يشاور فيه (فاذا عزمت) وطنت نفسك على رأى بعد ما شاورتهم (فتوكل على الله) فى امضاء أمرك على ماهو أصلح لك (ان الله يحب المتوكلين) الذين لا يترددون فى أمورهم بعد اتمام المشورة واتفاق الرأى فينصرهم (ان ينصركم الله) كما نصركم يوم بدر (فلا غالب لكم) فلا أحد يغلبكم (وان يخذلكم) كما خذلكم يوم أحد (فمن ذا الذى ينصركم من بعده) من بعد الله (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) بامضاء ماعزموا عليه بعد التفكير وأخذ سائر أسباب الحيطة كما حصل يوم أحد من صف الصفوف فى الحرب واقامة كل فى مركزه وبالمخالفة انهزم الجيش *قيل انه لما ترك الرماة مراكزهم قال صلى الله عليه وسلم لهم ألم أعهد اليكم ألا تتركوا المراكز حتى يأتيكم أمرى قالوا تركنا بقية اخواننا وقوفا قال النبى صلى الله عليه وسلم بل ظننتم أنا نغل فلا نقسم فلذلك قال الله (وما كان لنبىّ أن يغل) وما صح لنبىّ أن يخون فى الغنائم والنبوّة تنافى الخيانة (ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة) أى بالشئ الذى غله يجمعه على ظهره وقد جاء فى الحديث المتقدّم فى سورة البقرة عند الكلام على الشفاعة كالذى ورد فى البخارى ومسلم «لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعيرله رغاء يقول يارسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة فيقول يارسول الله أغثنى فاقول لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء يقول يارسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح فيقول يارسول الله أغثنى فاقول لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق فيقول يارسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت فيقول يارسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك» اللفظ لمسلم الرغاء صوت البعير والثغاء صوت الشاة والرقاع الثياب والصامت الذهب والفضة وهذا القول كالتمثيل لتلك الحال التى يكون عليها الخائنون بعد الموت وفى يوم القيامة (ثم توفى كل نفس ما كسبت) تعطى جزاء ما كسبت (وهم لا يظلمون) لا ينقص ثواب عملهم ولا يزاد فى عقاب العاصين منهم (أفمن اتبع رضوان الله) بالطاعة (كمن باء) رجع (بسخط من الله) بسبب المعاصى (ومأواه جهنم وبئس المصير) الحال التى يصيرون اليها مخالفة لحالهم الاولى (هم درجات عند الله) ذوو درجات (والله بصير بما يعملون) عالم بأعمالهم ودرجاتهم فيجازيهم (لقد منّ الله على المؤمنين) أنعم عليهم نعما خاصة بالهداية فوق النعم العامة للكافر والمؤمن (إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) من نسبهم وجنسهم ليفهموا كلامه بسهولة (يتلو عليهم آياته) القرآن (ويزكيهم) يطهرهم من سوء الطباع وفاسد العقائد (ويعلمهم الكتاب والحكمة) القرآن والسنة (وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين) ان للتأكيد مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن أى الشأن كانوا من قبل مبعثه لفى ضلال ظاهر (أ) تظنون بالله ظنّ الجاهلية الأولى وتفعلون كذا وكذا (ولما أصابتكم مصيبة) يوم أحد بأن قتل منكم سبعون (قد أصبتم مثليها) يوم بدر بأن قتلتم سبعين وأسرتم

سبعين من كفار مكة (قلتم أنى هذا) من أين هذا أصابنا (قل هو من عند أنفسكم) مما اقترفته أنفسكم من الذنوب السابقة باختياركم الفداء يوم بدر واللاحقة بترك مركزكم (ان الله على كل شيء قدير) يقدر على الضر ومنعه (وما أصابكم يوم التقى الجمعان) جمع المسلمين وجمع المشركين (فباذن الله) فهو كائن بقضائه وقدره ليبتليكم (وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا) وليتميز المؤمنون والمنافقون * ثم عطف على قوله نافقوا قوله (وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله) للآخرة (أو ادفعوا) عن أنفسكم وأهليكم وأموالكم ان لم تكونوا موقنين بالآخرة (قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم) أي لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالا لاتبعناكم مستهزئين بالقتال لما في قلوبهم من الدغل كما روى أن عبد الله بن أبي ابن سلول لما انخذل بأصحابه يوم أحد كما تقدم وهم ثلث القوم وقال ما ندرى علام نقتل أنفسنا تبعه جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الانصاري من بني سلمة وهو يقول يا قوم أذكركم الله أن لا تخذلوا نبيكم عند حضور عدوه فأجابه قالا لو نعلم قتالا لاتبعناكم فقال الله (هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان) لتوليهم وكلامهم (يقولون بأفواههم ماليس في قلوبهم) يظهرون خلاف ما يبطنون (والله أعلم بما يكتمون) من النفاق وما يخلو به بعضهم الى بعض ثم أبدل من فاعل يكتمون وهو الواو قوله (الذين قالوا لاخوانهم) أي لأجل اخوانهم الذين قتلوا يوم أحد (وقعدوا) أي وقد قعدوا هم عن القتال أي حال كونهم قاعدين ومقول القول (لو أطاعونا ما قتلوا) كما لم نقتل نحن لما قعدنا وهؤلاء هم عبد الله بن أبي وأمثاله (قل فادرؤا) ادفعوا (عن أنفسكم الموت) الذي سيأتيكم لامحالة (ان كنتم صادقين) انكم تقدرون ان تدفعوا القتل عمن كتب عليه (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا) كالذين قتلوا في أحد والذين قتلوا ببدر (بل) هم (أحياء عند ربهم) ذوو زلفى منه (يرزقون) من الجنة وهذا تأكيد لكونهم أحياء (فرحين بما آتاهم الله من فضله) وهو شرف الشهادة والفوز بالحياة الابدية (يستبشرون) يسرون بالبشارة (بالذين لم يلحقوا بهم) أي باخوانهم المؤمنين الذين لا يزالون أحياء ولم يقتلوا فيلحقوا بهم (من خلفهم) أي الذين من خلفهم في الزمان (ألا خوف عليهم) من وقوع محذور (ولا هم يحزنون) على فوات محبوب * والمعنى انهم يستبشرون بما تبين لهم من أمر الآخرة وأمر من تركوا من اخوانهم المؤمنين الباقين في الدنيا انهم اذا ماتوا أو قتلوا كانوا أحياء حياة لا يكدر صفوها فلا يخافون من مصائب تحل بهم ولا يحزنون لفوات منافع لهم بل لا نصب هناك ولا حزن فقوله ألا خوف عليهم بدل من الذين لم يلحقوا بهم * ولما ذكر استبشارهم بسعادة اخوانهم الذين هم أحياء سيموتون أخذ يذكر ما يستبشرون به هم لأنفسهم فقال (يستبشرون بنعمة) ثواب لأعمالهم (من الله وفضل) زيادة (وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين) عطفا على فضل وقرئ بالكسر على الاستئناف * روى أن أبا سفيان وأصحابه لما رجعوا فبلغوا الروحاء ندموا وهموا بالرجوع فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فندب أصحابه للخروج في طلبه وقال لا يخرجن معنا أحد الا من حضر يومنا بالأمس فخرج صلى الله عليه وسلم مع جماعة حتى بلغوا حمراء الأسد وهي على ثمانية أميال من المدينة وكان بأصحابه القرح فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر وألقى الله الرعب في قلوب المشركين ففي ذلك يقول الله تعالى واصفا المؤمنين (الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم) وروى أيضا ان أبا سفيان نادى عند انصرافه من أحد يا محمد موعدنا موسم بدر لقابل ان شئت فقال صلى الله عليه وسلم ان شاء الله فلما كان القابل خرج في أهل مكة حتى نزل بمر الظهران فأنزل الله الرعب في قلبه وبدا له أن يرجع فمر به ركب من عبد قيس يريدون المدينة للميرة فشرط لهم حمل بعير من زبيب ان ثبطوا المسلمين وهكذا لقي نعيم بن مسعود وشرط له عشرا من الابل فلما التقى هؤلاء بالمسلمين يتجهزون قالوا لهم ان أتوكم في دياركم لم يفلت منكم أحد الا شريدا أفترون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم ففتر المسلمون لما سمعوا ذلك فقال عليه الصلاة والسلام والذي نفسي بيده لأخرجن ولو لم يخرج معي أحد فخرج في سبعين راكبا وهم يقولون حسبنا الله ونعم الوكيل وفي هذا يقول الله تعالى (الذين) بدل من الذين استجابوا (قال لهم الناس) أي الركب من عبد قيس أو نعيم بن مسعود الاشجعي (ان الناس) أي أهل مكة (قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم) هذا القول (ايمانا وقالوا حسبنا الله) كافينا الله من أحسبه اذا كفاه (ونعم الوكيل) ونعم

الموكول اليه هو (فانقلبوا) رجعوا من بدر (بنعمة من الله) عافية وثبات على الايمان (وفضل) فى التجارة فانهم لما أتوا بدرا وجدوا بها سوقا فاتجروا وربحوا وكانت بدر سوقا فى الجاهلية يجتمعون اليها كل عام ثمانية أيام فانتظروا ببدر أبا سفيان أما هو فقد انصرف من مجنة الى مكة وكان مع الصحابة نفقات فباعوا فأصابوا بالدرهم درهمين وانصرفوا الى المدينة غانمين (لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم) تفضل عليهم بالثبات وزيادة الايمان والتوفيق (انما ذلكم الشيطان) المثبط لكم كنعيم بن مسعود المذكور (يخوف أولياءه) القاعدين عن الخروج مع النبى (فلا تخافوهم) لا تخافوا الناس الذين خوفكم منهم المثبطون (وخافون) فى مخالفة أمرى (ان كنتم مؤمنين) انتهى القسم الثانى بفصوله الاربعة وفى هذا القسم اثنتا عشرة لطيفة

﴿ اللطيفة الاولى — الشورى والتوكل ﴾

الشورى استشار صلى الله عليه وسلم أصحابه أيخرجون من المدينة فيلاقون العدو أم ينتظرونه وكان تأويل الرؤيا أدعى الى البقاء بالمدينة فلما رأى أكثر أصحابه أميل الى الخروج من المدينة أطاع الاغلبية وحكم بأمرهم فى القضية فلما أن لبس لامته وعزم الامر أرادوا منه عدولا فقال لهم لا وكيف يرجع الانبياء عن عزمهم وقد لبسوا آلات حربهم فاستمعوا لأمره وقيل له هنالك — فاذا عزمت فتوكل على الله —

فهاهنا أصبحت الشورى من الواجبات واذا كان صاحب شرعنا صلى الله عليه وسلم يستشير قومه والوحى ينزل عليه فينزل على حكمهم ويسير بأمرهم فياليت شعرى كيف استبد ملوك الاسلام وكيف تركوا الشورى فى غابر الايام الا انما القوم كانوا نياما والله لقد عجبت العجب كله فكيف ترك بعض المسلمين الشورى واستبدوا بأمورهم وظلموا فى حكمهم ألا ساء مثلا القوم الجاهلون لذلك فاجأهم الغربيون وأذلوهم صاغرين وانقضوا عليهم طامعين فجعلوهم حصيدا خامدين فى القرون الاخيرة لما أفل نجمهم وتفرق جمعهم — فنقبوا فى البلاد هل من محيص — وقد آن أن يرجعوا لمجدهم وينالوا عزهم ويوفوا حظهم وهم سالمون

﴿ التوكل ﴾

أما التوكل فهاهو ذا معروف فى نفس هذه القضية فان الله أمره بالتوكل بعد أن استشار القوم ورضى القوم ولم يبق إلا العمل فهناك يكون التوكل والسير الى الأمام والاقدام لا الاحجام والرضا بما سيكون فاما الموت واما النصر فيرضى العاقل إذ ذاك بما يأتيه

فأما أولئك الجهال الذين يذرون التفكير والتدبير ويقولون هل من مجير وقد تركوا حبل الأمور على غاربها فهم المغرورون لا المتوكلون . ان التوكل بعد العزم فهذا قول الرسول الأمين وهذا قول رب العالمين فمن أين للناس بعد هذا تبيان . ولقد فسر الامام الغزالى ماروى فى هذا المقام من أن سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب من هذه الأمة وذكر منهم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون فجعل الرقيا من الأمور التى من عادة الشفاء بها أن يكون موهوما لا مظنونا ولا محققا وكذلك الكى ليس طبا لكل مرض بل لكل داء دواء جرت به العادة وغلب على الظن نفعه هكذا الطيرة والتفاؤل بالشر فذلك ليس دليلا على الشر وانما هو أمر موهوم فأما الأمور المظنونة المعتادة التى يغلب على الظن نفعها فهى التى يصح معها التوكل كالطب المعلوم والزراعة والتجارة والصناعة والامارة وما أشبه ذلك فهذه يكون التوكل معها مشروعا والسير على سبيلها محمودا . ولعمرك ما أجهل أكثر أهل العلم بالدين وما أبعدهم عن التحصيل وكيف يكون ديننا يأمر بالأسباب المقبولة ويعلق الدخول فى الجنة (فى تلك الرواية) بغير حساب على الأمور المقبولة المظنونة فأما ما هو موهوم النتائج كما يفعل الدجالون فحكمهم أنهم لا يدخلون الجنة الا بحساب لأنهم لم يحاسبوا أنفسهم فى الدنيا بل ظلوا على البلاهة عاكفين وبالجهالة قانعين وبالتواكل راضين وقد انخلعوا عن عقولهم ونزلوا عن نفوسهم وعاشوا بحواسهم ومحسوساتهم ونامت عن المعقول قواهم الناطقة فماتوا وهم غافلون فما بكت عليهم السماء والارض وما كانوا منظرين

﴿ اللطيفة الثانية ـ امداد المؤمنين بخمسة آلاف من الملائكة بعد ثلاثة آلاف أو بألف ﴾

الامداد بالملائكة يألفه الذى عكف على قراءة الديانات . فأما أهل النظر فأ كثرهم يظنون ذلك مجازا أو لا يصدّقونه ولقد ذكرنا فى سورة البقرة الأدلة التى أدلى بها حكماء الأمم من ظنية وجدلية ووجدانية عند قوله تعالى ـ واذ قال ربك للملائكة فلا تطيل هنا باعادتها فأما معاونتهم للناس ومشاركتهم لهم فى أعمالهم فى هذه الحياة فهو الذى يحتاج الى زيادة النظر وتدقيق الفكر فنحن فى هذا المقام بين أمرين اما أن نجتزئ بالدين ونكتفى بالايمان ونقول لا نكلف فوق ما نطيق ولا نقول الا بالتحقيق واما أن نجد سبيلا للبحث وطريقا للتنقيب ووسيلة للبرهان ولقد ذكرت فى كتاب الأرواح ماورد عن أجلة العلماء من أسلافنا والمعاصرين من الفرنجة ولست أذكره على سبيل البرهان ولكن لأطلعك على ماوصل اليه البحث البشرى ولتدلى دلوك فى الدلاء ثم تنظر كما نظروا فاعلم أن العلامة الرازى قال فى سورة ابراهيم ماملخصه ان النفوس بعد الموت تساعد النفوس المشاكلة لها وتعلمها فان كان فى باب الخير سمى إلهاما وان كان فى باب الشر سمى وسوسة

وهكذا نقلت فيه عن اخوان الصفا أن النفوس المتجسدة الشريرة فى هذه الحياة شياطين بالقوّة والنفوس المتجسدة الخيرة ملائكة بالقوّة فاذا فارقت أبدانها صارت الأولى شياطين بالفعل والثانية ملائكة بالفعل أى كالملائكة وكالشياطين . ولقد نقلت فيه عن الجمعيات النفسية المنتشرة فى أوروباشيئا كثيرا من الأسئلة التى وجهوها للأرواح التى ظنوا أنهم قد أحضروها بطرق علمية وسألوها أسئلة كقولهم هل ينال المخترع والعالم العون من الأرواح فكان الجواب يأتيه متى عمل كل مافى وسعه فانها تلهمه بعض إلهامات فكرية ليكون الفضل اليه منسوبا والعمل له بكسبه ولو أن العون أعطى له بلا عمل منه ولا فكر ولا تنقيب لتساوى الجاهل والعليم والخامل والعامل

فانظر كيف يرى بعض الفرنجة وأهل أمريكا وهم يعدون بعشرات الملايين (آلاف الألوف) ان هناك عالما روحيا يعين الناس فى الأعمال الشريفة . ولقد ذكرت ذلك فى كتاب الأرواح وأثبت بآية امداد الملائكة للنبى وأصحابه وعجبت كيف أصبح العلم الحديث يقول مثل مافى القرآن بل القدماء والمحدثون معا

انى لا أطيل القول بنقل محادثات الارواح فان ذلك شرحه يطول ولكن أذكر لك ما كتبته تعليقا على ذلك وهذا نصه

حينئذ قلت ياشير محمد تأمل فى هذا الحديث ألم تجد فيه علما جديدا فى فهم القرآن . قال وماذاك قلت قال تعالى ـ فلما قضينا عليه الموت مادلهم على موته الا دابة الارض تأكل منسأته فلما خرّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين ـ فان الجن أيام سليمان عليه السلام بقوا أمدا طويلا مسخرين وكان سليمان عليه السلام متكئا على عصاه فلما أكلت دابة الارض تلك العصا خرّ على الأرض فلو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى ذلك العذاب ولعلموا أن سليمان ميت ولاجرم أن هذه القصة ثمرتها ألا يثق الانس باخبار الجن . هذا هو المقصد الحقيقى منها . ولقد تجلى واضحا فى هذا الحديث ألا ترى انهم لما سألوا الروح هل تستطيع الأرواح أن تكشف أمر المستقبل فكان الجواب كلا اذ لو عرف الانسان المستقبل لأهمل الحاضر

ولما سألت الارواح أليس مع هذا من حوادث يتنبأ الارواح عنها وتتم فى حينها . فكان الجواب قد يتفق أحيانا أن الروح يستشعر حدوث بعض أمور يرى من الفائدة كشفها وهذا لا يمنع الارواح الماكرة عن نشر النبوات الكاذبة . ثم أفاد أن الارواح الرصينة قد تستشعر بأمر يكون فى الغالب متعلقا بحوادث لم تتم ولا يعلمها الا الله فلا تقطع فى جوابها .

أما الارواح الطائشة فلا يهمها أمر الحقائق فتنشر الاخبار الكاذبة . ولاجرم أن ذلك مغزى قصة سليمان عليه السلام وشرح ما انطوت عليه من العلم و برهان صدق لما فيها من التوقف عن تصديق ماتلقى الجن من الأكاذيب اهـ

ثم انظر ياشير محمد الى قول الروح ان بعض الناس يستدلون على قرب موتهم و يحددون زمن وقوعه وان هؤلاء الذين انطلقت أرواحهم من قيود الجسد لا يهولهم أمر الموت ألست ترى ياشير أن هذا مصداق قوله تعالى ـ ان الذين

قالوا

قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال انني من المسلمين ـ

فتعجب يا بشير كيف يقول تتنزل عليهم الملائكة ليلهموهم السرور والبهجة ويخاطبوهم وانظر الى قوله تعالى ـ ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ـ فقد قال صلى الله عليه وسلم لما سئل عن البشرى قال (هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له) وتعجب يا بشير محمد من قول الروح في هذا ان الطبيب اذا انكب على درسه بالاستقامة لا بنية حشد المال وكسب المعارف بدون جد ولا عناء ينال مساعدة الارواح العلوية أوليس هذا من مساعدة الملائكة للمجدين وقد قال صلى الله عليه وسلم (انما العلم بالتعلم وانما الحلم بالتحلم) فلا علم بلا جد ونصب ولا حلم بلا تكلف وتصبر وجد وقال تعالى ـ وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم ـ وقال ـ وكل شيء عنده بمقدار ـ وقد علمت فيما مضى أن الارواح لا تخص من مضوا من عالم الارض بل هناك من هم أعظم وهم الملائكة المكرمون ثم انظر قوله تعالى في سورة النحل ـ الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بلى ان الله عليم بما كنتم تعملون ـ ثم قال ـ وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ـ ثم قال ـ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ـ أليس هذا يا بشير يومئ الى ما يقوله الروح هنا أن أرواحهم تطلع على ذلك عند انطلاقها من قيود الجسد ويبقى فيها ذكره عند اليقظة فهؤلاء لا يهولهم أمر الموت ولا يرون فيه الا انتقالا من حال الى حال أو تغيير كساء خشن بكساء لطيف • وهل يعطى من لا يستحق الحكمة كلا اهـ

ثم انظر الى قوله فالأرواح الصالحة تساعدكم على تحمل المحنة ولكنها لا تدرؤها عنكم لأن بها خيركم الروحي ونجاح مستقبلكم وهذا قوله تعالى ـ فعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ـ وقوله ـ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير ـ وقوله ـ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وانا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ـ ثم تأمل قول الروح وهذا بدء القصاصات التي ستنزل بهم من تعلقهم المفرط بالخيرات وقوله ان العدل قائم بخيبة آمالهم فتعجب كيف كان مطابقا أشد المطابقة لقوله تعالى ـ ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ـ وقوله تعالى ـ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا ـ فجعل الله المال والولد عذابا في الدنيا وفي الآخرة لمن تعلق بهما ولم يجعلهما وسيلة لارتقاء روحه ثم جعل المال والبنين زينة الحياة الدنيا ولا خير الا فيما يبقى من الصالحات الباقيات

وأما قول الروح ان العلوم الأرضية ليست بشيء بالنسبة الى العلوم السماوية فهذا قوله تعالى ـ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا ـ وقول الروح لا يخفى أن غاية الروحانية هي اصلاحكم الروحي والغرض من كل الامثلة والمقالات التي تأتيكم هو وقوفكم على حقائق ما بعد الموت لتتجردوا من الارضيات وتسعوا وراء السماويات هذا وكثير أمثاله يفهم من قوله تعالى ـ ان الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين ـ ومفهومه أن الذين صدقوا ولم يستكبروا تفتح لهم أبواب السماء ـ وقوله تعالى ـ ان الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ـ ومفهومه أن الذين يرجون لقاء الله ولم يرضوا بالحياة الدنيا وجعلوها لجة واتخذوا صالح الاعمال فيها سفنا ولم يطمئنوا لها ولم يغفلوا عما أودع فيها من آيات

الله فأولئك مأواهم الجنة بما كانوا يكسبون اه

﴿ حكمة ومعجزة ﴾

ياشبير محمد ان قول الروح هنا أيضا ان الطبيب ينال المساعدة من الارواح العلوية وقوله فى العالم والمخترع انهما ينالان المعاونة من الارواح العالية اذا آن وقت الاختراع دال على مداخلة الأرواح فى أعمالنا عند الاستحقاق أليس هذا مطابقا لقوله تعالى فى سورة آل عمران — ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون اذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين وما جعله الله الا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم — ألا فانظر كيف رتبت الأرواح المعونة للمخترع والعالم على الجد والمثابرة وهى تطابق الآية اذ جعل مساعدة خمسة آلاف من الملائكة موقوفا على الصبر والتقوى وهجوم العدو أولست ترى ان بيان الأرواح معجزة للقرآن . لقد كنا نسمع هذا ونكل علمه الى الله تعالى فأصبحنا نروى نظائره عن الأرواح العالية أنفسها وقال فى سورة الأنفال — إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر الا من عند الله ان الله عزيز حكيم اذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام اذ يوحى ربك الى الملائكة انى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب —

فانظر كيف أمر الملائكة أن يثبتوا الذين آمنوا وأنه سيلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فترى ان ماقاله الروح هنا من إلهام الأرواح الأحياء ومساعدتهم وانارة بصائرهم موافق للآيات ومعجزة فى هذا الزمان فتأمل اه

﴿ الحياة بعد الموت ﴾

خطبة للسر أوليفر لودج العالم الانجليزى المشهور فى الحياة بعد الموت نقلا عن مجلة المجلات الانجليزية منقولة من كتاب الارواح للمؤلف وقد حذف منها ماتقدم ذكره فى هذه السورة منها . اذا صح أن الله موجود فعلا وأنه يوحى الى البشر ويساعدهم وأن الانسان ليس منفردا على هذه الارض السابحة فى الفضاء بل حوله كثير من الاعوان يعطفون عليه ويساعدونه وان الله تعالى آخذ بيده فى سيره الى الحقيقة والكمال الادبى اذا صح ذلك كان حقيقة تتضاءل فى جنبها جميع الحقائق . وقد يكون من الحضور من يعتقد أن الانسان أرفع الكائنات وليس فى الكون أعلى منه وانه نشأ على هذا السيار أى الارض واذا مات اضمحل . وان ليس فى الوجود من يعينه ولا من يفهم أسرار الكون أكثر منه وانه أرفع الكائنات طرا لأنه أرقى ماوصل اليه النشوء على هذه البسيطة فى هذا العصر . ثم قال

وقد عرف الآن أن فى الكون أراضى غير أرضنا هذه وقد يكون فيها من يقابل الانسان من الكائنات . ولكن أليس فى الكون كائنات تختلف عنا وهل يجوز ان نعتقد أن كل كائن مدرك يجب ان يكون له جسم مادى مثل أجسامنا ان اعتقادا مثل ذلك لا مسوغ له ولا قام عليه دليل

قد أظهر العلم مافى الكون من الانتظام وأن فيه عوالم كثيرة لا عالما واحدا . ولنا فى الاجرام الفلكية مثال على أنه قد يكون فى الكون كائنات كثيرة لا نعلمها . اذ لو كان الهواء الجوى غير شفاف لما رأينا من الاجرام السماوية شيئا ولا علمنا بوجودها . وليس احتجاب الأجرام الفلكية عن بصرنا أمرا يعز حدوثه فان الضباب والغيم يحجبانها عنا أوقاتا كثيرة . ولكن اتفق لنا ان كان فى امكاننا رؤية ماوراء الهواء فرأينا شيأ من عظمة الكائنات وانها غير متناهية . ولست سارداعليكم ماعرف من الحقائق الفلكية فانكم تعرفونها وهى كثيرة غير محدودة . وان عقولكم لتقصر دون تصور حقيقة هذا الكون المؤلف من عالم وراء عالم وراء عالم الى مالانهاية له . وجميع هذه العوالم خاضعة لنواميس واحدة لأن عناصر النجوم مثل عناصر الأرض وخصائصها فى النجوم مثل خصائصها هنا . فهل الانسان هو سيد هذا الكون العظيم ان الانسان حديث العهد بالوجود على الأرض فما كان حال الكون قبل

وجوده ليس الانسان سيد الكائنات بل هو درجة من الدرجات فى النشء ثم قال

ان الانسان لا يسود الكون ولا يفهم أسراره ولكنه يتلمس فيه الحقائق تلمسا وقد كشف حديثا (الراديوم) الارغون (أشعة رتنجن) و (بعض طبائع الكهربائية) وقد بدأ الآن يعرف شيئا عن بناء الجواهر الفردة وتظهر هذه الامور كلما وجدت وهي غير جديدة بل كانت موجودة قبل أن نكشفها ولو لم نكشفها لكانت موجودة أيضا ونحن لا نعرفها . وفي الطبيعة أيضا أمور كثيرة لم نكشفها حتى الآن

ولكن كم عمر العلم ليس عمره الا قرونا قليلة بل قرنا واحدا لانه لم يتقدم تقدما يذكر الا فى القرن التاسع عشر . وقد عرفنا شيئا من حقائق الكون . الا ان ما عرفناه جزء من كل فلا يجوز لنا أن ننفي وجود الكل . لنا ان نبحث عن الحقائق والموجود موجود سواء عرفنا وجوده أم لم نعرف واعتقادنا بوجود شيء أو عدم وجوده لا يؤثر فى الكون ولكنه يؤثر فينا . نحن لا نعرف تركيب الجواهر الفردة ولكنا قد بدأنا نعرف شيئا عنه فكل جوهر يشبه النظام الشمسي فى تركيبه وله نواة تقابل الشمس والكترونات تدور حولها مثل السيارات حول الشمس . وهذه الالكترونات خاضعة فى دورانها لنواميس مثل النواميس التي تخضع لها السيارات ثم ان الجواهر الفردة غير محصورة فى الارض بل توجد فى الشمس والسيارات وكل كواكب السماء تتألف منها كما تتألف منها الارض ولا نعلم كل النواميس الجارية هي عليها حتى الآن ولكننا سائرون فى السبيل الموصل الى ذلك . ثم قال

ليس منكم الا من رأى النمل يخرج من قريته ويعود اليها ولا نعرف كثيرا من أمور النمل فى ذهابه وايابه وأنا أظنه يدرك ما يعلمه بعض الادراك وهو يدب بين أقدام الناس الذين مداركهم فوق مداركه بكثير وماذا يعرف النمل عن اعتقادات الناس وآرائهم وأعمالهم ومداركهم ان لنا عبرة فى ان الحيوانات التى مثل النمل تعيش بيننا ولا تعرف شيئا عنا وعندي ان فى الوجود كائنات نسبتنا اليها كنسبة النمل الينا ونحن نتسكع بين أرجلها غير عارفين شيئا عنها . ان حواسنا تعيننا على التوصل الى ادراك بعض الامور ولكنها قاصرة جدا ولذلك نقويها بذرائع عديدة كالتلسكوب والمكرسكوب . ورغما من ذلك لا نعرف عن الكون الا القليل ولم يزل حولنا أمور كثيرة لا ندركها ولكننا ندرك بعضها عن طريق غير الحواس وبقية الخطبة قد تقدم فى هذه السورة

هذه خطبة السير أوليفرلودج نقلتها لك من كتاب الأرواح بحذافيرها ولم أختصرها وتركتها بطولها لأغراض ثلاثة الأول انه أثبت فيها ان أرواحنا باقية بعد الموت الثانى انه أثبت ان هناك عوالم أعلى منا وان نسبتنا اليهم كنسبة النمل الينا وانهم محيطون بنا الثالث انه أثبت ان هؤلاء يساعدوننا ويفكرون فى أمرنا هذه أمور ثلاثة جاءت فى الخطبة لذلك أثبتها كلها ان الله فى هذه السورة ذكر فيما يأتى ان الأرواح باقية بعد الموت قال تعالى ـ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ـ وهذا هو الأمر الأول وذكر الله فى الأمر الثانى والثالث ان لله ملائكة وان هؤلاء الملائكة يساعدون الناس المخلصين فى أعمالهم

﴿ عجيبة فى أمر الأمم الاسلامية اليوم ﴾

قد قرأت خطبة اللورد أوليفرلودج وهذا العالم عالم طبيعي بل هو أكبر علماء الطبيعة فى أوروبا وهذه الخطبة خطبها أيام الحرب الكبرى كما تراه مصرحا بذلك فيها

يخطب أوليفرلودج فى جمع من قومه وقنابل الالمان تتساقط فى أنحاء بلادهم والعذاب واقع بأمتهم والغازات الخانقة محيطة بهم يقف فيقول ان أرواحنا باقية وان لله عوالم أرقى منا وان هذه العوالم الروحية تساعدنا وتعاوننا هذه أعمالهم فى بلادهم

أما بعض الذين تعلموا فى بلادنا المصرية وبعض البلاد الشرقية فماذا يقولون يقولون نحن علماء عظماء لماذا لأننا قرأنا الانجليزية أو الفرنسية أو الالمانية أو الايطالية أو لغتين من ذلك وقرأنا بعض العلوم ونحن نحمل الشهادات فنحن أسمى نظرا وأعقل وأرقى فكرا من جميع المسلمين الجاهلين الذين يؤمنون بأمور لا يقبلها العقل

يقولون نحن نبقى بعد الموت أو ان هناك ملائكة أو أن هناك امدادا من السماء بأولئك الملائكة ان القرآن والكتب السماوية لم تنزل الا لأمم أقل منا علما ومدنية فلنفعل كما فعلت أوروبا ولنكفر بهذا كله ومتى كفرنا به انطلقت عقولنا من عقلها وعرفنا هذه الدنيا وحينئذ نستقل ونكون لنا جيوش جرارة

هذا ما يسره كثير من أهل العلم اليوم وبعضهم به يجهرون . فمثل هؤلاء يقال لهم ان ادعاءكم ان هذه الأمور خرافات واستنادكم على تكذيب أوروبا لها وادعاءكم ان التكذيب بها رقى للعمران وسعادة للبلاد كلها قضايا لا يقول بها الصبيان فان أوروبا التي تدعون انكم عرفتم علومها هذه الخطبة نموذج لعلماء الطبيعة فيها ولو كان القوم مغفلين مثل المغرورين من صغار المتعلمين في الشرق لقالوا كالخطيب السابق نحن الآن في حرب فدع الخرافات وائتنا بما يفيدنا في هذه الحياة وليس هذا الوحيد في هذا العمل بل هناك آلاف وآلاف أفضل منه في هذا الشان فهذه الطائفة من المتعلمين في الشرق مغرورة جاهلة مخدوعة ظنت ان تعلم اللغة ادراك للعلم وهذه أيضا فضيحة فان اللغة ليست علما وانما هي مقدمة للعلم وهؤلاء قرأوا اللغة وماقرؤا العلوم التي ألفت فيها ولو قرؤها مافهموها لأنهم لادراية لهم بتلك العلوم كما ان الانسان الذي يجهل الهندسة أو علم الجبر وهما علمان مؤلفان باللغة العربية لا يعرف مقصودهما ولا يعقلهما وكيف يعقلهما وهما محتاجان الى الموقف والمعلم فاللغات شئ والعلوم شئ فاعرف بهذا الميزان أهل زمانك وادرس أخلاق الأمة الاسلامية ونبه المغرورين منها الى طريق الرشاد

﴿ اللطيفة الثالثة ـ ليس لك من الأمر شئ ﴾

لقد ذكر في تفسيرها مايفيد أن الرسل يجرى عليهم القدر كما يجرى على العالمين فالخير والشر مقرونان في قرن يجريان على البر والفاجر والعالم والجاهل ولكن أرباب النفوس العالية من الأنبياء والحكماء يكون الشر مصباحا يضيء لهم والخير سلاحا يجاهدون به في سبيل الاصلاح ومفاتيح كل شئ بيد الله ولم يستثن من الاصابة أحدا وتراه كلف الآساد باقتناص السانحات البارحات من الغزلان وحكم على النمور والصقور أن لا تتناول غير اللحوم فكل لكل رابض وله مجاهدا نماء للقوى واسعادا للنفوس والأجسام فالخير من الشر وهما متلازمان صنوان لا يفترقان

﴿ اللطيفة الرابعة ـ ولله مافى السموات ومافى الأرض ﴾

قد قدمت في هذه السورة أن ذكر السموات والأرض يختلف باختلاف المواضع كالاستدلال على وجود الله بآية ـ هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ـ وآية ـ ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك الخ ـ للدليل على الوحدانية الى آخر ماقدمناه هناك ونزيد الآن ان قوله هنا ـ ولله مافى السموات ومافى الأرض ـ ذكره ليفيد البرهان على أنه ليس للنبي صلى الله عليه وسلم من الأمر شئ كأنه يقول وكيف يكون لك يامحمد شئ حتى تدعو على أعدائك بالاستئصال ولى مافى السموات ومافى الأرض فكيف تطلب منى اماتتهم أو تحاول ازهاقهم وارهاقهم وكيف يكون ذلك وأنا الغفور الرحيم فلى أن أرحمهم فأغفر لهم بأن يصبحوا مسلمين فان رحمتى وسعت كل شئ بطرق أخفيها وأعمال محجوبة أخبارها عن العالمين

﴿ اللطيفة الخامسة ـ تحريم الربا ﴾

لقد مر شرحه في سورة البقرة عند آية الربا وكيف كان تحريمه أعجوبة الدهر وغريبة العصر وكيف أصبحت الدول تحرم استعماله وتريد اهماله وأنه سبب انتقاص العمران وهدم البنيان وفساد هذا الانسان وضياع البلاد وذل العباد فقامت البلشفية وقبلها الاشتراكية وكل ينادى بالويل والثبور وعظائم الأمور . وانظر كيف كان تحريم الربا في هذا المقام مسطورا وبعد الحرب في أحد مذكورا . ولعمرى ماعلاقة الربا بالحروب ان العلاقة واضحة جلية ظاهرة بهية ألا ترى ان الحرب لاقوام لها إلا بالسلاح ولا فوز لها الا بالكراع ولا بد من جند لها يعملون وفلاحين للارض يزرعون وصناع للآلات يقومون ومهندسين للسواقى والمدن يصلحون وطرق بالبخار يسلكونها وقطرات عليها وعلى الفلك في البحار يحملون

فاذا فشا الربا فى البلاد افتقر العاملون وذلت الفلاحون ويئس من الرواج التجار وبارت صناعة الحداد والنجار فهذا سر ذكر الربا فى هذا المقام وقد وفيت المقام حقه فى سورة البقرة عند آية الربا

﴿ اللطيفة السادسة ــ الجنة والنار ﴾

اعلم أن الجنة والنار قد أفضنا الكلام عليهما فى سورة البقرة عند قوله تعالى ــ وأتوا به متشابها ــ واليوم نعيد الكرة لهما بتحقيق أجلى وإيضاح أكمل وأحاديث مرفوعة وآراء مشروحة وعلوم حديثة واكتشافات صريحة فنقول (١) قد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى أرواح الأنبياء صلى الله وسلم عليهم ليلة أسرى به فى السموات سماء سماء آدم فى سماء الدنيا وعيسى ويحيى فى الثانية ويوسف فى الثالثة وادريس فى الرابعة وهارون فى الخامسة وموسى وابراهيم فى السادسة والسابعة قال ابن حزم فصح ضرورة أن السموات هى الجنات (٢) عن صفوان بن يعلى عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال البحر من جهنم أحاط به سرادقها وقال تعالى ــ والبحر المسجور ــ أى الموقد روى أن الله تعالى يجعل يوم القيامة البحر نارا تسجر بها نار جهنم (٣) عن ابن عباس عن كعب (والبحر المسجور يسجر فيكون جهنم) (٤) قال عبد الله بن سلام (وان الجنة فى السماء والنار فى الارض) (٥) قال على بن أبى طالب ليهودى أين جهنم قال فى البحر قال عليه السلام ما أظنه الا قد صدق وعن ابن مسعود قال الارض كلها يومئذ نار والجنة من ورائها وأولياء الله فى ظل العرش (٦) أخبر تعالى ان أرواح الكافرين لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة فاذن من فتحت لهم أبواب السماء دخلوا الجنة كما قاله بعض القدماء (٧) أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان شدة الحر من فيح جهنم وان لها نفسين نفسا فى الشتاء ونفسا فى الصيف وان ذلك أشد من الحر والبرد وان نار هن أبردنا نار جهنم بتسع وستين درجة (٨) وعنه صلى الله عليه وسلم أن آخر أهل الجنة دخولا فيها بعد خروجه من النار يعطى مثل الدنيا عشر مرات وقال أيضا ان الدنيا فى الآخرة كأصبع فى اليم وقال الله تعالى جنة عرضها السموات والارض وقال أيضا عرضها كعرض السماء والارض (٩) عن ابن عباس قال ليس فى الجنة مما فى الدنيا الا الاسماء (١٠) قال تعالى ــ يوم تبدل الارض غير الارض والسموات ــ وقال تعالى ــ وفتحت السماء فكانت أبوابا ــ وقال تعالى ــ يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن ــ وقال تعالى ــ وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهى يومئذ واهية والملك على أرجائها ــ وقال تعالى ــ أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما ــ وقال تعالى ــ خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ ــ هذه الآيات والاحاديث هى التى أردت جمعها لتكون أساسا لما نبنى عليه من العلوم الحديثة التى كشفها علماء العصر الحاضر فى أوروبا لتعجب من أمة الاسلام النائمة نوما عميقا والامم من حولها باحثون منقبون عارفون نظام الكائنات وعجائب الآيات وغرائب المصنوعات وهم عن العلم معرضون وعن البحث ساهون لاهون وقد يعلم المرء ثم يجبن أن يدلى بعلمه للناس لقصور فى نفسه وخور فى عزيمته وجهل باطراف الموضوع فاسمع لما ألقى اليك وتعجب من العلم وهيبته والعرفان وصولته والحكمة وجمالها وآيات الله وكمالها

﴿ الارض كرة نارية ﴾

لم يدر بخلد أحد من العصور السالفة والامم الغابرة ان الارض التى نحن عليها نار ولم يكن فى تصور أحد منهم اننا على قشرة كقشرة البطيخة أو كقشرة البيض فى التخن داخلها نار متأججة فانظر كيف ورد فى الاحاديث ان البحر نار وان البحر من جهنم أحاط به سرادقها ولم يكن أحد يعلم ان فوق الهواء بردا قارصا حتى لو دخلت فيه رأس آدمى لصارت ثلجا فى جزء صغير من الثانية

نحن الآن بمقتضى الكشف الحديث بين زمهرير فوق كثرة الهواء البالغة نحو ٦٠ كيلومترا و بين نار فى باطن الارض وقد ورد فى الاحاديث السالفة ان النار تشتمل على أشد البرد وأشد الحر وانظر كيف تجد جبال النار القائمة

فى العالم وأقربها اليناً فى مصر جبال ايطاليا ومن عجب أنى قرأت فى الجرائد أيام تأليف هذا التفسير ان بركان (اتنا) قد غلا وفار فلأسمعك ماقالته الجرائد ووصفته الكتب

﴿ بركان اتنا ﴾

هذا البركان واقع الى الشمال الشرقى من جزيرة صقلية (سيسيليا) والبركان جبل مخروطى الشكل على الغالب له قمة عالية تحيط بها جبال وهضاب نارية وفى قمته فوهة تخترقه الى باطن الارض فتقذف منها المواد المختلفة من نار ودخان ومقذوفات ملتهبة أو سائلة وقد يكون فى الجبل أكثر من فوهة واحدة كما فى بركان اتنا الذى أحصى فيه أكثر من ٨٠ فوهة

وتكون البراكين غالبا فى الجزر الصغيرة أو على شواطئ البحار . وقلما تجد بركانا فى وسط القارات . واذا وجد كان دليلا على ان ذلك المكان كان بحرا أو شاطئ بحر فى الأزمنة الغابرة

أما علة البركان فهى الحرارة الشديدة المستبطنة للارض التى تصهر المواد وتبخر المياه وتحوّل الجوامد الى سوائل والسوائل الى أبخرة وغازات فتتمدّد هذه المواد بتأثير الحرارة ويضيق عليها المكان فتمزق القشرة الأرضية وتفتح فيها منفذا تندفع منه الى الخارج

وتقذف المواد الذائبة والغازات والحمم من باطن الأرض الى علو شاهق وتتحوّل الأبخرة الى أمطار غزيرة ثم الى سيول عظيمة تكتسح البلاد كما هو واقع الآن فى جزيرة سيسيليا

ويحسن أن أشير فى هذا المقام الى ثخن القشرة الأرضية بالنسبة الى باطنها المشتعل ليتبين ضعف هذه القشرة ومطاوعتها للعوامل . فقد ذهب العلماء الى ان ثخنها لا يزيد على ٩٠ كيلو مترا مستدلين على ذلك بما عرفوه بالاختبار من الآبار الارتوازية وغيرها من ان حرارة الأرض ترتفع درجة واحدة بميزان سنتيغراد كلما تعمق فيها الانسان ثلاثين مترا . فعلى عمق ٣٠٠٠ متر الزم ان تكون هذه الحرارة ١٠٠ درجة وعلى عمق ٩٠ كيلو مترا لزم ان تكون ٣٠٠٠ درجة بميزان سنتيغراد وهى الحرارة التى تصهر جميع المعادن والصخور لذلك يجزم العلماء بأن القشرة الأرضية لا يمكن أن يزيد ثخنها على ٩٠ كيلومترا أى انها أقل من جزء واحد من مائة وأربعين جزءا من قطر الأرض وأقل من ثخن قشرة البيضة بالنسبة الى البيضة عينها

والمقادير التى تقذفها البراكين من الحمم والسوائل المحرقة أعظم مما يتصوّره العقل وفى سيول الحمم التى تندفق من اتنا الآن وتقول التلغرافات الأخيرة ان عمقها زاد على ٨٠ قدما وعرضها على ٦٠٠ متر أعظم دليل على ذلك

وقد ذكر التاريخ ان المواد التى خرجت من بركان (تمبو) فى جافا سنة ١٨١٥ غطت سطح البحر فى دائرة بلغ قطرها ٢٠٠ ميل وهذا ما يكفى لأن يغطى بلاد ايطاليا كلها بطبقة من المواد البركانية علوها قدمان ونصف قدم

ومن عجب أن تكثر الزلازل العظيمة أيام هذا التفسير أولم يكن ذلك تدريبا على التفكير وتذكيرا بالعلم بلى فلم يقف الزلزال فى هذه السنة عند حد ايطاليا بل تجاوزها بعد ذلك الى اليابان فقامت فيها قيامة الزلازل وأذكرتنا بما فى القرآن من تدمير المدن وهلاك الأمم بغتة والناس لا يشعرون

وليس يهمنا الا المباحث العلمية والعجائب الكونية والنار الكروية فى باطن الأرض فقد جاء فى البرق والبريد انه حدثت زلزلة تقشعر من هولها الأبدان وذلك فى ٣ سبتمبر سنة ١٩٢٣ جاء فيها ان اليابان نكبت اليوم بأعظم ما تنكب به الأمم مما لم يسمع به البشر الا فى أقدم العصور التاريخية (الذى يقال له الانقلاب الجيولوجى) لما كانت القارات تتحوّل بفعل الزلازل الى بحار والبحار الى جزر والجزر الى قارات زلزال غارت به الجبال فصارت وهادا وارتفعت البحار فصارت أطوادا وصهرت الصخور فصارت رمادا فما شعر السكان به حتى أصبحوا حمما وهوت منازلهم فوقهم فكانت لهم رجاما فأصبحت مدينة (يوكوهاما) خرابا (وتوكيو) وهى العاصمة الجميلة صارت طعمة للنار وقد قتل فى يوكوهاما وحدها أكثر من مائة ألف نسمة غير من قتلوا فى توكيو

والزلزال

والزلزال اهتزاز في الارض دفعة أو دفعات متوالية بالقوة الطبيعية يحدث قبل وقوع الانفجارات البركانية وفي أثنائها وبعدها وتارة يكون بغيرها وقد أحصى علماء طبقات الأرض ستة آلاف وستين زلزالا الى الآن وأعظم الزلازل مانكبت به اليابان فقد قتل فيها خمسمائة ألف انسان ودمر القسم المتوسط من الامبراطورية على مدى ستمائة كيلومتر تقريبا وطفت المياه على مدينتين فدمرتهما تدميرا وعلى شواطئ البحر فدمرت كل مدينة على شاطئه

واعلم أن جميع بقاع الأرض معرضة للزلازل ونحن ربما لانشعر بزلزلة تكون في ديارنا مثلا مع ان عدد الزلازل التي تحدث كل سنة تبلغ (٣٠) ألفا أي نحو مائة زلزلة كل يوم وأكثرها هزات لطيفة

وقد تحدث في البحار فلا يشعر أحد بها وذلك لأننا فوق كرة نارية مضطربة دائما وليس يحجزها عنا إلا تلك القشرة التي ترى مستعدة دائما للاهتزاز والاضطراب بما يحصل فيها من الانكماش والاعوجاج في كل حين

فوازن أيها الذكي أوصاف هذه البراكين بما جاء في الاحاديث فاقرأ كلام ابن عباس وكيف يقول البحر المسجور يسجر فيكون جهنم وكيف يقول عبدالله بن سلام ان النار في الأرض وكيف يروى ان البحر من جهنم أحاط به سرادقها وكيف يقول الكشف الحديث كما ترى ان البراكين لاتكون الا في الجزر الصغيرة أو على شواطئ البحار وكيف يقول نبينا صلى الله عليه وسلم ان نارنا هذه أبرد من نار جهنم ٦٩ درجة ثم ترى فيما قرأت ان عمق ٩٠ كيلو مترا تكون النار فيه ٣٠٠٠ درجة بميزان سنتيغراد وان هذه الحرارة تصهر جميع المعادن والصخور وبيننا وبين تلك النار قشرة الأرض التي لايزيد ثخنها على ٩٠ كيلومترا فهي أقل من جزء واحد من مائة وأربعين جزأ من قطر الأرض وأقل من قشرة البيضة بالنسبة الى البيضة

فعلى هذا تكون النار هناك في باطن الأرض وفق مافي الحديث فاذا كانت فيما يلي قشرة الأرض تبلغ ٣٠٠٠ درجة أعني قدر النار التي تغلي الماء ٣٠ مرة فكم يكون مقدارما بعد ٩٠ كيلومترا أخرى وهكذا فاذا قال صلى الله عليه وسلم ان نار جهنم قدر نار الدنيا ٦٩ مرة فانا نقول قد كشفه العلم الحديث واذا قال الله تعالى – وان جهنم لمحيطة بالكافرين – فذلك أصبح معروفا فالزمهرير من فوقنا والسعير من تحتنا وكلاهما من جهنم كما في الحديث المتقدم وتعجب من قوله تعالى محيطة والاحاطة أقرب ماتكون في الدوائر والكرات ولاجرم اننا بين كرتين كرة زمهرير يفصلها عنا الهواء وكرة النار تحجبها عنا القشرة الأرضية وقوله تعالى – لمحيطة بالكافرين – ربما يثقل عليك فتقول هي محيطة بالكافرين والمؤمنين نقول ماتقوله حق ويكون نظيره ماقاله الله تعالى في القرآن – ولاتعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون – فانه قيل هناك ان الأولاد والأموال معذبة الكافر والمؤمن ولكن المؤمن الذي أدرك الحقائق يرى ان هذا العذاب مع الصبر يورث الأجر في الآخرة فكأنه بهذا ينجو من العذاب باعتبار مآله هكذا هنا انها تحيط بالجميع ولكن المؤمن يعمل للنجاة

وتعجب أيها الذكي كيف ترى ان مافوق القشرة الأرضية من المعادن والنبات والحيوان تصير نارا وتنقلب سعيرا متى أحاطت بها النار وترى النار متى لامست الخشب والثياب والقش اتقدت فصار نارا وذلك كله يشبه ان يكون مؤيدا لقول علماء العصر الحاضر ان الأرض من الشمس والشمس ملتهبة نارا والكواكب في مبدأ أمرها تكون نارا والسيارات كانت نارا ثم أخذت تبرد شيئا فشيئا والقمر من الأرض ويرد قبلها لصغر حجمه أفلست ترى ان العالم الذي نحن فيه تحيط به النار من سائر أطرافه وهذه النار مغمورة في الزمهرير

﴿ الماء يكون نارا ﴾

والماء مركب كما تقدم من الأكسوجين والأودروجين وقد علمت فيما تقدم ان الأكسوجين وهو الجسم المحرق ٨ اتساع والأودروجين تسع واحد في الوزن فكأن الماء ٨ من ٩ منه نار فالبحر يكاد يكون نارا وتحت البحر القشرة الأرضية وتحتها النار المحرقة العظيمة

﴿ قلة علمنا بهذه العوالم ﴾

اعلم انى قبل اطلاعى على هذه الأحاديث ونظرى فى هذه الآيات ما كان ليخطر لى أن أذكر مثل هذا القول بل كنت أعدّه كفرا وجهلا وهكذا أنت أيها الذكى قبل أن تقرأ هذه الآيات والأحاديث كنت تعدّه كفرا فان الجنة والنار مرجعهما انهما مجهولان جهلا عاما ومن فتح باب الكلام فيهما بمثل هذا عدّ كافرا أومبتدعا أوفاسقا ولكن لما رأيت هذه الآيات والأحاديث التى رأيت ابن حزم جمعها وذهب الى أن الجنة فى السماء والنار فى الأرض ثم اطلعت فى العلم الحديث فرأيت العجب العجاب وان هنالك تطابقا غريبا بين الدين و بين العلوم العصرية أردت أن أطلعك عليها وأقرب المعانى بغاية مايمكننى ثم أحذرك أن تقف عندما رأيت مما ذكرت فى النار وماسأذكر فى الجنة فأنا لست أقول ان هذا هو العلم الذى تقف عنده فربما جاء المستقبل بما نجهله نحن وجاء علم لم نعهده والقرآن يجب ألا يقف عند كشف ولا يقطع بأن هذا معناه

فانظر كيف يقول ابن حزم بأن الجنة قسمان قسم هو السموات السبع وهى الجنات السبع وقسم هو الجنة التى عرضها كعرض السماء والأرض وهو الكرسى والقسم الأوّل وهو السبع عرضها السموات والأرض وان الأبواب الثمانية فى كل سماء باب وفى الكرسى باب وان العرش فوق أعلى الجنة وهو محل الملائكة وليس من الجنة فى شئ وقوله تعالى — الذين يحملون العرش ومن حوله — بيان جلى بأن على العرش جرما آخر فيه الملائكة وقال ان البرهان قام على ذلك من علم الهيئة

هذا قول العلامة ابن حزم وأنت خبير أن هذا مبنى على الفلك القديم وقد ظهر بطلانه فانظر كيف طبقه العلامة ابن حزم عليه ولما ظهر بطلانه واطلعنا عليه أردنا أن نطلعك على العلم الحديث فى النار وفى الجنة ولكنا نقول لك حذار حذار أن تجعل مانقوله هو نفسه معنى القرآن والحديث بل هو احتمال نقوله وعليك أنت أن تترقب العلم الحديث والبحث والتنقيب فانك لو جعلت القرآن لا يحتمل الا هذا وأتى العلم بما لم نعرفه فى زماننا انقلب علم الناس جهلا فيكون التعليم ضلالا والعلم وبالا والجزم به خبالا ولكن مالايدرك كله لا يترك كله فلأسمعك ما اطلعنا عليه فى الحديث

﴿ الجنة ﴾

سأسمعك ملخص ماجاء فى كتابى المسمى (الارواح) من تعاليم الأرواح فقد أحضروا فى أوروبا روح العلامة غاليليوس الشهير بالعلوم الفلكية على يد الوسطاء للجمعية الباريسية الروحانية فى خلال سنتى ١٨٦٢ و ١٨٦٣ قال غاليليوس

أفضل تحقيق أطلق على الفضاء أنه مسافة تفصل مابين جرمين فاستنتج بعض المغالطين من هذا التحديد أن لاوجود للفضاء حيثما انتفى وجود الاجرام . والى هذا المبدأ أسند بعض اللاهوتيين رأيهم فى ضرورة تناهى الفضاء وعدم امكان تسلسل أجرام محدودة الى مالا انتهاء له . الفضاء لفظة تدل على معنى مفهوم بذاته لايحتاج الى التعريف وما قصدى بهذه المقالة الا أن أبين لكم عدم حده وتناهيه .

أقول ان الفضاء لاحدله بدليل أنه من المستحيل تصور حدود تحده . الى أن قال . وان شئنا أن نمثل فى ذهننا المحدود عدم تناهى الفضاء فلنتصور أنفسنا طائرين من الأرض نحو احدى جهات السكون بسرعة الشرارة الكهربائية التى تقطع فى الثانية ألوفا عديدة من الفراسخ . فبعد طيرانا بثوان قليلة لاتعود الأرض تتراءى لنا الا ككوكب حقير ضعيف النور جدا و بعد قليل تتوارى عن نظرنا بالكلية والشمس ذاتها لاتلوح لنا الا كنجم حقير متوغل فى أقاصى الفلا وعوضها تتجلى لأعيننا نجوم عديدة لانكاد نميزها فى المحطة الأرضية واذا بنا طائرين بالسرعة ذاتها نقطع فى كل هنيهة عوالم متجمعة وسيارات ساطعة و بقاعا زاهية نثرالله فيها العوالم كما نثر الزهور فى مروجكم الأرضية على أنه لم يمض على سفرنا الا دقائق قليلة وقد نأينا عن الأرض ملايين فى ملايين من الفراسخ ورأينا ألوفا فى

ألوف من العوالم ولكن لدى التحقيق لم نخط بعد ولا خطوة واحدة في الكون وإذا استقام سفرنا البرقي لا دقائق وساعات بل سنين وأجيالا وألوفا وملايين في ملايين من العصور والدهور فانا لا نكون مع هذا قد خطونا خطوة واحدة في طريقنا وذلك الى أي صوب اتجهنا وأية نقطة اتحينا من تلك الذرة الحقيرة التي بارحناها وأنتم تدعونها أرضا . هذا ما عندي من تعريف الفضاء

وأما الزمان فهو كالفضاء لفظة معبرة بنفسها غنية عن التحديد وقد يسوغ ان ندعوه تعاقب الأشياء باللانهاية . فلنتصورن أنفسنا في بدء عالمنا أي في عصر بدأت فيه الأرض تتبختر تحت النفحة الالهية وبرز الزمان من مهد الطبيعة السري . فقبلها كانت الأبدية سائدة ساكنة والزمان يجري مجراه في عوالم أخرى ولما برزت الارض الى حيز الوجود استبدلت فيها الابدية بالزمان وأخذت السنون والقرون تتعاقب على سطحها حتى اليوم الأخير أي ساعة تبلى الأرض وتمحى من سفر الحياة . في ذلك اليوم تتعاقب الاشياء وتزول الحركات الأرضية التي كانت مقياسا للزمان أيضا فينتج من هذا ان الزمان يتولد من تولد الأشياء وينقضي بانقضائها وهو بقياس الأبدية كنقطة سقطت من عباب الجو في البحر . فتختلف الأزمنة على اختلاف العوالم . وخارج هذه التعاقبات الفانية تسود الأبدية وحدها وتملأ بضيائها فلوات الفضاء التي هي غير محدودة . ففضاء لا حد له وأبدية لا قرار لها هما الخاصيتان العظيمتان للطبيعة العامة وإذا كان الزمان تعاقب الأشياء الزائلة ومقياسها فاذا جمعنا ألوفا في ألوف من القرون والاحقاب لا يكون هذا العدد الا نقطة زهيدة في الابدية كما أن الالوف في الالوف من الفراسخ تعد نقطة حقيرة في الفضاء . وإذا مضى على حياتنا الروحية عدد من القرون يوازي قدرما يكتب على طول خط الاستواء فانه ينقضي هذا العدد الجسيم والنفس كأنها اليوم ولدت .

وإذا أضفنا الى العدد المذكور سلسلة أخرى من الأعداد ممتدة من الأرض الى الشمس وأكثر فانه ينقضي هذا العدد الذي لا يدرك قياسه من القرون والنفس لا تقدم يوما واحدا الى الأبدية . ذلك لأن الابدية لا حد لها ولا قياس ولا يعرف لها بدء ولا نهاية . فان كانت القرون المذكورة كلها لا تعد ثانية بقياس الأبدية فما أهمية عمر الانسان على الأرض

اذا ما ألقينا النظر الى ما حولنا رأينا اختلافا جسيما وتمييزا جوهريا في كل المواد المؤلف منها العالم . فانظر الى كافة الأشياء طبيعية كانت أو صناعية . وانظر ما أعظم التغاير في صلابتها وضغطها ووزنها وسواها من الخصائص التي يتميز بها الهواء مثلا من عرق الذهب والنقطة المائية من الحجارة المعدنية والأنسجة النباتية المتنوعة من الانسجة الحيوانية على اختلاف طبقاتها . ومع هذا نستطيع ان نثبت بوجه الاطلاق ان كل المواد المعروفة والمجهولة مهما عظم تباينها وكثر تنوعها ان هي الا أشكال وأنماط متفننة تظهر فيها مادة أصلية واحدة تحت فعل القوى الطبيعية المتعددة .

ان الكيمياء التي بلغت اليوم عندكم درجة رفيعة من التقدم وقد كانت تعد في أيامي من متعلقات العلوم السحرية قد قوضت مسئلة العناصر الاربعة التي أجمع الأقدمون على تركيب الطبيعة منها وأثبتت أن العنصر الترابي ان هو الا تركيب مواد متنوعة تفننت الى ما لا انتهاء له وان الهواء والماء قابلا التحليل وهما متركبان من بعض الغازات وان النار ليست بعنصر أصلي بل حالة من المادة ناتجة عن نوع من الحركة العامة يصحبها احتراق حسي أو كامن . وبعقابل ذلك كشفت الكيمياء عددا وافرا من العناصر المجهولة منها تتألف كل الأجرام المعروفة وسمتها عناصر بسيطة اشارة الى أنها أولية غير قابلة التحليل الى ما هو أبسط . ولكن فعل الطبيعة لا يقف حيثما وصلت تقديرات الانسان وحكم ارادته بل المتتبع بنظره الى ما تجاوز حد المعرفة البشرية لا يرى في كافة العناصر المركبة والبسيطة الا مادة واحدة أصلية تتجمع في بعض النواحي لتنشأ منها العوالم وتتفنن أشكالا وأنواعا في مدار حياتها ولتعود الى مأوى الفضاء بعد انقراضها .

من المسائل ما المعجز نحن الأرواح المغرمين بالعلوم عن التعمق فيها فلا نأتي في حلها الا بآراء شخصية مبني أكثرها على أقيسة افتراضية أمام مسألة وحدة المادة فلا شبهة فيها ولا تخمين . ومن يأخذ قولي على محمل الافتراض أقول له استوعب ان أمكن بنظرك تفننات أعمال الطبيعة كلها فتحقق يقينا أنه بدون وحدة المادة يتعذر عليك شرح نبات أصغر بذرة

ونتاج أحقر دويبة . وأما الباعث على تنوع ماتراه في المادة فهو تباين القوى التي تولت أمر تحولاتها والظروف التي كانت عليها قبل نشأتها . انما جوهرها في الاصل واحد وكل مايقع أولا يقع تحت نظرك من الاجرام والسوائل فهو صادر من مادة أصلية واحدة مالئة الكون الذي لاحد

اذا كانت احدى الدويبات الحقيرة التي تقضي حياتها الوجيزة في قعر البحار ولا تعرف من الطبيعة الا أسماكها وغابات المياه نالت فجأة من العقل ما مكنها من درس عالمها وأخذت تقيس أفكارها في الكائنات فماعسى يكون تصورها للعالم الارضي الذي لايقع تحت نظرها اذا بمعجزة أخرى بها انتقلت هذه الدويبة من القعر الى مافوق المياه بالقرب من جزيرة غناء اكتسبت بمروج زاهية فأي تغيير يطرأ على أفكارها السابقة وكم تتسع دائرة تصوراتها ولكن مازالت هذه دون الحقيقة . هذا بيان حال علومكم النظرية في الحاضر يابني البشر

ان سيالا عاما يملأ الفضاء الذي ليس بمحدود وينفذ في الأجرام بأسرها يدعى الأثير أو المادة الأصلية ومنه تتولد كافة العوالم والكائنات فهذا السيال تلازمه أبدا القوى أو النواميس الطبيعية المتولية تقلبات المادة ومسرى العوالم . وهذه النواميس المختلفة على اختلاف تركبات المادة والمتفننة في أنواع فعلها على مقتضى الظروف والمراكز تعرف في أرضكم بالثقل والتلاصق والمناسبة والتجاذب والمغناطيسية والكهربائية ثم حركات العامل الاهتزازية تدعى عندكم صوتا وحرارة ونورا الخ

وأما العوالم الأخرى فتظهر هذه النواميس تحت أوجه أخرى وبخاصيات مجهولة عندكم . وان في سعة السموات التي لاتحد تفننات من القوى نعجز نحن عن إحصائها وتقدير عظمتها كما تعجز الدويبة في قعر البحار عن استيعاب كافة الحوادث الأرضية

وكما انه لاوجود في الأصل إلا المادة واحدة بسيطة تتولد منها كافة الأجرام والتركبات الهيولية هكذا كل القوى الطبيعية صادرة عن ناموس أصلي واحد متفنن في مفاعيله بما لا انتهاء له فرضه الخالق منذ الأزل ليقوم به نظام الخليقة وبهاء الكائنات ان الطبيعة لاتضاد ذاتها وشعار الكون هو ذا الوحدة في التفنن . فان صعدت في سلم العوالم وجدت وحدة النظام والخلقة مع تفنن لا يعرف حده في تلك الأجرام الفلكية وان أجلت بنظرك في مراتب الحياة من أحقر الكائنات الى أعلاها وجدت وحدة التناسب والتسلسل . كذلك القوى الطبيعية كلها صادرة بالتسلسل عن قوة أصلية واحدة تدعى بالناموس العام

يتعذر عليكم في الحاضر استيعاب هذا الناموس في شمول اتساعه لأن القوى الصادرة عنه والداخلة في دائرة أبحاثكم محدودة مقيدة انما قوتا التجاذب والكهربائية تفصحان لكم نوعا عن الناموس العام الأصلي الشامل السموات والكائنات فكل هذه القوى الثانوية أزلية عامة كالخلقة وبملازمتها للسيال العام تعمل ضرورة في كل شيء وفي كل مكان وبتنوع عملها بالمقارنة والتعاقب تتغلب في مكان وتمحى من آخر يظهر فعلها هاهنا عاملة أبدا في تجهيز العوالم وادارتها وحفظها وملاشاتها متولية أعمال الطبيعة ومعجزاتها حيثما قامت ضامنة على هذه الصورة بهاء الخلقة الأزلية ونظامها الأبدي

بعد أن تأملنا بوجه عام في تركيب الكون ونواميسه وخصائصه بقي علينا أن نشرح كيفية تكوين العالم والبرايا ثم ننتقل بعدها الى تكوين الأرض ومركزها الحالي في المبروآت . لقد أبنا سابقا ما الزمان وما نسبته الى الأبدية وان هذه وحدة ثابتة وبالتالي لابدء ولانهاية . ثم اذا لاحظنا من جهة أخرى عدم تناهي القدرة الالهية حكمنا ضرورة بوجوب أزلية الكون لأنه منذ وجد الله كملت كمالاته القدسية وبما أن الله من ذات طبعه أزلي سرمدي اقتضى أن يكون عمله أزليا سرمديا أي لابدء له ولانهاية (١) فاذا تصورنا لعمل الله بدأ ومهما كان هذا البدء في مخيلتنا بعيدا قاصيا يسبقه دائما أزلية — زنوا جيدا ذلك بعقلكم — أزلية لاقرار لها لبثت فيها ارادة الله القدوس

(١) هذا رأي خاص

ميتة

ميتة عن العمل وكلمته بكماء وروحيه عقيما • ان الله شمس الكائنات ونور العالم فكما ان ظهور الشمس يصحبه ضرورة انتشار النور هكذا الله يصحبه ضرورة فعل الخلقة وظهور البرايا

أى انسان يستطيع أن يصف تلك العظائم الباهرة المستترة فى دجى الدهور التى تلألأ سناؤها فى عهد لم يكن قد ظهر بعد فيه شئ من عجائب الكون الحالى تلك الدهور القاصية التى أسمع الرب فيها كلمته فاندفعت تيارات الهباء والذرات لتشيد بتجمعها المهندم هيكل الطبيعة الذى لا يحد • ذاك الصوت السرى الكريم الذى تجله وتهواه كل خليقته وبريته المرموقة به ارتجت الأفلاك وسبحت عجائب الرب

اذا انتقلنا بالفكر الى بضعة ملايين من الأجيال قبل العصر الحالى نجد الأرض لم تبرز بعد الى حيز الوجود والكواكب لم تولد من النظام الشمسى فى حين ان شموسا لا عدد لها كانت تسطع فى أقاصى السموات وترسل أشعتها الى كواكب لا يحيط بها احصاء وعاش بها من سبقنا من الأحياء فى مضمار الانسانية وأنظار أخرى تمتعت بعجائب طبيعية وغرائب سماوية لم يبق لها اليوم من أثر • وقلوب وعقول لا عدد لها كانت تسجد وتعظم قدرة البارئ التى لا تتناهى • ونحن أولاء الحاضرين الذين برزنا الى الوجود بعد أزلية من الحياة نريد أن ندعى معاصرتنا للخلقة لندرك كنه أمر الطبيعة جيدا • أحبائى لتعلمن أن الأبدية وراءنا كما هى أمامنا وأن الفضاء مرسح تعاقبت وتتعاقب فيه خلقات لا عدد لها ولا انتهاء

فتلك المجرات التى تميز ونهاها فى أقاصى السموات ان هى إلا تجمعات شموس منها ماهى فى بدء تكوينها ومنها آهلة بالأحياء ومنها ما بلغت دور الانحطاط

وبالاختصار كما أننا قائمون فى وسط غير متناه من عوالم هكذا نحن عائشون فى دوام أزلى سابق وأبدى لاحق لوجودنا الحاضر وان فعل الخلقة ليس بمقصور عليكم ولا على كرتكم الحقيرة

ان المادة الأصلية تحوى فى ذاتها العناصر الهيولية والسيالة والحيوية التى تألفت منها كل العوالم المنتشرة فى كل ساحات الفضاء فهى أم تثور لكل الكائنات والوالدة الأزلية لكل الأشياء فلا يمكن أن يعتريها نقص أو تلاش إذ تعطى الوجود من دون انقطاع عوالم جديدة وتستقى بلا فتور من الأصول التكوينية من العوالم التى بدأت تمحى من سفر الحياة وهى المادة الأثيرية أو السيال العام المالئ الأجرام وفيه مستقر العنصر الحيوى الذى به تحيا كل خليقة عند ظهورها على سطح سيار فما من خليقة معدنية أو نباتية أو حيوية أو غيرها ــ اذ توجد مواد أخرى ليس فى وسعكم أن تتصوروها ــ ألا تأخذ عند نشأتها نصيبا من هذا العنصر الحيوى و بنفاده ينقضى أجلها • فالسيال العام اذن لا يحوى فى ذاته فقط النواميس القائم بها حفظ العوالم بل به تنشأ فى كل عالم المواليد الغريزية الأولية التى تنبت من غير زرع وذلك عند سنوح الظروف الملائمة للحياة على سطح الكرة

لقد ضربنا الى الآن صفحا عن ذكر العالم الروحى الذى هو أيضا قسم من الخلقة العامة ويتمم ما رسمه عليه المبدع العظيم من التقادير الأزلية • على انى لا أستطيع أن أتوسع فى كيفية خلقة الأرواح نظرا لجهلى بالمسألة وعدم اجازتى بأن أبوح بأمور تيسر لى التعمق فيها فقط أقول لمن تطلب الحق بخلوص النية وتواضع القلب ان الروح ان يشرق عليه النور الالهى لينال به مع الاختيار المعتوق معرفة ذاته ونصيبه من الاستقبال إلا بعد أن يكون قد جاز بقضاء محتوم فى مسحبة النسمات السفلية من البرايا وفيها أنجز ببطء فروض شخصيته • ففى ذلك اليوم يسم الله جبهته بوسم مثاله وينخرط الروح فى سلك الانسانية فقط حذار من أن تبنوا على مقالى استدلالات كم النظرية اذ أحب الى ألف مرة أن أطوى كشحا عن مسائل تفوق حد نظرى من أن أعرضكم لافساد تعليمى واستنتاج أقيسة وقواعد لا أس لها

فحدث مرة أنه فى نقطة من الفضاء وفى وسط مليارات من العوالم تكاثفت المادة الأصلية فتولد عنها مجرة أى سحابة نيرة لا يكاد يدرك قياسها وبقوة النواميس العامة المستقرة فيها وخصوصا التجاذب فى الدقائق أصابت الشكل الكروى وهو الشكل الذى تصيبه فى البدء كل مادة تجمعت فى الفضاء • ثم تغير شكلها الكروى بقوة

الحركة الدورية الناتجة من التجاذب المتساوى من كل المناطق فى الدقائق نحو المركز وأصابت الشكل العدسى وتولد عن حركتها هذه الدورية قوات أخرى أخصها قوة الجاذبة والدافعة فالأولى تميل بالأجزاء الى المركز والثانية تبعدها عنه وتعاظمت سرعة حركة المجرة على قدر تكاثفها واتسع نصف قطرها على قدر تقربها من الشكل العدسى الى أن تغلبت القوة الدافعة على الجاذبة واقتلعت من المجرة الدائرة المحيطة بخط الاستواء كما أن حركة المقلاع تقطع الحبل بتزايد سرعتها وتدفع القذيفة الى بعد ثم انقلبت تلك الدائرة المنقطعة عن المجرة الى كتلة قائمة بنفسها ولكنها خاضعة لولاية المجرة الأولى وبقى لها حركتها الاستوائية فتغيرت الى حركة انتقالية حول الجرم الأصلى وأكسبها حالتها الجديدة هذه حركة أخرى دورية حول مركزها الذاتى

ثم عادت المجرة الأصلية الى شكلها الكروى بعد أن ولدت عالما جديدا ولما كانت الحركة الأصلية المتولدة عن حركاتها المختلفة لا تضعف الا بيطء كلى كان الحادث الذى أتينا على ذكره يتكرر مرارا متعددة وفى مدة مديدة الى أن تبلغ المجرة درجة من الكثافة تحول بمتانتها دون التغييرات الشكلية الصادرة عن حركة دورانها حول مركزها فليس جرما واحدا بل مئات من الأجرام ستقلع على النسق المذكور من المجرة الأصلية • وكل من هذه العوالم لاحتوائه على القوى الطبيعية ذاتها المستترة فى الجرم الأصلى سينتج أجراما ثانوية تدور حوله كما يدور حول المجرة الأصلية بمعية سائر الأجرام المتفرعة منها • وكل من هذه الأجرام الثانوية سيكون أيضا منشأ أى مركزا لكواكب جديدة تتفرع منه بالطريقة التكوينية ذاتها • وما الأرض الا احدى هذه السيارات تسبح فى حينها فى سفر الحياة وأصبحت مهدا للخلائق ضعيفة تكلؤها عين العناية الربانية اليقظة وجاءت تراجيديا تعزف فى عود الطبيعة العامة المسبحة لعجائب الله

وقد تفرع من السيارات قبل تجمدها أجرام أخرى صغيرة اقتطعت من دائرة خط الاستواء وأخذت تدور على محورها وحول الجرم الأصلى بقوة النواميس العامة ذاتها فتولد من الأرض القمر وجمد قبلها لصغر حجمه • انما القوى التى تولت اقتلاعه من خط الاستواء الأرضى وحركته الانتقالية فى هذا الخط فعلت فيه ما جعلته يصيب الشكل البيضى بدلا من الكروى فأصبح على شكل بيضة مركز ثقلها فى أسفلها وفى وسطها • لهذا لستم ترون فى هذا الجرم الا جهة واحدة وهو أشبه بكرة من الغلين قاعدتها من رصاص وهى الناحية المتجهة دائما الى الأرض فينتج من ذلك أن على سطح العالم القمرى طبيعتين فى غاية التباين والاختلاف • الأولى وهى الناحية المتجهة دائما الى الأرض لا ماء فيها ولا هواء وفيها تجمعت كل الأجزاء الجامدة الغليظة لوجود مركز الثقل فيها والثانية التى لا يقع عليها قط نظر أرضى حاوية كل السوائل والمواد الحقيقية وهى متجهة أبدا الى الناحية المخالفة للملكم الأرضى

واختلفت الأجرام المتفرعة من السيارات عددا وأحوالا ومن السيارات ما لم يتفرع منها شئ كعطارد والزهرة ومنها ما ولدت قمرا أو أكثر كالأرض والمشترى وزحل الخ • وهذا الكوكب أى زحل ولد عدا الأقمار حلقة نيرة وهذه الحلقة عبارة عن منطقة انفصلت فى البدء عن خط الاستواء فى زحل كالمنطقة الاستوائية التى انفصلت عن الأرض فصارت قمرا • انما الفرق ان منطقة زحل متكونة عند انفصالها من دقائق متجانسة الجوهر وربما كانت متجمدة بعض التجمد لهذا بقيت تدور حول الجرم الأصلى بسرعة تكاد تعادل سرعة الجرم ذاته • فلو كانت المنطقة متكاثفة فى احدى جهاتها أكثر من سواها لتجمعت حالا كتلة واحدة أو كتلات متعددة تصبح أقمارا جديدة تضاف الى ما كان لزحل من الأقمار الأخرى

وأما النجوم ذوات الأذناب فقد توهمها البعض عوالم فى بدء نشأتها يجهز فيها بواعث الوجود والحياة كما فى السيارات • وافترضها غيرهم عوالم آخذة فى الدروس والتلاشى حتى المنجمون أنفسهم كانوا يتشاءمون بها كدلالة النحس والبلايا • على أن المطلع على تفننات وأعمال الطبيعة يعتريه العجب لأقيسة افتراضية بناها الطبيعيون والفلكيون والفلاسفة ليؤيدوا بها ان المذنبات سيارات حديثة أو عتيقة فى حين انها ليست هى الا كواكب متنقلة

كروادفى الممالك الشمسية . وما أعدت لتكون كالسيارات مساكن آهلة بالبشر بل اختصاصها أن تنتقل من شموس الى شموس لتستقى منها الأصول الحيوية المنعشة فتفيضها فيما بعد على العوالم الأرضية

فلنتبعن بالفكر أحد النجوم المذنبات عند بلوغه البعد الأقصى من الشمس ولنقطعن تلك السعة المديدة الفاصلة ما بين الشمس وأقرب النجوم ولنتأملن فى سير هذا المذنب المتنقل فنجد فعل النواميس الطبيعية ممتدا الى بعد لا تكاد المخيلة أن تصيبه فهناك يبطؤ سيره الى حد لا يتجاوز بعض الأذرع فى الثانية بعد أن كان يسير الألوف من الفراسخ فى كل لحظة عند قرب دنوه من الشمس ولا يبعد أن تتغلب عليه عند هذا الحد شمس أخرى أشد قوة ونفوذا من التى بارحها فتجذبه الى دائرة فلكها وتحصيه فى عداد أتباعها وعبثا ينتظر بعدها بنو أرضكم رجوعه فى وقت عينته أرصادهم الناقصة أما نحن فنجوز معه بالفكر الى تلك الأقطار المجهولة فنجد فيها من العجائب ما لا يتوصل قط اليه تصور أرضى

قل منكم من لم يلحظ فى الليالى الصافية الخالية من القمر سحابة نيرة منتشرة من أقصى السماء الى أقصاها تدعونها درب التبانة أو المجرة وقد كشف لكم عنها مؤخرا المرصاد فرأيتم فيها ملايين من الشموس معظمها أبهى نورا وأوسع حجما وأهمية من شمسكم . ان المجرة هى بالحقيقة حقل فسيح زرعت فيه زهور شموس وكواكب تتلألأ فى أرجائها الرحبة فالشمس وكافة السيارات والأجرام التابعة لها زهرة واحدة من تلك الزهور المنثورة فى حقل المجرة وعدد هذه الزهور أى الشموس لا يقل عن الثلاثين مليونا تبعد كل منها عن الأخرى أكثر من ثلاثة آلاف ألف ألف ألف فرسخ فمن هذا يستدل على سعة تلك المجرة الممتنع تصورها وصغر شمسكم بالنسبة الى باقى الشموس ثم ان حقارة بل عدم أرضكم ليس بالنسبة الى حجمها وسعتها المادية فحسب بل فوق ذلك الى أحوال سكانها الادبية والعقلية

ثم ان المجرة ذاتها مع ملايين شموسها ليست شيئا بالنسبة الى الالوف من المجرات المنتشرة فى أقاصى الفضاء انما تظهر أوفر سعة وسناء من سواها لاحاطتها بكم ووقوعها تحت دائرة نظركم فى حين ان المجرات الأخرى متوغلة فى أقاصى السموات فلا يكاد يستشفها مرصادكم فاذا علمتم ان الأرض ليست بشئ فى عامة المجرات وعامة المجرات أيضا ليست بشئ فى سعة الفضاء الذى لا يتناهى عاد سهلا عليكم ادراك حقارة الأرض وعدم أهمية الحياة الجسدية

ان الملايين من الشموس المؤلفة منها مجرتكم يحيط بأكثرها سيارات وعوالم تستمد منها النور والحياة . فمنها نجم سريوس مثلا الذى يربو حجمه وبهاؤه على شمسكم ألوفا من المرار والسيارات المحيطة به تفوق سيارات الشمس كبرا وسناء . ومنها شموس مثناة أى نجوم توائم تختلف وظائفها الفلكية عن وظائف شمسكم ففى السيارات المحيطة بتلك الشموس المثناة لا تعد السنين والايام كما فى أرضكم وأحوال الحياة فيها يتعذر عليكم تصورها

ومن الشموس ما لا سيارات لها انما أحوال سكانها خير الاحوال وبالاجمال ان تفننات هذه النجوم واختلاف أحوالها ووظائفها مما يقصر الادراك البشرى عن تخيلها

ان كل ما ترون من النجوم والاجرام فى القبة الزرقاء يختص بمجرة واحدة تدعى كما قلنا درب التبانة ولكل منها سير مخصوص مصدره قوة الجاذبية فتسير سيرا ليس على سبيل العرض والصدفة بل فى طرق معينة مركزها الجرم الأصلى . فقد تحقق لكم مؤخرا أن الشمس ليست بنقطة مركزية ثابتة بل تسير فى الفضاء ساحبة معها موكبها الحافل بالسيارات والاقمار والمذنبات وليس سيرها بعرضى بل طريقها محدود تسير فيه بصحبة شموس أخرى من طبقتها حول جرم آخر عظيم تولدت منه . انما حركة سيرها وسير باقى الشموس رفيقاتها لا تصيبها أرصادكم السنوية اذ يقتضى عددا عظيما من الاجيال لاتمام احدى هذه السنوات الشمسية .

ثم ان هذا الجرم العظيم الذى تدور حوله الشمس مع سائر الشموس رفيقاتها ليس بجرم أصلى بل يدور هو أيضا بصحبة أجرام أخرى من طبقته حول نجم آخر أعظم منه وهكذا قل عن هذا النجم الثانى الى أن يحل العجز بمخيلتنا عن تصور هذه السلسلة المرتبة القائمة ما بين شموس مجرتكم التى لا يقل عددها عن الثلاثين مليونا وكل هذه الشموس

مع سياراتها مرتبطة ببعضها فى نظام واحد كمجموع دواليب آلة واحدة فتظهر لعين الحكيم الناظر اليها عن بعد كحفنة من اللآلىء الذهبية نثرتها النفحة الالهية فى الفضاء كما تنثر الريح الرمال فى بلقع الصحارى . ان فلاة يكاد لا يحد لها قرار تمتد الى كل جهة حول المجرة التى أتينا على ذكرها لان تجمعات المادة الاصلية أى المجرات منثورة فى الفضاء كجزر عزيزة الوجود فى بحر لا حد لسعته . فالمسافة التى تفصل ما بين كل مجرة وأخرى تفوق مسافة قطر المجرة ذاتها بما لا حد له . فمعلوم ان قياس مجرتنا يعد بمئات الف الف الف الف فرسخ أما قياس بعدها عن باقى المجرات فلا يمكن لعقل أن يدركه بل المخيلة وحدها تستطيع أن تقطع تلك الفيافى السماوية الخالية من مظاهر الحياة

وتتجلى فيما وراء هذه الفلوات عوالم أخرى تتبختر فى بحر الاثير وتظهر الحياة فيها تحت مجالى غريبة يستحيل عليكم تصورها فالمنتقل من مجرتكم الى تلك المجرات يعاين ضروبا من الحياة وقوى طبيعية لم تكن قط لتخطر على ذهنه فيدرك هنا قدرة الخالق ويسبح بعجائب أعماله

رأينا ان ناموسا أصليا واحدا يتولى تكوين العوالم وخلود الكون . وان هذا الناموس العام يظهر لحواسنا تحت ضروب مختلفة ندعوها قوى طبيعية و بفعلها تتجمع المادة الاصلية وتنجز تقلباتها الدورية أى تكون فى البدء مركزا سيالا للحركة ثم تتفرع منها العوالم وتصبح بعدها جرما كثيفا يدور حوله ما تولد منه من الاجرام . والآن أريد أن أبين أن هذه النواميس ذاتها التى تولت نشأة العوالم ستتولى أيضا أمر انحلالها لأن منجل الموت لا يحصد ذوات النسمة فحسب بل المادة الجمادية أيضا بانحلال تراكيبها فحين يقضى العالم سنى حياته تخمد منه نار الوجود وتفقد عناصره قواها الاصلية وتزول منه الحوادث الطبيعية بزوال القوى

هل تظنون انه سيلبث دائرا فى الفضاء كجرم لا حياة به ويبقى مكتوبا فى سفر الحياة بعد ان أصبح حرفا ميتا لا معنى له كلا ان النواميس ذاتها التى انتشلته من ظلمة العدم وجملته بمظاهر الحياة ودرجته من أجيال الصبوة الى الهرم ستتولى أمر دثوره وارجاع عناصره الجوهرية الى معمل الطبيعة العام ليتكون منها فيما بعد عوالم جديدة الى ما لا انتهاء له .

فأبدية الكون تقوم بالنواميس ذاتها المتولية أعمال الزمان أى تعقب الشموس الشموس والعوالم العوالم دون أن يدب قوى الكون أدنى كلال أو جمود فما ترون فى أقاصى السموات من نجوم نيرة ربما محتها من أمد مديد أصبع الموت وأعقبها العدم وخلقة جديدة تجهلونها بعد . انما البعد الشاسع القائم بينكم وبين الاجرام القاصية الذى لا يقطعه النور الا فى الوف الالوف من السنين يجعل أشعتها تصل اليوم اليكم

مع انها ربما انبعثت قبل خلق الارض بأمد مديد ففى هذه كما فى غيرها تظهر حقارة الانسان وعدم دنياه انما سيأتى يوم فيه يبقى ذكر الارض فى ذهننا كظل تذكارى بعد ان نكون قد تدرجنا أجيالا لا عدد لها الى العوالم العليا . وحين نتأمل فى المستقبل عند بلوغنا هذا الحد لا نرى نصب أعيننا الا اتفاقا سرمديا من العوالم أو أبدية ثابتة لا انقضاء لها . اه

﴿ هذا ملخص ما جاء فى العلم الحديث وفى علم الارواح موازنا به ما جاء فى القرآن والحديث ﴾

(موازنات)

العلم الحديث	القرآن والحديث الشريف
(١) الأرض انفصلت عن الشمس والقمر انشق منها	(١) أولم ير الذين كفروا ان السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما
(٢) الارض اذا جاء أجلها تمور وتصير هباء ثم تصير عالما جديدا وكذا بقية الكواكب	(٢) يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات
(٣) الأرواح فى الأرض تنقل الى عوالم أرقى سماوية	(٣) ان الجنة فى السماء وأن النبى صلى الله عليه وسلم رأى أرواح الأنبياء فى السموات وآية لا تفتح لهم أبواب السماء

العلم الحديث	القرآن والحديث الشريف
(٤) الأرواح تنتقل من عالم الى عالم سماوى على حسب استعدادها	(٤) وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا
(٥) بعد الهواء برودة شديدة فى الخلاء وفى باطن الأرض حرارة	(٥) ان شدة الحر من فيح جهنم وان لها نفسين نفسا فى الشتاء ونفسا فى الصيف
(٦) نار جهنم أقوى من نارنا عشرات المرات	(٦) ان نارنا هذه أبرد من نار جهنم بتسع وستين درجة

هأنذا لخصت لك ما جاء فى العلم الحديث فى الجنة ودرجاتها والنار واحراقها واياك أن تظن أنى أرى أن جوف الارض والزمهرير الذى فوق الهواء هما جهنم وان كان ظاهر الاحاديث يوافق ذلك والكشف الحديث يؤيده فقد يكون ذلك مماثلها أو يكون قطعة منها لأن فى العوالم أراضى غير أرضنا كثيرة أوفيها نارا أشد من نار أرضنا فربما ضمت يوم القيامة كلها فصارت نارا واحدة وقد يكون هناك من العلم ما لم نصل له وكذلك لا تظن انى أرى أن هذه النجوم التى هى مسكونة كما ذكرته روح غاليلى وأن أهلها فى سعادة ونعيم وأن الأرواح الأرضية ترتقى فيها بحسب استعدادها وان الروح كلما صفت وخلصت ارتقت الى عالم ألطف الخ لا تظن أنى أقطع بأنها هى الجنة وان كانت الآيات والأحاديث تكاد تصرح بها كقوله تعالى ـ ان الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط ـ وكقول عبد الله بن سلام ان الجنة فى السماء وانما لم أقل هى الجنة لأن الكشف لم يبين لنا حقيقة هل فى السماء سكان وانما ذلك كلام الأرواح التى يناجونها وهذا الكشف لم يتم الآن فاذا ثبت واتضح وظهر حقا أن الارواح هكذا ترتقى فى الدرجات فلنقل هذه هى الجنة بل نقول فوق ذلك ان تلك الدرجات ما كان منها فيه تكاليف واذلال فهو من جهنم وما كان فيه سعادة فهو من الجنة وكل هذا الى الآن لم يقم عليه دليل

ثم اذا قام عليه دليل تكون تلك جنات حسية وليست مقصودة العارفين ولا مطمح رجال الحكماء الصالحين لأنهم يرون الخلوص من المادة خيرا وان يكونوا فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ويكونون ملحقين بالملائكة الذين فى جوار ربهم كما أوضحت ذلك نقلا عن الامام الغزالى فى سورة البقرة عند قوله تعالى ـ وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة الآية ـ وبالجملة ان العلم الحديث يكاد يقترب من الآيات والأحاديث * ومحصل ما أراه أننا نعرف هذا ونتربص حتى تنكشف الحقائق ولا نقطع بذلك فان العلم آخذ فى الرقى وعلى المسلمين أن يبحثوا فى الفلك وفى علم الارواح حتى يصلوا للحقائق وقد ذكرت هذا ليكون بابا يلج منه الباحثون ومفتاحا وسلما ومبدأ ـ وان الى ربك المنتهى ـ ومن عجب أن البرد الشديد تحت الصفر بدرجات كثيرة يحرق الاجسام كالنار كما جاء فى الكشف الحديث وهذا من أعجب العجب اه

﴿ عجائب العلم والدين وواجب المسلمين ﴾

ان ظهور هذه الحقائق من أعجب ما أتى به دين الاسلام فكيف يقال ان باطن الأرض نار وان الكواكب عظيمة جدا وفيها سكان (وان كان لم يحقق) وكيف يتفق العلم الحديث مع الدين فى ارتفاع حرارة جهنم وسواء قلنا ان هذه النار الأرضية وأمثالها هى التى يعذب فيها الناس أم هى مماثلة لاماكن أخرى شديدة العذاب وان هذه الكواكب ان صح أن فيها سكانا أهى الجنات أو قلنا انها أماكن تشبهها فعلى كل حال ظهور هذه الحقائق من عجائب الاسلام وغرائبه فعلى عقلاء المسلمين أن يتعلموا ويقرؤا علوم الطبيعة والفلك وطبقات الأرض وعلم الارواح فواحسرتاه على أمة الاسلام واأسفاه على دين تركه أهله وضيعه معتنقوه ونسى العلوم التى يطلبها مدرسوه وجهله متبعوه ولم يؤمن به الا من أهملوه فاليك اللهم المشتكى ولك الأمر ـ ولو شاء ربك ما فعلوه والله هو الولى الحميد ـ

﴿ الدار الآخرة فى القديم والحديث ـ اللذات الحسية والخيالية والعقلية ﴾

أنت تعلم أن ما ورد فى شريعتنا المطهرة هى اللذات الحسية من الجنات والحور والولدان وما أشبه ذلك . وهذه اللذات الحسية أنكرها قوم وقالوا هذه يتعاطاها الانسان بجسده والجسم قد بلى وانما يكون الانسان فى الآخرة بروحه وانما اللذات والآلام بالروح لا بالجسد وهى أمور معنوية . هذا ملخص ما يقولون

وقالت طائفة كالامام الغزالى ان اللذات على ثلاثة أقسام حسية وخيالية وعقلية فالحسية معلومة والخيالية ما يتخيلها الانسان ويخطر فى نفسه كما تصوّر نهرا جاريا أو حورا، أو جنات وأعنابا وهذه الصور التى يتخيلها الانسان لذتها ضعيفة كالتى يتصوّرها فى المنام ولو انها دامت تلك الصور المنامية لكانت لذتها تامة انما المانع من تمام لذتها انها مقطوعة باليقظة

وليس للانسان من اللذات الا ما انطبع فى حسه كالصور الجميلة فى العين والمسموعات فى السمع والمشمومات فى الشم والنواعم فى اللمس والحلو فى الذوق ولو أن امرأ كانت أمامه صورة من أجمل الصور وهو أعمى أو كان مبصرا ولكنه غافل عنها لاشتغاله بأمر مهم لم يستلذ بالصورة فاذن لا لذة فى الصور المشاهدة انما اللذة فى الاحساس بصورها المنطبعة فى الشبكية فالمدار فى اللذة على ذلك الانطباع فأما الصور الخارجة فى أنفسها فليست فيها لذة بل الأمر قاصر على تلك الصور المطبوعة فى النفس كما اسم الحيات وان أجسام الحيات ليست مؤذية انما المؤذى الآثار الناشئة فى الأجسام من سريان السم فلو لدغت الحية انسانا ولم يسر السم أو سرى ولكن الترياق أبطل فعله كما يقولون ان جسم كل ذى سم مبطل لفعل سمه كجسم الحية اذا وضع على موضع اللدغ أبطل فعل السم والانسان لو شرب سم الحيات لم يضره وانما الذى يضره أن يسرى فى الدم كما تفعل الحية اذ تدخل نابها فى الأجسام فيدخل السم فى الدم فيسرى فاذن المدار على تأثير السم لا على السم ولا على الحية

ثبت اذن ان الجسم لو حل فيه أثر كأثر السم لحصل المقصود من الضر بدون حاجة الى الحية ولا الى السم ولو حصلت فى الأبصار والأسماع صور النغمات اللذيذة والصور الجميلة بدون ان تكون تلك الصور وتلك النغمات فى الخارج لكانت اللذات دائمة لا مقطوعة ولا ممنوعة ولأصبحت اللذات تحت تصرف الانسان فمتى تخيل صورة أو نغمة أو فاكهة أو ظلا أو نهرا حضر لديه وهذا أشرف وأرقى من اللذات المحسوسة الخارجة لأن هذه اذا تمتع بها زيد حرم منها عمرو كما فى هذه الدنيا أما تلك التخيلية فان الصورة الواحدة يتمتع بها آلاف فى زمن واحد تمتعا تاما غير منقوص ولو اشتهى مشاهدة النبى صلى الله عليه وسلم ألف شخص فى ألف مكان فى حال واحدة لشاهدوه كما خطر ببالهم فى أماكنهم المختلفة وأما رؤيته صلى الله عليه وسلم وهو موجود خارج الحس فلا تكون الا فى مكان واحد وحمل ما فى الآخرة على ما هو أتم وأوسع أولى اهـ ما قاله بتصرف وايضاح

قال وأما الوجه الثالث العقلى فهو الوجود العقلى ان تكون هذه المحسوسات أمثلة اللذات العقلية التى ليست بمحسوسة والعقليات أقسام كثيرة مختلفة كالحسيات فتكون الحسيات أمثلتها وكل واحد يكون مثالا للذة أخرى مما رتبته فى العقليات توازى رتبة المثال فى الحسيات فلو رأى فى المنام الخضرة والماء الجارى والوجه الحسن والأنهار الجارية باللبن والعسل والخمر والأشجار المزينة بالجواهر واليواقيت واللآلئ والقصور المبنية من الذهب والفضة والأسرة المرصعة لكان المعبر لا يحمله على نوع واحد بل يحمل كل واحد على نوع آخر من السرور وقرة العين يرجع بعضه الى سرور العلم وكشف المعلومات وبعضه الى سرور المكنة ونفاذ الأمر وبعضه الى قهر الأعداء وبعضه الى مشاهدة الأصدقاء وان شمل الجميع اسم اللذة والسرور فهى مختلفة المراتب مختلفة الذوق لكل واحد مذاق يخالف الآخر وكذلك اللذات العقلية ينبغى أن تفهم كذلك وان كانت مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر

فجميع هذه الأقسام ممكنة فيجوز أن يجمع بين الكل ويجوز أن يكون نصيب كل واحد بقدره واستعداده

فالمشغوف

فالمشغوف بالتقليد والجمود على الصور الذى لم ينفتح له طرق الحقائق يمثل له الصورة والعارفون ينفتح لهم لطائف السرور واللذات العقلية كما يليق بهم ويفتح شرههم وشهوتهم اذ حد الجنة ان فيها لكل امرئ مايشتهيه فاذا اختلفت الشهوات لم يبعد ان تختلف العطيات واللذات والقدرة واسعة . والطاقة البشرية عن الاحاطة بعجائب القدرة قاصرة والرحمة الالهية ألقت بواسطة النبوة الى كافة الخلق القدر الذى احتملته أفهامهم

هذا ما قاله الامام الغزالى فى الرسالة المسماة بالمضنون به على غير أهله . فأنت ترى انه أثبت اللذة الخيالية وجعلها أفضل من الحسية وجعل فوقها لذة عقلية وهى ادراك الحقائق وجعل لكل من الناس ما وصل اليه ادراكه وفهمه وانظر الى ما قاله ريمند بن اللورد اليفرلودج المائت فى الحرب الكبرى العامة وأوليفرلودج من كبار الطبيعيين فى أوروبا و بلاد الانجليز فانظر كيف يقول لابيه لما أحضرت روحه فيما نقلته فى كتاب الأرواح

أما ثيابى فانه يظهر لى انها مصنوعة من خيوط ثياب بليت عندكم والبعض هنا يقولون عن الثياب انها روحية مصنوعة من النور يكونها الفكر على الأرض فانظر كيف تقول الأرواح المائتة انها تكون ثيابها بصنع أفكارها وهذا عين ما قاله الامام الغزالى فتعجب من نوع الانسان وكيف ما كان يظنه الغزالى ظنا أصبحت تقوله الأرواح فى مخاطباتها . وقال أيضا وهناك معامل تعمل كل شئ لا من مواد جامدة بل من مواد روحية وترى فى ذلك الكتاب كثيرا مما يدل على ان الارواح تصوغ ما تشاء أسرع من لمح البصر فما قاله الامام الغزالى وأدركه بعين البصيرة قد اشتهر الآن وشاع بين علماء الأرواح فى أوروبا . وقد يقول بعض الاخوان ان كتاب الغزالى المذكور ليس له حقيقة فنقول نحن الآن فى مقام الجمع بين آراء علماء الشرق والغرب فهو كتاب شرقى

فاذا اعتبرناه هذا جنة خيالية واعتبرنا ما تقدم فى مقال روح غاليلى جنات حسية فى الكواكب العظيمة وانتقلنا الى عالم الأرواح فى جناتها العقلية رأينا مطابقة بين كلام علمائنا وكلام علماء العصر الحاضر فأما أنت فلا تكن مقلدا ولا تقف عند حد بل اقرأ وزد علما واعلم أن الله لم يرد بهذا الا زيادة العقل ورياضة الفكر فغموض هذه المسائل يوجب التفكير والتفكير يزيد العلم والعلم هو المقصود الاعظم من الحياة

واعلم انى أطلت الآن فى الجنة والنار ولست أعيد الكرة عليهما فى هذا التفسير الا قليلا بل أكتفى بما كتبته الآن والله المستعان اهـ

ولعلك تقول كيف تثبت أن ريمند وهو مسيحى يدخل الجنة وكيف تحكم بذلك أقول على رسلك أنا انما ذكرتها على سبيل النقل ولم أحكم بصحتها ولا بما صحت بأن يكون أسلم قبل موته فليس فى ديننا ما يجعلنا نقطع بكفر أحد لا يعلم الغيب الا الله

ولا ترين فى الأرض دونك كافرا * ولا مؤمنا حتى تغيب فى القبر

فربما كان ريمند ولم ننج نحن وربما كان معدودا من أهل الفترة كما تراه فى كتاب فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة وهل بلغ اليه الاسلام على وجهه نحن نشك فى ذلك واذا كنا لا نزال نرى أن المسلمين يجب أن يكونوا أعلم بكتابهم مما هم عليه فكيف بمن هم غير مسلمين ومن دخلت هذه الشبهة عقله وقفت حجابا بينه و بين العلم وعاش مفتونا بالجهالة محروما من الحكمة محكوما عليه بوقوف العقل وركود الذهن وموت الفؤاد والانقطاع عن الانداد انتهى الكلام على اللطيفة السادسة

﴿ اللطيفة السابعة ـ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ﴾

يقول علماء النفس فى الجمعيات الامريكية ان النفس كلما حبست عواطفها وكتمت أحوالها وحفظت خطراتها زادها ذلك قوة وأنالها بأسا وحكمة وأنار بصيرتها وعلى ذلك يأمرون التلاميذ أن يكونوا على جانب من التؤدة والثبات ويقولون ان ذلك يحفظ المغناطيسية الحيوانية أن تفيض من النفس فتبقى محفوظة ليصرف منها الانسان فى الأعمال النافعة بدل الآراء الضائعة وانظر كيف أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يكف عن الدعاء على أعدائه حفظا لتلك القوة

النفسية العالية وكيف ذكر بعدها تعليما للأمة ما يجب عليها من العفو والمغفرة وكظم الغيظ لتحفظ النفوس وتقوى القلوب وتكمل الكمال الأوفى ومن مقال هذه الجمعيات الذي ترجم حديثا

ليس الرجل القوي الارادة الماضي العزيمة هو ذاك الذي يكشر عن أنيابه ويقبض حاجبيه ويصر أسنانه ويقلص عضلاته ووجهه وينظر نظر الغاضب الحانق كلما أراد أن يتغلب على الصعاب ليس هو الذي يتذمر من عمله اليومي فان ذلك قد أضاع قواه ومتى صادفه رجل هادئ مطمئن واثق بنفسه صرع الاول وغلبه ومتى حفظ امرؤ قواه وحبسها بارادته ولم يأذن لها بالافلات منه كان ذلك وحده كافيا أن يأتي له بالفوائد الجليلة من جذب النفوس اليه وقبول الناس له والاقبال عليه واحترامه فهذه الصفة كنز ثمين لا يقدر بذهب ولا فضة به تفتح الطرق المادية والمعنوية ومن حرم هذه الصفة ضاعت حياته هباء منثورا وانما كانت أغلى من الذهب والفضة لأن النفوس لما أحست بفطرتها وغريزتها أن نفسه مملوءة روحانية ومغناطيسية لشدة محافظته على السكينة والتزام الاحتراس أقبلت بفطرتها عليه غير عالمة بالسبب ولا مدركة ماذا دفعها الى ذلك الاحترام والحب وان لم يكن في الوجه جمال ولا في الجيب مال وانما ذلك شأن النفس التي ملأها الجمال وحفظت من ضياع روح الحياة وهي المغناطيسية النفسية كالنهر حفظت ماءه السدود والعرم ذلك قول هؤلاء العلماء فانظر كيف مدح الله الكاظمين الغيظ وقال لنبيه — ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم — مدح نبيه بهذا الوصف وأمر المؤمنين به ورتب عليه عدم انفضاض الناس من حولنا وهذا تعاليم الجمعية النفسية بحفظ القوى وبقاء الروح في حرز حصين من الاسراف في مواهبها

﴿ اللطيفة الثامنة — ترتيب درجات الطائعين ﴾

أنظر كيف رتبت درجات الطائعين فكان أعلاهم (١) النافعين لنوع الانسان القائمين بشأن الجمعية الانسانية وهم خلفاء الله على الحقيقة وأشار اليهم بقوله — الذين ينفقون في السراء والضراء — فهؤلاء خلفاؤه على عباده متشبهون بملائكته ولذلك جعل جنتهم كملكه فهيأها لهم — جنة عرضها السموات والارض — والخليفة أحق بالاطلاع على ملك من استخلفه فبوأهم جنة تضارع ملكه وذلك هو الجمال والكمال (٢) الدرجة الثانية الذين يصبرون على أذى الناس فهؤلاء وان لم يقوموا بأمر الأمة ويساعدوا الجموع فانهم زكوا نفوسهم وطهروها وقووها فاستعدت الى المعالي وهي المشار اليها بقوله — والكاظمين الغيظ الخ — (٣) الدرجة الثالثة درجة التائبين وليس هناك أحط منها واليها الاشارة بقوله — والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم — وهؤلاء جنتهم ليست كعرض السماء والارض وليسوا متمتعين بحقيقة الخلافة ورعاية الامة ونظام الجموع فجنتهم انما تجري تحتها الانهار فاياك أن تنزل عن المرتبة الاولى وجاهد في الحكمة والعلم ولا تقصر في نفع الامة وازالة الغمة وكن أبا رحيما مقلدا لله في رحمته للناس ورعايته للخلق

﴿ اللطيفة التاسعة — ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الايام نداولها بين الناس ﴾

لعلك تذكر ما قدمناه في سورة البقرة عند قوله تعالى — وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة الآية — فاعلم ان هذه الآيات تنحو نحو ما ذكرناه هناك فراجعه وليس في الاعادة هنا الا التكرار الذي يجب أن نتجنبه

ولقد استبان هناك أن لا سعادة في الحياة ولا في الممات الا بعوارض الدهر وقوارع المصائب وتربية الله للناس بالخطوب ولقد ظهرت كتب كثيرة في ذلك مثل أفزقابس الذي لخصته هناك وكتاب (الكوخ الهندي) لعالم كبير أوروبي وهذه الآيات التي نزلت في غزوة أحد كلها دروس وتطبيق على ذلك

﴿ اللطيفة العاشرة — أم حسبتم أن تدخلوا الجنة الخ ﴾

هي كسابقتها حث على الصبر والثبات وبابهما واحد

﴿ اللطيفة الحادية عشرة — ثواب الدنيا والآخرة ﴾

ان القرآن يدعو الى الكمال الدنيوي والأخروي والله يعطي الثواب الدنيوي والأخروي فالثواب في الدنيا

والآخرة

والآخرة معا فان المسلم وهو يجاهد فى سبيل الله قد نال ثوابا فى الدنيا بالغنيمة وفى الآخرة بالجنة

﴿ اللطيفة الثانية عشرة ـ كيف تعطى الدروس على حوادث الانسان وآلامه ﴾

لم تمر غزوة أحد بلا درس فأنت ترى كيف ظهر المنافقون وامتاز المخلصون وكانوا وقت الشدة أشد اطمئنانا وكان الصبر نعمة والثبات كمالا وذكر أن الحرب سجال وان الهزيمة من أسبابها ذنوب سابقة ألجأتهم الى ارتكاب مثلها وان التوكل والشورى مطلوبان تعلمنا لنا لئلا نشذ عن الجماعة فنسير مع الأمة ونطأطئ للاجماع كما هو القانون المسنون فى الامم الحاضرة ويا ليت شعرى كيف يكون رأى الجماعة مطاعا فى الاسلام ولا ينفذ أمره الا فى الامم الاوروبية كما لم يعرف نتائج الخبر الا الأمم الأجنبية ويظهر أن الأمم الاسلامية بعد القرون الأولى لم يكونوا أهلا لهذا الدين . ومن الدروس ان المصائب العظيمة كالهزيمة يوم أحد نقمة تنسى المصائب الصغيرة فلا يحفل بها الانسان وهذا أعظم ما عرفه الحكماء قديما وحديثا . ومنها أن يشعر الانسان بالروح والعزم وعناية الله . ومنها أن يوازن مصائبه بما أصاب عدوه . ومنها أن يتذكر أن هذه المصيبة بفعل سابق قد كان منه . ومنها أنها عدة له بها يستنير فى أمثالها . ومنها أن يرجع الى الله وان القضاء والقدر سابقان ليقل الحزن . ومنها أن لا يرجع الانسان فى رأيه بعد ان أحكمه وهكذا من الحكم التى جاءت فى هذه السورة درسا على أحد

ان هذا درس لك أيها الذكى فاذا أصابك شئ أو أقبلت نقمة فاجعلها من مسائل الدراسة وحافظ على الاستنتاج كما استنتج فى القرآن ليعلمنا الله كيف نبحث فى كل ما يصيبنا ونستخرج منه الحكمة والعلم

ألا انما مثل المصائب كمثل النار تصيب الفحم فيكون منه دخان فنار أما الدخان فالغموم وأما النار فالعلم . أولا ترى ان الدخان ينقطع وتبقى النار مضطرمة مضيئة أوليس الذى نفهمه فى الحوادث التى تلم بنا يعطينا علما وحكمة فاما الغم والحزن فانه منقطع انتهى

القسم التاسع ذكر المنافقين واليهود وكيدهم وان ذلك ابتلاء من الله للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ليصبروا فتقوى قلوبهم وترفع نفوسهم الى العلا وهذا القسم كسابقه يرجع الى الصبر وحفظ القوى العقلية من الضياع حتى تستأهل النفس للعلوم والمعارف الآتية فى القسم العاشر المتمم للسورة

انك قد علمت كلام علماء النفس انهم جعلوا حفظها بالصبر والصيانة والعفة والعفو وحفظ قواها لتكون كالنهر حفظ ماؤه فتسقى به المزارع ولن يكون الزرع بلا ماء ولا العلوم بلا فكر نقى ونفس كاملة وفى هذا القسم بعد ذم الكفر وتقبيحه (١) ان النعم لن تكون أس الكمال فكم من الخيرات كانت سبب الشقاء (٢) وان هذه الدنيا جعلت ليمتاز فيها المسيئون من المحسنين بما ينتابهم من الحوادث المؤلمة (٣) وان المواهب والنعم اذا بخل بها الانسان أصبحت شرا عليه ووبالا وأورثته نكالا وأصلته نار الطمع والجشع والحرص فأصبح مبغضا مكروها (٤) وان الكبرياء والفخر من أسباب الشقاء (٥) وان الأكاذيب على الانبياء والتعنت عليهم من أشد الكبرياء مقتا (٦) وان الحياة الدنيا غرور (٧) وان القضاء حتم علينا أن نسمع أذى كثيرا ونبتلى بنقص الأنفس والثمرات وأهل العزم هم الذين لا يبالون وعند هذه الشدائد يسمون (٨) وان البخل بالعلم أشد من البخل بالمال ضررا كما حصل من علماء اليهود فى زمن الرسالة (٩) وان من فرح بمدح ليس فيه فاحب أن يحمد بما لم يفعل آثم خلو من الكمال وانتحاله ما لا حقيقة له الا فى الخيال فهذه تسع خصال بعضها يقترب من بعض وبعضها متميز أشد التمييز فلأذكر الآيات ثم نتلوها تفسيرها

وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ

لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * ما كانَ اللّٰهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ على ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتّٰى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَما كانَ اللّٰهُ لِيُطْلِعَكُمْ على الْغَيْبِ وَلٰكِنَّ اللّٰهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ فَآمِنُوا بِاللّٰهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ * وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِما آتاهُمُ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَلِلّٰهِ مِيراثُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللّٰهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * لَقَدْ سَمِعَ اللّٰهُ قَوْلَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللّٰهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِياءُ سَنَكْتُبُ ما قالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ * ذٰلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّٰهَ لَيْسَ بِظَلّامٍ لِلْعَبِيدِ * الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللّٰهَ عَهِدَ إِلَيْنا أَلّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتّٰى يَأْتِيَنا بِقُرْبانٍ تَأْكُلُهُ النّارُ قُلْ قَدْ جاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّناتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ * فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جاؤُا بِالْبَيِّناتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتابِ الْمُنِيرِ * كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلّا مَتاعُ الْغُرُورِ * لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ * وَإِذْ أَخَذَ اللّٰهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَراءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ ما يَشْتَرُونَ * لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِما أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِما لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفازَةٍ مِنَ الْعَذابِ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ * وَلِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللّٰهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *

﴿ التفسير اللفظي ﴾

(يسارعون فى الكفر) يقعون فيه سريعا حرصا عليه وهم المرتدون المنافقون المتخلفون (انهم لن يضروا الله شيئا) أى لن يضروا أولياء الله كالنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه بأن يعينوا عليهم كما هو شأن الصديق اذا انقلب عدوا (حظا فى الآخرة) نصيبا من الثواب (ولهم عذاب عظيم) أى منضما الى حرمانهم من الثواب وقوله تعالى (ان الذين اشتروا الكفر بالايمان الآية) تأكيد لما قبله لعظم الأمر فان كيد العدو الذى كان صديقا عظيم لعلمه بما عند صاحبه الأول فلذلك زاد التأكيد بأنه لن يضر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه (نملى) نمهل ونؤخر وما اسم ان وخير خبرها وما اسم موصول (وانما) ذنبا وقوله تعالى (يجتبى) يختار وقوله تعالى (سيطوقون ما بخلوا به

يوم القيامة) بيان لكونه شرا لهم أى سيلزمون و بال مابخلوا به الزام الطوق وعنه صلى الله عليه وسلم مامن رجل لا يؤدى زكاة ماله الاجعل الله له شجاعا فى عنقه يوم القيامة وفى رواية أبى هريرة من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاع أقرع له زبيبتان (أى نكتتان سودا وان يكونان فوق عين الحية) يطوقه يوم القيامة يقول أنا مالك انا كنزك ثم تلا ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله الآية أخرجه البخارى وقوله تعالى (لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء) هم اليهود لما سمعوا من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا * وروى أنه عليه الصلاة والسلام كتب مع أبى بكر الى يهود بنى قينقاع يدعوهم الى الاسلام واقام الصلاة وايتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضا حسنا فقال فنحاص بن عازوراء ان الله فقير حين سأل القرض فلطمه أبو بكر على وجهه وقال لولا مابيننا من العهد لضربت عنقك فشكاه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجحد ماقاله فنزلت (سنكتب ماقالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق) جعل الاستهزاء بما جاء فى الاسلام وقتل الأنبياء فى نمط واحد كأنهم بما استقر فى نفوسهم من الرذائل الفاشية وعظائم الذنوب قد استعدوا لمثلها وقوله تعالى (ونقول ذوقوا عذاب الحريق) أى ننتقم منهم بأن نقول لهم ذوقوا العذاب المحرق وقوله تعالى (ذلك بما قدمت أيديكم الخ) أى ذلك العذاب بما قدمتم من قتل الأنبياء وسائر المعاصى وقوله تعالى (الذين قالوا ان الله عهد الينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار) الذى قال هذا هو كعب بن الأشرف ومالك وحيى وفنحاص ووهب بن يهوذا من اليهود وعهد الينا أى فى التوراة ألا نؤمن لرسول الا بمعجزة خاصة فيقرب النبى القربان ويدعو الله فتنزل نار سماوية فتأكله (بالبينات) الدلالات الواضحات والمعجزات (والزبر) الكتب واحدها زبور وهو كل كتاب فيه حكمة من الزبر وهو الزجر (والكتاب المنير) الواضح المضىء (يوم القيامة) يوم قيامكم من القبور وفى الحديث القبر روضة من رياض الجنة اوحفرة من حفر النار (وزحزح) ابعد وقوله تعالى (فقد فاز) أى بالنجاة (وما الحياة الدنيا) أى لذاتها وشهواتها وزخارفها (الامتاع الغرور) المتاع كل ما استمتع به الانسان من مال وغيره والغرور مايغر الانسان مما لايدوم أى ان منفعة الانسان بالدنيا كمنفعته بهذه الأشياء التى يستمتع بها ثم تزول عن قريب (لتبلون) لتختبرن (فى أموالكم) بالانفاق وما يصيبها من الآفات كدودة القطن ببلاد مصر (وأنفسكم) بالجهاد والقتل والأسر والجراح والخوف والمرض (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا) كهجاء الرسول والطعن فى الدين واغراء الكفار على المسلمين وانما أخبرهم بذلك لتتوطن أنفسهم على الصبر والاحتمال (وان تصبروا) على ذلك (وتتقوا) مخالفة أمر الله (فان ذلك) أى الصبر والتقوى (من عزم الأمور) أى معزوماتها التى يجب العزم عليها أو مما عزم الله عليه أى أمر به وبالغ فيه (واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب) أى اذكر وقت أخذه والذين أوتوا الكتاب هم العلماء كعلماء اليهود والنصارى الذين كتموا دلائل النبوة المحمدية فى التوراة والانجيل وأخذ الميثاق هو التوكيد والالزام أن يبينوا اما أوتوا من الكتاب وهو قوله تعالى (لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه) أى الكتاب أو الميثاق (وراء ظهورهم) طرحوه وضيعوه (واشتروا به ثمنا قليلا) من حطام الدنيا (فبئس مايشترون) يختارون لأنفسهم وعنه صلى الله عليه وسلم من كتم علما عن أهله ألجم بلجام من النار وعن على رضى الله عنه ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا (لاتحسبن الذين يفرحون بما أوتوا) فعلوا من التدليس وكتم الحق (ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا) من الوفاء بالميثاق واظهار الحق والاخبار بالصدق (بمفازة) بمنجاة (من العذاب) فائزين بالنجاة منه (ولهم عذاب أليم) بكفرهم وتدليسهم (ولله ملك السموات والأرض) فهو يملك أمرهم (والله على كل شئ قدير) فيقدر على عقابهم وليس فقيرا وهم أغنياء كما قالوا اهـ التفسير اللفظى

يقول الله تعالى لاتحزن يامحمد لأولئك الذين عادروا دينك وسارعوا الى أعدائك فانك بأعيننا ونحن لاندعك لهم بل نحفظك من كيدهم ونؤمنك من شرهم وكيف يؤذونك ونحن ننصر الذين ينشرون الفضائل ويزيلون الرذائل ويكونون للناس نافعين معلمين

فأما ماترى من اغداق النعم عليهم واظلالهم بظلال الأمن والسلامة وما أمددناهم به من مال و بنين فلم تفعل ذلك لنسارع لهم فى الخيرات وانما ذلك ليزدادوا اثما كما اننا جعلنا وفرة الطعام والشراب والماء كل الدسمة للشرهين ليمتلئوا لحما وشحما ثم نميتهم فجأة لجهلهم بقوانين الصحة فى مطعمهم ومشربهم هكذا هؤلاء نعطيهم الاموال والبنين الى أجل معدود ثم نوردهم موردا لا مرجع منه وكيف أذر المؤمنين على ماهم عليه فلا سلطن عليهم التكاليف والمشاق ولاوردنهم موارد الحرب ومواقع الضرب حتى يمتاز الشجاع من الجبان والمنافق من المخلص وكيف تفرقون بين زيد وعمرو وتعرفون الشجاع من الجبان والمخلص من المنافق وهل أطلعتكم على غيبى أو أنبأتكم بعلمى وانما أرسلت الرسول لقيادتكم و بهذه التكاليف يمتحنكم فيكون التمييز و يظهر ذو الورم من السمين والمحق من المبطل

وهل أولئكم الذين أغدقت عليهم النعم الى أجل محدود فبخلوا بها وأعطيتهم مالا فمنعوا حقه ينالون خيرا وانما هو شر لهم سيكون ذلك المال غلا فى أعناقهم وسجنا لنفوسهم ان كل ما اشتهاه الانسان وأنس به ولازمه من مال أو منصب أو جاه ولم يعالج نفسه بانفاق المال والتفكر فى أمر هذه الحياة وزوالها سيكون معلقا بها وهو لا يراه طالبا له ولا يلقاه مغرما به وقد أخطأه

ومن ذلك الأقوال الجارحة والكبرياء بغير حق وقول الزور والجهل والغرور كقول من يقول ـ ان الله فقير ونحن أغنياء ـ وأمثال هذا القول يردى صاحبه لأنه يكتب فى صحائفه ويكون وبالا عليه لأنه يربى فيه ملكة القول الزور والتطاول الممقوت والتعالى والملكات السيئة العالقة بالنفس تكون وبالا على صاحبها فهو كحاطب ليل يحتطب الشوك فيؤذيه ولا يعلم ماذا يأتيه فليس العذاب الا بما قدمت الأيدى ومن لم يهده الله فماله من مهدى

ولقد كذبك هؤلاء فلا تبتئس بالتكذيب واذكر الأنبياء السابقين والرسل الماضين فقد كذبهم التابعون وقد أرسلوا بالمعجزات والآيات الواضحات فصبروا على ما أوذوا واستعاذوا بى فأعيذوا فاصبر كما صبروا فلأعيذنك كما أعذتهم ولأنصرنك كما نصرتهم ولأذيقن المكذبين سوء النكال لأنى أنصر الهداة وأخذل الغواة اذا بلغ الكتاب أجله وأتم كل عمله بحيث يكون الأنبياء أدوا ما عليهم والمكذبون بلغوا النهاية فى النكاية فيكون الجزاء على مقدار العمل فأحسن للمحسنين وأسيء للمسيئين فلتصبر حتى تستوفى مدة المحنة ويتمادوا فى الفتنة فيكون الجزاء لك ولهم عدلا والقصاص منهم والافضال لك حقا جزاء وفاقا

على أن هذا وذاك سيزول والدنيا ذاهبة مهما تطاولت الأيام ـ كل نفس ذائقة الموت ـ والأعمال بخواتيمها والعذاب القليل فى جانب النعيم العظيم محتمل ومن ذاق ألوان الأذى قليلا ثم استمتع بالبهجة دائما فأمره جلل فلذلك بلوتكم فى الانفس بالقتال وفى الأموال بالانفاق والآفات وسلطت عليكم الأعداء فسلقوكم بألسنة حداد فان صبرتم على البأساء وثبتم فى الضراء وكنتم ذوى عزم حين البأس كنتم عندى من ذوى النفوس العالية و بوأتكم منازل الصابرين

ولا يظن امرؤ أنى أجتزئ بظواهر الامور كالقتال والانفاق بل هناك ماهو أعلى مقاما وأعز شأنا وأرفع مكانا ألا وهو العلم فاذا عاقبت الاغنياء على شحهم و بلوتهم فى أموالهم فلست مخليا العلماء من التعذيب ولا الحكماء من التأديب بل البخل بالعلم أدهى وأمر وأجلب للضر وأبعد عن العدل وأقرب للاثم وكيف لا يكون كذلك وقد أخذت على العلماء الميثاق فاذا نبذوه وراءهم وناموا عن نشره للناس كنت خصمهم . العلم أصل وما عداه تابع له فلذلك أخذت الميثاق على العلماء وما الاغنياء الا تلاميذ العلماء وما المجاهدون الا صدى صوت المعلمين ومنفذوا أوامرهم فى الدين فكيف أعطف على العالم البخيل بعلمه انه لأشد عذابا من البخلاء وأقرب الى النار و بئس القرار فهل تحسبهم بمفازة من العذاب كلا بل لهم عذاب أليم ان العلم هو الأس للنظام ومدار الاجتماع فكيف أعفو عن عالم أضاع علمه أليس العلم به يعرف جلال الله وانه يملك السموات والأرض وانه على كل شيء قدير فالعلم أمره عظيم جليل

﴿لطيفة في قوله تعالى — وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب — الآية التي نحن بصددها﴾

قال قتادة هذا ميثاق أخذه الله تعالى على أهل العلم فمن علم شيئا فليعلمه وإياكم وكتمان العلم فانه هلكة وقال أيضا مثل علم لا يقال به كمثل كنز لا ينفق منه ومثل حكمة لا تخرج كمثل صنم لا يأكل ولا يشرب وقال أيضا طوبى لعالم ناطق ومستمع واع هذا علم علما فبذله وهذا سمع خيرا فقبله ووعاه

واعلم أنه لما كان هذا القول يستدعي طلب العلم والتفكر في أصوله وفروعه ناسب أن يؤتى بعده بدرس في المعارف العامة و بنظرة في السموات والأرض . وأيضا لما كانت الآيات السابقة في شؤون غزوة أحد وكان فيها القتال ومجاهدة الاعداء وقصص المنافقين والضالين والكافرين ورد الاباطيل والدروس الادبية كالصبر والثبات والغنائم والفوز والهزيمة والتوبيخ وكان من عادة القرآن أن يأتي بعد ذلك بما يخرج النفس من أمثال هذا المقام الى التفكر في أمور شريفة وعجائب و بدائع لتتفرج على الجمال وتنشرح به بعد ما سمعت من مختلف الاحوال فقيل ان في خلق السموات والارض الخ . وأيضا ان غزوة أحد مملوءة من الدروس الأدبية والعظات التأديبية والحكم الخلقية والقوارع الزجرية وكل ذلك ليس نهاية المقصود من الحياة ولا هو نهاية مقاصد النبوّات وانما هذه أشبه بالتخلية والمعارف الطبيعية أشبه بالتحلية فاذا تخلى الانسان عن الرذائل فلم يشذ عن الجموع وثبت في حروبهم وصبر في النوائب كملت نفسه وعظمت قيمته واذن تستعد النفس للرقي في العلياء والعروج الى أبواب السماء فالاخلاق مقدمات والعلوم نهايات والاخلاق بالتجارب العملية كغزوة أحد فلذلك أعقبها بآية — ان في خلق السموات والأرض — وكذلك أول سورة آل عمران كان فيه ذكر الله وعلمه بكل شئ وانه لا يخفى عليه شئ في الارض ولا في السماء وتصويره الناس في الارحام كيف يشاء ختمت بمثل ما ابتدئت به ليكون المبدأ بالجمال العلمي والمنتهى بالنظر في العالم العلوي والسفلي كأنه يقال أيها الناس ان رسالة الانبياء والحرب والقتال والتكاليف والانفاق كل ذلك لكمال نفوسكم وجمال عقولكم فلذلك ابتدأت السورة بعلم الكائنات وختمتها بالحكم الكايات وما كان غير ذلك فانما هو مقدمات لتلك المقاصد ومبادي لتلك الغايات كذلك كانت سورة البقرة فانها مبدوءة بالتوحيد مختومة بأن ما في السموات وما في الارض لله و بدعاء المؤمنين أن ينصرهم الله على أعدائهم ويغفر لهم وترى سورة آل عمران مبدوءة بما ابتدئت به سورة البقرة من التوحيد وختمت بالدعاء بالغفران وذلك في القسم العاشر وهو

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ * فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ

حُسْنُ الثَّوَابِ * لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ * وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ *

﴿ التفسير اللفظي ﴾

سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بآية فنزلت (ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) لدلائل واضحة على وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته لذوى العقول الخالصة النيرة من شوائب الحس والوهم وورد عن النبي صلى الله عليه وسلم ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم) يداومون على ذكر الله فى غالب الأحوال فى القيام والقعود وفى حال نومهم على جنوبهم وليس المراد الاختصاص بهذه الأحوال بل المراد أن يعم الذكر سائر الأحوال • وعن عائشة رضى الله عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الله تعالى فى كل أحيانه • وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قعد مقعدا لم يذكر الله فيه كانت عليه من الله ترة ومن اضطجع مضطجعا لا يذكر الله فيه كانت عليه من الله ترة وما مشى أحد ممشى لا يذكر الله فيه الا كانت عليه من الله ترة أخرجه أبو داود ﴿والترة﴾ النقص والمراد به هنا التبعة ومن الذكر الصلاة ولما سأل عمران بن حصين النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة وقد كانت به بواسير قال صل قائما فان لم تستطع فقاعدا فان لم تستطع فعلى جنب تومئ ايماء وقد أخذ الشافعى بظاهره وان المريض يصلى على جنب ويومئ برأسه وأبو حنيفة يرى أن يصلى مستلقيا على ظهره فان وجد خفة قعد (ويتفكرون فى خلق السموات والأرض) استدلالا واعتبارا وذلك أفضل العبادات قال عليه الصلاة والسلام لا عبادة كالتفكر وذلك مخصوص بالقلب ولأجله خلق الانسان قال عليه الصلاة والسلام بينما رجل مستلق على فراشه اذ رفع رأسه فنظر الى السماء والنجوم فقال أشهد أن لك ربا وخالقا اللهم اغفر لى فنظر الله اليه فغفر له وهذا العلم أشرف العلوم بهذا وأمثاله يتفكرون قائلين (ربنا ما خلقت هذا باطلا) أى ما خلقت هذا الخلق أى المخلوق من السموات والأرض عبثا ضائعا من غير حكمة وانما خلقته لحكمة عظيمة ومن هذه المخلوقات الانسان فلا بد أن يكون خلقه لأمر عظيم فاذا جهل الحكمة التى خلق لها فانه لا بد صائر الى عذابك (سبحانك) تنزيها لك من العبث وخلق الباطل واذا كنا نعلم أننا خلقنا لحكمة فجهلناها واخلالنا بما خلقناله يردينا ويوردنا النكال لأنك لا تخلق إلا لحكمة (فقنا) يا ربنا (عذاب النار) الذى نستحقه اذا أخللنا بالحكمة التى خلقنا لها وغفلنا عن النظر ففاتتنا الحكمة وحرمنا العلم والتوفيق ولم ندر ما فى السموات والأرض من العجائب ولا جرم ان الناس فى الدنيا يحسون بالعذاب من طريقين طريق أجسامهم كالسجن والضرب والتعذيب وطريق الاذلال والاهانة والافتضاح والناس يشعرون بهما فى الدنيا فنرى الوزراء والأمراء ورجال الحكومات وذوى النفوذ اذا عزلوا أو أهينوا أو طردوا من مجلس رؤسائهم أو قيلت لهم كلمة لا تليق بمقامهم تؤلمهم أشد الايلام وربما مرضوا أو ماتوا وافتضاح الانسان وسط الجمهور واسقاطه أشد عليه من كل ضرب وسجن بل هو العذاب الحق وليس أضر على الانسان من

جهله وخزيه في المجالس الشريفة ومقام الملوك والعلماء والادباء ولما كان موقف أولي الألباب عند ربهم يقتضي أن يكونوا على نور وعلم يوافي مواقفهم ويناسب مراتب الملائكة ويلتئم مع ماللك الحضرة من الجمال والجلال قال تعالى (ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته) أهنته وأذلته وأهلكته وفضحته وأبلغت في ايذائه والاستخفاف به من الانكسار الذي يلحق الانسان وهو الحياء المفرط فالفضيحة وانما عبر بالاخزاء لما فيه من معنى الانكسار الذي يعقب الافتضاح وهو نوع من العذاب كما قدمنا وأي افتضاح أشد هولا وأقوى من ظهور الجهل في موطن العلم فالعذاب بالنار المطلعة على الأفئدة بخزي الجهالة لاتنقص عن نار الجسم المحرقة للهياكل المشاهدة فهؤلاء لما ظلموا أنفسهم بذنوبها وجهالتها عذبوا وافتضحوا (وما للظالمين) أنفسهم (من أنصار ربنا اننا سمعنا مناديا ينادي للايمان) وهو النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن (أن آمنوا بربكم) أي بأن آمنوا بربكم (فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا) كبائرنا (وكفر عنا سيئاتنا) صغائرنا (وتوفنا مع الأبرار) مخصوصين بصحبتهم والأبرار جمع بر أو بار كأرباب وأصحاب (ربنا وآتنا ماوعدتنا على) ألسنة (رسلك) من الثواب لأنا نخاف أن لانكون من الموعودين بذلك الثواب لقصور في امتثالنا فندعوك بذلك تعبدا واستكانة عسى أن لانكون من المقصرين (ولاتخزنا يوم القيامة) لاتفضحنا أمام الأشهاد حين تظهر الخبايا والنيات ويتضح ماغمض من السيئات ـ وتجد كل نفس ماعملت من خير محضرا ـ وماعملت من سوء مفشرا تودلو أن بينها وبينه حصنا مشيدا وتقول ياليتني كنت عنه مبعدا وكيف لاتجيب دعاءنا أو تخيب رجاءنا وأنت قد أمرت بالدعاء ووعدت الاجابة وناديت للايمان ووعدت بالاثابة وماعلمناك تخلف الوعود فيما رأينا من المخلوقات كالنجوم الطالعة والشموس المتألقة فان مواعيدها محسوبة وأوقاتها معلومة فوعدك في شروقها وغروبها غير مكذوب فاذا كان هذا دأبك فانا بوعدك مصدقون (انك لاتخلف الميعاد) في كل شئ في البعث وفي الثواب وفي كل ماله أدوار في هذا الوجود (فاستجاب لهم ربهم) الى طلبتهم (أني) بأني (لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر وأنثى) بيان عامل (بعضكم من بعض) جملة معترضة بين بها شركة النساء مع الرجال فيما وعد للعمال من الأجر لما بينهما من اتصال واجتماع واتفاق في الدين . ثم أخذ يفصل تلك الأعمال فقال (فالذين هاجروا) الشرك والأوطان والعشائر للدين (وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي) أي بسبب ايمانهم بالله ومن أجله (وقاتلوا) الكفار (وقتلوا) في الجهاد (لأكفرن عنهم سيئاتهم) لأمحون عنهم سيئاتهم (ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الانهار ثوابا من عند الله) أي أثيبهم بذلك اثابة من عند الله أي تفضلا منه وهذا مصدر مؤكد (والله عنده حسن الثواب) على الطاعات قادر عليه . ولما كان هذا القول يدل على اقبال الله على عباده وانه يعطيهم ماسألوا في الدارين بدليل قوله فيما تقدم في هذه السورة فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة وقوله هنا والله عنده حسن الثواب فاذا كان ماعنده حسن الثواب في الآخرة ويؤتيهم أجرهم في الدنيا فكيف يرى المؤمنون تقلب الكافرين في الارض بالتجارة ولايختلج في صدورهم الوسواس ويداخلهم الريب فيما يسمعون مما يعارضه مايرون . ولقد روى أن بعض المسلمين كانوا يرون المشركين في رخاء ولين عيش فيقولون ان أعداء الله فيمانرى من الخير وقد هلكنا من الجوع فأجابهم بقوله (لايغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد) والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولأمته ولكل أحد فان ذلك سحابة صيف عما قليل تقشع أو كسراب بقيعة أو كالزبد يذهب جفاء فذلك التقلب (متاع قليل) بلغة فانية قصيرة المدة قال عليه الصلاة والسلام ما الدنيا في الآخرة الامثل مايجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع (ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد) مامهدوا لأنفسهم (لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها نزلا من عند الله) النزل مايهيأ للضيف عند نزوله من طعام أو شراب قال الضبي والنزل أيضا بالسكون

وكنا اذا الجبار بالجيش ضافنا * جعلنا القنا والمرهفات له نزلا

وقد نصب على الحال من جنات (وماعند الله خير للأبرار) مما يتقلب فيه الفجار لقلة الثاني وكثرة الأول وسرعة زواله وكثرة الأول ودوامه . ان أصحمة النجاشي لما نعاه جبريل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج فصلى عليه فقال

المنافقون ان هذا يصلى على علج نصرانى لم يره قط ولقد أسلم عبدالله بن سلام اليهودى وأصحابه وأربعون من نجران واثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من الروم فأشار الله الى هؤلاء وأمثالهم فقال (وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم) من القرآن (وما أنزل اليهم) من الكتابين التوراة والانجيل (خاشعين لله) حال من الضمير فى يؤمن باعتبار المعنى (لايشترون بآيات الله ثمنا قليلا) من عرض الدنيا كما يفعل الاحبار اذ يبدلون صفة النبى صلى الله عليه وسلم حفظا للرئاسة (أولئك لهم أجرهم عند ربهم) أى ما خصوا به من أنهم يؤتون أجرهم مرتين (ان الله سريع الحساب) لايخفى عليه شئ من الأعمال ولايعوزه تأمل وتفكر واحتياط ولاجرم أن سرعة الحساب تستدعى سرعة الجزاء (يا أيها الذين آمنوا اصبروا) على مشاق الطاعات وعلى الدين الذى أنزلته فلا تصدنكم عنه الشدائد وعلى مايصيبكم من الشدائد فلا تشكوا للناس وعلى القضاء فلا تجدوا فى أنفسكم حرجا منه وعلى صدق الرضا فلا تسخطوا وعلى الفرائض فلا تتركوها وتلاوة القرآن فلا تهجروها وعلى الجهاد لئلا يفجأكم الأعداء وعلى أحكام الكتاب فلا تتعدوها (وصابروا) وغالبوا الكفار بالصبر على شدائد الحرب والشيطان بمخالفة الهوى وهذا من ذكر الخاص بعد العام للاهتمام (ورابطوا) وداوموا على الجهاد واثبتوا عليه وأصل المرابطة أن يربط هؤلاء خيولهم وهؤلاء خيولهم بحيث يكون الفريقان مستعدين للنزال فيحارب كل منهما الآخر ثم أطلق على كل مقيم بثغر يدفع عمن وراءه مرابط وان لم يكن له مايربط من الخيل أوغيرها وفى الحديث رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وماعليها وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وماعليها والروحة يروحها العبد فى سبيل الله أوالغدوة خير من الدنيا وماعليها يقول رابطوا أبدانكم وخيولكم فى الثغور مترصدين للغزو وأنفسكم على الطاعة ويلحق بالرباط فى الثغور انتظار الصلاة ففى الحديث من الرباط انتظار الصلاة بعد الصلاة (واتقوا الله) بترك المعاصى (لعلكم تفلحون) بنيل المقامات الثلاثة التى هى الصبر على مضض الطاعات ومصابرة النفس فى رفض العادات ومرابطة السر على جناب الحق لرصد الواردات وهى المعبر عنها بالشريعة والطريقة والحقيقة

ولنا أن نقول ان تكرار هذا ثلاث مرات صبر ومصابرة ومرابطة داع حثيث الى المحافظة على الاوطان وصد العدو المغير فلعمرك لادين ولادنيا ولاحياة لمن لم يصابروا ولم يرابطوا وكأن هذه الغزوات وذكرها والوصايا بالمرابطة لنأخذ حذرنا من الفرنجة الذين هم ذئاب الشرق وآساده نعم نظر الله لنا وعرف ماسنقع فيه فكرر الامر بالصبر والحرب فى مواطن كثيرة من القرآن ولعمرك ما أفظع دول الغرب على الشرق فهل أحدثك عن أعمالهم انهم يلقون القنابل النارية من الطيارات على الشبان والشيوخ والاطفال والبهائم فى طرابلس ومراكش والعراق والهند قال الاستاذ الزعيم الهندى المشهور المسمى (غاندى) منقولا من مجلة الجامعة الهندية (١) ان أولوا مؤلفة من الانجليز لا يمكنهم أن يتحملوا أن يدعى هندى واحد المساواة أو أن يعيش عيشة مساوية لهم اذ سيادة اللون الابيض أصبحت دينا لهم (٢) لاشئ يستطيع صد الوطنى عن القيام بوظيفته ولو كان قوة الحكومة (٣) ليس هناك مسلم ولا وثنى بل الله الواحد الأب الرحيم للجميع (والابوة هنا مجاز) (٤) ان مقاطعة المنسوجات الاجنبية من الانتقام ولكنه لامفر منه لأنه لازم للوطنية لزوم النفس للحياة اذ بدونه لا يكون الاستقلال وان جاء لايؤمن عليه (٥) ان الولوع بالمنسوجات الأجنبية يجلب العبودية الأجنبية والفقر المدقع وماهو أقبح من هذا ألا وهو العار على كثير من العائلات (٦) انى أجزم بأن أوروبا اليوم لاتمثل روح المسيحية بل تمثل روح الشيطان وما أعظم نجاح الشيطان اذا ظهر ولسانه يردد اسم الله (٧) ان النجاح يتوقف على الشجاعة والنصيحة والمحبة والايمان لاعلى المهارة القانونية وكثرة العدد والحيل السياسية وكره الناس وعدم الايمان (٨) ان اضطراب البلاد لا يمكن معالجته الا بازالة الأسباب لابتقديم حلويات الوظائف ولا بألعوبات أخرى (٩) ان المدافع البريطانية ليست مسؤلة عن عبوديتنا أكثر من مسؤلية مساعدتنا الاختيارية لبريطانيا انتهى كلامه

أقول ان أهل الهند يقرون (لمهاتما غندى) بالزعامة انتهى التفسير اللفظى للقسم العاشر من السورة وهو آخرها

ولننظر الآن نظرتين نظرة عامة فى سورة آل عمران ونظرة خاصة بآخر السورة

﴿ النظرة العامة فى سورة آل عمران ﴾

ولنقدّم لهذه النظرة العامة مقدّمة فنقول . اعلم أن التربية فى العالم الانسانى اليوم لا تعدو أمرين اثنين الأوّل التربية الجسدية الثانى التربية العقلية ولا ثالث لهما فان الانسان ما هو الا جسم وعقل وما مثلهما الا كمثل الاعمى والمقعد المذكورين فى الاقاصيص فى القرون الغابرة والأيام الخالية والحكم المروية والعلوم الحكمية وقد أباح لهما الملك الدخول فى بستانه والتفيؤ فى ظلاله فسرقا معا أجل الفاكهة الخاصة بالملك فالأعمى بقوّته والمقعد بارشاده بحيث كان الاعمى يحمل المقعد وهو يدله على الفاكهة النادرة الوجود الخاصة بالملك فلما علم الملك أمرهما من البستانى طردهما فى العراء فتخطفتهما السباع وأكلتهما الوحوش والضباع وهما قد كانا فى الجرم شريكين فأصبحا فى الجزاء متفقين فالأعمى تمثيل للجسم والمقعد البصير تمثيل النفس فالنفس يحملها الجسم كما يحمل الأعمى المقعد فلذلك درجت الأمم المعاصرة لنا على تربية الأجسام بالاستحمام والرياضة البدنية والسفر على الاقدام والايغال فى الجبال والسير فى البرّ والبحر والصناعات الشاقة والحدادة والبرادة والنجارة وقطع الاخشاب وما أشبه ذلك وقد كان الأوربيون يرسلون أبناءهم الى البادية حتى تقوى أبدانهم فى ابان صغرهم ثم يرجعونهم الى المدن ليتعلموا هكذا أهل الممالك المتحدة يعلمون أبناءهم الشجاعة فيربونهم عند الامريكيين الحمر كذلك اخواننا الفرس كما قدّمنا فى سورة البقرة يعلمون أبناءهم الرماية وركوب الخيل وهم فى السادسة من عمرهم ويجيعونهم بعض الزمن تقوية لأبدانهم وتشجيعا لهم وتعويدا لهم على الصلابة والقوّة والعفة والصبر وهكذا ترى نظار المدارس يربون التلاميذ بالألعاب الجنبزية بالحركات المختلفات ولم تجسر أمّتنا المصرية ان تعلم الشبان فى المدارس تعليما عسكريا لتقوى أبدانهم كما قال الله تعالى ــ وزاده بسطة فى العلم والجسم ــ لأن الأمة الانجليزية اليوم محتلة بلادنا فهذا ممنوع منها لا يحمل أحد سلاحا فى بلادنا إلا نادرا ولكن الآن وأنا أكتب هذا قد حصلت أمتنا على مجلس نيابى وعسى الله أن يجعله فاتحة خير فيتعلم الشبان الأعمال الجندية فى المدارس لتقوى أبدانهم وتصح عقولهم ولقد أطنب فى هذا المقام الفيلسوف أفلاطون فى كتابه الجمهورية اذ أوجب كثرة الرياضة البدنية كما أوجب الرياضة العلمية والموسيقى الغنائية وعلق أعظم الآمال على رياضة الأبدان وهكذا الامبراطور غليوم الذى أثار الحرب الكبرى التى قلبت العالم الانسانى اليوم رأيت له خطبة قبل الحرب يحث فيها دولته أن يأمروا التلاميذ فيتعلموا الجندية فى المدارس العالية علما منه أن رجال الحكومة لن يكونوا نافعين لأوطانهم الا اذا كانوا ذوى أجسام قوية

ولقد اطلعت على ما نقل عن الولايات المتحدة منذ سنين انهم جربوا التلاميذ فى المدارس فأرسلوهم الى الحقول عند العطلة أيام الصيف فماذا رأوا رأوا ان الذين أمروهم بالعمل فى الحقول ومساعدة الفلاحين رجعوا وهم أصح أبدانا وأقوى عقولا وأكثر درجات فى الامتحان وأحسن أخلاقا مما كانوا قبل ذلك وهم مع ذلك شاهدوا جمال الطبيعة وخبروا مختلف النبات وتمتعوا بالهواء النقى وصاروا قدوة الفلاحين ورغبوهم فى أعمالهم وشاركوهم فى صناعتهم وشرحوا صدورهم بمشاركتهم فعلت بذلك منزلتهم فى أنفسهم هذه شذرة من تربية الاجسام

أما الامر الثانى فهو التربية العقلية فاذا استكمل التلميذ التربية الجسمية وحسن غذاؤه وروعيت العفة فى مأكله وملابسه ومشاربه وجميع أحواله هنالك يعطى العلم من الرياضى والطبيعى والعلم الدينى والاخلاق وما أشبه ذلك على مقتضى البنية والاحوال العامة

هنالك يقبل العقل ما يهدى اليه ويقبل عليه ويا ليت الناس يقدرون هذا حق قدره فانظر كيف يرى الانسان نفسه وهو فى الهواء الطلق كيف تتقبل المعانى عليه أى اقبال وتشرق نفسه بالحكمة ويزدان بالجمال والبهاء والصفاء هذا ملخص التربية فى الامم الحالية انتهى الكلام على المقدمة

﴿ النظرة العامة لسورة آل عمران ﴾

اذا عرفت هذه المقدمة فاعلم ان القرآن انما جاء لتربية الامة الاسلامية تربية جسمية وعقلية فمن قرأ هذه السورة وظن أنها عبارة عن حكاية سيدنا عيسى وغزوة أحد ونبذة من غزوة بدر وبعض أوامر ونواه وهو نائم هائم فلاحظ له من فهم القرآن فلننظر فى هذه السورة نجد أنها قامت بالامرين معا تربية الجسم وتربية العقل

أما التربية الجسمية فانها قد وضحت فيها فى غزوة أحد ولا تظن أن ذكرها لمجرد التاريخ أو الدلالة على النبوة بل هى للتربية

ان الانسان لابد فى تربيته من كبح جماح الشهوات من المآكل والملابس والتزاوج وهكذا كبح جماح الغضب والتوسط فيه فلن يكون جبانا كما لا يكون متهورا فاذا انتهى من ذلك وجب عليه تنمية قواه العقلية والتحلى بالحكمة والعلم هذا هو الانسان أوله ومنتهاه وبالتأمل فى هذه السورة نرى انهم أمروا بالاقتصاد فى الشهوات أثناء الغزوات ألم تر كيف وبخهم على انتقالهم من مراكزهم فى مصاف القتال حرصا على الغنيمة فهذا وأمثاله من تهذيب النفس الشهوية وتلطيف شهوتها وتكميلها فأما انتظام الصفوف فى الجهاد وصبرهم على لقاء الاعداء يوم أحد وطعنهم وقتلهم أعداءهم فكل ذلك رياضة بدنية وطاعة إلهية وقوة بدنية وهمة علية وأشرف مايقوى به الانسان بدنه ويهذب به نفسه الاقدام فى الحرب والكفاح والقتال فذلك خير الرياضات وأفضل مقوّ للبدن ومتى قوى البدن قويت الروح ولقد أخذت غزوة أحد مقدارا عظيما من هذه السورة وكلها فى الشجاعة والشهامة والمروءة والنجدة وذلك واضح كل الايضاح

وأما التربية العقلية فحسبك أن ترجع الى أولها لتنظر ذكر علم الله بما فى السماء والأرض وانه يصوّرنا فى الارحام كيف يشاء والمحاجة مع عيسى وقيام الله بالقسط فى خلقه وحسن نظامه جل جلاله فى هذا الوجود ثم اختتامها بالقسم العاشر الذى فيه عجائب خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار

ومن عجب أن يكون أسلوب القرآن جاريا على أحسن الأساليب المعروفة فى التربية فانك ترى ان سورة يوسف ابتدئ فيها بالتربية الأخلاقية من نفسية الى منزلية الى سياسية مدنية ثم انتهى فى آخرها الى أن طلب من الله أن يلحق بالصالحين هكذا سورة البقرة فانه ختمها بذكر السموات والارض وكيف يدعو المؤمنون فى قوله — ربنا لاتؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا الخ — ثم طلب المغفرة والرحمة هكذا فى سورة آل عمران التى نحن بصددها نرى السورة تحث على مكارم الأخلاق من الصبر والثبات والجهاد والاخلاص فى الاعمال والطاعات حتى اذا انتهى الى آخرها وقد تمت قصة غزوة أحد وفيها حوادث الحرب ومافيها من العبر أخذ يشرح عجائب السموات والأرض وختم السورة بالدعاء كأن يقول العبد — ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الابرار — كما قال تعالى فى سورة البقرة — ربنا لاتؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا — الى قوله تعالى — واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا الخ —

فكأنه يقال فى هذه السورة أيها الناس ليس مقصد الحياة والديانات هذه الاعمال الظاهرة ولا ظواهر الدين من الجهاد والصلاة والحج انما هذه مهذبات لعقولكم مربيات لنفوسكم سلم الى فهم دروسكم النافعات من الحكم العاليات كالتفكر فى النجوم ومعرفة العلوم انتهى الكلام على النظرة العامة فى سورة آل عمران

﴿ النظرة الخاصة بالقسم العاشر منها وهو آخر السورة الذى نحن بصدد الكلام عليه ﴾

لقد علمت أن ماجاء فى سورة يوسف وهى أحسن القصص يناسب ماجاء هنا وماجاء فى البقرة وانه بعد أن أتم دروس الحياة من تهذيب نفسه فى السجن وحسن الاخلاق مع المعاشرين فيه ونظامه للحكومة المصرية وهو تمام الحكمة العملية أى تهذيب النفس وسياسة المنزل وسياسة الأمة وبعد أن أفيض عليه العلم لتكميل القوة الناطقة بالحكمة جمع ذلك كله فى قوله تعالى — رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الاحاديث — فاتيان الملك اشارة الى الثلاثة الاول وتعليم الأحاديث اشارة الى الحكمة والنبوّة ثم قال تعالى — فاطر السموات والأرض أنت ولى فى الدنيا

والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين - فذكر خلق الله للسموات والأرض أولا ثم طلب أن يلحق بالصالحين بعد الوفاة مسلما في جوار ربه الذي فطر السموات والأرض حتى يتمتع بنعمة العلم واللذات النفسية بعد الخروج من هذا النظام الجسمي وهو المقام المحمود وموقف السعادة وموطن الكرامة والمشاهدة لابداع فاطر السموات والأرض ومشاهدة الانوار القدسية

أنظر أيها الذكي كيف كانت نهايات الانبياء أن يلحقوا بالعالم الجليل عالم العلم والحكمة وأن يتخلصوا من هذه المادة بعد أن هذبوا نفوسهم بها فيخرجون من الظلمة الى النور . وتأمل في هذه السورة وانظر أيضا كيف كان في أولها الاشارة الى غزوة بدر فأما غزوة أحد فقد أخذت منها قسطا كبيرا واستغرقت منها جزأ وافرا وفيها درسوا نظام الحرب وحفظ المروءة وشرف النفس ومرنوا أجسامهم فقويت أبدانهم وقد رجع من لم يمت منهم سالما ولما انتهى القول فيها أخذ يتدرج من العمل الجسمي الى العلم الحكمي أفلا تعجب كيف أخذ يذكر العلماء بالميثاق الذي أخذه عليهم قبل الشروع في الدروس العلمية وكيف قال تعالى - واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب الخ - وأخذ يقرعهم ويوبخهم ولعمرك ما أضر بأمة الاسلام الا الجهل بمواقع الكلام ظن كثير منهم أن المسألة قصص تاريخية أو منازعات يهودية ومنافرات حزبية وما دروا أن هذا تعليم عام ونظام شامل ان الله تعالى لما أتم القول في الغزوات أخذ يهيء النفوس للدروس والعقول للفهم فابتدأ يقرع العلماء ويوبخ الرؤساء قائلا لهم كيف نسيتم ميثاقي ونبذتم عهدي أولستم تعلمون مغبة فعلكم وعاقبة مكركم وسوء طويتكم وحرصكم ألم تذكروا ما جاء في سورة البقرة من معاقبة الكاتمين منكم باللعنات من الله والملائكة والناس أجمعين كما أني جعلت للعالمين منكم الناشرين لعلمهم ان العالم أجمعه يستغفر لهم حتى حيتان البحر فالعالم أعظم ذنبا وأعظم جرما كما أنه أعظم ثوابا وأقرب زلفى اذا وفى بالعهد وقام بالأمر

وبعد أن انتهى من وعظ العلماء أخذ يسوق الناس من مواطن القتال والجهاد ويدفعهم الى حظائر العلم ومواطن الحكمة ويأمرهم بدراسة العالم العلوي والسفلي بعد أن أتموا نظام الملك بالجهاد فاذا قال يوسف وعلمتني من تأويل الاحاديث بعد نظام الملك هكذا هنا أخذ يعلم المسلمين الحكمة بعد الانتهاء من ذكر الحرب واذا طلب يوسف الوفاة بعد العلم والحكمة هكذا هنا قالوا بعد أن ذكروا الله كثيرا وتفكروا في خلق السموات والارض - توفنا مع الابرار - أولست ترى النظام هنا كالنظام هناك وان الامر يرجع الى ثلاث نظام جسمي وتربية علمية ولحوق بالملأ الاعلى في بهجة علمية وسعادة عالية وروح وريحان . فهل لك أن أحدثك ماذا كان من أمر نبينا صلى الله عليه وسلم في هذه الآيات

﴿ دروس علم الطبيعة لصاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم ﴾

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه بات عند ميمونة أم المؤمنين وهي خالته قال فقلت لأنظرن الى صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فطرحت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وسادة فاضطجعت في عرض الوسادة واضطجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله في طولها فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى منتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل ثم استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده ثم قرأ العشر آيات الخواتيم من سورة آل عمران ثم قام الى شن معلقة فتوضأ منها فأحسن وضوءه ثم قام يصلي قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فقمت فصنعت مثل ما صنع ثم ذهبت فقمت الى جنبه فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده اليمنى على رأسي وأخذ بأذني ففتلها فصلى ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم أوتر ثم اضطجع حتى جاء المؤذن فقام فصلى ركعتين خفيفتين ثم خرج فصلى الصبح ﴿وفي رواية﴾ فقمت عن يساره فأخذني فجعلني عن يمينه ﴿وفي رواية﴾ بت في بيت خالتي ميمونة فتحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أهله ساعة ثم رقد فلما كان ثلث الليل الأخير قعد فنظر الى السماء فقال - ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب - انتهى

الحديث . أفلست ترى أيها الذكى اللبيب كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم بالليل فينظر فى السماء ويقرأ الآيات فلماذا هذا النظر للنجوم لماذا وهو مؤمن بربه . الاستدلال على وجود الله كلا فانه ليس مؤمنا فحسب بل هو نبى ورسول يدعو الى الله وانما ذلك درس علم الطبيعة واستفتاح لباب السعادة وكأنه يقول لنا ها أنا ذا أيها المسلمون قبل أن أقوم لمحرابى أنظر فى السماء ثم أتعبد لربى أى أعلم وأعمل فهو بهذا يرشدنا الى أن نعاود درس الفلك وعلوم الطبيعة ونتجه بالأفئدة الى الملأ الأعلى بالعلم والحكمة

أولست ترى ذلك أشبه بالتحلية بعد التخلية يقول الله تعالى لرسوله — ان لك فى النهار سبحا طويلا — ويأمره بقيام الليل لتستعد النفس للاشراق ان العلم نهاية العقول البشرية والحكمة مرمى أولى الألباب ألم تر كيف كان العلم بالطبيعة والرياضة من الحساب والهندسة والجبر عليها نظام الأمم وسعادتها والرياضة الفكرية فيها جنة الحكماء والعلماء . نبينا صلى الله عليه وسلم ينظر فى السماء ليستجلى الجمال والمؤمنون ينظرون فى العوالم ثم يقولون — وتوفنا مع الأبرار — سعادات الأمم بالعلوم وسعادات الأفراد بالعلوم

وكأنهم بعد أن أتموا دروس الاخلاق نالوا مراتب الاشراق . أولست ترى أن هذا الترتيب مقصود الوضع لقرائه ولنعمل به وان غزوة أحد لم تذكر وبعقبها العلم الا لتجد فى الامرين تربية الأجسام ونظام العقول بالعلوم لهذا جاء القرآن

﴿ خطاب الى علماء الاسلام فى الارض ﴾

أيها العلماء أليس ما ذكرته الآن من النظام والحكمة والابداع من مقتضى البلاغه نعم ان البلاغه ليست قاصرة على الاساليب الكلامية ولقد عكف كثير من العلماء على الالفاظ نشرحوها وعلى الاساليب فبينوها وقالوا للشبان اعرفوا المعانى والبيان والبديع وكلام العرب تعرفوا بلاغة القرآن وهذا حق من وجه ولكن الوقوف عند هذا الحد جهالة عمياء وشنشنة بتراء . القرآن يا قوم قد جاء لتربية الاجسام بالاخشيشاب (تقوية الاجسام فتصير كالخشب متانة وقوة) والتمرين لتقوى العضلات بالحرب والمدافعة والرياضة الجسمية ثم التحلى بالمعارف الطبيعية والفلكية حتى تستكمل الأفراد ويقوم النظام فى الدولة فقرآن يكون ترتيبه على هذا النسق يدعو أتباعه لكمال الأجسام والعقول كما فى قوله تعالى — وزاده بسطة فى العلم والجسم — (وضع حد للماضى)

قولوا أيها العلماء لتلاميذكم ان القرآن جاء للقدوة ولا تقصروهم على دلالة الألفاظ بل انقلوهم منها الى المعانى . وبعبارة أصرح مرنوا أجسامهم عملا وعقولهم علما خذوهم الى الحقول فأروهم نظام المزارع وبهجة الزهر وجمال الشجر . خذوهم الى الفلوات والجبال والخلوات وأروهم صنع ربهم . أيقظوهم فى جوف الليل وصلوا معهم التهجد وأروهم النجوم وشوقوهم لعلم الفلك ولا تعطوهم درسا فيه حتى يعشقوا جمال النجوم ويطلبوا ذلك منكم طلبا حثيثا هذا هو دين الاسلام

لما كان الصحابة والتابعون يعرفون مغزاه على سبيل الاجمال أطار نومهم وأيقظ أجفانهم فهجروا أوطانهم واستعذبوا العذاب وساروا فى الأرض شرقا الى الصين وغربا الى أرض فرانسا كل ذلك لأنهم كانوا يعرفون معنى القرآن وكانت بلاغته فى نظرهم غير ما تدرسون فغاصوا على لبه لا على الألفاظ

ألا ترى الى قوله تعالى هنا — لآيات لأولى الألباب — والعلوم إما قشور واما ألباب جمع لب هكذا العقول منها القشرية ومنها لبية وأكثر النفوس فى الأمم الاسلامية تربت تربية لفظية والألفاظ قشور وقد آن أيها العلماء أن تربوا الألباب فتخاطبوا الوجدان والعقل وليقف العلماء عند هذا الحد وليصلوا الجد بالجد

﴿ القرآن والبلاغة والمفسرون ﴾

ان دراسة القرآن فى العصور الخالية كانت تسكافية وقراءة سطحية وعلوما لفظية فعكف الناس على الألفاظ وكثر الحفاظ وقل المفكرون فجمدت القرائح وماتت العلوم لاسيما لما تولى أمر هذه الأمة الأمم الأعجمية الذين يجهلون العربية فى القرون المتأخرة فطمست الحقائق ونامت البصائر وماتت النفوس وفر العلم الى الغرب وخلى

الشرق قاعا صفصفا وصعيدا جرزا

فلنجعل اليوم حدا بين الماضي والمستقبل وليفطن العلماء بعدنا الى ماذكرناه وليدرسوا القرآن بنحو الأسلوب الذي بيناه وليفتحوا للمعاني بصائرهم وليضموا الى تربية الأجسام ترقية العقول . ان لم يفعلوا ذلك لم تعش الأمم الاسلامية قرنا واحدا بل تفنيها الأمم الأجنبية

أيقظوا العقول أيها العلماء ها أنا ذا أقول نحن أمة عربية فلندرس القرآن الذي ورثناه درسا يناسب الجيل المقبل ولنأخذ بأيدي أبنائنا الى مقام الكمال

﴿ لطائف في هذه الآيات ﴾

(اللطيفة الأولى) اختلاف الليل والنهار (اللطيفة الثانية) ربنا ما خلقت هذا باطلا (اللطيفة الثالثة) ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار مع قوله ولا تخزنا يوم القيامة

﴿ اللطيفة الأولى ﴾

هل لك أن أتحدث معك ساعة في اختلاف الليل والنهار وعجائب السموات والأرض بعدما قرأته في تفسير سورة البقرة من عجائب الليل والنهار في الأقطار الجنوبية والشمالية وطول النهار وقصره باعتبار الأقاليم . في هذا اليوم أحدثك حديثا آخر غير ما تقدم أتدري فيماذا . ذلك في حساب السنة الكبيسة والبسيطة وانما أردت ذكرها هنا لاختصارها خيفة التطويل ولأريك من جمال العلم والحكمة ولأعاود ذكرى جمال السماء كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعاود النظر كل ليلة ليجتلي الجمال فها أنا ذا أعاود ذلك لأريك لب العلم ولأنك من أولي الألباب بدليل سيرك في هذه المقالات مع تشابه القلوب وتجاذب النفوس وتعاشق الافئدة فلأزدك علما ليكون مفتاحا لسعادتك ونبراسا لرقيك في مستقبل حياتك وليجعلك لاتهدأ في طلب العلوم ولتكون نورا وسعادة لبلادك ولدولتك ولا تتكل في ذلك على أبناء جنسك بل ساعد أيدك الله على ارتقاء نوع الانسان وانشر العلم بمحصلوه فان حال الامة يستوجب البكاء بالدمع فامدد يدك لتتعاون على انقاذها من هاوية الشقاء في بلاد أفريقيا وآسيا فان الفرنجة أذلوهم ليكن هذا مقصد حياتك ومرمى آمالك لتكون من خلفاء الله الصالحين واعلم أنك مسئول كما أني مسئول فسر مني وانشر العلم بين أمتك واحفظ الوديعة التي استودعتها والأمانة التي اؤتمنت عليها وأدها الى أهلها وها أنا ذا أدلي اليك بمسألة الحساب السنوي وبالكلام على الليل والنهار وعلى الفصول الفلكية وعلى نبذة لطيفة من العجائب الأرضية . ولأبدأ بالكلام على الحساب السنوي فأقول

﴿ السنين الكبيسة والبسيطة ونظام أوائل الشهور والسنين العربية ﴾

ان لها أدوارا كبيرة وأخرى صغيرة وكل دور من الأدوار الكبيرة تابع لما قبله بلا خلل في السير ولا خطل في النظام

ان السنة الحسابية (٣٥٤) يوما وخمس وسدس يوم والدور الصغير (٣٠) سنة والدور الكبير (٢١٠) من ضرب (٣٠ في ٧) وأيام السنة البسيطة (٣٥٤) يوما لأن الكسر اذا نقص عن النصف ألغي في الحساب التقريبي والسنة الكبيسة (٣٥٥) يوما باكمال مازاد عن النصف من الكسر والكبيسة من الكبس وهو الجمع

فاذا أردت معرفة أول سنة من السنين الهجرية فأسقط التاريخ العربي التام (٢١٠) مرة بعد أخرى ولا تخلو الحال بعد ذلك الاسقاط فاما ان لايبقى شئ واما أن يبقى أقل من ثلاثين واما أن يبقى ثلاثون فأكثر فان لم يبق شئ وهي الحال الاولى فان أول السنة التي بعدها يوم الخميس وهو أول التاريخ كما في سنة ١٢٦١ لانها مقسومة على (٢١٠) غير السنة المطلوبة

وان زادت عن ذلك وهي الحال الثانية فليمر بما زاد على هذا البيت

كف الخليل كفه ديانه * عن كل خل حبه فصانه

(أو هذا البيت) ان رمت مجدا فلا ترقد دجا أبدا * خوف الفوات لما ترجو من الشرف

والمطلوب ٣٠ حرفا منها ١٩ حرفا مهملة و ١١ حرفا معجمة فالحروف المعجمة تقابل السنين الكبيسة والمهملة تقابل البسيطة ففي كل دور من الادوار الصغيرة ١٩ بسيطة و ١١ كبيسة لان الخمس والسدس الذى يهمل فى حساب البسيطة ويجبر فى حساب الكبيسة يجمع فى ٣٠ سنة ١١ يوما فالثلاثون مركبة من عددين فى هذا المقام أوليان أعنى لا يقبلان القسمة كما فى علم خواص الاعداد وهما ١١ و ١٩

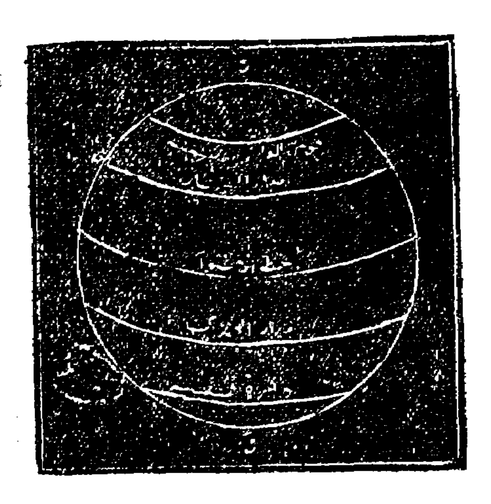
فاذا مررت بالباقى بعد اسقاط التاريخ على هذا البيت ووصلت الى حرف منه مثل الكاف فى كفه مثلا وهو التاسع فاجعل لكل سنة بسيطة ٤ ولكل كبيسة ٥ واجمع الحاصلين وزد على الحاصل واحدا دائما واقسم المجموع على سبعة ومابقى فابتدئ به من يوم الخميس

الحالة الثالثة أن يكون العدد (٣٠) فأكثر فاجعل لكل دور صغير (٥) ثم افعل بما هو أقل من ٣٠ مافعلته فى الحال الثانية وضم واحدا أبدا واجمع تلك الحواصل واقسمها على سبعة ومابقى ابتدئ به من يوم الخميس فيكون مثلا سنة ١٣٣٩ بقسمة ماقبلها على عدد (٢١٠) يكون الباقى ٧٨ منها ٣٠ فى ٢ وهذان دوران صغيران نضربهما فى ٥ تساوى ١٠ وهذا حاصل أول والباقى بعدهما ١٨ فيها سبع سنين كبيسة و (١١) بسيطة و ٧ فى ٥ تساوى ٣٥ و ١١ فى ٤ تساوى ٤٤ وبضمهما الى (١٠) يكون المجموع ٨٩ فضم اليه واحدا لاجل السنة المطلوبة يكون المجموع ٩٠ فقسمه على ٧ يكون الباقى ٦ نبدأ به من يوم الخميس يكون أول السنة يوم الثلاثاء نظرناه فى النتائج المصرية فوجدناه كذلك وهكذا اذا افعل مثل ذلك سنة تأليف هذا التفسير أى سنة ١٣٤٢ وجدنا أول السنة يوم الاثنين لان الباقى خمسة نظرنا فى النتائج المصرية فوجدنا أول السنة يوم الثلاثاء فالفرق يوم واحد بحثنا فوجدنا ان الهلال مكث بعد الغروب ٤٩ دقيقة وهذا دليل على ان اجتماع النيرين كان فى ليلة الاثنين حتما لان القمر يتأخر كل ليلة ستة أسباع الساعة فالشهر الحقيقى أوله يوم الاثنين والشرعى يوم الثلاثاء فانظر الى هذه القاعدة التقريبية كيف وافقت الجداول التى استخرجت من الزيجات وتعجب كيف كانت الادوار الصغيرة والكبيرة لاتختل أمد الدهر فى الماضى والحال والاستقبال فهى كالكسر الاعشارى الدائر فكل سنة من الدور الكبير تطابق نظائرها من الادوار التى قبلها والتى بعدها فى الايام فنجد سنة تأليف هذا الكتاب تطابق لنظيرتها فى الدور المقبل بعد (٢١٠) سنة ١٥٥٢ فان القاعدة تقتضى أن يكون أولها يوم الاثنين تحقيقا ويوم الثلاثاء شرعيا

فانظر اختلاف الليل والنهار والسنين القمرية والشمسية وتقلب الاحوال كيف كانت منظمة لاخلل فيها - ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت - أى تناقض واختلال - والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم -

﴿ الكلام على الليل والنهار ﴾

(١) النهار هو الزمن الذى يمضى من شروق مركز قرص الشمس من الأفق الحقيقى الى غروبه بالأفق المذكور (٢) تغيرات مدة اليوم - المناطق الأرضية مدة النهار ومدة الليل - تتغير فى المحل الواحد وفى العرض الواحد لتغير الوقت من السنة ولهذه التغيرات نهاية عظمى ونهاية صغرى من ستة أشهر الى صفر كما تقدم فى سورة البقرة ولما كانت مدة الليل والنهار تنقسم الأرض بالنسبة لها الى خمس مناطق ينفصل بعضها عن بعض بالمدارين وبالدائرتين القطبيتين وجب أن نرسمها هنا اذ أغفلنا الرسم فى سورة البقرة فهاك شكلها



شكل ٧

فالمنطقة الاولى المدارية يحدها من الشمال مدار السرطان وعرضه ٢٧ ثانية و٢٣ درجة عرضا شماليا ومن الجنوب مدار الجدى وعرضه ٢٧ ثانية و٢٣ درجة عرضا جنوبيا ويقسمها خط الاستواء الى قسمين متساويين وتسمى المنطقة الحارة أو المدارية

والمنطقة الثانية المنطقة المعتدلة الشمالية وهى المحصورة بين مدار السرطان والدائرة القطبية الشمالية ٣٣ دقيقة و٦٦ درجة الثالثة المنطقة المعتدلة الجنوبية وهى المحصورة بين مدار الجدى والدائرة القطبية الجنوبية ٣٣ دقيقة و٦٦ درجة . الرابعة والخامسة المنطقة المنجمدة الشمالية والمنطقة المنجمدة الجنوبية وهما المحصورتان بين القطبين والدائرتين القطبيتين فالمنطقة الحارة والمنطقتان المعتدلتان فيها جميع النقط الأرضية التى فيها مجموع مدتى النهار والليل ٢٤ ساعة . وأما المنطقتان المنجمدتان فتشتملان على النقط التى فيها مجموع مدتى الليل والنهار يزيد عن ٢٤ ساعة ويبلغ سنة كاملة ويمكنك معرفة ذلك بالتفصيل فى الجدول المذكور فى سورة البقرة

﴿ الكلام على الفصول الفلكية ﴾

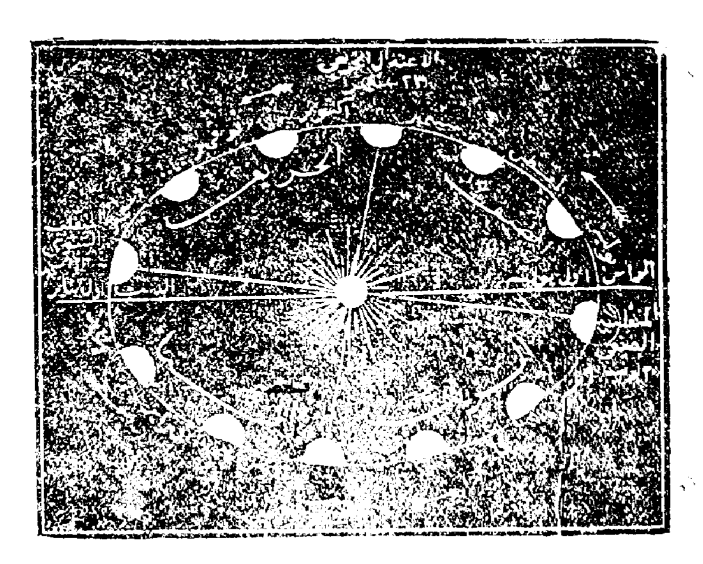
تنقسم السنة الى أربعة فصول يحدها الاعتدالان والمنقلبان وهى الربيع ويبتدئ من الاعتدال الربيعى وينتهى بالمنقلب الصيفى والصيف ويبتدئ من المنقلب الصيفى وينتهى بالاعتدال الخريفى والخريف ويبتدئ من الاعتدال الخريفى وينتهى بالمنقلب الشتوى والشتاء ويبتدئ من المنقلب الشتوى وينتهى بالاعتدال الربيعى

﴿ هذه أوائل الفصول على وجه التقريب وهى تختلف من سنة الى أخرى اختلافا يسيرا جدا ﴾

أول فصل الربيع ١٩ مارس ـ أول فصل الصيف ٢٠ يونيه ـ أول فصل الخريف ٢٢ سبتمبر أول فصل الشتاء ٢٠ ديسمبر

مدة الربيع تقريبا ٢٠ ساعة و١٩ دقيقة ٩٢ يوم ـ مدة الصيف تقريبا ٨ ساعات و٤٤ دقيقة ٩٣ يوم ـ مدة الخريف تقريبا ١٨ ساعة و٩ دقائق ٨٩ يوم ـ مدة الشتاء تقريبا ٤٨ دقيقة ٨٩ يوم

أنظر هذا الشكل تعرف به انتقال الأرض حول الشمس وترتيب الفصول بالنسبة لبعضها



شكل ٨

فى بعض أرقام أوائل الفصول فى هذا الرسم ما يخالف ما تقدم ذلك لأنها تختلف من سنة الى سنة فى حدود ضيقة جدا كما قدمنا

أيها الذكى تأمل فيما ذكرته لك من علم الفلك ان عادة الناس غالبا أن يقرؤا فى الآيات القرآنية الخاصة بالأحكام وهى قليلة جدا اختلاف الأئمة رضى الله عنهم فى المسائل ثم اذا ذكروها يقولون وتفصيل هذه المسائل فى كتب الفقه فيحيلون قارئ التفسير على كتب الفقه ولقد أحسنوا لأن التفسير للاجمال لا لدرس الفروع ، ومن العجب أن لا تكون العناية موجهة بهمة أشد الا الى علم الفقه وهذا هو الخطأ العظيم والداهية القاصمة التى حلت بالامم الاسلامية فمن أين جاء هذا الخطب للاسلام اللهم ان كل العلوم مطلوبة فهى جميعها فرض كفاية وان العلوم التى يظهر بها آثار جمال الله وحكمه لا غنى للناس عنها بل تركها أضر بأمة الاسلام فلماذا لا يذكر الاجمال لجميع العلوم فى التفسير ويحال القارئ على كتب تلك العلوم فيقال فى قوله تعالى - ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب -

أنظر ماهنا وارجع الى التفصيل فى علم الفلك الذى هو من فروض الكفاية فى علوم الدين وانه يجب أن تقوم حكومات الاسلام بتخصيص طائفة لهذا العلم واحضار جميع الآلات والمراصد لهم حتى يرجع المجد القديم وحتى نقوم بواجبنا فى هذا العلم كما نفعل ذلك فى سائر العلوم لا فى الفقه وحده فان القرآن قد شوق الى علوم الفلك والطبيعة تشويقا كثيرا بآيات كثيرة

﴿ نبذة فى عجائب الأرض ﴾

ها أنت ذا اطلعت على بعض الجمل فى حساب السنين وكيف كانت لها مقادير محصورة بجداول منظمة والقاعدة التى ذكرناها فى أوائلها تنطبق على كل زمان وان كانت تقريبية

فها أنا ذا أذكر لك نبذة لطيفة من عجائب الارض التى لا تتناهى وأقتصر على مادة لا يعبأ بها الناس لأنها مبذولة لهم فى كل مكان يأكلها الغنى والفقير والعالم والجاهل والفاسق والصالح كلهم يأكلون ولا يعلمون ويضعونها فى طعامهم وهم لا يدرسون فكأن الناس فى هذا العالم مغمورون فى الالغاز محبوسون فى الاقفاص أو يأكلون وهم مغمضون وكأننا فى هذه الارض نيام وكأن جمال هذه العوالم لا يظهر لنا الا اذا فارقنا هذه الحياة ولعل الامم الاسلامية ستستيقظ لذلك قريبا فيرون النور ويشاهدون الكتاب المسطور فى رق هذا العالم المنشور ويدركون سر ما يأكلون وما يشربون وهم غافلون لعمرى لم يحوجنا الله للطعام ولا للشراب ولا للباس الا ليوقظنا الى ما حولنا فنعلمه والا فالله يرزق الدود بلا نصب ولا تعب ألكرامته ولا متهاننا كلا بل الله كرم الانسان وتكريمه أن يطلع على عجائب هذه الدنيا وهو خلق جهولا فلا بد له من وازع يزعه وقاهر يقهره ومسيطر يجبره وما ذلك الا أن تكثر حاجاته

ومطالبه فيستحث الركاب للطلب فبينما هو يجد ملء البطن طعاما وشرابا اذا هو قد ملأ عقله من عجائب الحكمة وبدائع الخلقة

لهذا خلقك الله أيها الذكى والا فبالله قل لى فكر فى نفسك مافائدة وجودنا وأى فارقة بين الحيوان والانسان كلاهما يأكل وأحدهما موفر الغذاء والآخر كتب عليه الجد والنصب لماذا هذا كله ذلك لعناية الله بالانسان ولما كان المسلمون معرضين عن هذا الجمال فى القرون الاخيرة فمن عناية الله بهم وحبه لهم وأنه يريد أن يرقيهم سريعا أرسل الفرنجة علينا لماذا ح ليوقظونا فاننا تركنا مواهبنا فاذا كانت أغذية الحيوان موفرة أكثر من أغذية الانسان وكان ذلك عناية بالانسان ورحمة به ليتعلم فهكذا تكون الارزاء المسلطة على أمم الشرق ومنهم المسلمون من الامم الفرنجية لم تكن الا للعناية بهم ليوقظهم الله حتى يتأملوا فى كل شئ فيعلموا أنهم مغمورون فى وسط النور والجمال وهم لا يعلمون • أتدرى ماهى المادة التى أنبأتك بها هى

﴿ ملح الطعام ﴾

أناقلت لك اننا نأكله وقلت لك اننا لانعرف مافيه من الحكمة والجمال والعلم والبهجة والنور • هذه المادة تسمى فى علم الكيمياء (كلورور الصوديوم) وقد يضعها الطبيب فى مذكرته بهذا الاسم فهل تدرى مامعنى (كلورور الصوديوم) وبما كنت قرأته فى المدارس ولكن قارىء هذا العلم يمر عليه مرورا كثر المسلمين على آيات القرآن لاينظر الى الجمال الذى ستراه • سمى الملح بذلك لأنه مركب من عنصرين الكلور والصوديوم أما الكلور فهو جسم غازى لونه أصفر مخضر أثقل من الهواء يؤثر تأثيرا كبيرا فى أعضاء التنفس فيحدث سعالا وتهييجا فى الاغشية المخاطية واذا استمر تأثيره أحدث الموت

وأما الصوديوم فهو فلز لين ذو لمعان فضى اذا ألقيته فى الماء اصطهر فيه وتحرك بعضه على بعض فوق سطح الماء وينتهى بفرقعة واذا ألقيته فى الماء المسخن فان حرارة الصوديوم تحدث التهابا فى الايدروجين فيلتهب لهبا أصفر

هذان العنصران هما اللذان تركب منهما الملح فاحدهما يحدث أثرا فى الرئة وما والاها وينتهى بالموت وثانيهما يلتهب فى الماء فهذان الجوهران المزعجان هما نفس الملح الذى نأكله وهذا الملح قسمان قسم فى ماء البحار بنسب مختلفة ويستخرج بالتصعيد فى الملاحات المعروفة كما فى الاسكندرية ورشيد ودمياط والبرلس بمصر فيترك ماء البحر فى حوض مدة الى أن يروق ثم ينقل لغيره ويرسب الملح فيرفع ويجف

وقسم هو الملح الجبلى فيستخرج من أماكنه كما تستخرج الاحجار وتارة يستخرج بتوجيه المياه فى دهاليز متسعة مدة حتى يؤثر الماء فى كتلة الملح ثم تنقل بواسطة آلات الى قدور من الصاج وتصعد فيها وهذا الملح هو الذى قصدنا أن نبحث فى عجائبه انه قد يكون ملونا بالصفرة أو السمرة بسبب مواد غريبة ضارة واذن لايعرض للبيع الا بعد تبلوره وخلوصه من المواد الغريبة اتدرى ماعجائبه التى شوقتك اليها ذلك انه يكون عبارة عن أجسام صغيرة مكعبة وهذه المكعبات باجتماعها والتصاق بعضها ببعض تريك هرما مجوفا بديع النظام فانظر كيف كانت تلك الاجسام الصغيرة مكعبة وكيف بنى بعضها على بعض فاصبحت هرما ولم تكن هذه قاعدة مطردة فيه وهل هذا وأمثاله هو الذى علم المصريين بناء الهرم الاكبر حتى جعلوه أصلا للمكاييل المصرية والموازين وجعلوه على نمط الدائرة الفلكية واستخرجوا منه الذراع البلدى والرطل والاردب كما ستقرؤه فى سورة الرحمن عند قوله تعالى ـ والسماء رفعها ووضع الميزان ـ ثم أى حكمة جعلت اجتماع هذين الجسمين الضارين بالانسان نافعا للانسان محدثا أجمل بنيان وأبدع نظام وأجمل أشكال ذلك كله فى الملح الذى نأكله أفلست ترى هذا عجيبا وهذه صورة الشكل المذكور الهرمى


شكل ٩

وسترى فى سورة الشعراء ان شاء الله صورة الزهرة مرسومة وكيف كانت باختلاف أوضاعها وأشكالها قد استخرج منها العلماء رتب النباتات كلها البالغة مئات الألوف مع اننا نتمتع بمنظرها وبرائحتها ولا علم لنا بأنها مفتاح علوم النبات فسترى هناك ان شاء الله العجب العجاب وبعضه يأتى فى سورة الأنعام انتهى الكلام على اللطيفة الأولى

﴿ اللطيفة الثانية ـ ربنا ماخلقت هذا باطلا ﴾

هذه الآية ليس يدرك حقائقها إلا من اطلع على علم الطبيعة وعلم الفلك ـ ولكن أكثر الناس لايعلمون ـ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن عقولهم معرضون ـ

ولكن لأقص عليك من العجائب الدالة على النظام جلا بهية ولعمرى ان هذا العلم غاية علم العلماء ونهاية حكمة الحكماء ولكن لست أتعمق فيما صعب من العلوم الطبيعية بل أقص عليك نبأ ماتراه حولك أو تعرفه فى نفسك

(١) أنت ترى الدجاج والبط والأوز ترى هذه الحيوانات داجنة فى بيوتنا وترى الدجاجة والبطة والاوزة يبضن ويفقسن ويربين أولادهن وترى الديك ونظائره فى الأوز والبط لايتعرف بأبنائه ولا يتحنن عليهن ولا يبالى بتعليمهن فلم هذا ذلك لأن الفرخ اذا خرج من البيض تراه كامل الزغب وموفور القوة يجرى وراء أمه كأنه كان حيا بالأمس (٢) وترى على نقيض ذلك الحمام يساعد ذكره أنثاه فى تربية صغارهما فلم حصل التباين بين ذكرانهما ما السبب ـ السبب ان أفراخ الحمام ضعاف ليس عليهن وقاية تقيهن فان أفراخه تخرج ليس عليها ريش ثم يخرج بعد أيام فلزم معاونة الذكر للانثى فتعجب (٣) وترى ان النمل والنحل اللذين جرت العادة انهما لايموتان زمن الشتاء ألهما أن يجمعا القوت ويدخراه (٤) فأما الزنابير الحمر والسود والصفر والجراد وأضرابهما فانها لما جرت العادة انها لاتعيش سنة كاملة لم تلهم الجمع والادخار بل تركت وشأنها فان الزنابير بأنواعها الثلاثة زمن الشتاء تسكن فى أماكن نائمة بلا أكل ولاشرب حتى اذا جاء فصل الربيع استيقظت من مراقدها وقامت مرة أخرى فأما الجراد فانها بعد وضع بيضها فى أرض صالحة له تتقاذفها حوادث الجو والبرد ولو اذاع الحر فيموت ويبقى البيض فى الأرض مدفونا حتى اذا جاء فصل الربيع فقس فى الوقت المعلوم وقام كما كان أبواه (٥) ترى الجمجمة الانسانية مركبة من سبعة عظام فواحدة هى قاعدة وهى عظم صلب يحمل سائر العظام وأربعة جدران أحدها عظم الجبهة ممتد من طرف القحف الى آخر الحاجب والثانى مقابله مؤخرها وهو أصلب الجدران والآخران يمنة ويسرة وفيهما الأذنان وعلى هذه الأربع القحف كالسقف للدماغ وهو عظمان وشكل كل منهما مستدير وقد اتصلت هذه العظام بالشؤون جمع شأن تشبه لسان المنشار دخل بعضها فى بعض وأحد الشؤون تراه فى مقدم الرأس عند الجبهة ويسمى الاكليلى لأنه فى موضع الاكليل من الرأس والآخر عند نقرة القفا وهو شبيه بالدال فى الخط العربى والثالث فى وسط الرأس من الدال الى الاكليل ويسمى المستقيم فتكون صورته هكذا)ـــ(وانما تعددت هذه العظام فى الرأس لأنها لو كانت عظما واحدا لكانت اذا حل بأحدها كسر اختل العضو بتمامه فأما الآن فان الخلل لايجاوز موضعه فيمكن علاجه

(٦) أقول أعد نظرا فى العين المذكورة أول السورة وتأمل فى ان الزجاج الذى يستعمله الناس وينتفعون به انما هو مواد رملية قد مزجت بالقلى وبالمغنيسيا حتى صارت شفافة تستقبل ضوء الشمس ولاتحجبه فهى كالهواء فالهواء الجوى شفاف والماء شفاف والزجاج شفاف والماس شفاف وهذه كلها لاتحجب ضوء الشمس عما وراءها فتعجب كيف كان الرمل المذكور أومايقوم مقامه قد دخل فى النبات والحب وسائر ماناً كله بطرق مختلفة فتناولته أعضاؤنا الهاضمة وسرى فى العروق والشرايين وأخذت القوى التى فى داخل أجسامنا تصطفيها وتلتقطها من الدم الجارى فى العروق وتؤديها الى العين فتضع فى معملها ماهو كالزجاج الشفاف منوعا بأنواع ثلاثة تقدمت لنشاكل الهواء الحامل للضوء الجارى من الكواكب الحامل للصور والأشباح والألوان الداخل من غطاء العين المسمى بالقرنية التى هى كالقرن الأبيض وهى شفافة كالهواء ثم يدخل على تلك الصور الزجاجية الثلاثة فتعجب معى وقل لى رعاك الله كيف اتفق ان كان الهواء شفافا والقرنية والبيضية والجليدية والزجاجية وكيف انتخبت المادة الزجاجية لتوضع فى العين وكيف

جعلت مناسبة الوضع والحجم لرسم الصور فيها بحيث تكون الجليدية محدبة لوجهين لترسم الصور عليها موافقة لما تقرر فى علم المناظر قديما وفى علم الطبيعة حديثا هل كان كله اتفاقا . أما أنا فأقول كلا فهل أنت معى وأنا لم أخاطبك الآن الا بالعقل والفهم ووكلت الفهم لعقلك . أولست ترى ان هذا الوضع لم يكن عبثا وباطلا ولغوا بل كل ذلك قد عرفت انه لنتيجة ظاهرة واضحة ولكن أكثر الناس من العامة وصغار أهل العلم ينظرون ولا ينظرون ويقرؤن وهم نائمون من هنا فلتفهم ـ ربنا ما خلقت هذا باطلا ـ ومن هنا يكون علم التوحيد ومن هنا يفهم القرآن فأما ماعدا ذلك فانما يتسلى به الجاهلون ويفرح به الغافلون (٧) تأمل فى فقرات الظهر وادرس فقرة واحدة منها فانك تجد عليها أربعة أشيا غشاء غضروفيا يغشيها وشوكة نابتة من خلفها وجناحين من يمينها ويسارها أما الغشاء الغضروفى (أى الذى هو أصلب من اللحم وأسهل من العظم) فلأجل أن لا تنكسر بسهولة عند مصادمتها وأما الشوكة من خلفها فلتكون وقاية لها بارزة كالمجن تتلقى بها الصدمات فلا تصل لها وأما الجناحان فانهما مدخل لرؤس الأضلاع وتقى الفقرات من جوانبها كما ان الشوكة تقيها من ورائها

أفلا يكفيك دراسة الفقرة ودراسة العين حتى تعرف ـ ربنا ما خلقت هذا باطلا ـ هذا هو مقصود القرآن ولهذا أنزل القرآن وبهذا يرتقى المسلمون وبهذا يكونون خير أمة أخرجت للناس انتهى الكلام على اللطيفة الثانية

﴿ اللطيفة الثالثة ﴾

(فى قوله تعالى سبحانك فقنا عذاب النار وقوله تعالى ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد)

(وقوله تعالى انك من تدخل النار فقد أخزيته)

لقد كان من عادتى أن أجعل القول محاورة فى الأمور العظيمة العلمية بينى وبين صديق تسهيلا للفهم ولكنى الآن أخالف هذه الطريقة لأحادثك أنت

اريد أن أحادثك دقائق على شريطة أن تخلى بينى وبين قلبك لأجاذبه الحديث فدع عنك كل ما علق به من الآراء التى سمعتها بلا روية ولا تحقيق وارفع الحجب المسدولة والاستار المنصوبة لئلا تحول بينى وبين صفاء قلبك ونور عقلك المرسل من الله اليك فهو هو الذى سيفهم ما أقول الآن فهل فهمت صفاء العين وجمالها فى النبذة المتقدمة فاعلم أن عقلك أصفى من عينك العين جسم والنفس غير جسم فهى أجل وأقبل للعلم لعلك الآن استعددت لسماع قولى فأقول

خذ العلم مما حولك فى دارك وجارك وأهل بلدتك خذه مما تراه وتسمعه كل يوم وانظر أيها الذكى ألست ترى ان فى الناس حياء يوليهم ذلة وانكسارا وخجلا عند وقوع الامر الذى يورثهم الفضيحة والعار ولأضرب لك مثلا بالملوك والممالك أولا والسوقة ثانيا والفتيات ثالثا

(١) لقد تعلم أن الدول اذا اهين سفيرها فى ممالك أخرى أو تاجر من تجارها تعلن الحرب على المهينين لها وقد يكون ذلك خرابا عليها ودمارا لماذا لأنها تأبى أن تفتضح ويقال قد مست بالسوء فرضيت ولست أطيل فى الامثال على ذلك فأنت تراه وتسمعه كل يوم (٢) ولقد تعلم أن فى دول الغرب عادات المبارزة وماهى المبارزة أن يذم زيد عمرا فيقول عمرو لزيد لماذا أهنتنى لابد أن تبارزنى فيتفقان على موعد وكل منهما يحمل سلاحا مثل ما مع الآخر والطبيب حاضر والشهود واقفون ويتبارزان بالسلاح ومتى جرح أحدهما أومات قضى الامر وانتهى بسلام فان جرح ولم يمت قام وصافح عدوه الذى كان ينازله وحفظ شرفه واذا لم يبارز أصبح مهينا عند قومه فلا يجالسه أصدقاؤه ولا يحييه الاولياء ولا يأبه له أحد بل يصبح طريدا شريدا ذليلا ولذلك يفضل أن يبارز الذى أهانه ولو كان ذلك الآخر أقوى جسما وأقدر على استعمال السلاح منه لأنه يرى أن الموت أو الجرح أفضل من الذلة والعار وانكسار النفس (٣) وهكذا نرى أن الفتيات فى غالب الامم اذا أشعرن بخلل فى عرضهن أو زلل فى سيرتهن اعتراهن من الحزن والألم ما لا آخر له فيقدمن أنفسهن للموت قائلات الموت خير من العار وتأمل قول السيدة مريم ـ ياليتنى مت قبل هذا

وكنت نسياً منسيا — وهكذا ترى هذا النوع الانسانى يسعى كله فى كل زمان للشرف ورفعة النفس بين الناس هذا مغروس فى الفطر مكتوب فى الطبيعة الانسانية بحروف بارزة

أفلست ترى من هذا وغيره ان الناس جميعا يحافظون على الشرف ويخافون الفضيحة وكشف السرّ واذاعة السوء عنهم وان النفوس الشريفة تأبى الذلة وتقدّم أجسامها قربانا لذلك المقام الجليل مقام الشرف والكرامة . وان الناس أكثرهم يقولون كما تقول العامة فى بلادنا (النار ولا العار) فأحط الناس منزلة كأرفعهم مقاما متفقون فى تلك الفطرة ولقد سمعنا أن التعايشى لما قدم على بلدة من السودان وقد أمر الرجال أن يتنحوا عن نسائهم ليدخل بعسكره الى النساء فيه وكان جمعه عظيما ورجال البلدة قليل فماذا فعلوا تقدم الرجال للحرب فماتوا أما الفتيات الأبكار فانهن أخذن بأيدى بعضهن صفا واحدا ونزلن فى نهر النيل ومتن غرقا وهن فى ذلك أشرف من (كيلو بتره) التى قالت بيدى لا بيدهم لأن كيلو بتره قالت ذلك لما علمت أن عدوّها سيقتلها ولو علمت أنه سيستحييها ويتعشقها كالقائد الذى كان معها من الرومانيين لرضيت وقبلت أما هؤلاء الفتيات السودانيات فانهن علمن أن العدوّ سيستحييهن ويقضى على عفتهن ففضلن الموت ولست أطيل فى ذلك فالشرق أقوى حبا للشهامة وأكثر غراما بالشرف من الغرب وكلهم على الشرف والكرامة متفقون

أفلست من هذا تفهم معنى هذه الآية ولماذا ذكرت هنا بعد خلق السموات والارض والتفكر فيهما وأى مناسبة بين نار جهنم وبين الخزى والفضيحة والعار انه يبدو للمتأمل أول وهلة أن لا مناسبة بينهما

فاصغ لما أقول السمع وخل الحجب والاستار مزاحة عن القلب دقائق حتى تفهم الآية من هذه الطبائع الانسانية ان الامور التى تشين الناس ترجع الى أمور يستنكرها العرف كهتك الاعراض ونهب الاموال وما أشبه ذلك وهذه معروفة مقررة بين الناس ومع ذلك تختلف باختلاف الازمنة والامكنة والامم فانك ترى الافرنجى يجالس امرأة غيره فى غيبته وحضوره ولا يجد زوجها فى نفسه حرجا من ذلك لأن العادة هى التى أطلقته ولو فعل شرقى فى بعض الاحوال كذلك لعدّ ذلك ماسا بكرامته وهكذا عادة الرقص مع الاجانب يستنكرها الشرقى ولا يستنكرها الغربى وهكذا وانما الامر الذى يتعالى على جميع العادات وتألفه جميع النفوس انما هو العلم فقل لى رعاك الله أى امرئ لا يحب العلم أولست ترى ان المتوحش والغبى وأجهل الجهلاء يفرحون بالخرافات والاحاديث عن العفاريت والجان ويغنون بالاقوال ذات المعانى المناسبة لأذواقهم أولست ترى ان كل أمة عندها دين يقرؤه جهالهم فيفرحون بذكر أشياخهم وأنبيائهم وبكل خرافة يوردها الشيوخ الجاهلون وقد نسبوها لذلك الدين ظلما وزورا والناس بصدق الاحاديث وكذبها فرحون مستبشرون فهل ترى الناس اتفقوا على شئ أكثر من اتفاقهم على استحسان العلم انهم فى عاداتهم مختلفون — وكل حزب بما لديهم فرحون — أما القوى العاقلة فانها تحب المعارف والصور التى ترسم فى أذهانهم حقا أو باطلا كما أن المعدة تهوى الطعام ضارّه ونافعه والعالم بقانون الصحة يجتنب الضارّ وهكذا المتعلمون المفكرون يستمعون القول فيتبعون أحسنه كما اجتنب أولئك الاغذية الضارّة فأكلوا أصحها

أفلست ترى بعد هذا البيان ان الخزى والفضيحة والعار فى جهل الناس أشدّ وأقوى من انكشاف العورات الجسمية وظهور السوآت الطبيعية لأن السوآت الطبيعية كالاعراض قد اختلفت فيها الاوساط وتنوّعت أما العلم والمعرفة فقد اتفقت عليها الفطر ولم نر أحدا من الناس الا وهو يأنف أن ينسب الى الجهل ويود أن ينسب للعلم وكأن الفطر قد غرس فيها ان النفوس تموت بجهلها كما تموت الاجسام بمنع أغذيتها وكما ان المعدة اذا خلت من الطعام مدّة معلومة فنيت الأجسام هكذا النفس الانسانية اذا خلت من أغذيتها بالصور التى تحل فيها فانها تكون ميتة لا محالة معدودة فى ذوى الجهالة فتلخص من هذا (١) ان الناس مفطورون على الشرف والحرص على العرض والكرامة (٢) الملوك والدول يقدّمون أموالهم ورجالهم لحفظ الكرامة (٣) الرجال والنساء فى الأمم الغربية يفضلون الموت والجرح على العار (٤) أهل الشرق وأخسهم درجة وأدناهم مرتبة أشدّ حرصا على العرض والشرف من بعض

أهل الغرب (٥) العادات مختلفات فى ذلك وتكون المحافظة على مقتضى الاصطلاح فى البيئة (٦) كل امرئ يحب العلم أى الصور التى ترسم فى الذهن حقا أو باطلا وهى كالاغذية الضارة والنافعة تقبلها المعدة (٧) ان كل امرئ يأنف من الجهل اذا نسب اليه (٨) ان العلم أقوى ما يرغبه الناس فالفضيحة فى الجهل أشد من الفضيحة فى سواه لاتفاق الفطر على استحسان العلم بين الناس (٩) فلنفهم اذن قوله تعالى هنا ـ فقنا عذاب النار ـ وقوله تعالى ـ انك من تدخل النار فقد أخزيته ـ وفى آية أخرى يقول ـ عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ـ

فالخزى من معانيه الافتضاح وهذا المعنى هو الشائع اليوم على ألسنة أبناء العرب فى مصر وفى سائر البلاد العربية وهو ظاهر فى قوله تعالى ـ من قبل أن نذل ونخزى ـ فالخزى راجع للعار والافتضاح وهتك السر وهذا هو الذل الاعظم لاسيما فى العرف العربى وقد كان العرب أشد الأمم خوفا من الخزى وهو مشهور ولا يزال معروفا اليوم فالرجل يقدم للضيف فى البادية كل ما يملك وأبناؤه جياع فلا نطيل به

فهاهنا لما ذكر الله تعالى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار وان الناس يجب أن يذكروا الله فى كل الاحوال ليجتلوا من صنعته صور العلم والحكمة ويتفكروا فى خلق السموات والأرض فاذا قرؤا منه مثل ما كتبنا اليوم من عالم الارض والسماء فى هذه الآيات يخجلون من نفوسهم ويحزنون ويبكون على عقولهم التى ضيعوها ويقولون ربنا لقد ظهر لنا مما درسناه أن هذا العالم منظم ولم نجد فيما درسناه مخلوقا عبثا حتى ان الفقرة التى هى احدى فقرات ظهورنا وجدنا فيها كل شوكة لحكمة وكل جناح لحكمة وغطاؤها لحكمة والنخاع الذى هو داخلها لحكمة فانه يغذيها وله حكم أخرى فوا خجلتنا أنعيش فى الدنيا ونموت ونحن نجهل ما بين أيدينا وأى عار أعظم من أن نعيش ونحن نجهل أنفسنا وأجسامنا وما حولنا من نبات وحيوان وما فوقنا من سموات وما تحتنا من أرضين

﴿ سبحانك ﴾ أنت يا الله منزه عن هذه المادة رفيع فانك تعلم كل شئ وملابستنا للمادة وشهواتها سترت العلم عنا فغاب ولم نعرف بدائع الحكم فأنر بصائرنا وعرفنا أنفسنا وما حولنا فان الجهل خزى وعار والنار المشهورة أسهل لأنها تطلع على الاجسام أما نار الجهل فانها (تطلع على الأفئدة) والمطلعة على الأفئدة دائمة وخزيها دائم فهذه هى النار العميقة الداخلة فى أنفسنا وهذه هى النار التى يحس بها الانسان اذا أخرج من فى القبور وحصل ما فى الصدور وهى التى بها تحترق الأفئدة يوم تبلى السرائر ويوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا وهى التى يلتهب القلب بها يوم يقال اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا فقل لى أيها الذكى كيف يكون الانسان اذ ذاك وقد انخلع من جسمه وحرم مما كان عنده من المجد والمنصب والمال وخلى بينه وبين عقله ونظر فرأى الناس حوله قد طاروا فى العوالم بأجنحة العلم وربض فى مكان جاثما كالجماد بجهله فقوم كالطائر فى الجو بالجناح وآخرون كالحجارة والحديد بما نابهم من الاثم وما انتابهم من الجهل وما حل بهم من الخزى بالصور التى اطلع عليها اخوانهم وقد كانت أعينهم فى الدنيا عنها فى غطاء من عيوب اقترفوها فى حياتهم وسيئات اجترموها ومن جهالة وغفلة وعمى عن جمال العالم وعجائب الخلقة وبدائع الجسم الانسانى هذا هو معنى قوله تعالى ـ فقنا عذاب النار ـ وقوله تعالى ـ انك من تدخل النار فقد أخزيته وهذا كما يقول الرجل الشريف لمن ضربه بعصا على رأسه مثلا أمام الناس هذه العصا ألمها أقل من ألم نفسى ومن ضرب بعصا فقد أهين أمام الجمهور والاهانة هى التى أبالى بها ـ ربنا انك من تدخل النار فتحرق جسمه الظاهر فقد فضحته والفضيحة والعار هى العذاب الذى تتحاشاه النفوس وتخشى ما فيه من بؤس فالعذاب اذن عذابان عذاب جسمى وعذاب روحى والثانى أقوى وعليه اجماع المفسرين

ولولا خيفة السآمة من التطويل لبسطت القول فى عذاب جهنم بالنار الجسمية وهل هو منقطع أم أمده لا يزول وما جاء فيه من الأحاديث النبوية وآراء العلماء وأكابر الحكماء والصوفية وسأرجئ الكلام فيه الى سورة هود عند

ذكر الأشقياء والسعداء وجهنم والجنة فى آخر السورة ان شاء الله وطال الأجل . ولكنى قبل أن أفرغ من هذا المقال أذكر عجيبة من عجائب القرآن هنا ، ذلك انى نقلت عن الامام الغزالى فى كتاب الأرواح ماملخصه ان العذاب بعد الموت ينقسم أقساما ثلاثة الأوّل أن تحس النفس بعد الموت بفراق ما اشتهته من المآكل والملاذ والصيت والشهرة والعزة فتحزن حزنا شديدا وهذا أول عذاب تلقاه وهو فراق المألوف وهو أشدّ من العذاب الجسمى فاذا رأى الانسان جثة أنه قد قسم ماله وأخذت زوجته وحيل بينه و بين مايشتهى فذلك أشدّ من الموت بل هو العذاب الأليم وحيل بينهم و بين مايشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل انهم كانوا فى شك مريب * الثانية انه اذا تطاول الزمن واستقرت النفس بعض الاستقرار نظرت فى أعمالها فترى صورتها قبيحة من الظلم والذنوب التى اجترحتها فى الحياة وهى تعاينها مواجهة فاذا طال الأمد على هذه الفضيحة والعار تبدّى للنفس انها ناقصة العلم والعرفان وأنها تجهل مايجب أن تتحلى بعلمه وترى غيرها قد ارتفع بعلمه الى الدرجات العلى فيحصل لها ألم لايطاق ولسنا الآن فى مقام الرد عليه أو تعضيده ولكنا نقول

تعجب من القرآن كيف ذكر العذاب هنا ثلاث مرات فقيل أوّلا ـ فقنا عذاب النار ـ ثانيا ـ انك من تدخل النار فقد أخزيته ـ ثالثا وهى الأخيرة منها ـ ولاتخزنا يوم القيامة ـ فالعذاب الأوّل جسمى لانه لم يذكر الا النار الجسمية والثانى جسمى وعقلى معا والثالث عذاب نفسى وهو الخزى الذى هو أشدّ العذاب ويظهر ان مافى الآية بحسب تدرجه بالترتيب أشبه بالخشب اذا أحرق فانه أوّلا يكون الاحتراق مصحوبا بالدخان والدخان أكثر ثم تصير النار أكثر ثم يصير نارا صرفة

فلعل الناس فى أوّل الأمر بعد الموت يكون الاحساس والشعور فيهم بالفضيحة أقل ثم يزيد الاحساس والشعور بها ثم يكون العذاب أقوى لادافع له لاستغراق النفس فى عارها وشؤمها . فيا أيها الذكى اجعل أوّل عملك الاخلاق وتهذيبها وتقوية الجسم بالنظافة والرياضة ثم كملها بالعلوم الشريفة كما رأيت فى سورة آل عمران من الغزوات ثم العلوم

وكان عذاب النار الخالد فى مقابلة ترك تهذيب النفس بالأعمال الظاهرة كمثل حركات الدفاع عن الوطن والحرم وعذاب الخزى الفاضح الذى لم تذكر فيه النار راجع الى العلم الذى أمرنا بالتفكر فيه فكأنه يقال لاتدعوا أجسامكم بلا عمل يقويها كالدفاع والتمارين العسكرية والأعمال الحربية والتهذيبات الخلقية

وايا كم وترك العلوم فانها فضيحة وخزى وعار فى الدنيا والآخرة أما فى الدنيا فان الذين لاعلم عندهم تدوسهم دول الاستعمار فى أوروبا وترسل عليهم شواظا من نار حامية من الطيارات فيصبحون خامدين ان احتراق الأفئدة بالخزى يوم القيامة يلازمه احتراق الجسم بالنار فانك ترى من فوجئ بخبر محزن أوفاوقه معشوقه يتقد قلبه نارا وحزنا والجسم يناله من ذلك نصيب فيقع فى الحمى فالنيران النفسية تتبعها الجسمية والسعادة الروحية تؤثر السرور فى الأبدان وهذا آخر المقال فى تفسير سورة آل عمران .

﴿ تم الجزء الثانى من تفسير الجواهر * ويليه الجزء الثالث وأوّله سورة النساء ﴾

(الخطأ والصواب الواقع في الجزء الثاني من جواهر التفسير)

خطأ	صواب	صفحه	سطر
متصلة	منفصلة	٨	١٢
المعزة	الماعز	٨	٢١
معانى	معان	١٢	٣٢
من مسامها	من مسامها ونجمع كنقط الندى (٣) والذين يجربون المدافع يضغطون الماء فيها	١٨	١٥
والقرحية	والقزحية	٣٣	١
بالقرحية	بالقزحية	٣٣	٢
اللون	اللدن	٣٣	٤
لمن	لن	٣٣	١٥
أوصفت	وضعت	٣٣	١٧
الفيولوجيين	الفسيولوجيين	٣٣	٢٨
البطورية	البللورية	٣٣	٣٣
يزمد	يزهد	٣٥	١٢
لجتها	بجمتها	٣٦	١٨
المعدية	الممتدة	٣٦	٢٩
المثال	المقال	٣٧	١٩
القلم	العلم	٣٩	٣٤
يقضى	يفضى	٤١	٣٠
الكوسوع	الدرسوع	٤٥	١٤
العلامة	العلاقة	٤٧	٣١
لايجعله	الا يجعله	٤٩	٣٢
مفاصيل	مفاصل	٥٢	٢٥
الحى	الحىّ	٥٤	٢٤
وأحرابه	وأحزابه	٥٦	٢٤
الدين المسلم	الدين العام	٦٤	٣١
والأمم المستعمرة	والأمم المستعمرة لمن لا يصلحون للرقّ	٧٦	٩
وفهم الموت قوة	وفهم الموت فوق	٧٦	٢٧
ويحمد	ويحمدون	٨٠	٢٢
ويقوه	وثبتوه	٨٥	١٢
الصوفية	والصوفية	٩١	٣٣
مرمزا	مرموزا	٩١	٣٥
أبدالانسان	يد الانسان	١٠٥	٣٥

خطأ	صواب	صفحه	سطر
ليبون	لوبون	١٠٩	٢٠
الطبيعة وتهذيبه	والطبيعةتهذيبه	١٠٩	٣١
اذ والعمل يصبح	والعمل اذ يصبح	١١٢	٧
الأجوان	الأرجوان	١١٦	٢٨
٢٣٠٧	٢٢٠٧	١٢٢	٧
لاسيا وأن	لاسيا أن	١٣٧	١٨
نسى	نسبي	١٤١	١٧
سيقى	سيفى	١٤٣	٦
انهزام	انهزم	١٤٣	٢٠
يدعوا	يدعو	١٤٩	١٨
مايعلمه	مايعمله	١٦١	١٥
اليها	الينا	١٦١	١٧
نارهن أبردنا	نارنا أبردمن	١٦٢	١٦
أوفيها	وفيها	١٧٣	٩
تصوع	تصوغ	١٧٥	١٣
خربيه	خربيه	١٨٧	١٢

فهرست

(الجزء الثاني من تفسير الجواهر)

صفحه

صفحه

صفحه

صفحه

صفحه

﴿ تمت الفهرست ﴾